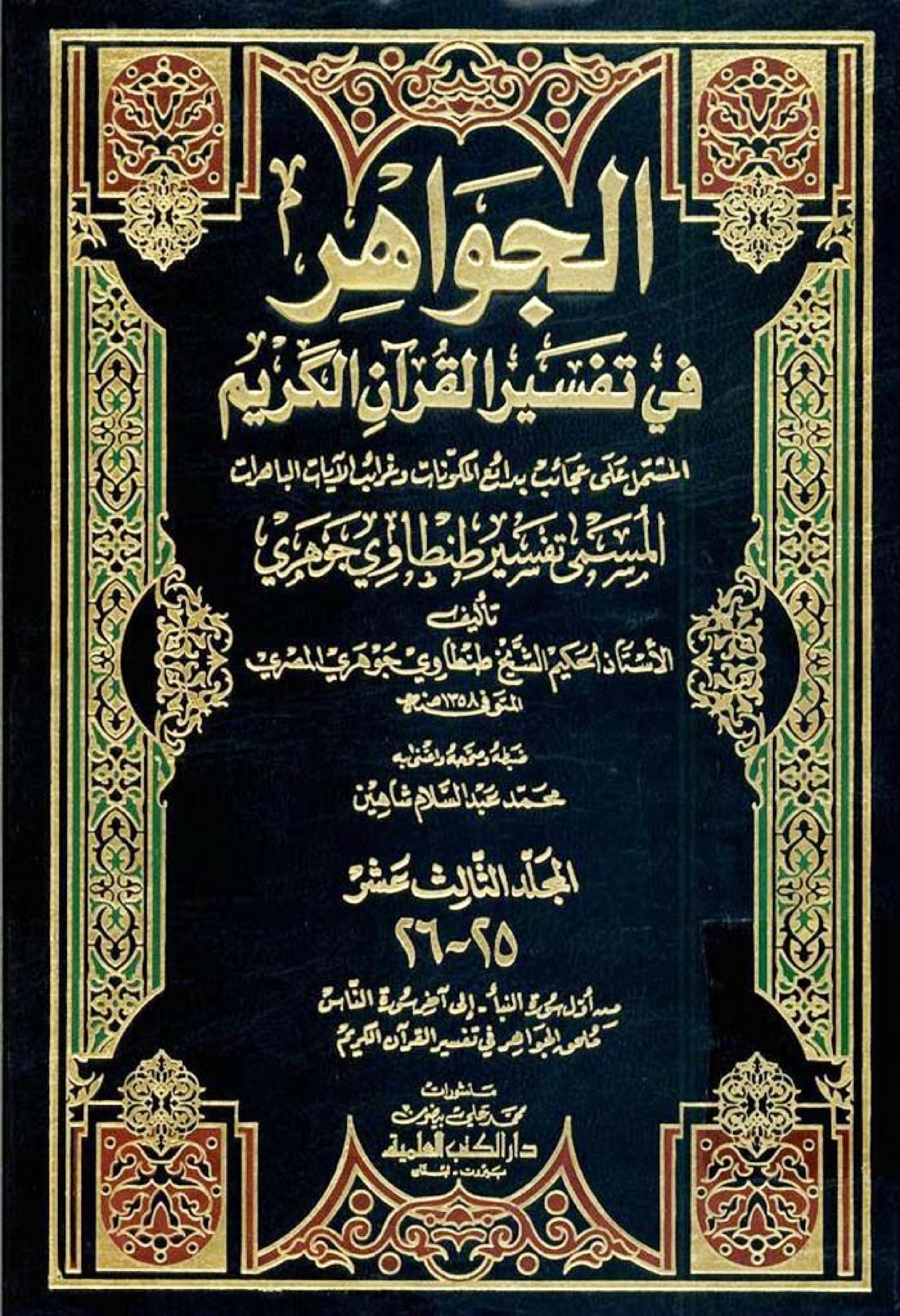

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثالث عشر
٢٥-٢٦
من أول سورة النبأ - إلى آخر سورة الناس
ملحق الجواهر في تفسير القرآن الكريم
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٢٥ - ٢٦

المحتوى:

من أول سورة النبأ - إلى آخر سورة الناس

ملحق الجواهر في تفسير القرآن الكريم

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
[النحل: ٤٤]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النبأ

هي مكية

آياتها ٤٠، نزلت بعد سورة المعارج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

تفسير البسملة في سورة النبأ
وما يتبعها من كل بسملة في أول السور بعدها وهي تبلغ ٣٧ سورة

إن الرحمات قد كررت ٧٤ مرة في سور أكثرها نزلت بمكة وأقلها بالمدينة، وهذه المدنية أربع سور: «البينة»، و«الزلزلة»، و«النصر»، و«الناس». هذه الرحمات متنزلات في ٣٧ درساً يتخللها بدائع الجمال وروائع الحكم وبواهر المبدعات.

سورة النبأ: وأي إبداع أبهر من البروج والنجوم ومفاجآت الظلام ليلاً، والأنوار فجراً، ووضوحها ضحى، أمم نامت قروناً وقروناً، تحيط بها المشرقات، وتزجي لها الأضواء يعقبها الإظلام، تشرق الشمس ويضيء القمر وتنير الكواكب، وهؤلاء لا يتذكرون، وقصارى أمرهم أن يفكروا في المطر والعشب النابت عقب المطر، أما النظر في نفس هذه الدنيا ونظامها وإبداعها وزوالها وبقاء النفوس بعد خرابها؛ فهذا لا يقام له وزن عندهم، ولا هم فيه يفكرون، هنالك قرعت أسماعهم هذه السور بمكة، فسمعوا في سورة «النبأ» وصف الجبال وثباتها، والأمم الإنسانية ونظام ذكورها وإناثها، وكيف كان انسلاخ النور من الجو مرخياً عليهم دثاراً، وانبثاقه لهم مؤذناً بانطلاقهم إلى معاشهم، وكيف كانت هذه القبة الزرقاء قوية لا توهنها الدهور، مزينة بالسراج المضيء لهم وهم عن التفكر فيه غافلون، وهذا السراج يزجي من لدنه حرارة تثير سحاباً ماطراً فيكون نبات وجنات وأعناب، ثم إن هذه كلها تبيد من الوجود ولا يبقى إلا النفوس الإنسانية لتحاسب على النقير والقطمير، وليس لديها إلا النعيم أو الجحيم، وينصب الصراط والميزان، ويحاسب المرء في موقف جنوده صفوف من الملائكة الكرام، وقاضيه رب الأرباب، فهاهنا رحمات تجلت في إبداع هذه المحدثات، ورحمات تجلت في التفكير فيها وفي الاعتبار بزوالها ورجوع النفوس إلى الرحمن الرحيم.

سورة النازعـــات: وبعد سورة «النبأ» جاءت «النازعات» كأنها مكملة لها ومتممة لمقاصدها وموضحة لما جاء فيها، ففي أولها وصف النفوس السائرات إلى عالم الأرواح بعد ذكرها مجملة في آخر السورة قبلها، ويتبع ذلك ضرب مثل للنفوس الطيبة والنفوس الخبيثة، وأن الأولى مسخرات لهداية الثانية، ثم وصف السماوات وإظلامها وإضاءتها والجبال والماء وهكذا، ثم تدمير ذلك كله كما تقدم في سورة «النبأ».

سورة عبس: وسورة «عبس» تذكر الإنسان بأنه من نطفة قذرة ارتقت فصارت إنساناً يعيش ويموت ويبعث، ومع ذلك يمسي ويصبح غافلاً عن طعامه، وكيف نزل الغيث ونبت الزرع فكان جنات وأعناباً، ثم يفنى ذلك كله وتبقى النفوس تحاسب، فمنها البررة ومنها الفجرة.

التكوير: أما الرحمات في سورة «التكوير» فإنها ترجع إلى إيضاح بعض ما تقدم بأسلوب خاص، مثل بيان كيفية تدمير هذه العوالم، وكيف يذهب نور الشمس، وتنقض الكواكب، وتزول الجبال، ويهمل أعز الأموال عند الناس لشدة الذهول، وهنالك تحشر الناس الخ.

الانفطـار: وفي سورة «الانفطار» تجلت الرحمات بهيئة التذكير بانفطار السماء وانتثار الكواكب وخروج الناس من القبور، وكيف غفل الناس عن ذلك الموقف الرهيب، فهل ينسون

صورهم المعدلة وحفظها طول أمد الحياة! أكان ذلك كله رمية من غير رام! أم ذلك نظام وحكم وإبداع.

المطففين: وإذا كان هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقوم لا بد له من الحساب والعقاب فكيف يطفف المكيال والميزان؟ أيظن أنه عن عمله غير مسؤول، إن السيئات تتراكم على القلوب فتحجب الإنسان عن خالقه، فأما النفوس الشريفة فإنها تكون في مقام القرب والجمال.

الانشقاق: وزاد ذلك إيضاحاً بما جاء في سورة «الانشقاق» من أن الإنسان يسعى حثيثاً في الحياة، ولكن نتيجة ذلك كله أنه يلاقي ربه فيوفيه حسابه.

البروج: وفي سورة «البروج» تذكير الناس بمن يؤذون المؤمنين والمؤمنات، وكيف يتعدى قوم ممن أنعم الله عليهم بالحياة والصحة فيسيئون إلى من أطاعوا خالقهم! ذلك غاية الخسران.

الطارق: إن الرحمة هنا تجلت في السماء ونجومها، والنفوس وحفظها، وكيف تصير النطفة إنساناً تاماً إلا بحفظ وتمكين وحراسة من كل غائلة، إن العوالم المحيطة بالإنسان كلها نعم عليه، فهل يتركه سدى؟ كلا، بل يحاسب على النقير والقطمير.

الأعلى: أما الرحمات في سورة «الأعلى» فإنها خصصت بدقة الخلق والتسوية في الإنسان والحيوان، وكيف كان النظام البديع لهذه العوالم، إن وراء هذه العوالم نهاية، وهي إما النعيم وإما الجحيم.

الغاشية: وفي سورة «الغاشية» تفصيل لعذاب الآخرة ونعيمها، ثم إتباع ذلك بما هو من مقدماته من سماء مبنية، وأرض مدحوة الخ.

الفجر: وفي سورة «الفجر» إعظام لأمر الظلام والضياء، وحساب الشروق والغروب تذكيراً للناس بنعم هذه العوالم المحيطة بهم، وكيف أهلك مبدع هذه العجائب تلك الأمم التي لم تتذكر ولم تفكر في ذلك الجمال والإبداع.

البلد: وفي سورة «البلد» أعظم الله أمر الإنسان وبعض مساكنه فجعلها قسماً له. ومن عجب أن يكون هذا الإنسان محل العناية والتكريم ثم ينسى طائفة منه نعم أعضائه وحواسه، ونعم إلهامه بالخواطر المختلفات اللاتي جعلت تدريباً له وتهذيباً وامتحاناً لينظر أفي الخير يصرفها فينفع الناس، أم في الشر فيكون بخيلاً مناعاً للخير.

الشمس: وفي سورة «الشمس» تجلت رحمتان واضحتان: الأولى: رحمة الدنيا بجمال شمسها وقمرها وظلام ليلها الذي جعل للناس لباساً، وبهجة سمائها، وأنوار الأرواح المشرقات في أجسامها مشاكلة لإشراق الكواكب في أبراجها. الثانية: رحمة الآخرة بأن كل نفس من هذه النفوس ترجع إلى عالمها الذي يليق لها.

** إن الطيور على أشكالها تقع **

الليل: وفي سورة «الليل» رحمات هذه العوالم المشرقة المحيطة بالإنسان والتذكير بتنوع النفوس الإنسانية وانتهائها إلى نهاياتها من نعيم أو جحيم.

الضحى: وفي سورة «الضحى» تذكير الناس بأن من أبدع هذا المشرقات فكان لها نور مشرق وقت الضحى هو نفسه الذي ينعم على نفوس مستعدة للرقي فيرفعها إلى العلا، ولكن هي أنفسها عليها أن تتذكر نعم ربها فتكون منعمة على غيرها قائمة بالخلافة الإنسانية في الأمم الأرضية.

الانشراح: وفي سورة «الانشراح» تذكير الناس بأن الذي أعطى الشموس والأقمار أنوارها من فيض رحمته هو نفسه الذي يمنح النفوس انشراحاً ليسوقها إلى هداية غيرها، فالنور الحسي من فيضه والنور المعنوي من رحمته، وليس العسر بدائم، وإذا لم يدم ظلام الليل فهل يدوم عسر الإنسان.

التين: وفي سورة «التين» أعظم الله أمر النبات والجبال ليذكر الناس بالبحث فيها ودراستها، وكيف لا يدرسها الإنسان. ألم يكن أحسن من كل حيوان في الأرض، ألم يجمع نماذج من هذه العوالم كلها. إذن هو قوّم أحسن تقويم. ومع ذلك ضل كثير منه فصاروا في أسفل سافلين، فالغنم بالغرم، ارتفاع عظيم، وسقوط مشين.

العلق: وفي سورة «العلق» تبيان لما هو موجز في السورة قبلها، فإذا خلق الإنسان في أحسن تقويم فمن نتائج ذلك أنه أعطي القوى التي بها يكتب ويقرأ العلوم، وإذا كان كثير منه ردوا أسفل سافلين فمنهم الذي ينهى عبداً إذا صلى الخ.

القدر: وفي سورة «القدر» أن لله على عباده أوقاتاً يتجلى فيها، فتكون الليلة فيها خيراً من آلاف الليالي، لأن المقصود من هذه العوالم كلها إنّما هو تربية هذا الإنسان. فالساعة التي تتجلى فيها له الهداية خير من كل زمان، لا سيما إذا كان ذلك التجلي على العبد نعمة عليه وعلى غيره من الناس بأن يكون ذلك من الأنبياء، فذلك خير عظيم، لأن النعمة المتعدية لا حد لمداها، وإشراقها خير من إشراق الشموس.

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

البينة: وفي سورة «البينة» إنذار للأمم من كتابيين ومشركين أن ينهجوا منهجاً واحداً، ويسلكوا طريقاً معبّداً ـ بتشديد الباء ـ بإخلاص، ليرجعوا أمة واحدة كما كان الناس أمة واحدة في أقدم أزمان التاريخ.

الزلزلة: وفي سورة «الزلزلة» تبيان العدل وصدق الميزان عند الحساب يوم القيامة.

العاديات: وفي سورة «العاديات» صورة واضحة للجهاد وتخليص النفوس من جهلها.

القارعة: وفي سورة «القارعة» تبيان البعث وانتشار الناس كما ينتشر الجراد.

التكاثر: وفي سورة «التكاثر» بيان غفلة الناس في الحياة الدنيا أوقعتهم في التباهي والتفاخر بما يملكون ولا يزالون كذلك حتى تضمهم المقابر.

العصر: وفي سورة «العصر» بيان أن الإنسان لا سعادة له إلا بأمرين: عمل الصالحات، والسعي في هداية الغير والتعاون في ذلك والصبر عليه.

الهمزة: ولا جرم أن خلق الرجل الهماز اللماز الذي يضيع أوقاته في تمزيق أعراض الناس مخالف كل المخالفة لمن يسعى في هدايتهم وتكميلهم.

الفيل: ويشبه هذا الفريق من الناس أصحاب الفيل الذين أرادوا سوءاً بمكان يعبد الله فيه، فهؤلاء فضلاً عن عقابهم في الآخرة عوقبوا في الدنيا.

قريش: وفي سورة «قريش» تذكير الناس باتساع الأرض وأنها جعلت مختلفة البقاع لاختلاف حاجات الناس صيفاً وشتاء ربيعاً وخريفاً، أفلا يتذكرون ربهم الذي أنعم عليهم بذلك ويعبدونه.

الماعون: وهلا فكروا أيضاً في إفاضة الخير على البائسين كما أفاض الله الخير عليهم، هنا أمران جديران بالتحضيض: حضور القلب في الصلوات، وإطعام المساكين. وبعبارة أخرى: حب الله، وحب الناس.

الكوثر: وهذان قد تجليا تجلياً تاماً في نفوس الأنبياء. ولذلك أمرنا خاتمهم صلى الله عليه وسلم أن يصلي حباً لربه، وأن يطعم الفقراء حباً للناس.

الكافرون: ولا يتم هذان الأمران إلا بالتباعد عن آراء الكافرين، فإنهم لا يعبدون ربهم ولا ينفعون الناس.

النصر: ولا جرم أن من اتصف بهذين الوصفين نهاية أمره النصر. فالأنبياء منصورون بما أحبوا ربهم ونفعوا الناس، ولذلك أمرنا خاتم الأنبياء أن يسبح ويحمد ربه متى جاءه النصر المحقق لكل من نال هاتين النعمتين.

المسد: ولا ريب أن الأشياء تمتاز بأضدادها. فإذا نصرنا هؤلاء الصالحين فإننا نخذل المفسدين كأبي لهب وامرأته.

الإخلاص: هذا الدين تطهير الإنسانية من الشرك والأوهام كنسبة الولد لله.

الفلق والناس: وليس للناس من ملجأ إذا وقعوا في الوساوس الشيطانية التي تزيغهم عن الإخلاص والصدق إلا أن يستعيذوا بربهم من شر ما خلق ومن شر الوساوس، فهو الأول والآخر، وهو رب الجنة ورب الناس، وهم جميعاً في قبضته، وهو بهم محيط.

انتهى صباح يوم الجمعة ٢٩ شوال سنة ١٣٥١هـ، الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣م بشارع زين العابدين حي السيدة زينب بمصر القاهرة، والحمد لله رب العالمين.

وإذا فرغنا من الكلام على بسملة كل سورة، فلنشرع في تقسيم سورة «النبأ» وتفسيرها، فنقول ومن الله التوفيق:

اعلم أن هذه السورة أربعة مقاصد:

المقصد الأول: تفخيم أمر البعث.

المقصد الثاني: زجر الجهال وتخويفهم.

المقصد الثالث: تعليم الأذكياء بطريق العوالم المشاهدة استدلالاً على البعث.

المقصد الرابع: تفصيل أحوال المبعوثين من عذاب ونعيم.

ولأقدم مقدمات قبل الشروع في تفسير هذه المقاصد عليها يتوقف معرفتها، فأقول مستعيناً بالله:

المقدمة الأولى: اعلم أن أهم مقاصد الناس في هذه الدنيا هي الحياة، وأعظم المصائب: العدم والموت، فطلب الغنى والثروة والمناصب والجاه والملك كل ذلك من أجل الحياة والخوف من الفقر والذل والمرض للمحافظة على الحياة، فالحياة والوجود أصل جميع الأحوال البشرية، وعليه يكون أهم الأنباء النبأ القائل: إننا بعد موتنا نحيا. هذا أعظم الأنباء عند جميع نوع الإنسان. انتهت المقدمة الأولى.

المقدمة الثانية: إن الناس في الدنيا كثيراً ما يعذبون ولا يعلمون أنهم معذبون، فترى الأمراض والفقر والحرب والعداوات بينهم. كل ذلك عذاب، وترى حوادث الجو، والحر والبرد، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، كل ذلك عذاب، ومن عجب أن الناس قد يعذبون بأعظم النعم عندهم، حتى إن الزوجة والولد والمال تكون عذاباً في الدنيا، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]. وأنت ترى أيها القارئ الذكي أن فساد البر حاصل بالحروب والجيوش البرية، والأمراض والقحط، والطيارات المرسلات الصواعق لنوع الإنسان، وترى الغواصات في البحر، والسفن والأساطيل الماخرات المشحونات بالمدافع لهدم البلاد والحصون، وكذلك تقطيع الأسلاك البرقية الممتدة في البحر. فهذا بعض الفساد في البر والبحر ليذوق الناس بعض أعمالهم، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة: ٢١] والعذاب الأدنى عذاب الدنيا، وقال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[فصلت: ١٦]، وقال في آية أخرى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٥٥]. فانظر كيف جعل الولد عذاباً والمال عذاباً، وهما من أجلّ النعم في الدنيا، وكما يكون العذاب في الدنيا قبل الآخرة؛ هكذا يكون الثواب فيها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[العنكبوت: ٢٧]. انتهت المقدمة الثانية.

المقدمة الثالثة: اعلم أن تربية الحيوان لولده في الأحوال المعروفة للناس على أربعة أقسام:

الأول: ما لا عناية له بولده البتة، كالناموس فإنه يبيض ما لا يحصى من البيض ويذره في الماء والمستنقعات فيفسد أكثره بالعوامل الطبيعية، وما بقي يملأ السهل والجبل. الثاني: ما له به قليل من عناية، كالجراد فإنه يحفظ بيضه في مواضع تناسبه في أرض طية التربة رخوة مناسبة لتفريخ بيضها الذي لا تعلم أنها تراه قط، ثم تنزل هنالك وتحفر بأرجلها ومخالبها وتدخل أذنابها في تلك على بعد مخصوص وتدفنه ثم تموت، فهذه الحفرة مهد لبيضها يخرج منه طائر متى جاء فصل الربيع من العام القابل، ومثلها فراش القطن بقسميه من آكل الورق وآكل اللوز. الثالث: ما تكون له عناية أهم من السابقة، كالنحل والنمل، وكالطيور من الحمام والغربان وأمثالها، فإنها كلها تحافظ على بيضها في الخلايا وبيوت النمل وما يبنيه الطير من عش. القسم الرابع: الحيوانات اللابنة كالغزلان والجاموس والقرد والإنسان، فهذه تحمل أولادها في الرحم مدة، ثم ينزل تام الخلقة، ولا ريب أن هذا أكمل تربية من الطيور والنمل مثلاً. وفوق ذلك لا تزال ترضعه حتى يقوى على الاستقلال بأمر الحياة، فتبين أن

للجراد مهداً في الأرض، وللنمل مهداً في بيته، وكذلك النحل في خليته والطائر في عشه، والغزال في كناسه، والإنسان فيما يمهده لصبيه. انتهت المقدمة الثالثة.

المقدمة الرابعة: قد تبين مما تقدم أن الحي كلما كان أرقى كان أرعى لولده وأكثر محافظة عليه، وكلما كان أدنى كان أقل مراعاة، وأنت ترى أن الناموس لا يهتم بأمر نسله، وأرقى منه الجراد وأعلى منهما النمل والنحل، وفوق هؤلاء الغربان والحمام، ثم الغزال والفرس والقرد، وترى الإنسان لا يقف عند حد الإرضاع كالأنعام، فهو لا يزال يعلم ولده بعد المهد أنواع العلوم والمعارف على مقدار طاقته. انتهت المقدمة الرابعة.

المقدمة الخامسة: إن كل مهد ليس يقصد إلا إلى حين، ومتى تم المقصود منه نبذ وهجر، وربما هدم، كما نرى عش الطائر وكناس الغزال ومهد الصبي. فإن هذه المهود كلها تنبذ بعد استكمال القوة. اهـ.

إذا فهمت هذه المقدمات فهمت هذه السورة الشريفة، وإذن نشرع في ذكر المقاصد الأربعة منها، فنقول ومن الله التوفيق:

المقصد الأول: تفخيم أمر البعث

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتحدثون فيما بينهم. فمنهم من صدق ومنهم من كذب. وذكر على سبيل الاستفهام تعظيماً لشأنه، كما تقول: زيد وما زيد، تعظيماً لأمره، كما فهمت في المقدمة الأولى. وقد حذفت ألف «ما» في الجر هنا قياساً، وقد أجاب الله فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦]. انتهى الكلام على المقصد الأول.

المقصد الثاني: زجر الجهال وتخويفهم

قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فقوله: «كلا». أي: ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبأ العظيم إنه باطل، سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق لا دافع له. واقع لا ريب فيه. وكرر هذا الردع والتهديد فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، فالردع الأول لعذاب الدنيا مما يحس به أهل الكسل والغفلة والجهل والظلم كما تقدم في المقدمة الثانية، والردع الثاني عذاب الآخرة، وكأن الثاني تابع للأول كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٧٢] انتهى الكلام على المقصد الثاني.

المقصد الثالث

تنوير أهل العقول بالبراهين الساطعة من المشاهدات الطبيعية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾، الله جعل الأرض مهاداً، أي: فراشاً، فرشها لنا حتى سكناها، وفي قراءة «مهداً»، أي: إنها لنا كالمهد للصبي، وهو مصدر سمي به ما يمهد لينوّم عليه. وفي آية أخرى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[طه: ٥٣]، وبعض أهل العلم يجعل المهاد جمع مهد، فإن كان مفرداً فهو الفراش الذي هو أعم من المهد، وجعل سبحانه الجبال كالأوتاد تثبيتاً لها، فهي في الأرض كالعظام لجسم الإنسان، وهي التي تحفظ الماء في باطنها وتخزنه فيجري ينابيع، وهي التي تصد الرياح الحاملات السحاب فتحجزه فيمطر على تلك البطاح التي أمام الجبال. وجعل الناس ذكوراً وإناثاً ليتم الائتلاف، ويدوم النوع ويخلف الأبناء الآباء لبقاء الذرية. ثم إنه أنام الذكور والإناث على ذلك المهد ليلاً وأيقظهم نهاراً لطلب المعاش فجعل النوم راحة للأبدان والليل غطاء يسترهم بظلمته، ولما كان كل بيت لا بد له من سقف خلق لهم سبعة سقوف وهي السماوات السبع الشداد القوية، وقد تقدم الكلام على كونها سبعاً، وعلى حقيقتها في سورة «البقرة» فيما كتبناه هناك، وأن العدد لا مفهوم له، وجعل في ذلك السقف الشمس وهي السراج المتلألئ الوقاد، وجعلها مزجية للحرارة التي هي السبب في المعصرات، وهي السحب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ماء ثجاجاً، أي: صباباً، ليخرج الله به ثلاثة أقسام: الحب كالقمح والشعير والذرة، والنبات كالحشيش والكلأ، والشجر كالنخل والزيتون فالأول قوله: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا ﴾، والثاني قوله: ﴿ وَنَبَاتًا ﴾، والثالث قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ ملتف بعضها ببعض، جمع لف كجذع.

يقول الله: ألم نجعل لكم الأرض مهداً ونحفظها بالجبال، ونريح أبدانكم ليلاً، ونصرفكم في المعاش نهاراً، ونظلكم بسقف ونملؤه نوراً، وننزل عليكم مطراً من فوقكم، وتأكلون خبزاً وفاكهة مما ينبت في أرضكم، فحياتكم جميعاً تنقضي في هذا المهد. ولكل مرب مهد يناسبه، وتربيتي لكم قضت أن تكون هذه الدنيا كلها مهداً لكم فيها تتربون، ثم تخرجون منها خروج الطائر من عشه، والولد من مهده، لتكونوا في حال أكمل.

وإذا كنتم ترون دودة القطن واللوز تصبحان في حالة سبات وسكون في «الشرنقة» الفيلجة، وهي التي تكون فيها الدودة نائمة مكورة تقريباً، ثم تخرج من تلك الحال بعد حين طائراً بجناحين يسمى أبا دقيق، فإن كان من دود الورق فلونه بني، وإن كان من دود اللوز فلونه الخضرة، أفلا تكونون بعد خروجكم من مهدي وهي الأرض في حال أتم كحال الحشرات والطيور، وكحال أولادكم بعد نبذ المهد، وليست مراعاتي لكم قاصرة على مدة وجودكم في هذه الأرض التي هي مهدكم، بل أنا أحفظكم بعد الموت وأراقبكم وأتولى حفظكم، إن حياة الإنسان كلها في المهد، ولا بد من الخروج منه لما هو أكمل، فيطير الإنسان من جسمه كما يطير الطائر من عشه إذا كبر، وقد لحظ هذا المعنى كثير من أهل الديانات حتى صوروا صور الطيور فوق الميت للإشارة إلى أن روحه قد خرجت من مهدها خروج الطائر من العش الذي تربى فيه وخروج الولد من مهده. ولما كان المهد يستغنى عنه في حال الارتقاء أردفه بما يأتي في المقصد الرابع.

المقصد الرابع: تفصيل أحوال المبعوثين من عذاب ونعيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

يقول الله: أي عبادي لقد علمتم أن مهدي الذي ربيتكم فيه كما تربون أولادكم في المهود هي الأرض، ومدة حياتكم هي التربية فيه. ونسبة عظمتي إليكم كنسبة مهدي إلى مهدكم، فلأوالي التربية لأرواحكم بعد مهدكم، ولا أذركم تتخبطون. بل أنا الدائم الحي القيوم. فلا أفتر عن التربية كما تفترون لضعفكم إذا كبر أبناؤكم واستغنوا عنكم، لذلك أهدم مهدكم بيدي، وأجمعكم لدي يوم الفصل في قضاياكم، لأني أجعلكم في عالم البرزخ كما ربيتكم في الدنيا على النهج الذي عليه نشأتم كما تختلف الناس أحوالهم في الأرحام وفي المهود واختلاف الطيور والأنعام، فمنها الجاري على الأرض، والسابح في الماء، والطائر في الهواء، فهذا كأنه يوم الفصل في أمرها عند مغادرة مهودها في عالمكم الذي أنتم فيه، وهكذا سأفصل في قضاياكم بعد مفارقة المهد العام على هذا النمط، وأضع الناس في مراتبهم، فمنهم المعذبون، ومنهم المنعمون، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ على مقتضى التربية السابقة ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ﴾ في علم الله وفي حكمه ﴿مِيقَٰتًا﴾ حداً تؤقت به الدنيا وتنتهي عنده. ثم بينه بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ جمع صورة، أي: يوم نفخ الأرواح في أجسادها ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ جماعات من القبور إلى المحشر. وذلك بعد أن أهدم مهدكم السابق إذا دكت الأرض دكاً ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: شقت ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: صارت من كثرة شقوقها كأن الكل أبواب ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الهواء كالهباء ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ مثل سراب يراه الناظرون على هيئة الجبال وهي ليست جبالاً لتفتت أجزائها وتفرقها.

ولما فرغ من الكلام على هدم المهد والخروج منه أخذ يصف حال الذين تربوا فيه واختلافهم على طريق التقريب للعقول، لأن أحوال الآخرة لا تعرف إلا بضرب الأمثال من المحسوسات. فابتدأ بذكر أدنى الطبقات، وهم أهل جهنم كما ابتدأ بخلق أدنى المخلوقات في الدنيا: المعدن فالنبات

فالحيوان فالإنسان، فقال: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مكاناً رصد يرصد فيه الطاغون لئلا يفلتوا منها، والمؤمنون ليحرسوا من فيحها، ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ مرجعاً ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ دهوراً متتابعة ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي: غير ذائقين نوماً ولا شراباً يدفع عنهم العطش ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ أي: لكن يشربون ماء حاراً يحرق ما يأتي عليه، أو ماء يسيل من صديدهم.

ولما كان الله عز وجل لا يعمل إلا بنظام تام كما رأينا في تربيته لأنواع الناميات والحيوانات في الدنيا وأن النتيجة على مقدار المقدمات؛ أخذ يبين الأسباب فقال: جازيناهم بذلك ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ موافقاً. ولما كان هذا مجملاً شرع يبينه بأن الإنسان كماله بقوتين فيه، وهما القوة النظرية، والقوة العملية فالقوة النظرية تكمل بالعلوم والمعارف والنظر الصحيح والرأي التام، والقوة العملية تكون بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، فأشار للثانية بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أي: لا يخافون حساباً. وذلك دعاهم إلى ارتكاب القبائح والذنوب، فكانت أعمالهم جائرة، وتجارتهم خاسرة، وأشار إلى الأولى بقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ أي: تكذيباً، فنسوا أنفسهم فلم يحلوها بالعلوم وذلك كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾[الشعراء: ٨٣] إشارة إلى القوة النظرية، ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الشعراء: ٨٣] إشارة إلى القوة العملية. فهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا لم يحلوها بالعلوم والدين الصحيح، ونحن لسنا عنهم غافلين، إنا أحصينا كل شيء عندنا في علمنا القديم ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ أي: أثبتناه في كتاب، فأنا عالم بجميع ما فعلوه من خير وشر، وأنا أجازيهم على مقتضاه، فتسبب عن تكذيبهم بالآيات أن يقال لهم: ذوقوا عذاب النار، وذلك قوله: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾.

ولما فرغ من الكلام على أهل النار أخذ يذكر أهل الجنة، فقال على سبيل التمثيل بما يشاهد في الدنيا واصفاً أحوالهم بأن لهم فوزاً فيتمتعون بالحدائق والبساتين والأعناب فيها، وبالنساء النواهد اللاتي قد تكعبت ثديهن، المستويات في السن. وهي مع ذلك خالية مما ينغص بعض الأنفس من لغو الحديث وباطل الكلام، وليس هناك خصومات ولا عداوات حتى يكذب بعضهم بعضاً، كأهل الدنيا الذين قد يسكنون القصور ويحظون بالحور ويتمتعون بالبساتين وهم متخاصمون متشاكسون فيكذب بعضهم بعضاً، ولم يكن ذلك جزافاً ولا بغير حساب، بل جازاهم ربك جزاء موافقاً، وأعطاهم عطاء حساباً، أي: كافياً وافياً بقدر أعمالهم كما يرى في تربية الحيوان والنبات أنه يكون طيبه وخبيثه على حسب المقدمات. فهذا قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب أي: جواري نواهد قد تكعبت ثديهن ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السن، ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ مملوءة ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ لَغْوًا ﴾ باطلاً من الكلام ﴿ وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ تكذيباً ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾. ولما كان ذلك كله مقتضى التربية، وأن النتائج فيها تتبع المقدمات، وكل ما نشاهده في الدنيا على هذا النسق، فحيوان البحر وحيوان البر وطير الهواء والأنعام لا تخرج عما رسم لها في تربيتها الأولى، وكل أم يتبعها ولدها، والعدل شامل والنظام تام؛ أعقبه بذكر التربية التي تشتمل على أمرين: الرغبة بالرحمة، والرهبة بالعذاب، كما في أم الكتاب، إذ نحمد الله على أنه مربي العالمين برحمته

الواسعة وبأنه مالك يوم الجزاء فقال: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مربي السماوات والأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ومما بينهما عالم الإنسان. فكانت تربيته على ذلك المنهج من الرحمة تارة والغضب تارة أخرى كما ذكر هنا من الجنة لقوم والنار لآخرين على مقتضى المقدمات. ولما كانت التربية تجمع الرغبة والرهبة أعقبها بذكر الرحمة للرغبة. بقوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ للرهبة على وفق ما تقدم من الجنة بالأولى والنار بالثانية. فتعجب من حسن النظام في قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي: لا يملكون خطابه والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب كما في أحوال أهل الدنيا يربيهم كما يشاء ما كان لهم الخيرة من أمرهم، وقد أخذ يقرر ما تقدم فقال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ الروح: أرواح بني آدم في قول ابن عباس: فتقف أرواح بني آدم صفاً والملائكة صفاً آخر، ولا يتكلم أحد منهم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، ومعلوم أن أحوال الناس بعد الموت تبع أحوالهم في الدنيا كما ذكرناه غير مرة في أحوال تربية الخلائق في الدنيا. فإذن ليس يؤذن لأحد في الكلام يوم القيامة إلا من أذن له في الدنيا، والمأذون لهم في الدنيا هم الذين أشرقت الأرض بعلومهم وأنوارهم وحكمهم وآدابهم. فأهل القول الصواب في الدنيا هم أهله في الآخرة، والمقربون في الدنيا بالفضائل هم المقربون في الآخرة، لأن صوابهم في الدنيا لازمهم في الآخرة. فالصواب في القول والعمل وحب الناس هو الملحق للناس بالملأ الأعلى، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ أي: مرجعاً. وعبر بالرب لما علمت أن المقام مقام تربية برحمة تارة وغضب أخرى. ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من خير وشر كما في قوله: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩] فيكشف للمرء جميع أعماله فيراها ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ ﴾ حين يطلع على صورة أعماله الخبيثة: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ في الدنيا فلم أخلق. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

إن العذاب والنعيم في الحياة الدنيا قسمان: أحدهما مادي، والآخر معنوي. فالعذاب والنعيم الماديان يعرفهما الخاصة والعامة من طعام لذيذ، وكأس دهاق، وجنات وأعناب، ومثل الطعام الكريه والشراب الحار والصديد وما شاكل ذلك. أما النعيم المعنوي فيرجع إلى الكرامة وتكون بثلاثة أشياء: المنزلة عند جميع الناس لا سيما الملوك والعظماء، والعلم والصيت الحسن، وأما العذاب المعنوي فيرجع إلى ضد هذه الثلاثة وهي الجهل والخمول والضعة. والعذاب والنعيم المعنويان يحس بهما سائر الناس من علماء وجهلاء. ولكن من الناس من كمنا فيه. وهم مشغول عنهما بالأمور الحسية.

وتأمل أيها القارئ الذكي في أحوالك العادية تجد أنك كل يوم تألم وتفرح لأمور خلت من المادة، على أن التحقيق أن المدار على إدراك النفس. فمن احترقت يده وهو به شلل لم يحس بالألم. وترى الأطباء ينومون المريض تنويماً مغناطيسياً. فربما استيقظ وأخذ يقطع في جسمه معهم كأنه أجنبي. وقد يكون في وسط الولدان والحور والجنات في الدنيا. وقد سمع بثلم شرفه وانتهاك حرمته وعرضه فلا يحس بنعيم ولا سعادة ولا هناء. فثبت أن المدار في النعيم واللذات على النفوس والعقول. وإذا

ثبت ذلك لك ثبوتاً علمياً عقلياً فارجع إلى هذه الآيات وتأمل معي فيها. وتعجب معي كل العجب. انظر كيف يذكر أولاً عذاب النار للكافرين، ثم يتبعه بالجنات والكواعب الأتراب إلى آخره للمؤمنين إجمالاً ثم يلخص ما تقدم كله بعبارة ترجع إلى ما قلناه في هذا المقام. ألا تراه يقول: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.

فعبر عن التربية التي أوضحناها في أول السورة عند ذكر المهد، وبين آثارها من العذاب والعقاب بقوله: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ يرجع إلى العذاب المعنوي، وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ يرجع إلى النعيم المعنوي. فإن الزلفى من الملوك بالعلم والصيت والمنزلة الرفيعة فيمكن مخاطبتهم. والجهل والضعة وأمثالها توجب الاحتقار فلا يخاطبون، وهذا هو النعيم والعذاب اللذان كمنا في غرائز البشر ولكن أكثرهم لا يكادون يعبرون عنه إلا الحكماء والعلماء.

ثم تأمل كيف ذكر الروح المعبر بها عن أرواح الناس عند ابن عباس، وكيف جعلها مع الملائكة مصطفين، ثم كيف كان العذاب المعنوي والحسي مذكورين معاً، فالأول بعد الإذن بالخطاب، والثاني بالإنذار بالعذاب، أليس ذلك ليدلنا أن نفكر ونعقل الحقائق، وقوله بعد ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ متمم لما تقدم، ثم قوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ عبر بلفظ «رب» ولم يقل: إلى جنة، للإشارة إلى أن أقصى ما يطلبه الحكماء والعقلاء إنما يكون المنزلة والعلم والزلفى وأمثالها، وكأن الأرواح بعد الموت تكون درجات لا تكاد تعد كما نرى في الدنيا عالم المعدن وعالم النبات وعالم الحيوان كلها متمتعة بالغذاء الجسمي، ولكن النوع الإنساني هو المتمكن من المعرفة، وبعضهم أصبح حكيماً أو نبياً، وربما أمكنه الوصول إلى ربه والخطاب معه، وبقية الناس والحيوان والنبات محجوبة عنه، هكذا الأرواح هناك تكون درجات كدرجات هذه المخلوقات في الدنيا، والأعلى قليل في الدارين فقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ إشارة إلى هذا الفريق النابغ في الآخرة، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ يرجع إلى ما ذكرناه، فإن الروح إذا نظرت أعمالها رأي العين واطلعت على قبحها تمنت الهلاك، وهذا عذاب ملازم للنفس لا يفارقها، ونظيره في الدنيا من يرتكب العار ويثلم شرفه، فربما يتمنى الموت فلا يناله، والقرآن يقول: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٣] خيفة العار عند قومها، هكذا هنا لما رأى الكافر جهله فاضحاً وأعماله خاسرة. وأصبح محقراً عند من كان يعرفه في الدنيا بالفضيلة يقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.

محصل هذا المقام أن لكل حيوان بائض أو لابن مدة في أول حياته كالمهد عند الإنسان يتربى فيها ثم يتركه عند استغنائه عنه، والإنسان جعلت الدنيا كمهد له من حيث إن الله يربيه في عوالم كثيرة أي: ينقله من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩] أي: حالاً بعد حال، فتكون حاله في الدنيا كالمهد للصبي وينتقل منها إلى غيرها حافظاً لمزاياه الأولية. ويرتقي على

مقتضاها من جمال وقبح وصحة وضعف، فأقل الحيوان مهداً الجراد، إذا سمن الجراد أيام الرعي في الربيع تحفظ بيضها في مواضع بأرض طيبة رخوة الحفر مناسبة لتفريخ بيضها، وتحفر بأرجلها ومخالبها وتدخل أذنابها في تلك الحفرة، وتطرح فيها بيضها وتدفنه، ثم تطير وتعيش أياماً، ثم تموت بأسباب عادية من ريح أو مطر أو برد، فتأكلها الطيور ويبقى ذلك البيض في ذلك التراب، فإذا رجع فصل الربيع صار ذلك البيض المدفون دوداً على وجه الأرض، ثم تكون لها أجنحة ثم تطير.

والزنابير الصفر والحمر والسود تبني منازل وبيوتاً في الشقوق والحيطان وبين أغصان الشجر مثل النحل وتبيض وتحضن وتفرخ، ويكون قوتها يوماً بيوم. وفي الشتاء تذهب إلى المواضع الخفية وتنام فيها، وتبقى جثتها يابسة مدة الشتاء ثم تحيا متى جاء فصل الربيع.

والنحل والنمل كل منهما يعتني ببيضه حتى يفرخ، فهذه الحشرات المذكورة أرقى نفوساً من الجراد لعنايتها بولدها في المهد، ويقرب من الجراد دودة ورق القطن. ودودة اللوز، ودودة الحرير. فكل هذه تعتني ببيضها. فتعيش على ورق القطن أو التوت أو لوز القطن كما شاهدتها مرسومة على خرائط حكومتنا المصرية لتعليم الفلاحين، فترى دودة القطن تظهر في شهر مايو، فيبحث الذكر على الأنثى حتى إذا تم اللقاح وحملت مات الذكر حالاً. وعند تمام الحمل تضع الأنثى بيضها في أوائل شهر يونيو على ورق القطن قبل نزول النقطة وتضعه بانتظام. ثم تنتف ريشها وتغطيه فيكتسب لوناً مصفراً ترابياً فوق الورق. ثم تموت. وبعد ١٠ أيام يخرج الدود ويأكل في الورق سبعة أيام. وما لم يمت منه نسج نسجاً حريرياً عليه. وهو زيز مقمط، وهو فيما بعد يتحول إلى فراشة. كما تفعل دودة الحرير وتبقى في الأرض إلى العام القابل.

وترى دودة ورق القطن ذات خطوط بنية عريضة مستطيلة على جسمها. وخطوط صفر على طولها غير عريضة. ونسيجها يرى بلون بني. وحشرة اللوز خضراء. وهذه أقرب إلى الجراد. فالنمل والنحل أرقى منهما. والطيور أمدها معلوم في بناء أعشاشها. ثم الحيوانات اللابنة تحفظ أجنتها في الأرحام. فهي أكمل كما هو معلوم. والإنسان يراعي ولده بعد المهد أمداً طويلاً. ولكن الله مهده للإنسان أوسع. وهي الدنيا كلها ورغائبه طول حياته وبعدها إلى ما لا يتناهى، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾

لما كتبت هذا العنوان حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: لقد وعدت في سورة «الملك» أن تشرح ما اقتضته آية: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ

﴿ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الآية: ٣] وذلك للمناسبة بين المقامين، لأنك هناك أبنت أن المادة فيها خلاء، وهذا الخلاء عظيم جداً، فهو فطور، أي: شقوق، وهذه الشقوق لا ترى بأعيننا مهما حدقنا فيها، ولكن ذلك يعرف بالعلم وبالحكمة والمناظير المعظمة، وأبنت أيضاً أن النور المنظور في السماء، وهي الزرقة المعروفة، وجميع الألوان السبعة فيها شقوق وفتوق وفطور تتخللها ولكن لا تراها العيون وقد وعدت أن تشرح هذا المقام هنا بصورته الشمسية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن العلماء في عصرنا الحاضر يقولون: إن الأثير المالئ للعوالم كلها وإن كان غير مادة هو في حكم ثقل المادة آلاف آلاف المرات، ولعل هذا يوضح كون السماوات شداداً، فهذه الشدة هذا معناها بحسب ما وصل إليه العلم، فهل لك أن توضح ذلك؟ فقلت: أما الكلام على السماء وأنها بهذا الوصف فقد تقدم في أول سورة «الصافات» فليرجع إليه من شاء، فهناك ترى أقوال عدد من علماء عصرنا وهم يقولون بذلك. وأن الأثير وإن كان غير مادة هو أثقل منها آلاف المرات، أي: حكمه ذلك، وهو هناك واضح، فأما الإيضاح الذي طلبته، فهاك ما كنت كتبته من قبل سنتين من تاريخ طبع هذه السورة، فهاك نصه:

هل يعلم المسلمون ماذا حصل في العلوم اليوم وأنها قد أوضحت معنى هذه الآية؟ هل يعلم المسلمون أن الأرض والشمس والكواكب والقمر، كل هذه مركبات من عناصر واحدة كالحديد والنحاس والزنك والكلسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأوكسوجين والنيتروجين، هل يعلم المسلمون ذلك؟.

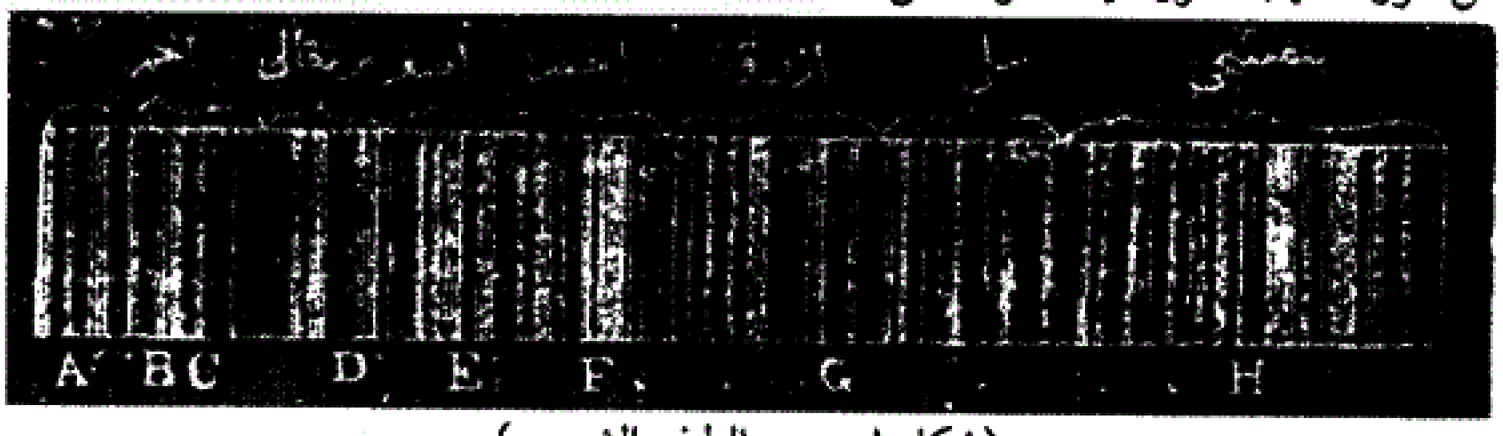
اللهم إليك المشتكى، اللهم أشكو إليك أمة الإسلام النائمة، اللهم إن أرضك وسماواتك قد رجعت إلى عناصر واحدة، وهذا هو معنى قولك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقولك: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[الملك: ٣]، فبين هذه العوالم التي فوقنا المعبرة عنها بالسماوات السبع مطابقة، ومن المطابقة المذكور أن مادتها واحدة، أي: عناصر واحدة تقريباً، لأن ذلك هو خلق الرحمن، والرحمن لرأفته بعباده يقرب لهم الأقصى البعيد، ويجعل ما يقرب دليلاً على البعيد، ويجعل هذه الكواكب دائرات دوائر متشابهة ليسهل حسابها ومركبات تركيباً واحداً تقريباً يسهل فهمها.

لك الحمد اللهم قربت البعيد، وجعلت أبصارنا تدرك الأنوار الواصلة من الكواكب، وأسماعنا تدرك حركات الهواء بالكلام وبالنغمات، وشمنا يدرك ذرات الأجسام الطائرات من خلالها بطريق الشم، وألسنتنا تدرك طعوم المأكولات الأرضية، وجلودنا خصوصاً الكفين تدرك الناعم والخشن والثقيل والخفيف.

هاهي ذه أجسامنا فصلت على مقتضى العوالم العلوية والسفلية، فعقولنا وأبصارنا للمدركات العالية في المكان وفي المكانة، وبقية حواسنا للمدركات الأرضية.

تبارك الله. تبارك الله، وفق ما بين أجسامنا وما يحيط بها، وبه فهمنا: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣]، لم تخالف الأرض الشمس في تركيبها، ولم يخالف العالم الأرضي والسماوي أجسامنا وأجسام الحيوان بل وافقها.

اللهم إن هذا القول لا يعقله إلا الدارسون المفكرون، ولعلك تقول: ما برهان كون الشمس والأرض والكواكب متفقات في تركيبها من العناصر حتى نفسر بذلك القرآن؟ أقول: علوم الطبيعة تجد ذلك واضحاً فيها، فلقد ظهر عالم يسمى «فرونهوفر» نظر في طيف الشمس المركب من الألوان السبعة الذي أوضحناه سابقاً في سورة «الرعد» فرأى هناك خطوطاً سوداء عمودية على ألوان ذلك الطيف، فحكم بأن ذلك الطيف غير متصل اتصالاً تاماً، بل تقطعه خطوط كثيرة سميت فيما بعد «خطوط فرونهوفر» وهو أول من درسها ووصفها ورسمها، سمي أشهرها بالثمانية الأحرف الأول من حروف الهجاء الرومانية. انظر (شكل ١).



(شكل ١ ـ رسم الطيف الشمسي)

ترى في هذا الشكل رسم الطيف الشمسي، فالخطوط البيضاء خطوط فرونهوفر، والفسحات السوداء ألوان الطيف، وقد تحققوا أن هذه الخطوط تحدث من اشتعال الأجسام، فإذا أشعلنا جسماً ونظرنا إلى الطيف الذي يحدث من اشتعاله وجدناه يوافق خطاً منها كما يعرف بالسبكترسكوب.

السبكترسكوب: هو المنظر الذي ننظر به خطوط «فرونهوفر» في الطيف وهو على أشكال عديدة منها. (شكل ٢) الآتي ترى فيه ثلاثة مناظر مركبة معاً على قاعدة بحيث تلتقي محاورها في منشور بينها (ا) فيوضع الجسم المشتعل عند (ت) أمام منظر له شق في فمه يوسع ويضيق حسبما يرام، فيدخل شعاع الجسم المشتعل من هذا الشق إلى المنظر، ثم يخرج منه ويقع على المنشور فينفذه وينحل إلى الطيف كما تقدم، فيضع الناظر عينه على المنظر (ب) ويرى الطيف أمامه، وخطوط فرونهوفر مكبرة أمامه، فيقيس البعد بينها بواسطة المنظر الثالث (ل)، وذلك لأن في هذا المنظر مقياساً مقسماً أقساماً عديدة ومصوراً على الزجاج، فإذا وضع مصباح أمامه وقعت صورة المقياس على المنشور وانعكست عنه إلى عين الناظر فيقيس بها البعد بين خطوط فرونهوفر ويعين أماكنها.

(شكل ٢)

وعلى ذلك وجدوا أنه إذا وضع في لهيب (ت) قليل من معدن الصوديوم ظهر في طيفه خط أصفر لامع يوافق الخط (D) من خطوط فرونهوفر في الطيف الشمسي، وإذا وضع فيه قليل من معدن البوتاسيوم ظهر خط أحمر يوافق (A) من الطيف الشمسي، وخط آخر في البنفسجي بقرب (H).

فمن مقابلة طيوف الأجسام المشتعلة الأرضية بخطوط فرونهوفر وغير ذلك تحققوا في أن الشمس معادن وغازات كثيرة كالحديد والنحاس والزنك والكلسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأكسوجين والنيتروجين وغيرها، وعرفوا مواد نجوم عديدة. وللسبكترسكوب اعتبار عظيم عند علماء الهيئة والكيمياء واستعماله كثير عندهم. انتهى.

هذا هو البرهان الحسي الذي اخترعه وعرفه قوم غير مسلمين. وهو هو نفس هذه الآية، فهاهو ذا قد ظهر لنا قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣].

وهاهنا بهجة علمية، وآية حكمية، ومعجزة نبوية. انظر أيها الذكي، انظر. لِمَ عبر الله بقوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك: ٣]، أليست خطوط فرونهوفر فطوراً وفواصل بين الألوان قد رأيتها بعينك في الشكل المتقدم؟ هاهي ذه فطور تخللت الألوان، وبهذه الفطور أدركنا أن العالم لا تفاوت فيه. بل هو متحد تركيباً. نعم الآية واضحة لا تحتاج إلى هذا، ولكن لفظ الفطور يوافق تلك الخطوط، وعلى هذا يقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣]. إذا نظرت بعقلك أيها العاقل وبحثت في سر الطبيعة وتركيبها؛ فهناك لا ترى تفاوتاً بسبب ما ظهر لك من تلك الخطوط السوداء والفطور المتخللة التي أدركتها بالمنظار المعظم. أما إذا نظرت بعينك المجردة فإنك لا ترى تلك الفطور، بل جميع الناس على هذه الأرض يرون النور ولا يرون الخطوط السود التي فيه لاحتياجها إلى آلات، والآلات تأتي بها العلوم، والعلوم هي التي بها تدرك تلك الحقائق وتصنع تلك الآلات.

هذه المعاني سواء أخذت من ظواهر الآية كما ذكرناه أولاً أم أخذت من المعنى الإشاري الرمزي الذي لا يعرف إلا بالقرينة؛ والقرينة هنا هي العلوم التي ملأت الأرض وجهلها أكثر المسلمين وهي تسجل على أمة الإسلام أنها مقصرة أشد التقصير حتى إنها أصبحت عالة على أمم أوروبا في كل شيء. في نباتها وملابسها وزرعها وتجارتها وسياستها. وفوق ذلك في معجزات قرآنها.

اللهم أنت الذي خلقت المسلمين. وأنت الذي قدرت لهم هذه المذلة. وأنت الذي وفقت لهذا التفسير على يد عربي من الأمة الذي نزل لها القرآن بلسانها. فاجعل هذا التفسير فاتحة عهد جديد وعز مديد وأمة ناهضة تدرس وتقرأ نظام هذا الوجود.

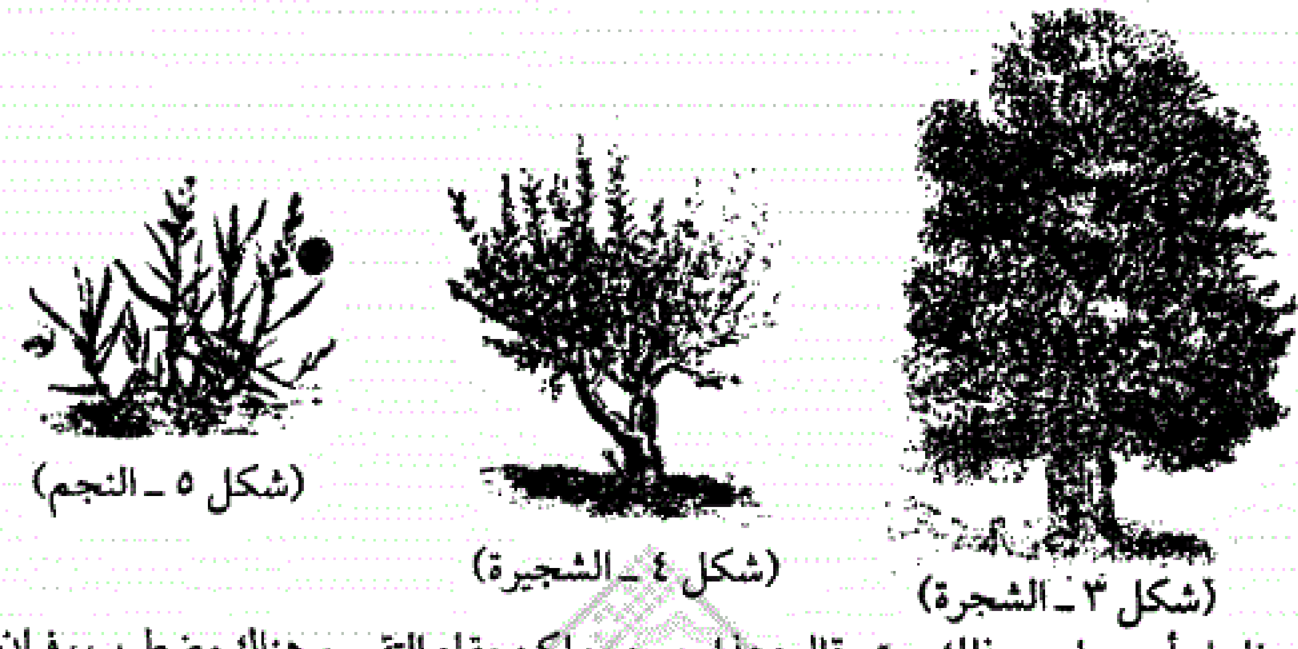
اللهم إنك مجيب الدعاء لا سيما إذا كان للمنفعة العامة. وأنك أجبت دعاء زكريا، وزكريا كان يدعو لإنقاذ بني إسرائيل فأجبت دعاءه. وأنا أدعو لأجل الأمم الإسلامية عربية وعجمية. فأسألك اللهم أن تحبب إليهم العلم كما حببت آباءهم في حفظ القرآن والتبرك به. وإني مؤمل إجابة دعائي. بل موقن به. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في آية: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[النبأ: ١٢-١٣]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

في هذه الليلة ليلة السبت ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٢م، و٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥١هجرية حضر صديقي العلامة الذي اعتاد مذاكرتي في هذا التفسير، قال: لعلك لم تنس ما وعدت به في سورة

« الذاريات » إذ قلت : ولعلنا نفصل الكلام إن شاء الله تعالى في سورة « النبأ » على أنواع النبات المتقدمة والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[النبأ : ١٤-١٦] إلى آخره . ولقد ذكرت قبل ذلك ما ترجمته من كتاب العالم الطبيعي الفرنسي الذي كان أستاذاً في « السربون » ووزير المعارف العمومية بفرنسا ، أن أقسام النبات ثلاثة : شجرات . وشجيرات . وأنجم . والمراد بالنجم ما لا ساق له كالقمح والذرة والشعير ، ولم تبين صورها . فقلت له : هذه صورها :



(شكل ٣ ـ الشجرة) (شكل ٤ ـ الشجيرة) (شكل ٥ ـ النجم)

فلما رأى صاحبي ذلك سرّ وقال : هذا حسن ، ولكن مقام التقسيم هناك مضطرب ، فإن تحديد هذه الأقسام الثلاثة عسر .

ثم إنك أوردت هناك رأياً آخر ، وهو تقسيم النبات إلى سنوي ، وإلى ذي سنتين وإلى ذي سنين كثيرة ، وهذا التقسيم موضح هناك ، ولكنه أيضاً غير كفيل بتفصيل أنواع النبات إلا بحيرة واشتباه ، ولذلك أتيت بعد ذلك بتقسيم النبات باعتبار أزهاره وحسن نظامها ، وبهجة إتقانها ، فأرجو إيضاح هذا المقام هنا كما وعدت بذلك هناك مع إظهار الصور لتكون بهجة للقارئين ، ومناراً للسارين ، وأنساً للقارئين .

فقلت : سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، ولكن لا بد من ذكر فائدة وردت في ذلك الكتاب الإنجليزي قبل الكلام على أنواع الزهر ، وهي أن جميع الأشجار والشجيرات والزروع قد اشتركن في أنهن ذوات أوراق خضر ، ولكن هذه الخضرة ليست ملازمة لكل نبات ، ألا ترى رعاك الله هذا النبات المسمى باللغة الفرنجية « مشروم » وهو بالعربية « خبز الغراب » . انظر (شكل ٦) ، فإنه أحمر أو أسمر أو أبيض .



(شكل ٦)

وهكذا تلك البقع الشهباء ذات السمرة المصفرة التي ترى على الحيطان وعلى جذوع الأشجار إن هي إلا نباتات صغيرات ، فلنسمها نحن النباتات الخفية . ويسميها الفرنجة « ليتشن » ، ومن النباتات ما لا ترى إلا بالمناظير المعظمة ، وهذه لا يحصيها عدد ، ولا يوقف لها على مقدار ، فهذه الأنواع الثلاثة لا خضرة فيها ، إذن الخضرة في النباتات ليست عامة .

أقسام النبات المختلفة

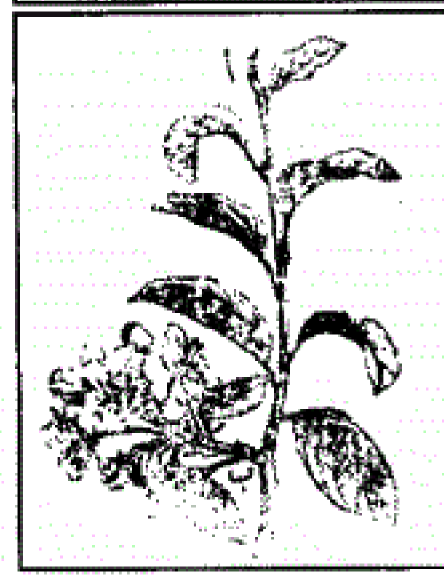
هاهنا أخذ المؤلف في تشريح الجذور والأغصان، فتشريح الساق، فاتجاه الأغصان، فأنواع الورق فالأزهار. فهذه خمسة فصول:

الفصل الأول: في الجذور والأغصان



(شكل ٧) شجرة الكمثرى البرية، وهي الإجاصة أيضاً (١)

فالمرموز له بحرف (ا) المدفون تحت الأرض هو الجذر، وما رمز له بحرف (ب) هي فروع الجذر (٢) وما رمز له بحرف (ج) هو الساق أو الجذع الذي يرتفع مضاداً لاتجاه الجذر. الأغصان: وهي إما أغصان أولية حرف (د) وهي خارجات من نفس الساق، وإما أغصان ثانوية خوارج من الأغصان الأولية: وهي المرموز لها بالحرف (هـ) وإما أغصان ثالثية وقد تفرعت عن الثانوية وهي المرموز لها بحرف (و).



(شكل ٨)

كل ورقة تحمل برعوماً عند مفصلها من الغصن، وهذا البرعوم على استعداد أن يكون غصناً، وترى غصناً خاصاً في الشجرة، وهو المرموز له بحرف (ب) يكون منتهياً ببرعوم، وذلك البرعوم يصير زهراً والزهر يصير ثمراً.

قال مؤلف الكتاب المذكور ما ترجمته: لندع الكلام على النباتات المستثنيات من ألوان الخضرة ولنرجع إلى النباتات المعتادة فنقول: هاهي ذه شجرة الكمثرى في الركن الخالي من الحديقة، تلك التي تنبت من نفسها، كما أخبرنا بذلك الناطور، أي: البستاني، فهاأنا ذا أقتلعها حتى نمتحنها، ثم أخذ يقول:

(١) كل منكم يعرف أجزاء الشجرة المختلفة، فهاهو ذا الجذر حرف (ا) (شكل ٧) ذلك المختبئ تحت الأرض مع فروعه المنتشرة فيها حرف (ب ب ب ب).

(٢) ثم قال: وهذا هو الساق حرف (ج) المنتصب المرتفع إلى أعلى بعكس الجذر.

(٣) وهو مقسم إلى أغصان أولية حرف (د)، وهذه الأغصان الأولية خارجات من نفس الساق ومن هذه الأغصان الأولية تخرج أغصان ثانوية: أي فروع حرف (هـ)، ومن هذه تخرج أغصان ثالثية أي: فريعات حرف (و) وهكذا.

(٤) الأوراق: لنقف هنا وقفة في امتحان بعض هذه الأجزاء، إننا هنا نجد على ساق كل ورقة في الزاوية التي بينها وبين ما هي نامية عليه ـ من ساق الشجرة أو غصن من أغصانها ـ برعوماً صغيراً

(شكل ٨) حرف (ا) ـ وكل برعوم من هذه البراعيم الصغيرة سينمو، ويعطينا فرعاً أو فريعاً أو غصناً جديداً لهذه الشجرة، وكل غصن من هذه يخرج مما يقال له « إبط الورقة »، وكل ورقة تحمل برعوماً في إبطها، وهاهنا تلاحظون أمراً جديراً بالاعتبار، ذلك أن أمثال الغصن ـ حرف (ب) (شكل ٨) ـ تجدونه دائماً أقصر من غيره، فهو بدل أن يكون طويلاً بقي قصيراً، ولكنه يحمل في آخره برعوم الزهر وتلك البراعيم الزهرية ستكون أزهاراً، وتلك الأزهار ستذهب جفاء وتحل محلها الثمرات التي ستصير فيما بعد كمثرى جديدة. انتهى الفصل الأول في الجذور والأغصان.

الفصل الثاني: في تشريح الساق

هاهنا أخذ المؤلف يشرح ساق الشجرة فأبان قلب شجرة الكمثرى الذي هو الجزء الناعم، ويحيط به الجزء الخشبي الذي هو شديد الصلابة، ويحيط بالجميع القشر المخضر.

ولما كانت هذه الساق مرسومة في سورة « السجدة » قبل سورة « الأحزاب » وهناك شرحه موضحاً لم نر إعادته هنا اكتفاء بما ذكرناه هناك في غاية الإيضاح، وترى هناك أمراً عجباً! ترى الموازنة ما بين سوق الأشجار ذوات الفلقة الواحدة كالنخل وسوق الأشجار ذوات الفلقتين كالكمثرى، وأن سوق أمثال النخل من ذوات الفلقة الواحدة ليست منتظمة الدوائر في داخلها كانتظام دوائر ذوات الفلقتين، وترى هناك العجب العجاب في تشريح النخلة التي أحضر المؤلف رسمها من بلادنا المصرية من جانب الهرم ليجذب قلوب التلاميذ هناك إلى منظرها الغريب الذي لم يألفوه في بلادهم ليكون ذلك شارحاً لصدورهم، فاقرأه هناك إذا دعتك الحاجة إليه. انتهى الفصل الثاني من تشريح الساق.

الفصل الثالث: في اتجاه الأغصان

إن اتجاه الأغصان بالنسبة لاتجاه الساق مختلف اختلافاً بيناً. فانظر إلى شجرة « شربين » وهي بالإنجليزية « فير ». انظر (شكل ٩) و(شكل ١٠).



(شكل ٩ ـ أغصان شجرة الشربين الأفقية الوضع)



(شكل ١٠)
أغصان شجرة الخوخ الممتدة إلى جميع الجهات

إن شجرة « شربين » نرى أغصانها متجهة اتجاهاً أفقياً (شكل ٩)، وبعكسها نرى أغصان شجرة الخوخ (شكل ١٠)، فأغصانها متجهة إلى جميع الجهات. حتى إننا لا نرى غصناً يتبع سبيل الساق إلا نادراً جداً. وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثالث في اتجاه الأغصان، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع: في أنواع الورق

وهاهنا أخذ المؤلف يشرح أنواع الورق. فأفاد أن ورق النبات مختلف الأشكال. فمنه ما لأوراقه سيقان كما في هذه الأشكال:



(شكل ١١ ـ أوراق شجرة الكمثرى
(ا) ساق الورقة المسمى بيتول
(ب) نصل الورقة المسمى لمينا)

(شكل ١٢ ـ ورق شجرة برية
تسمى بالإفرنجية «جرانيام»
ونصل أوراقها مقسم)



(شكل ١٣ ـ كأس الزبدة
ورقه تام التقسيم)

انظر إلى ورقة الكمثرى (شكل ١١).

إن ساق الورقة في تلك الشجرة يحمل النصل الأخضر، وليست الورقة في الحقيقة إلا هذا النصل، فهو الجزء المهم الفائدة. ومن النبات ما يحمل ورقاً بلا سوق لتلك الأوراق. ثم إن أوراق شجرة الكمثرى مثلاً تسمى أوراقاً بسيطة.

فأما أوراق الشجر المسماة «جرانيام» (شكل ١٢) فإنها مقسمة أقساماً كثيرة، وأقسام الورق المسماة بالإفرنجية «كأس الزبدة» وفي شجرة السنط (شكلي ١٣و١٤) تامة التقسيم، لاسيما في الأخير منهما. فالتقسيم فيه تام الإيضاح.



(شكل ١٤)
شجرة اللبخ: نصل ورقها مقسم تقسيماً تاماً والفصوص (ا) (ب) (جـ) البرعوم (د) وساق الورقة (هـ)

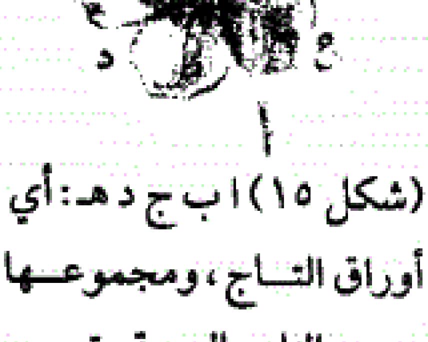
وهاهنا ورد على المؤلف اعتراض، وهو كيف يقال: إن هذه الفصوص الصغيرة في ورقة السنط المحمولة على ساقها فصوص، ولماذا لا نسمي هذه الساق التي جعلناها للورقة غصناً، ثم نجعل هذه الفصوص أوراقاً، بل هذا أقرب للصواب، أليس هذا غصناً حقيقياً؟ أليست هذه أوراقاً تامة؟ ولكنه أجاب على ذلك فقال:

أولاً: لقد تقدم أن كل ورقة لا بد أن يكون عند إبطها برعوم صغير، ولكن في هذه الساق التي تحمل الورقة المفصلة لم نجد إلا برعوماً واحداً، وهذا البرعوم نراه عند إبط عموم الورقة، ولو كانت هذه الفصوص أوراقاً لكان عند إبط كل فص برعوم، والحال هنا ليست كذلك.

ثانياً: أن فصل الخريف تسقط فيه أوراق كثير من الأشجار منها اللبخ الذي معنا. ومعلوم أن الأغصان لا تسقط فيه، ولو كانت هذه الساق التي لورقة اللبخ غصناً يحمل أوراقاً لا فصوص ورقة لم يسقط في فصل الخريف ولكنه يسقط فيه مع الورق. فدلنا هذا على أن هذه ورقة واحدة ذات فصوص لا أوراق كثيرة يحملها غصن وهو المطلوب. انتهى الفصل الرابع من أنواع الورق.

الفصل الخامس: في الزهر
وهو أهم الفصول السابقة

إن أول ما يقابل عيوننا فنراه في زهر الكمثرى (شكل ١٥) هذه الخمسة الأوراق الصغيرة البيضاء البارزة إلى الخارج وهي «ا ب ج د هـ»، وهذه مجموعة تسمى بالتاج، وكل ورقة منها تسمى بلسان علماء النبات «بتل» ومجموعها يسمى «تورلا»، وإذا نظرنا إلى الأوراق التي تحت أوراق التاج في نفس هذه الزهرة (شكل ١٦) فإننا نجد خمسة ورقات أخرى «هـ و ز ح ط» وهن أصغر من الأولى مخضرات اللون وتسمى كأساً، وباللغة الإفرنجية «سبل» وهاك صورها:



(شكل ١٥) ا ب ج د هـ: أي أوراق التاج، ومجموعها يسمى التاج بالعربية وتسمى بالإفرنجية: تورلا.




(شكل ١٦) هـ و ز ح ط تسمى سبل بالإفرنجية وهي أوراق الكأس ومجموعها وهو الكأس يسمى بالإفرنجية كاليكس.

(شكل ١٧) (ا) سداة (ب) كرة صفراء تحمل الغبار الأصفر الذي يسميه علماء النبات بلن.

إن في مركز شكل ١٧ خيوطاً دقيقة كل منها يشبه الهلب

(ا) وكل واحد منها يحمل في نهايته كرة صفراء.

(ب) وهذه هي السداة «عضو التذكير».

إن الناس جميعاً مدينون لهذه المادة الصفراء، وهي الطلع، فلولاه لم يعش أحد في الأرض. فلننزع الآن الكأس والتويج وأعضاء التذكير فإنا نجد الزهرة لم يبق منها إلا هذا الشكل (شكل١٨).

(ا) كرة صغيرة يحيط بها أربع سوق ــ جمع ساق ــ صغيرة.

(ب) وهي خيوط ليفية.

وهذه الكرة هي ما يحفظ البذرة، أو هي ما يقابل البيض في الحيوان أو هي المبيض، والساق والمبيض يطلق عليهما معاً عضو التأنيث.



(شكل ١٨)

(ا) البيضة صارت ثمرة.

(ب) الساق هذه البيضة وهذا الساق هما معاً عضو التأنيث

(جـ) البقعة البيضاء هي نفس البذر.

الكلام على الثمر

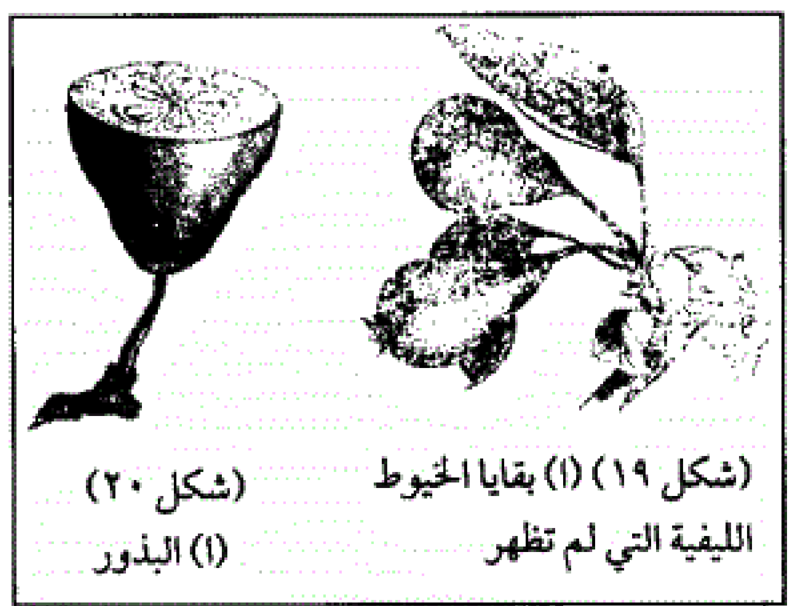
إن هذه الكرة وهي البيضة صغيرة جداً، ولكنها حينما يذهب الكأس والتويج وأعضاء التذكير تأخذ في النمو وتمتلئ بعصارة تكون في الأول مرة. ثم بعد ذلك تكون حلوة، ثم تصير كمثراة.

ويمكننا أن نلحظ هذه البيضة بعد انقلابها إلى ثمرة فوق قمة الكمثرات. انظر (شكل١٩).

حرف (ا) في الثمرة (شكل ١٩)، فإنك لا تزال ترى أثراً يدل على الأجزاء التي لا ظهور لها، إنها قد صنعت تجويفاً صغيراً مقابلاً على خط مستقيم للساق.

وفي هذه الثمرة كما تعلم تكون البذور (ا). انظر (شكل ٢٠).

وهذه البذور منوطة بخلايا صغيرة ومعلقة تعليقاً غير محكم الربط.



(شكل ١٩) (ا) بقايا الخيوط الليفية التي لم تظهر

(شكل ٢٠) (ا) البذور

وإذا نحن أردنا أن نقطع البيضة أو المبيض الذي عليه الخيوط الليفية من الداخل في الزهرة (شكل١٨)؛ فإننا نجد في داخلها بقعاً بيضاء (جـ)، وهذه البقع التي نقدر أن نستخرجها بسن القلم عبارة عن بيضات صغيرة، وهذه البيضات الصغيرة على طول الزمان تصير بذوراً (شكل ٢٠).

انظر فهاهنا نرى أن الكأس والتويج وأعضاء التذكير هذه الأنواع الثلاثة أصبحت لا وجود لها ولم يبق إلا المبيض وإلا البيضات الصغيرات التي صارت بذوراً، فهذه هي زهرة الكمثرى المركبة تركيباً تاماً.

الزهر الناقص التركيب

إن أمثال زهرة الكمثرى تسمى بالزهرة التامة التركيب، وهناك زهرات غير تامات التركيب، ففي بعضها لا يكون كأس، وفي بعضها لا يكون تويج، وفي بعضها لا يكون كأس ولا يكون تويج، ولكن ذلك ليس مهماً.

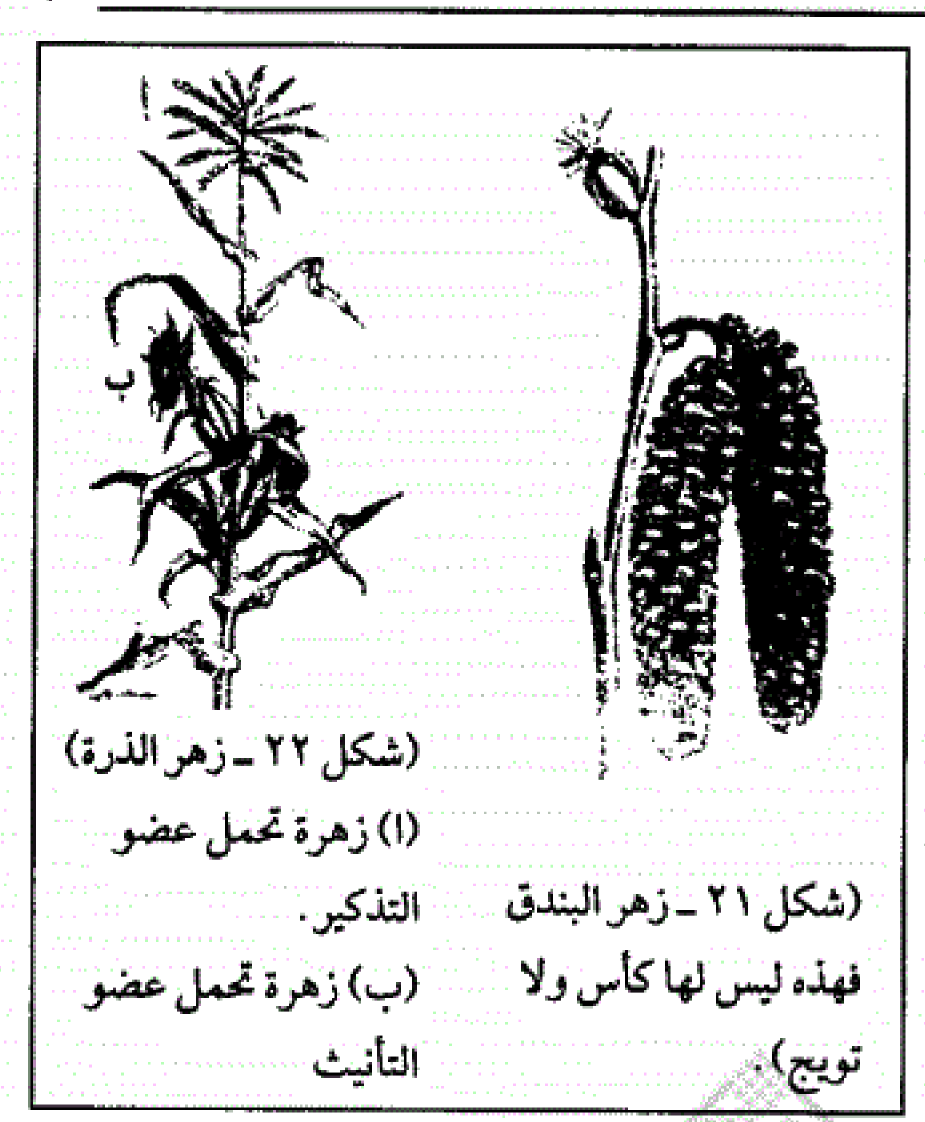
ولعلك تدهش مما أقول، وتقول في نفسك: كيف هذا!إن أهم جزء في الزهرة إنّما هو الجميل البهيج، وهو التاج الذي تبتهج فيه النفوس وتنشرح الصدور بما له من ألوان بارعة الجمال والبهجة والبهاء.

ولكني أقول: إنّما الأمر ليس كذلك إنّما الجزء المهم المتم الفائدة في الزهر إنّما هما اثنان: أولاً أعضاء التذكير المشروحة سابقاً، وعضو التأنيث المسمى بالمبيض، بل الأمر فوق ذلك، إن أهم الأجزاء إنّما هي الأجزاء الغبارية الصفراء التي بها يكون الإلقاح والبيضات الصغيرات التي في داخل المبيض.

هذا هو السبب في أننا نرى بعض الأزهار لا كأس لها ولا تويج لما علمت أن المدار ليس عليهما بل على أعضاء التذكير والتأنيث، بل على مادة الطلع والبيضات الصغيرة في المبيض الذي في عضو التأنيث، وهناك مثال ما لا كأس له ولا تويج. انظر (شكل ٢١ و٢٢) في الصفحة التالية.

إن هذه تحمل ثمراً كما تعلم، وهذه هي النهاية الأصلية لحياته، فهذا هو البرهان الأول على أن الكأس والتويج ليس لهما أهمية أصلية بل هما أمران ثانويان.

البرهان الثاني: إنك إذا انتزعت الكأس والتاج من الزهرة التامة التركيب فإنك لا ترى مانعاً يمنع نمو الثمر، ويبقى عضو التذكير وعضو التأنيث لا ضرر يلحقهما، ولكنك إذا انتزعت عضو التذكير فإن المبيض لا ينمو فيكون ثمراً والبيضة الصغيرة لا تكون بذراً، وهذا هو المطلوب وما هو هذا، هو شجرة الذرة. انظر (شكل ٢٢).



(شكل ٢١ ـ زهر البندق فهذه ليس لها كأس ولا تويج).

(شكل ٢٢ ـ زهر الذرة)
(ا) زهرة تحمل عضو التذكير.
(ب) زهرة تحمل عضو التأنيث

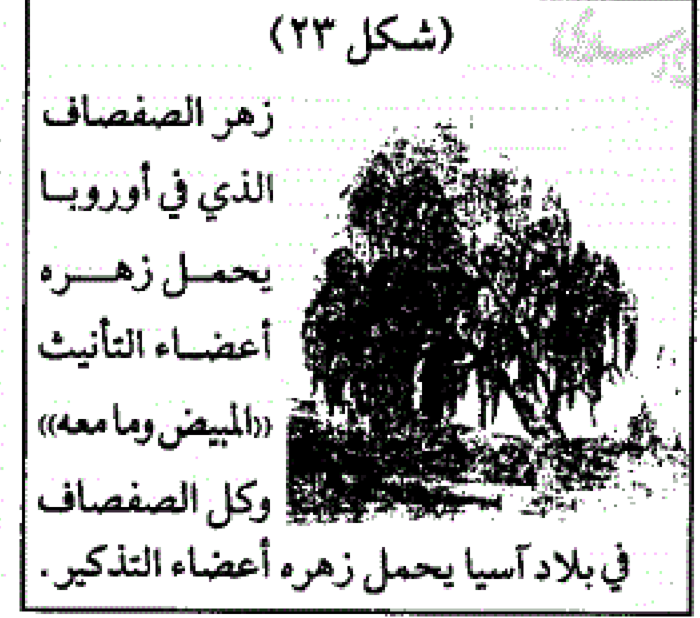
نبات يحمل زهرة الذكر وزهرة الأنثى

إن من النبات ما يحمل زهرتي الزوجين الذكر والأنثى، وذلك كشجرة البطيخ وشجرة تسمى باللغة الفرنجية «بتولا» وشجرة الجوز، وشجرة الذرة.

ومن النبات ما يحمل بعضه ذكراً والآخر أنثى، كحشيشة الدينار وكالقنب وكالصفصاف وهكذا.

فإذا كانت هذه النباتات غير متقاربة تقارباً تاماً فإنها لا تحمل ثمراً، فانظر إلى شواطئ الأنهار والخلجان والترع في بلادنا المصرية وغيرهما في الشرق والغرب فإنك ترى شجراً جميلاً يميس إذا هبت الرياح، وهو جميل زهره أصفر ألا وهو الصفصاف (شكل ٢٣).

(شكل ٢٣)



زهر الصفصاف الذي في أوروبا يحمل زهره أعضاء التأنيث «المبيض وما معه» وكل الصفصاف في بلاد آسيا يحمل زهره أعضاء التذكير.

قال المؤلف: إن موطنه الأصلي في آسيا، ويرى نوع منه في بلادنا أي البلاد الإنجليزية، لأن هذا كلام زوجة المؤلف وهي الإنجليزية، وهذا النوع الذي في بلاد الإنجليز يحمل عضو التأنيث، ولم نسمع بامرئ في الدنيا رأى لهذا الشجر بذوراً، وليس له ثمر قط.

البذر

لنرجع كرة أخرى إلى شجرة الكمثرى، وبعبارة أجلى إلى ثمرتها، إنها تحوي بذوراً إذا وضعناها في الأرض فإنها تخرج لنا مبدأ لشجرة كمثرى أخرى مشابهة للشجرة التي حملت تلك الفاكهة.

فلنشرع الآن في امتحان أحد هذه البذور مع الاحتراس. إننا أولاً نقابل الغطاء أو الجلد، وفي داخله نرى البذور، ولكن لما كانت بذور الكمثرى دقيقة جداً بحيث لا تتمكن من بحثها كما يجب أبدلنا بها بذرة اللوز مثلاً، لأنها كبيرة تمكننا من البحث فيها.

إن الجلد تمكن زحزحته ونقله وحينئذ نجد جزئين لحميين لذيذين طيبين زكيين «ا ـ ا» (شكل ٢٤) وهو يحتوي على جرم اللوز، وعلماء النبات يسمونها ورقتي البذرة «كوتيليدونس».

أنا لا أريد أن أزعجك بهذه الكلمات الإغريقية البشعة الكبيرة، ولكن ماذا أصنع، إننا لا نقدر أن تجتنبها لأنها لغة العلم. انظر (شكل ٢٤ و٢٥).



اللوز لحمين كبيرين مركب من حجمين «ا ـ ا» يسميان عند علماء النبات «كوتيليدونس». (ب) هو النبات في صورة صغيرة.

(شكل ٢٤)

(شكل ٢٥)

انظر هاأنا ذا مع الاحتراس التام فصلت ورقتي البذر المذكورتين. ألا تلاحظ أن عند النهاية الدقيقة للبذرة جسماً صغيراً (ب).

انظر إليه بتأمل ودقة تامة واقترب منه، ألست ترى أنه نبات صغير، إن الإنسان يقدر أن يميز بدون كبير عناء جذره الصغير (جـ) (شكل ٢٥)، وكذلك الساق الصغيرة (د)، وهكذا فوق القمة يرى برعوم صغير جداً، والورقتان البذريتان (ا ـ ا) ما فائدتهما؟ إن فائدتهما أنهما أول ورقتين مخلوقتين في النبات، وإذا وضعنا ثمرة اللوز مثلاً في الأرض فإن الجذير (جـ) يصير جذراً (د) والمرموز له بحرف (هـ) يصير نفس النبات. فأما ما عدا ذلك من مسألة الورقتين البذريتين، وهما فلقتا اللوز فإن تاريخهما أتم، قال المؤلف: وسندرسهما فيما سيأتي:

تركيب شجر النخل

هاهنا أخذ المؤلف يشرح النخل، ورسم له أربع صور، وأبان أن هذا الشجر وهو النخل وهكذا كل ما شاكله من ذوات الفلقة الواحدة متشابهات من حيث تركيب سوقها، فهي عمودية الساق، فأما سوق ذوات الفلقتين كالفول والعدس والبسلة فهذه كلها سوقها مخروطية الشكل، ولذوات الفلقتين حلقات مستوية لم تكن لذوات الفلقة الواحدة، وهذا الموضوع مفصل أجمل تفصيل مع جمال الصور فيما تقدم في سورة «السجدة» عند آية: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] فليرجع إليه من شاء هناك، ومن أراد معرفة ذوات الفلقة وذوات الفلقتين من كل نبات فليرجع لما كتبناه في المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير في نحو سورة «ق» و«الذاريات».

هذا ولنفض الكلام على النبات ذي الفلقة الواحدة والنبات ذي الفلقتين، فنقول ومن الله التوفيق: إن هناك بين شجر النخل وشجر الحور مثلاً فرقاً عظيماً واختلافاً واسع النطاق في مظهرهما وفي تركيبهما، بينما نرى بذور الحور ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ وبذور كل نبات يماثله في التركيب

لها كما قلنا من قبل فلقتان، إذاً نواة النخل وكل نبات يماثله في التركيب ليس له إلا فلقة واحدة، فيسهل إذن أن نقسم المملكة النباتية طبعاً إلى ذوات الفلقة الواحدة وإلى ذوات الفلقتين، إن في هذين النوعين أشجاراً وشجيرات.

الكلام على النبات السنوي

والنبات الذي يعيش سنتين، والنبات الذي يعيش سنين كثيرة
وعلى أن ذلك لا يفيد في التقسيم، وإنّما المدار على الزهر

لما وصلت إلى هذا المقام قال صاحبي: قد فصلت الكلام على تحقيق الزهر ومعرفة أجزائه وبدائع نظامه، فليكن الكلام الآن في الأمر المهم، وهو تقسيم النبات إلى أنواعه وفصائله، فقلت: لقد تقدم في مواضع كثيرة من هذا التفسير أقربها ما جاء في سورة «الذاريات»، لقد تقدم هناك أنه ينقسم إلى ما يعيش سنة وإلى ما يعيش سنتين، وإلى ما يعيش سنين كثيرة الخ. وبعد تحقيق طويل ظهر أنه لا يتم التقسيم إلا بالزهر لأنه ثابت ثبات النجوم في السماء وسير الكواكب والشموس. فقال: نعم. أنا قرأت هذا ولكن الكلام هناك غير مستوف المقام حق استيفائه، فإنك أبنت أن تقسيم النبات باعتبار السنين أو باعتبار صوره من حيث إنه شجر أو شجيرات أو أنجم، أي: نباتات لا ساق لها، غير مجد في التقسيم.

فأما التقسيم باعتبار الزهر فإنه هو الذي عليه المدار. وهذا غير كاف، فأرجو أن تفيض الكلام على التقسيم هنا وترسم الصور كما هي عادتك في أمثال هذا المقام. فقلت: إن علماء النبات لم يبالوا باختلاف النبات في مظاهره الخارجية. ولا في تركيب أجزائه. ولكنهم عولوا في التقسيم على تشابه الزهرات. فهم يجعلون تشابهها هو الذي عليه المدار. فأما ظواهر النبات وتركيبه فاختلافهما لا يضر في التقسيم.

قال المؤلف: كل منكم يشاهد «شجرة المكنسة» وهذه سيأتي رسمها قريباً، والشجرة المسماة بالإفرنجية «فويز» ذات الشوك والزهر الأصفر، وخضرتها دائمة، والعدس، والبرسيم، والفول، والبسلة، والجلبان ـ بضم الجيم وتشديد اللام ـ وشجر السنط وغيرها، إن بعض هذه النباتات إن هو إلا نجم، أي: لا ساق له، وحشائش، وبعضها شجيرات وبعضها أشجار، وأيضاً من جهة أخرى بعضها سنوي، وبعضها يعيش سنتين.

ومن جهة أخرى بعضها يمتد على الأرض، وبعضها يتسلق على غيره، وبعضها يقف مستقيماً منتصباً، ومن جهة أخرى بعضها له ورق ناعم، وآخر ورقه شوكي، ولكننا إذا امتحنا زهرات جميع النباتات والأثمار والبذور أيضاً فإننا نجد أنهن جميعاً قد خلقن بهيئة واحدة ونظام مسنون حقيقي أو قريب جداً من ذلك.

فإذا بحثنا تاريخ أي زهرة من هذه الزهرات فإننا نجد ما رأيناه في إحداهما منطبقاً على كل زهرة من الزهرات الأخرى، وعلى الجميع فإنها جميعاً لا تختلف إلا اختلافاً يسيراً في مقادير أحجامها وألوانها.

شجرة المكنسة

لننظر الآن الشجرة المسماة بالمكنسة (شكل ٢٦)، إنها تنبت على جوانب الطرق في كل مكان، ونرى منها آلافاً وآلافاً من ذوات الأزهار الصفراء اللامعة الجميلة.

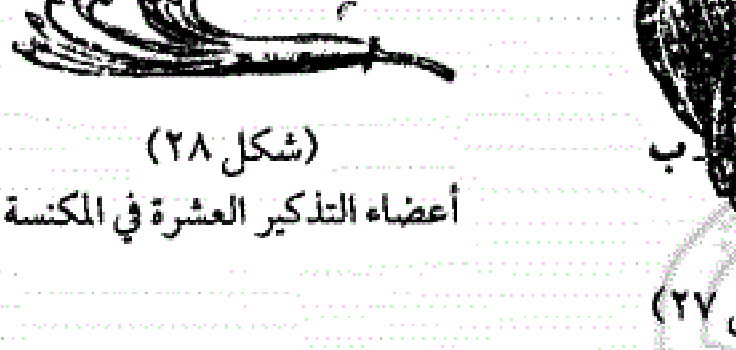
انظر إليها وتأمل، إنك لتجد في أول الأمر بعض الصعوبة في تمييز الكأس (د) فإنه ملتصق بعضه ببعض، ولم يبق منه طليق، اللهم إلا خمسة الحروف والأطراف البارزات، وفي داخل الكأس يظهر التويج الذي يحوي خمسة أوراق، ولكنها غير متشابهات. فانظر ألست ترى الورقة (ا) أكبر جداً من الباقيات فإنها منتصبة، وبجانب هذه الورقة المنتصبة ورقتان أصغر منها واحدة (ب ب) على كل ناحية من الناحيتين، وأخيراً هناك ورقتان صارتا ورقة واحدة (جـ) متحدتان كأنهما في هيئتهما قاعدة السفينة. وأعضاء التذكير (هـ) ظاهرة. انظر هذه الأشكال:



(شكل ٢٦) زهر النبات العادي المسمى بالمكنسة الذي ينبت على جوانب الطرق. (ا ب ج) التاج (د) كأس (هـ) أعضاء التذكير



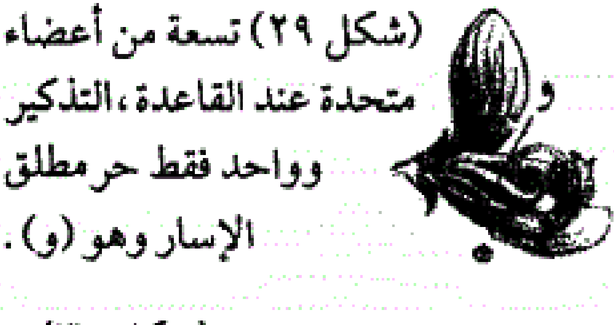
(شكل ٢٧)
(ا ب ج) هي التاج



(شكل ٢٨)
أعضاء التذكير العشرة في المكنسة

إن أعضاء التذكير في المكنسة عشرة (شكل٢٨) فتسعة منها متحدة مجتمعة عند القاعدة وواحد فقط مطلق (و) (شكل ٢٩) الآتي. وهذه التسعة صارت على هيئة أنبوبة طويلة، وهذه الأنبوبة مفتوحة من ناحية واحدة، وهي التي فيها يكون المبيض، وهو عضو التأنيث، وهو شكل٣٠ (ز) الآتي. ولكن هذا المبيض لا يتم لنا امتحانه إلا إذا أصبح ثمرة تامة.

(شكل ٢٩) تسعة من أعضاء متحدة عند القاعدة، التذكير وواحد فقط حر مطلق الإسار وهو (و).



(شكل ٣٠)
مبيض الشجرة
المسماة بالمكنسة

وبعبارة أخرى: إلا إذا أصبح قرناً.

ولما كان قرن الشجرة المسماة بالمكنسة يشبه تمام المشابهة قرن شجرة الفول المعروفة في أقطار كثيرة؛ قال المؤلف: أردت أن أمثل لك بها، لأن كل امرئ يعرف قرن الفول ما هو، إنه مكون من وجهين ملتصقين من أطرافهما (شكل ٣١).



(شكل ٣١) قرن الفول مفتوحاً (ا) النبات الصغير في حبة الفول التي تجمع بين النبات الصغير الصفين اللذين سيكونان غذاء لها عند ابتداء نموه.

وما من امرئ إلا ويعرف أن في داخل ذلك القرن حبوباً تسمى الفول، إن هذه الحبوب كبيرة، ويمكنك أن تلاحظ النبات الصغير بين فصيه اللحميين، وباللسان النباتي كوتيليدونس وهذان الفصان ظرف أو غلاف لهذا النبات الصغير. وهما سيكونان فيما بعد غذاء له حينما يبتدئ ينمو عند زرعه في الأرض.

وهناك نباتات أخرى عند امتحانها تظهر أنها كنبات الفول وشقيقه شجرة المكنسة. من هذه النباتات ما يسمى «لوسرن» فهي كالفول سواء بسواء.

وهكذا نباتات كثيرة. وهذه كلها تندرج تحت فصيلة عامة تسمى الفصيلة البقلية أو العشبية. وتسمى أيضاً فصيلة بقل القدور، لأن كثيراً من هذه يستعمل في أنواع الطبخ ليأكله الناس أمثال الفول. وبهذا تم الكلام على الفصيلة البقلية وفصيلة بقول القدور والمراجل.

الفصيلة الوردية

لنفصل الآن الكلام كرة أخرى على زهرة الكمثرى، ولنوضحها إيضاحاً أتم. وذلك بدراسة ما هو من فصيلتها، وهي زهرة الورد (شكل ٣٢)، وزهرها أكبر من زهر الكمثرى.



(شكل ٣٢)
الورد البري (ا) الكأس (ب) التويج (ج) أعضاء التذكير (د) المبيض.

فأنت ترى أن لها خمس ورقات تكون الكأس (ا) وهي متحدة معاً عند القاعدة. وخمساً أخرى تكون التويج (ب) ثم عدد كثير جداً من أعضاء التذكير (ج) وأخيراً المبيض (د) المخبأ تحت الكأس وهو به ملصق. (شكل ٣٢).

إن أوصاف هذه الزهرة في الورد البري تنطبق على أزهار نباتات كثيرة منها ما يسمى «الفريس» وله ثمر كالتوت. ومنها شجر العوسج أو العليق. وشجر اللوز. وشجر الكرز. وشجر الخوخ أو البرقوق وهكذا. فأزهار هذه الأشجار كلها عند امتحانها تظهر على هذا النمط، إذن هي فصيلة واحدة وإن اختلفت مظاهرها، وإن أهم اختلافها إنّما يظهر في المبيض أولاً. ثم فيما انقلب إليه المبيض وهو الثمر.

ألا ترى أننا نرى بعض هذه النباتات من هذه الفصيلة تحمل فاكهة لحمية، وفي داخلها البذر. وذلك مثل الكمثرى والتفاح. وبعضها يرى في داخل المادة اللحمية مادة حجرية بدل البذور. وذلك كالخوخ والكرز. والبرقوق وبعضها يحمل مادة لحمية قليلة مع لب. وذلك كاللوز ونحوه.

ولما تساوت هذه النباتات في تركيب أزهارها جعلها كلها علماء النبات تحت اسم الأسرة الوردية، لأن جميع أزهار هذه الأشجار مشابهات لزهرة الورد التي شرحناها في تركيبها. هذه تريك أهمية بنية الزهر وتركيبها. فلنستمر في بحثنا. ولنمتحن بعض هذه الأزهار الجميلة التي تظهر في فصل الربيع ذهبية أزهارها كهيئة أزهار الكمثرى التي تقدم شرحها. وهي أسرة الورد البري المتأنق ذو الزهر

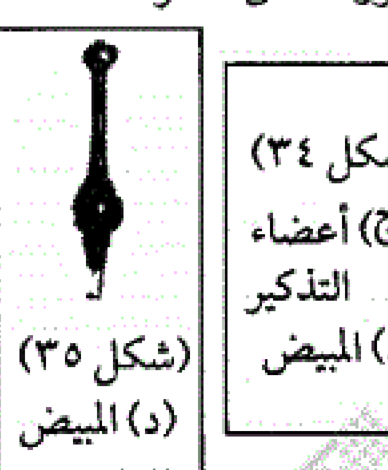
الأصفر. وهو بالإنجليزية «كوسلب» (شكل ٣٣). قال المؤلف: إنـه يكون كثيراً في مراعينا في فصل الربيع. فانظر الزهر فإنك تجد فيه خمس ورقات تكون الكأس متحدة معاً (ا)، ثم خمسة أخرى متحدة أيضاً عند قاعدتها لتصور أنبوبة طويلة جميلة، فلنفتح هـذه الأنبوبة (شكل ٣٤)، إننا نجد في داخلها خمسة أعضاء التذكير ملتصقة بجانب الأنبوبة (جـ)، وعند أسفل هذه الأنبوبة نرى المبيض (د) (شكل ٣٥) منفصلاً يحمل فوقه حبلاً ليفياً طويلاً. وهذا المبيض هو الذي يصير ثمرة أو غلافاً للبـذور. وهـذا الغلاف حينما يبلغ النبات أشده وتكمل أيامه ينشق من أعلاه ويكون أشبه بالصندوق الحقيقي (شـكل ٣٦). ومثل ما قلنا في الورد البري نقول فيما كان على شاكلته، وهي كثيرة لا حاجة لإيرادها اكتفاء بما قدمناه. فهذه كلها تسمى أسرة الورد البري أو الورد المتأنق. انظر هذه الأشكال:



(شكل ٣٣)
الورد البري
أو الورد المتأنق
(ا) الكأس
(ب) التويج



(شكل ٣٤)
(ج) أعضاء التذكير
(د) المبيض


(شكل ٣٥)
(د) المبيض


(شكل ٣٦)
ثمرة نبات من هذه الفصيلة تسمى باللغة الإنجليزية: بيمبرنل

خلاصة هذا المقام

لما وصلت إلى هذا المقام قال صاحبي: لقد طال بنا القول ونحـن الآن في تفسير آية مـن سـورة النبأ، وهي: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ فإذا لم يختصر القول تضيع الفائدة وينسى الناس أصل الآية. وإني أخاف أن كثيراً مـن النـاس حين يقرؤون هذه العجائب ينسون أصل الموضوع كما نسـي كثير من جهلـة المسلمين في العصـور المتـأخرة أصل الدين وهو القرآن والسنة ونور النبوة بعلـوم اللغـة العربية، أو بفروع الفقه، ومـن ضـل في ذلـك يقـال لـه: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] فأنـا الآن أخـاف أن تنسـى بعـض النفـوس أصـل الموضوع ويدخلون في تفصيل النبات وهم ساهون لاهون.

فقالت: يا صاح، ليس كل امرئ بقارئ لهذا الكتاب. فالنفوس الضعيفة تنفر منه. وأيضاً أنا كنت عزمت في نفسي أن أقتصر على ما ذكرت هنا، وأرجئ الكلام على بقية أقسام النبات وبهجة جمالها إلى سورة «عبس» عند قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ ولكني لا أذر هذا الموضوع اليوم حتى أكتب عليه ما جاش بصدري من بهجة الجمال العلمي والمنهج الحكمي، فأقول مستعيناً بالله:

ينحصر النبات في ثلاثة أقسام: الشجر والشجير والأنجم. وهي ما لا ساق لها، وهذا الحصر فيه غموض، فلذلك عدلوا عنه إلى أنه إما سنوي وإما ذو سنتين وإما ذو سنين كثيرة. وهذا أيضاً لم يكـن كافياً في تقسيم النبات لما ورد عليه من اعتراض بتدخل الأقسام في بعضها، ولم يجد العلماء أسـاً عليه

يبنى تقسيم النبات مثل الزهر وثمره وحبوبه، فقسموه أولاً من حيث بذوره إلى ذي الفلقة الواحدة وإلى ذي الفلقتين، فذوات الفلقة الواحدة منها: البصل، والثوم، والكرات البلدي، والكراث أبو شوشة، والهليوم، والصبار، والنخل، والدوم، وجوز الهند، والقمح، والأرز، والذرة الشامية، والذرة العويجة الرفيعة، والشوفان، والشيلم وغيرها.

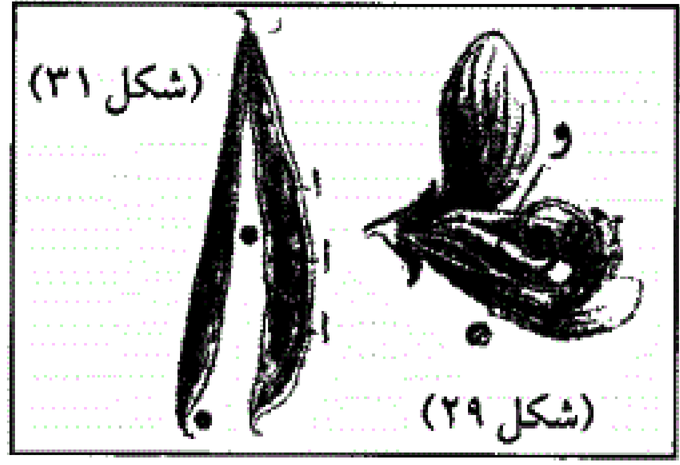
وذوات الفلقتين منها: الكرنب، والقنبيط، والفجل، واللفت، والشليك، والتفاح، والكمثرى، والمشمش، والخوخ، والكريز، والبرقوق، والورد، والباذنجان، والطماطم، والتبغ، والبطاطس، والفلفل والسنط، والقثاء، واللبخ، والمستحية، والتمر هندي، والخروب، والسنامكي، والفول البلدي، والفول الرومي، والفاصوليا، والعدس، والحلبة، والحمص، والفول السوداني، واللوبية، والبسلة، واللبلاب والترمس، والبرسيم البلدي والبرسيم الحجازي، والقطن، والبامية والخبازى، واللوف والحنظل.

وقد جاء في هذا المقام بعض ذلك. ثم إن الزهرة تامة التركيب كزهرة الكمثرى فيكون لها كأس وتويج وأعضاء تذكير وأعضاء تأنيث. وإما ناقصة التركيب فلا يكون لها كأس، أو ينقصها تويج، أو هما معاً كزهرة البندق. ومن الأزهار ما يكون ذكرها وأنثاها في شجرة واحدة كالذرة. ومنها ما يكونان في شجرتين إما في قطرين متباعدين فلا ثمرة لهما كما في الصفصاف. وإما متقاربين فلهما ثمر كالنخل. وسأستوفي بقية هذا المقام في سورة «عبس» فارتقبه.

بهجة العلم وجمال الحكمة في هذا المقام

اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم وبهجة الحكمة. إن العلم أجلّ سعادة. وأن الجهل هو العذاب المهين.

رباه، نعيش في هذه الأرض ونحن حيارى لا ندري ما يراد بنا. نراك ملأت أرضنا من الزروع والأشجار والحب والفاكهة. ونحن نأكل ولكننا غالباً غافلون. السماء فوقنا والهواء وضوء الشمس وضوء الكواكب والسحب، وهكذا البحار حولنا والأمم والممالك، وكل منا بنفسه مشغول. وأنت الذي أردت أن تشغله. لأن أكثر الناس لم يستحقوا أن يفهموا هذا النظام. لذلك شغلتهم بأنفسهم ليحافظوا عليها. وهم عن العلم والحكمة مصروفون.



(شكل ٣١)
(شكل ٢٩)

أذكر أنني كنت في زمن الشباب والفتوة أجلس في الحقول وأتأمل زهر الفول المشبه (شكل ٢٩) وما بعده إلى (شكل ٣١)، ولكني ما كنت أفهم فيه شيئاً. غاية الأمر أني أنظر ظواهر اللون والشكل وأنا عن الحقائق بعيد.

يا سبحان الله! نأكل الحبوب كالفول ونغذي به دوابنا ونكتفي بهذا، فأي فرق إذن بين الإنسان والحيوان؟ نعم هناك فرق واحد وهو أن الإنسان أكثر شغلاً وتعباً ونصباً من الحيوان، مهتم بالنهار مفكر بالليل، فعلينا النصب ولدوابنا أن تأكل ما تشاء، فأنا اليوم أحمد الله على نعمة العلم ونور الحكمة.

نظرة في زهرة شجرة المكنسة والفول

وخواطري حين رسمتها في هذا المقام

لقد تقدم عند شرح هذه الزهرة أن أعضاء التذكير عشرة، وأن هناك واحداً منها في الرسم مرتفعاً إلى أعلى. والتسعة الباقية منضمة غير مرتفعة، ولما رسمتها في هذا المقام خطر لي ما يأتي:

لقد نامت أعضاء من هذه العشرة، والعاشر منها ارتفع إلى أعلى، إلى ماذا يشير هذا النظام. إن هذا العضو المرتفع في نحو الفول إلى أعلى يقول بلسان فصيح: يا أهل الأرض، أنتم لا تفكرون إلا في الأمور الخاصة بشهواتكم، فتسعة أعشاركم، بل ٩٩ في المائة منكم، بل ٩٩٩ منكم لا يفكرون إلا فيما حولهم وفي الأمور الشهوية.

أيها الناس، خذوا حذركم. أيها الناس، اقرؤوا هذه الآيات، إن الله لم يذكر ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[النبأ: ١٥-١٦] إلا بعد أن قدم مقدمة بذكر الأرض والجبال والليل والنهار والسماوات والشمس والسحاب والمطر، وهو لم يخلق لكم هذه الحبوب ولا هذه الفواكه إلا لتذكركم بالعلويات، والعلويات مذكرات بي، فأنتم بين أمرين: إما موت بالحياة الحيوانية كأعضاء التذكير إخوتي المنضمات، وإما حياة بالنظرات العلوية كحياتي أنا، إن انتصابي بين إخوتي أعضاء التذكير ذكرى لكم أن لا تقفوا عند العوالم الأرضية، فليس حب الفول بقاصر في تكوينه على الأرض. فللشمس وللهواء وللسحاب وللمطر ولجميع العوالم العلوية أقوى الأثر. بل لولاها لم يكن طعام ولا شراب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين.

انتهى خطاب عضو التذكير المرتفع في زهرة أمثال الفول، وسيتم هذا المبحث كما قدمناه في سورة «عبس» إن شاء الله تعالى.

وبهذا تم الكلام على سورة «النبأ»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات
هي مكية
آياتها ٤٦، نزلت بعد سورة النبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨) أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١) قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ (٢٦) ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا (٣١) وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٣٤) يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٤١) يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا (٤٦) ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾ . اعلم أن الله عز وجل برهن على البعث في السورة السابقة بما نشاهد من أحوال الحيوان في مهده وانطلاقه، ثم أبان كما شرحته لك العذاب الذي يلازم النقص. والنعيم الذي يلازم الكمال، وقد بينا أن عالم النبات والحيوان والإنسان درجات. وأن درجات الأرواح بعد الموت أشبه بتلك الدرجات ارتقاء مرتبة فوق مرتبة، وأبـ هناك أن العذاب والنعيم ماديان ومعنويان. وقدم الماديين على المعنويين على سبيل الارتقاء المرتب، فصار العذاب قبل النعيم كما كان الحيوان أقل من الإنسان. والنبات أدنى من الحيوان وأسبق منه. هكذا أتبعه بالعذاب المعنوي والنعيم المعنوي بالحرمان من القرب الإلهي وبالوصول إليه، وإلى هنا كان الإنسان أشبه بالملك فجعله صفاً كصف الملائكة. وحينئذ يرى الجاهل الكافر تلك المرتبة فيتقطع أسفاً وحسرة، ويرى ذلك المقام العظيم فيقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[النبأ: ٤٠] متحسراً على ذلك الملك والنعيم العظيم، وهذا هو ملخص سورة «النبأ». فلما انتهت نفس الإنسان إلى هذا المقام الرفيع بحسب الترتيب والتدريج الطبيعي كما يشاهد في المحسوس أخذ سبحانه في هذه السورة يذكر تدرج الروح في الكمال حتى تكون مثل الملائكة المدبرين لهذا العالم. وجعل ذلك قسماً يقسم به.

واعلم أن الأرواح الشريفة القدسية المذكورة في السورة السابقة هي التي أدركت معايب هذا العالم وعرفت الحقائق فاشتاقت للقاء الله والخروج من هذه المادة، وضدها هي التي قال الله فيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[يونس: ٧-٨]، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

فهذه الأرواح العاشقة لله الزاهدة في الدنيا تتجرد عن علائقها بالدنيا فتنزع غرقاً، أي: إغراقاً بشدة، لتخرج من الأجسام، وتنشط. أي: تخرج منها، ثم تسبح في ذلك العالم، والسابحات منها ثقيلة ومنها خفيفة لقلة العلائق بالدنيا. فهذه هي السابقات سبقاً، فأقسم بها لأنها أرقى من المثقلات التي لا تسبق، وإذ ذاك تتولى تدبير العوالم بإذن ربها. وهي صفة الملائكة التي استعدت الأرواح لها في سورة «النبأ»، إذ جعلت صفاً معها، فانظر كيف رباها في السورة السابقة كتربية الحيوان، ثم أخذ يربيها في الحال الروحية حتى انتهى بها إلى منصب الملائكة وهي تدبير الأمور، ولعلك هنا تقول: أين البرهان على هذا. أنت في السورة المتقدمة جعلت الدليل خطابياً إقناعياً لا برهانياً. وهنا ليس عليه دليل ولا شبه دليل. أقول: الجواب من وجهين: الوجه الأول: أن هذا دين، والدين يؤخذ بالتسليم فلا برهان، وهذا جاءنا بطريق السمع فلا فلسفة ولا فيلسوف ولا برهان ولا مبرهن. الوجه الثاني: أن أقول لك ما جاء في إخوان الصفاء: إن الأساتذة والأدباء والعلماء إذا ماتوا كان كل عملهم إنما هو الإرشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم، وهذا التعليم الإلهامي يرقي الروح لعملها، والحي المتعلم فهو نافع للحي والميت.

وقال الفخر الرازي في هذا المقام: أليس أن التلميذ قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها، أليس إن الابن يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون، أليس إن جالينوس قال: كنت مريضاً فعجزت عن علاج نفسي فرأيت في المنام واحداً أرشدني إلى كيفية العلاج.

وقال أيضاً: أليس إن الغزالي قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن إنساناً شابه الإنسان الأول في الروح والبدن فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير، فتسمى تلك المعاونة إلهاماً، ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة. انتهى.

ولعلك تقول: هذه لا تقنعني فهل العلم الحديث يؤيد هذا؟ أقول: نعم. إنهم أغرقوا في هذا العلم إغراقاً ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين، فلأسمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة في بلاد الإنجليز في خطبة خطبها في مجمع العلماء، فمما قاله ما يأتي:

وليس من العقل أن يقال: إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض. أقول ذلك مستنداً إلى أدلة علمية، لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين، إذ أني قد ناجيتهم. ثم قال: إنني مقتنع بأننا لا نضمحل عند الموت، وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا، ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير.

ومن قوله أيضاً بنفس الخطبة: وعندي أن في الوجود كائنات نسبتنا إليها كنسبة النمل إلينا، ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيئاً. انتهى ما أردته منه، والخطبة بتمامها في سورة «آل عمران» في مقامين، فارجع إليها هناك إن شئت.

وهذا بعينه ما جاء في هذه الآية أن أرواحنا تكون مدبرات أمراً، وتهتم بهذا العالم، ويكون هاهنا اتحاد العلم العصري والعلم القديم والقرآن، بل إن هذه الفكرة يقول بها آلاف الآلاف من أوروبا وأمريكا وهم من أكابر الحكماء والمفكرين.

أقول: فهاهنا أقسم الله بالنفوس الفاضلة من النوع الإنساني، إذ تفارق الشهوات في حياتها. وتنزع عنها كما تنزع عن الأبدان عند مفارقة العالم الأرضي. غرقاً، أي: نزعاً شديداً. يقال أغرق النازع في القوس، فالنزع عن الشهوات والنزع عن الأبدان ما أشدهما. فتنشط إلى عالم القدس والملكوت في حال نزاهتها في الحياة وبعد مفارقة الأبدان. وتسبح في مراتب الارتقاء العقلي والنفسي في الحياة الدنيا فتسبق إلى الكمال، وهكذا تسبح فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها وكمالها من المكملات للناس في الحياة. ومن المدبرات أمراً عند الارتقاء في عالم الملكوت الأعلى بعد الموت.

انظر إلى قوله تعالى في سورة «المرسلات»، فإنه أقسم بالملائكة وبالنفوس الشريفة كالأنبياء والعلماء المصلحين. فإنهم مرسلون للعرف، أي: للخير. فالملائكة يؤدون الوحي إلى الأنبياء، والإلهام إلى الكاملين التابعين لهم. والأنبياء والكاملون يكملون غيرهم. فهؤلاء يعصفون الباطل عصفاً فيكون هباء منثوراً. وينشرون العلم والحكمة بين الناس فيفترق الناس فريقين. ويلقون الذكر لمن يفقهون. فهناك نزول الأمر من الأعلى إلى النفوس الإنسانية لترقيتها.

وهاهنا في هذه السورة أخذ يذكر ثمرات الطوائف المرسلات للتكميل وللتكمل. وبين أن نتائج ذلك أن تخرج نفوس من العالم الأرضي إلى العالم السماوي فتخرج عن الأبدان والشهوات، وتكون نشطة في إسراعها في طاعاتها وفي مراقيها. وهكذا تسبح في المعاني والمعالي، وتسبق في الحالين، فتكون مدبرات للأمور في الأرض بتعليم الأمم وفي العالم الأعلى بعد الموت لنظام العالم.

هذا هو مستقبل الإنسان. نزول العلم من العالم الأعلى على قلوب الأنبياء إلى الناس. ثم نزوعهم وسبقهم وارتقاؤهم. اقرأ سورة «النبأ» وانظر أليس يقول الله فيها إنه أنزل من السحاب ماء فأخرج به ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ: ١٥-١٦]. ثم أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾[النبأ: ١٧]. وانظر هنا وفي سورة «المرسلات» أليست قصة المرسلات عرفاً أشبه بالمطر. فالمطر للخير. والأرواح المرسلات للخير. فالمطر للخير الحسي. والأنبياء والملائكة والعلماء للخير العقلي. ثم انظر كيف يقول هنا: إن الروح تنزع وتنشط وتسبح وتدبر. أليس ذلك نظير ما هناك: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ: ١٥-١٦].

سبحانك اللهم أريتنا العجائب والبدائع. أنزلت المطر للحب والنبات. وأنزلت العلوم بالوحي والإلهام والفكر لارتقاء الأرواح. فالمطر للحب والثمر والجنات. والعلم والوحي والحكمة لإكمال الأرواح في حياتنا وفي معارج الحياة الأخرى. وكأنه بهذا يقول لنا: إذا كان المطر نتيجته محسوسة لدسكم فالقياس الإقناعي يفيد أن نتيجة العلم معنوية عقلية. لأن النتائج على حسب المقدمات. وإذا كان للمطر نتيجة فللعلم والحكمة نتيجة. وكل النتائج تتبع المقدمات وتكون على شاكلتها.

أقسم الله بهذه وجواب القسم محذوف. أي: لتبعثن، أو: لتحاسبن ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الرجف شدة الحركة، أي: لتبعثن يوم تتحرك النفخة الأولى حركة شديدة وتضطرب بها الأرض حتى يموت كل من عليها. وصفت بما يحدث بحدوثها حال كون الراجفة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: التابعة. وهي النفخة الثانية لأنها تردف الأولى. فالأولى لإماتة الخلق والثانية لإحيائهم. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة شديدة الاضطراب. وهذه صفة لـ«قلوب». والخبر قوله: ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة لهول ما تعاين. ومنكرو البعث في الدنيا ﴿يَقُولُونَ﴾ استهزاء وإنكاراً للبعث: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا. يقال: رجع فلان إلى حافرته، أي: طريقته التي جاء فيها فحفرها، أي: أثر فيها بمشيه. فالحافرة بمعنى المحفورة، فهم ينكرون رجوعهم إلى الحياة الدنيا بطريق الاستفهام مع الاستهزاء والاستغراب وإظهار التعجيب. ثم يقولون: أنرد إلى الحياة بعد أن نصير عظاماً بالية. يقال: نخر العظم، فهو نخر وناخر. وقد قرئ: «نخرة» و«ناخرة». وهذا زيادة إنكار لأن الاستبعاد يكون أعظم إذا بلي العظم. وإن صحت هذه الرجعة فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها، فيا ويلنا يوم القيامة المزعومة. وهذا أيضاً زيادة استهزاء واستخفاف. وهذا هو قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رجعة ذات خسران. فرد الله عليهم قائلاً: لا تستصعبوها فما هي إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثانية فإذا هم أحياء على وجه الأرض. وهذا قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

أي: بوجه الأرض أحياء بعد أن كانوا في باطنها أمواتاً. والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك لأن سالكها يسهر خوفاً. ولما كان ما تقدم في هذه السورة إجمال ما عليه القوم من التكذيب بالبعث؛ وقد أقسم الله لهم بأشرف العوالم أن البعث حق؛ أتبعه بنمطين يهديان سواء السبيل:

النمط الأول: ذكر قصة موسى وهارون عليهما السلام. وكيف تلطف موسى بدعوة فرعون. وأظهر مكارم الأخلاق في هدايته. وسعى في طهارة نفسه وألقى عليه شعاعاً من نور العلم. وبصيصاً من إشراق الحكمة. عسى أن يخشى ربه بما وقر في نفسه من العلم والحكمة. فعصى وتولى وأدبر عن الحق وادعى الألوهية بدل الخشية والخضوع. فعذب في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بجهنم.

النمط الثاني: تلطفه صلى الله عليه وسلم بدعوة قومه. فإذا أرى موسى فرعون العصا واليد وغيرهما؛ فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو قومه بالنظر إلى السماء وعظمة خلقها، ورفعة بنائها، وإعلاء سقفها، وحسن نسقها ونظامها، وإحكام ظلامها وضيائها في أوقات معينة. وتمهيد الأرض للسكنى والحياة فيها بخلق الماء والمرعى وإثباته الجبال فيها، فأهم دعوة موسى بخوارق العادات كالعصا واليد. ومحمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بالنظر في العوالم العلوية والسفلية. فإذا كذب فرعون بعد تلطف موسى في دعوته؛ فلا غرابة إذا كذب كفار مكة بعد التلطف في دعوتهم. وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وبشارة بأن عاقبته النصر، وعاقبة أعدائه العذاب في الدنيا والآخرة كما كان ذلك لموسى عليه السلام.

الكلام على النمط الأول

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾. يقول الله: أليس قد أتاك حديث موسى فيسليك على تكذيب قومك مع تلطفك معهم في الدعوة. فسيصيبهم ما أصاب فرعون وقومه، يقول: هل أتاك خبر موسى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ دعاه ربه ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر ﴿طُوًى﴾ اسم للوادي ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: علا وتكبر وكفر بالله ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تتطهر من الشرك والكفر والمعاصي فيزول الشر من ظاهرك ومن باطنك فتستعد للعلوم والمعارف وتكمل بها، وهذا قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى العلوم والمعارف والعبادات ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقابه، لأن الخشية تبع العلم بجلال الله وجماله، وهما بعد تهذيب النفس.

فهذه ثلاث درجات: تهذيب فكمال علمي وعملي فخشية الله بسبب الاستغراق في الجمال الإلهي، فيخشى إذن من الحرمان والقطيعة. فلما أمر الله موسى بذلك ذهب إلى فرعون وبلغه ذلك ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي جميع المعجزات والآيات. جعل الجملة آية واحدة لأن غايتها واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ ربه بعد ظهور الآيات وتحقق الأمر ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الطاعة ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: حال كونه ساعياً في إبطال أمره ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جمع السحرة ﴿فَنَادَىٰ﴾ بمناد ﴿فَقَالَ أَنَا۠

رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ أي: لا رب فوقي، فأنا فوق أبي الهول ومن تحته من التماثيل المنحوتة، إن أسرارها كلها حولت إلي، وأنا الوارث لجميع ما لهم من المكانة والقدرة. ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي: فعاقبه الله عقوبة الآخرة بالإحراق ﴿ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ أي: والدنيا بالإغراق، فأخذ، بمعنى: نكل، أي: نكله الله تنكيل الدارين بالعذابين، فالنكال كالسلام، فهما بمعنى التنكيل والتسليم. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: في الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿ لَعِبۡرَةً ﴾ لعظة ﴿ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾ أي: يخاف الله.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

مع قوله تعالى فيما يأتي: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

وقوله هنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

وقوله في آخر السورة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون سهلاً ليناً رؤوفاً فقال: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وذكر هنا أمره سبحانه لموسى عليه السلام أن يعامل فرعون الطاغي معاملة الرجل ضيفه في حسن التلطف وجمال القول، ويخاطبه بالاستفهام المفيد العرض لا بالأمر ولا بالنهي، فكما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تزورنا؟ يقول موسى لفرعون: هل لك ميل إلى أن تكون طاهراً مما لا ينبغي؟ وأن أرشدك إلى مقام العرفان فتعرف جلال الله وجماله اللذين يستتبعان الخشية منه، فالخشية إما أن تكون من الخوف من العقاب، وإما أن تكون من كمال المخوف وروعة جلاله وجماله، والعلم من النوع الثاني، فأنت أحق بالاتصاف به، ويقرب منه: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾[النازعات: ٤٠]، وأما قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾[النازعات: ٢٦]، وقوله في آخر السورة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾[النازعات: ٤٥] فالأولى تحتمل الأمرين، والثانية خاصة بالنوع الأول.

واعلم أن الله عز وجل بهذا القول علمنا الأدب والرفق واللطف في المعاملة والمجاملة في القول حتى مع الفاسق والشرير والطاغي إذا أردنا أن نهديهم إلى طريق الصواب، وأنه عز وجل جعل العالم الأرضي الذي نعيش فيه محك العقول الإنسانية ومدار امتحانها، ومحور تهذيبها، ولم يجعله عالم أقدار حاصلة بغير نظام. فلو أن التساهل في ترك الأسباب سائغ في الحياة الدنيا لكان ذلك عند الأنبياء المؤيدين بالوحي وبالنصر، ولكنه تعالى عمم النواميس فأوجب على الأنبياء أن يسيروا على النواميس المعروفة في الوجود الشائعة في العرف، بحيث يفعلون ما يستحسنه العرف ويقبله العقل، ولا يتكلون على أنهم مرسلون من الله.

ولما كان فرعون عظيماً في قومه لم يخاطبه مخاطبة العبيد بحيث يجعل خشيته لله كخشية العبيد الناجمة من الخوف من ساداتهم، لا من الحب، بل أعظم قدره فقال: ﴿ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾[الآية: ١٩]، وهذه الخشية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾[فاطر: ٢٨] أي: الذين أدركوا حسن صنعه وجمال خلقه المذكور قبل ذلك في قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾[فاطر: ٢٧]، ولقد سمع فرعون من موسى مثل ذلك إذ قال له كما في سورة «طه»: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٣-٥٤]، وأولو النهى هؤلاء هم الذين يخشون الله بالعلم بصفاته وجلاله، فأنا يا فرعون أدعوك إلى الخشية العليا الناجمة من العلم لا من الخوف، وهذا غاية اللطف والأدب والمجاملة والرفق. وأي جمال أبهج من هذا أن يجعله في مصاف ذوي الحكمة لا ذوي المهانة والذلة وضعاف العقول، وهذا سر من أسرار هذه الآية. قال الشاعر:

أحبك إجلالاً وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها

ولقد قررنا في سورة «البقرة» أنه لا حب إلا بعد علم، فلا عاشق ولا محب إلا بعلم، فالعلم أصل الحب، ولا محب في الدنيا إلا بعد العلم بصفات محبوبه، وكلما ازداد علماً بجماله وكماله ازداد حباً له، فراجعه هناك.

واعلم أن هذا النمط من التربية هو الذي يسعى له الإنسان الآن: أن يكون الصبيان في أول أمرهم مضطلعين بالأخلاق القويمة المبنية على الإقناع والفهم لا على العصا، فتكون الهداية تتبعها الخشية، فأما الخشية من أجل العصا فإنها مذهبة لنخوة الصبيان مضيعة لشممهم فلا يكونون رجالاً أقوياء النفوس فتتخطفهم الأمم من كل جانب، فلنرب أبناءنا كما قال كتابنا، وكما هو النمط الحديث الآن في مدارس العالم قاطبة، فلتكن الهداية والعلم والفهم أكثر الأوقات، ولا تكن العصا إلا اضطراراً حتى يخشانا أبناؤنا خشية إجلال وحب لا خشية خوف وجبن، هذا هو سر القرآن وحسن بيانه وجماله وجلاله، وبهذا تم الكلام على النمط الأول، والحمد لله رب العالمين.

النمط الثاني: وهو فصلان

الفصل الأول: في تعداد مجامع النعم وعظمة خلقها

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أصعب خلقا وإنشاء ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ ﴾ أشد خلقاً. ولما كان هذا يعوزه البيان أردفه به فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ جعل مقدار ارتفاعها الذاهب في العلو رفيعاً ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ فعدلها مستوية بلا شقوق ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ وأبرز ضوء شمسها، والمراد نهارها، عبر عنه بالضحى لأنه أكمل أجزائه نوراً ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ بسطها ومهدها للسكنى وكانت مخلوقة غير مدحوة، ثم فسر البسط والدحو فقال: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا ﴾ بتفجير العيون ﴿ وَمَرْعَىٰهَا ﴾ كلأها ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أثبتها، فعل ذلك ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي: تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

هاهنا ثلاث لطائف:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾[النازعات: ٢٨].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾[النازعات: ٢٨].

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[النازعات: ٣٠].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾[النازعات: ٢٨]

اعلم أن الله خاطبنا على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات بما يحدث العلم في النفس، فتكون الخشية عن طريق العلم بما في السماوات وما في الأرض، فهل لك أن أذكرك بسمك السماء، تنظر في الليالي المظلمة فترى بناء مكوراً بحسب ما يرى أمام العين مرصعاً بالنجوم الجميلة المنظر البهجة الأشكال الحسنة النظام، فترى في منظرها الظاهري أحاسن الأشكال، وتطلع بالعين المجردة على نجوم مختلفة الأقدار قد أوصلها العلماء إلى نحو ستة أقدار بالعين المجردة، وازدادت الأقدار بالآلات إلى عشرين قدراً مما لم يره الإنسان، والذي يهمنا في هذا المقام بعد السماء جهة العلو وما مقدار أبعاد السماء في الارتفاع.

لقد بان جمال الله في هذا الزمان أكثر من كل زمان، فإذا قال بعض القدماء: إن المسافة بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، فهذه المسافة أصبحت في العصر الحاضر ليست شيئاً مذكوراً، فالعلم اليوم أرانا جمال الله في ارتفاع سمائه وذهابها في العلو، فإذا عرفت ما ذكرناه في هذا التفسير نقلاً عن التقرير المرفوع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا سنة ١٩٢٣م في سورة «آل عمران»؛ أدهشك جمال الله في العالم السماوي، فلأذكر قليلاً منه الآن مما يناسب المقام.

اعلم أن النور يسير في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلومتر، فتأمل بعقلك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين فأكثر، ثم انظر كيف تكون الحال إذا كانت شمسنا معتبرة أنها قريبة جداً بالنسبة للكواكب التي نراها ليلاً، إننا لا نصل إلى الشمس إذا ركبنا قطاراً بخارياً يجري ليلاً ونهاراً إلا بعد ما يقع نحو ٣٥٤ سنة تقريباً، والضوء يقطع هذه المسافة في ٨ دقائق وثمان عشرة ثانية، فما بالك بالأجسام النيرة التي يصل ضوؤها إلينا في مليون سنة، وأربعمائة وخمس وثمانين سنة في آخر كشف، إن قلة المدفع تصل إلى الشمس من الأرض في نحو ١٢ سنة وقلنا: إن الضوء يقطع هذه المسافة في دقائق، فيا ليت شعري ماذا يقطع المدفع من الزمن والقطار من السنين حتى يصلا إلى ذلك البعد الشاسع، فإذا كانت قلة المدفع في اندفاعها سنة ونصف سنة تقطع ما يقطعه النور في ثانية، وإذا كان القطار يقطع في ثلاثين سنة تقريباً ما يقطعه النور في ثانية فكيف تكون الأبعاد الشاسعة التي تزيد على ألف ألف سنة بسير النور، أعني أنك تعلم الآن أن بعض الأجرام السماوية التي نراها والتي لا نراها بعيدة بعداً لا يتصوره العقل ولا يحصيه الحساب، ويجري إليه النور في أبعد من ألف ألف سنة.

أفلست أيها الذكي الآن أحسست في نفسك ببهجة وإعظام وإجلال لمنشئ هذا العالم وحصلت عندك خشيته، وهذه الخشية هي الحاصلة من العلم بالصنعة.

حكاية فلاح مصري

قال لي أحد الفلاحين من مديرية الشرقية وهو يحادثني: لقد سول لي الشيطان مرة أن أطلق الماء من النهر على حقل عدو لي فأغرق أرضه لأهلك زرعه، فلما نزلت إلى النهر رأيت لمعان النجوم في الماء فهالني الأمر، وقلت: هل يليق أن أعصي من أحسن هذا الخلق وجمل شكله وأراني رقصه في الماء وبهجته وحسنه وجماله يلمع في الماء؟ لا. لا. إنه الخالق العظيم فليس لي أن أعصيه. اهـ.

هكذا كان كلام الفلاح المصري لي، ولكن أنت عرفت ما لا يخطر بباله، هو رأى أثر الكواكب في الماء كأنها دراهم منثورة فيه، ولكن أنت رأيت عظمتها وبعدها الذي لا يحصى، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾[النازعات: ٢٨]. فهاأنت ذا عرفت تلطف الله معنا على لسان رسوله، وإنه بهذه الآيات يرفعنا إلى مستوى عالم الملائكة بالعلم والعرفان، فتكون خشيتنا علمية لا خشية الجاهلية المبنية على التخويف. أليس هذا في اللطف كما قال: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[النازعات: ١٨-١٩]. فهاهنا تلطف بالبحث العلمي لتكون خشيتنا كخشية الملائكة وكخشية الأنبياء، كما في الحديث: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له». وفي سورة «البقرة» و«آل عمران» وغيرها من عجائب السماوات ما فيه غنية لذي لب، وما ذكرناه هنا كاف لهذا المقام. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾[النازعات: ٢٨]

اعلم أن التسوية في كل شيء بحسبه، وهذه النجوم المشرقة ليلاً لا حصر لها، وما عرفه العلماء منها قليل جداً، وإن وصل إلى مئات الملايين، وهذه النجوم التي لا تحصر بينها نظام ولها حساب. حساب في حركاتها وحساب في أبعادها، فكل شيء هناك بنظام، ولأذكر لك منه نموذجاً في أقرب الأشياء لدينا، فانظر إلى شمسنا وإلى السيارات حولها، ولنفرض أن تسعة رجال أوقفوا أمام هرم الجيزة مثلاً، فجعلنا الأول منهم بجانب الهرم مباشرة، والثاني يبتعد عن الهرم بثلاثة أذرع، والثالث ٦، والرابع ١٢، والخامس ٢٤، والسادس ٤٨، والسابع ٩٦، والثامن ١٩٢، والتاسع ٢٨٤ ذراعاً.

إذا عرفت هذا المثل فاعلم أن الشمس هي الممثل لها بالهرم والأشخاص التسعة المذكورون أمثال لعطارد والزهرة والأرض والمريخ ونجم قد قامت قيامته وبقيت آثاره والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون، فهذه الأجرام التسعة ترتيبها في الأبعاد على هذا المقياس ٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ الخ، بحيث تكون الأبعاد على هيئة المتوالية الهندسية المعروفة في الحساب التي فيها من العجائب ما يدهش العقل ويحير اللب، كأن يكون حاصل ضرب الطرفين فيها يساوي حاصل ضرب الوسطين إلى آخر ما هنالك في الحساب. انظر هذا المقام في سورة «البقرة».

وهذه هي المسألة التي اشتهرت في حساب بيوت الشطرنج، وكيف كان عدد حبات القمح المجموعة باعتبار الأربعة والستين بيتاً لا يمكن استخراجها من جميع ممالك الأرض. فإذا جمع ١+٢+٤+٨+١٦، وهكذا من حبات القمح إلى ٦٤ عيناً، كان هذا القمح غير متيسر الحصول لأهل الأرض قاطبة كما أوضحته في كتابي «الفلسفة العربية».

انظر إلى حسن الصنع الإلهي، وكيف رتب أبعاد السيارات عن الشمس بهذا النظام الحسابي العجيب المبني على حساب المتوالية الهندسية. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾[النازعات: ٢٨]، أليست هذه هي التسوية، نجوم نراها منثورة في السماء فلا ندري هل بينها مناسبات، فنرى بالعلم أن حساب أبعادها بغاية الدقة والنظام ومدهشات الحساب، ولعلك تقول: هذا النظام لم أقرأه إلا الآن، وكأن الناس محرومون من هذا النظام إلا من عرف ما قلته لنا الآن.

أقول: على رسلك، إن الله كما أمر موسى أن يتلطف في التبليغ قدم هو حسن اللطف والبلاغة في فعله، ألا ترى أننا إذا وقفنا ليلاً في الفلاة ونظرنا نجوم السماء فإننا نشعر بلذة لا تفوقها لذة حينما ننظر إلى السماء فنراها قبة نظيفة مرصعة بالدرر الغوالي والنيرات الحسان، ونرى هذا السقف المكور أملس نظيفاً جميلاً لا فروج فيه ولا شقوق، وقد عجز الإنسان أن يقلد هذا السقف إلى الآن لحسنه وجماله وإشراقه وإبداعه، فهذه هي التسوية الحسية، نرى النجوم المختلفة الأبعاد من دقيقة بسير النور إلى يوم بسيره إلى سنة إلى مائة سنة، إلى ألف سنة، إلى ألف ألف سنة، نرى هذه كلها بأبصارنا أنها في مستوى واحد وسقف واحد، وأي لطف أبدع من هذا أن يجمع ما اختلفت أبعاده اختلافاً بيناً فيجعله في مستوى واحد ليعرف ذلك العامة والجهلاء، ولا يحرم عباده من البهجة بجمال صنعه، وهذا أجمل اللطف وأبدعه، إذ يعلم الجهلاء والعلماء كل في مرتبته، فإذا رأى الجهال أن هذه القبة المرصعة جميلة ملساء نيرة فذلك يكون أشبه بما اعتادوه في منازلهم من السقف المرفوع في بيوتهم، فأما العلماء فإنهم يشاركون الجهلاء في هذا المنظر البهج، ويزيدون عليهم بما عرفته مما يهدم ما بناه النظر الظاهري للجهال والعلماء على حد سواء، فعلم الجهال كعلم الفلاح المصري في الحكاية السابقة بالنجوم في الماء، وعلم الحكماء قد عرفته، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾[النازعات:٢٨]. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾

لا بد لهذه الآية من تقديم مقدمة حتى يتضح معناها، لأسمعك ما جاء في علم طبقات الأرض فأقول ومن الله التوفيق:

لقد قال علماء هذا الفن: إن الأدوار التي مرت على الأرض في تكونها سبعة أدوار:

الدور الأول: إنها انفصلت عن الشمس وهي كرة نارية فدارت حولها، والنار متى تعرضت للجو أخذت تبرد شيئاً فشيئاً، فالأرض في أول أمرها كانت كلها ناراً، فالحديد والنحاس والصخور والطين كل هذه كانت ناراً.

الدور الثاني: صارت الأرض فيه مغلفة بطبقة من الصوان شديدة الصلابة، وكان المطر إذ ذاك كبريتاً وحديداً ونحاساً ورصاصاً وذهباً وفضة وهكذا، وهذه القشرة قدروا لها ثلاثمائة مليون سنة.

الدور الثالث: ظهر فيه الطحلب وأنواع الفطر وبعض الحيوانات فوق ما رسب من الطبقات المختلفة الطينية، ومن الحيوانات ظهرت أنواع من السمك لا وجود لها اليوم.

الدور الرابع: برزت فيه الأشجار الخشبية، والحيوانات صارت أحسن تركيباً وأكمل بنية من حيوانات الدور السابق، وكان فيها حيتان لها ثديان وتماسيح يتجاوز قدرها ثلاثين ذراعاً، وفي نهايته انقرضت أنواع واستبدلت بغيرها.

الدور الخامس: اهتزت الأرض وارتجفت لأن قشرتها تشققت فخرجت المواد الذائبة في باطنها إلى ظاهرها، وخرج من الطبقة الصوانية التي تلي كرة النار في باطن الأرض هذه الجبال كأنها

الأسنان، والطبقات الأخرى فوق الصوانية كأنها اللثاة لها، وبعد انقراض كل شيء، تجددت أنواع من النبات والحيوان غير التي قبلها.

الدور السادس: حصل طوفان عام للأرض بالنار الخارجة من باطنها فانقرض كل شيء، وتكونت هناك طبقات يقال لها الطبقات الطوفانية، وفي هذا الدور اكتسى القطبان بالجليد، وكان ذلك فجأة.

الدور السابع: العصر الحالي الذي تبع عصر الطوفان الناري، وفيه استتبت السكينة على وجه الأرض كما ترى الآن.

هاأنا ذا لخصت لك مجموع الأدوار السبعة، وقد ذكرتها فيما مضى من التفسير في كل مقام بحسبه، وتراها في سورة «هود» فهل لك أن تسمع تطبيق الآية عليها، وأن تتعجب من القرآن وبدائعه؟ عجباً! ألست ترى أن قوله: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾[النازعات: ٢٩] لم يكن إلا في العصر الصواني، لأن الأرض قبل ذلك العصر لم تكن إلا كرة نارية، فهي إذن دائماً مشتعلة أشبه بالشمس، فإشراق الشمس عليها لا يستبين فيه ليل ولا نهار، لأن الليل والنهار إنّما يكونان في حال اكتسائها بقشرة غليظة لا نور ولا نار فيها، وهذه القشرة الحالية البالغة مائة كيلومتر التي هي كقشرة التفاحة بالنسبة للتفاحة معتمة، فيكون نهارها في الجهة المقابلة للشمس وليلها في الجهة الثانية دائماً، فإغطاش الليل وإخراج الضحى قد ابتدأ من العصر الضوئي، ولا زالت القشرة تعظم إلى وقتنا الحاضر، فإذا كانت هي مائة كيلومتر فقطر الأرض كله ثلاثة عشر ألف كيلومتر، ونصف القطر نحو النصف من هذا، فبهذا يستبين لك كيف كانت القشرة كقشرة التفاحة والداخل كله لا يزال ناراً.

هذا تفسير قوله: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾[النازعات: ٢٩] أي: حينما ابتدأت الأرض أن تربي قشرتها الصوانية، فظهر النهار في جهة الشمس والليل في الجهة الأخرى المحجوبة عن شعاعها، والأرض نفسها معتمة القشرة، ثم قوله: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[النازعات: ٣٠-٣١] لا جرم أن هذا في الدور الثالث والرابع، لأن أول ظهور النبات فيهما، والدور الثاني الصواني لا نبات فيه، فليس فيه دحو للأرض. وأما قوله: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ فهذا لم يكن إلا في الدور الخامس، وهو عصر ظهور الجبال من الطبقة الصوانية التي اخترقت بعض أجزائها الطبقات الأخرى فوقها وظهرت منها الجبال.

أليس هذا المقام مدهشاً للعقول، كيف يكون ترتيب هذه الآية على نسق ترتيب علم طبقات الأرض؟ وكيف يتفق العلم الحديث وآيات القرآن، بل أقول فوق ذلك: بمثل هذا يكون الإعجاز، وبمثل هذا ترتقي أمة الإسلام، سيقرأ هذا كثير من الشبان والشيوخ ويدهشون إذ يرون نظم هذه الآية جمع علماً بتمامه، وهذا العلم له شأن عظيم في الأمم المعاصرة، ثم يعض الذكي المسلم على يديه حسرة وندامة ويقول: إذا كان هذا العلم الذي يقول أهله إن براهينه مشاهدة محسوسة هو هو نفس ما في القرآن، فكيف عجز المسلمون في العصور المتأخرة عن هذه العلوم، أليس هذا العلم علمنا؟ أليس هذا نص كتابنا.

فإذا قال الله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠] فإنا نقول: في ترتيب هذه الآية آيات للمسلمين حتى يكون الناسك منهم مؤمناً، والجاهل منهم يحزن على ضياع حياته بلا رأي ولا هدى ولا كتاب منير، وانظر كيف تضاربت أقوال علمائنا رحمهم الله في مثل هذا المقام، وجاء العلم الحديث فأفادنا أن قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[النازعات: ٣٠] أصبح مبرهناً عليه في العلم، فالأرض كانت موجودة فعلاً، ولكن لم تدح ولم تنبت إلا بعد ذلك. إن في ترتيب الجمل في القرآن معاني تشير إلى علوم، وانظر إلى مذهب الشافعي إذ جعل أعضاء الوضوء مرتبة بترتيب ذكرها في القرآن، واستدل بحديث: «ابدؤوا بما بدأ الله به»، فإذا جعل إمامنا الشافعي رضي الله عنه أعضاء الوضوء مرتبة كترتيب الآية وجوباً؛ فإنا نقول: وهذا علم طبقات الأرض أصبح مأخوذاً أوله وآخره من ترتيب هذه الآية.

أما آن للمسلمين أن يدرسوا، أما آن لهم أن يقرؤوا القرآن بفهم، أما آن لهم أن يدرسوا الكرة الأرضية التي نعيش عليها ويعرفون أولها وآخرها على مقتضى هذه الآية، ولعمري ما منع أمة الإسلام من العلم ونور الله الذي أشرق على الأرض إلا كبرياء بعض الكبراء والعلماء والخوف على مراكزهم أن تزول بظهور علوم لم يدرسوها، فيحجبون العلم عن الناس، وأن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء فليس لهذه الطائفة بعد اليوم سلطان على المسلمين، وسيرفعون الحجب وتظهر لهم الحقائق، والله خير الناصرين. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول من النمط الثاني، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني من النمط الثاني

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ الداهية التي تطم، أي: تعلو على سائر الدواهي. ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ التي هي أكبر الطامات، وهي القيامة، أي: النفخة الثانية. ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته وقد كان نسيها من فرط الغفلة أو طول المدة، وقوله: «يوم» بدل من «إذا». ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ ﴾ أظهرت ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴾ لكل راء بحيث لا تخفى على أحد، وجواب إذا قوله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي: جاوز الحد فكفر ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ على الآخرة باتباع الشهوات ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فليس له سواها مأوى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: علم أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ ﴾ الأمارة بالسوء ﴿ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ الذي يؤذي، أي: زجرها عن اتباع الشهوات والجهل بما يجب علمه، والهوى: ميل النفس إلى الشهوات، ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي: المرجع. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى إرساؤها، أي: إقامتها، أي: متى يقيمها الله ويثبتها، من مرسى السفينة، وهو حيث تنتهي إليه وتستقر فيه. ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾

أي : في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به . أي : ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء ، فلست في شيء من علمها ، وكيف نعلمك وقتها فتعلمهم به ؛ وقد حكمنا أن يكون وقت الساعة غير معلوم ، ليجدّ الناس في أعمالهم ، فإن في العلم خيراً في شيء ، وفي الجهل خيراً في آخر ، فلو عرف الناس مستقبلهم في حياتهم لم يجدّوا عاملين ولم يكونوا كاملين ، هكذا كل ما جهله الناس ، فجهله خير لهم لو كانوا يعلمون ، لولا جهل الناس بآجالهم ما بنوا المباني العظيمة ، ولا شيدوا القصور الفخمة ، ولا سعوا سعي الجدين ، فالساعة لا علم لك بها ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أي : منتهى علمها لا غيره ، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ فنحن إنما بعثناك لإنذار من يخاف هولها ، أما من لا يخشاها فليس ينتفع بالإنذار وإن أنذر . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ ﴾ في الدنيا أو في القبور ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أي : أو ضحى يومها . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

هاهنا أربع لطائف:

الأولى : في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾ .

الثانية : في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾ .

الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ .

الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) ﴾ وهاك بيانها :

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾ .

اعلم أن الأدوار التي ذكرناها في كرتنا الأرضية وعددها سبع قد تراكمت في قشرتها ٢٦ طبقة في غير الدور الأول الناري ، وما من طبقة من تلك الطبقات إلا وكان فيها أهوال تشيب لها الولدان لا سيما في دور العصر الخامس من الأعصر العظيمة التي تكونت فيه الجبال الشوامخ ، والعصر السادس الذي فيه يحصل الطوفان الناري الذي قلب وجه الأرض وجردت من زينتها ، فهذه من النكبات العامة ، وكم من نكبات حلت بالأرض فجعلت العامر خرابا والخراب عامرا .

يقول الله : لكن هذه الطامة أكبر تلك الطامات ، لأنها تغير الأرض إلى حال أخرى . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾

سأنقل لك الآن ما جاء في علم الأرواح من المدهشات ، وكيف أصبح فهم هذه الآية والإيقان بها يتعلق بعلم الأرواح ، إن تذكر الإنسان ما سعى ليس عليه دليل عقلي ، وإنما هذا جاءنا من طريق النقل واتباع الأنبياء الصادقين ، ولكن هذا العلم الذي جاء بالسماع أصبح اليوم معروفا عند الجمعيات النفسية . فقد كشفوا أن الإنسان منا له درجات ثلاث . لكل درجة منها معلومات خاصة . ففي يقظته يعرف ما نحن به عالمون .

وإذا نوم في الدرجة الأولى اتسع علمه ، وفي الثانية ازداد اتساعا ، أما في الثالثة فيكون من عالم غير عالمنا . ويخبر بماضيه ومستقبله . وكل شيء حصل له .

أليس من العجب هذا، سبحانك اللهم أريتنا العجائب، قلت لنا: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾[النازعات: ٣٥]، ثم ألهمت قوماً مما لا يعرفون ديننا فجربوا تجارب جعلت ما كان سمعياً عندنا يقينياً بالعمل. إن العلم اليوم يجرى حثيثاً نحو الإسلام.

انظر ما كتبته في سورة «البقرة» في التنويم المغناطيسي وتأمل كيف يكون ثلاث درجات: الأولى: أن يفقد المنوم ـ بالفتح ـ الإحساس ويلبث شاخص العين ويتلقى أوامر الذي ينومه. والثانية: أن يفقد الإحساس ويغلق عينيه كالحال الأولى. ولكن هذا يسمع ويبصر ويتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس، فلا دخل لعينه في البصر، ولا لأذنه في السمع في بعض الأحوال. الثالثة: أن يحصل انخطاف روحي فيعرف النائم نفسه معرفة تامة. ويصف العلل والأدوية، ويسمع عن بعد سحيق. وينبئ عن حوادث مستقبلة، ويتكلم بلغات شتى، ويرى أرواح الأموات، ويصف هيئاتها، وينقل إلى الجالسين أقوالها. انتهى ملخصاً مما في سورة «البقرة» في هذا التفسير.

فهذه الدرجة الثالثة تقرب من درجة الإنسان بعد الخروج من الجسم، وهذا معنى قوله: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾[النازعات: ٣٥]، فإن الجسم يحجز الروح عن تلك الذكرى. فإذا خلص منه انطلقت النفس، والويل لها إذا كانت جاهلة أو خبيثة. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

لما ذكر الله في الفصل الأول من النمط الثاني بهجة السماء وجمالها، وحسن الأرض وبهاءها أعقبه في الفصل الثاني هنا بالوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا. وفي تعقيب الطغيان بإيثار الحياة الدنيا دفع لما يتوهمه الجهال أن الطغيان إنّما يكون لأمثال فرعون، إذ قاله الله فيه ما تقدم في هذه السورة، فأعاد الطغيان هنا وقرنه بإيثار الدنيا ليعلم الناس جميعاً أنهم جميعاً مسؤولون عن التهاون في أنفسهم، فيقول المسلم الغر: أنا لست طاغياً كفرعون، فيقول له الله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾ ولم يقيده بحال من الأحوال، لم يقل هو كافر أو مؤمن.

نعم إن المؤمن لا يخلد في النار، وإيثار الحياة الدنيا والانهماك فيها مما يباعد المرء عن دراسة رفع سمت السماء وتنظيمها. وإبداع نهارها وليلها، ودحو الأرض، فالغفلة عن ذلك من المستعد له مما يشبه إيثار الحياة الدنيا بالإخلاد إلى الأرض والجهالة. انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾

لما ذكر الله أن موسى قال لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[النازعات: ١٩] ختم السورة بقوله: إنك يا محمد لا ينفع إنذارك إلا لمن يخشى، فأما من لا يخشى فإنه يلحق بفرعون ويعاقب كعقابه. اهـ.

خاتمة تفسير السورة

لقد قرأت أيها الذكي في هذه السورة بدائع السماوات ونظمها وتناهيها في البعد الشاسع علواً وحسن تنسيقها، واطلعت على نظام الطبقات الأرضية والموازنة بين الآيات وعلم الطبقات الأرضية والعلوم المغناطيسية، وأدركت الإعجاز والإبداع العلمي، فهل لك أن تفكر ساعة في بعض من يشار إليهم بالبنان من علماء الإسلام وهم لا يزالون في أمثال هذا المقام على الحال الأولى في العلم، فغاية ما يتبهجون به من عجائب القرآن أن ينظروا الجناس بين ضحاها ودحاها، وبين الراجفة والرادفة، والطباق بين عشية وضحاها، فأمثال هؤلاء يظنون أن هذا منتهى علوم القرآن. وفاتهم أن ذلك همة طالب العلم اللغوي في أول أيام الدراسة، فالوقوف عندها دلالة على الجهالة العمياء والفطانة البتراء، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

قد رشحوك لأمر قد فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

إن نظام التعليم الإسلامي لا بد من ارتقائه. فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن، بل هي علوم لفظه. وما نكتبه اليوم علوم معناه وانطباقها على العلوم التي أظهرها الله في الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[القيامة: ١٩]، فإن البيان المذكور في سورة « القيامة » فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب، ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر في هذا التفسير وما لم يذكر من البيان الذي أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام.

فالحمد لله الذي وفق في هذا التفسير لبعض العرفان تصديقاً لما ذكر الله من أن عليه البيان.

انتهى تفسير سورة « النازعات ».

تفسير سورة عبس
هي مكية
آياتها ٤٢، نزلت بعد سورة النجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

تشمل هذه السورة على مقصدين:

المقصد الأول: عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعراضه عن ابن أم مكتوم. وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١٠].

والمقصد الثاني: في تاريخ الإنسان من مولده إلى يوم بعثه. وذكر ما أنعم الله به عليه من أنواع النبات والفواكه، وانتهاء أمره بوجه مستبشر أو بوجه مغبر تغشاه ظلمة، وذلك من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١] إلى آخر السورة.

المقصد الأول

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روي أن عبد الله ابن أم مكتوم وأم مكتوم هذه أم أبيه، وأبوه شريح بن مالك، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت هذه السورة. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعدها ويقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه على المدينة مرتين. فنزل ما معناه: كلح محمد صلى الله عليه وسلم وقطب وجهه وأعرض بوجهه لأنه جاءه الأعمى الذي له العذر في الإقدام على قطع كلامه مع القوم، وهو ممن يستحقون الرأفة والرفق، فكيف يتولى عنه ويعرض، وهذا قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله، لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: أو يتعظ فتنفعه موعظتك. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ كالعباس بن عبد المطلب عمه، وأمية بن خلف الجمحي، وصفوان بن أمية، الذين كانوا عندك وأنت تعظمهم وتدعوهم إلى الإسلام، وقد حضر الأعمى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم، إن عليك إلا البلاغ. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرع طالباً الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الأول من السورة

إيضاح

هذه الآيات شديدة المناسبة للسورة السابقة. ألم تر أنه قد جاء في آخرها: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[النازعات: ٤٥]، وقد جاء قبل ذلك أن الله قال لموسى عليه السلام: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[النازعات: ١٨] إلى آخره، فهو عز وجل الآمر لموسى أن يكون لين القول مع فرعون عسى أن يخشى، ولكن فرعون طغى ولم يخش. فأمر صلى الله عليه وسلم أن تكون همته موجهة إلى من يخشى، لأن القول ينفع معه، ولما ابتدأ هذه السورة ذكر من يخشى وهو الأعمى.

يقول الله لرسوله: أنا أمرت موسى أن يلين مع فرعون وإن لم ينجع فيه القول. فأما أنت فكن أميل إلى إلقاء بذرك في أرض خصبة وقد جاءك الأعمى وهو أهل للعلم فلا تضيع وقتك مع من لا يقبل ما تقول، لئلا يكون ذلك كما فعل موسى مع فرعون، وذلك مثل ما جاء في قصة يونس إذ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر وذكره بيونس فقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨]، فهنا يقول: أنا أمرت موسى أن يلطف في قوله مع فرعون، ولكن إذا وجد من يخشى فهو مقدم على من يشك في خشيته، وهؤلاء صناديد قريش لست أنت على يقين من قبولهم الإيمان، وهذا الأعمى مؤمن فاهتم به، فهو من الجماعة التي جعلت لقوة الإسلام بعد حين.

الحكمة التي في هذه الآيات

اعلم أن هذه الآيات وإن كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي موجهة لنا الآن. ألم يقل الله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١]، ورسول الله ومن بعده ليسوا مخاطبين بهذا القول الآن لأنهم خرجوا من عالم التكليف فلم يبق إلا اقتداؤنا به صلى الله عليه وسلم، فليكن علماء الإسلام وملوك الإسلام قاطبة عاملين بهذه القصة، فليكونوا آباء للشعب الإسلامي، والأب يحافظ على أولاده ويضع كلاً منهم في مرتبته اللائقة به كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل كذلك، فيقدم الأعمى لعقله وإيمانه ويؤخر صناديد قريش، هكذا فليفعل هؤلاء العظماء بالأمة، فليكونوا رحماء معلمين لمن يستحق التعليم لا رغبة في جاه ولا رهبة من سطوة. ولما كان ذلك هو المقصود أعقبه بما يفيده في المقصد الثاني:

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لكل مسلم عن معاودة مثله، فلا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا غيره من الأمة بمباح لهم أن يردوا مستحقاً ويقدموا من لا يستحق في كل شيء، في علم أو مال، أو صناعة، أو ولاية. وهذا باب واسع يدخل ضمن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وهذا الردع لم يتعظ به أكابر الأمم الإسلامية حتى دخل الفساد في نظام جميع الحياة ومرافقها، ويقرب من هذا الباب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء: ١٣٥].

وهذا وإن لم يكن في معنى الآية فهو قريب منه من حيث واجب العدل في سائر الأحوال، فقوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ هنا للردع عن المعاتب عليه لجميع المسلمين المقصر أكثرهم في إعطاء كل ذي حق حقه فأهانتهم أوروبا. ولما كان هذا المقام خطيراً أردف الردع بقوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي: المعاتبة المذكورة هنا، من ردع المتجافي عن طالب العلم المستحق والإقبال على من ليس كذلك ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة للمسلمين جميعاً، لأنها ستكرر على مدى الزمان، وهكذا حتى وصلت لنا بعد ١٣٤٤ سنة. فنحن نقرؤها فعلينا أن نتذكرها فنجعل مطمح نظرنا إسداء المعروف لأهله، فنذكر من يخشى ونعرض عمن لا يخشى إذا اجتمعا عندنا، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ أي: فمن شاء الذكر وأراده ألهمه الله إياه، فالضمير للتذكرة لأنها بمعنى الذكر. ولما كان قيام الدول والأمم وثباتها وحفظ الحقوق لن يكون إلا إذا كان العدل مضموناً ووضع كل امرئ في مرتبته محققاً؛ أردفه بما يفيد أن تلك التذكرة والموعظة قد كتبت في صحف منتسخة من اللوح المحفوظ، وناسخها هم الملائكة، وتلك الصحف مكرمة عند الله مرفوعة القدر والمنزلة مطهرة عن مس غير الملائكة، فهي مكتوبة بأيدي سفرة، أي: كتبة، جمع سافر، أو سفراء يسفرون بين الله تعالى ورسله، فالمفرد وهو السافر إما من السفر أو من السفارة، وسواء أكان المقصود السفر أو السفارة فالمعنى يرجع للكشف، لأن من يكتب أو يكون سفيراً بين اثنين، فهو كاشف للأمور يقال: سفرت المرأة، إذا كشفت، فكلاهما كاشف للأمر بكتابته أو بتبليغه كما تسفر المرأة، ثم وصف

هؤلاء السفرة بأنهم كرام، ومن كرمهم أنهم يتعطفون على المؤمنين ويستغفرون لهم، وبأنهم بررة، أي: أتقياء، فانظر كيف وصف هذه الموعظة المذكورة بأنها في صحف موصوفة بصفات أربع ورابعها كونها بأيدي السفرة الموصوفين بوصفين، فرجع الأمر إلى تعظيم الصحف، وكتاب الصحف، وتلك الصحف قد انتسخ فيها ما في اللوح المحفوظ من الحكم الغوالي التي منها القرآن لا سيما هذه التذكرة.

ياليت شعري، أغفل المسلمون عن هذا القول، أنام المسلمون! كيف يسندون الوظائف إلى غير أهلها، كيف لا يعطون كل ذي حق حقه، كيف لا يتدبرون العلوم! أفلا يقرؤون هذه الآية، أراد الله تعليم المسلمين فبدأ بتذكير رسوله صلى الله عليه وسلم، وثنى بإعظام أمر النصيحة، وقال: من شاء من المؤمنين ضبط نفسه وتزكية عقله وقيامه بالقسط فإن الله يساعده، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

علم الله قبل أن يخلق الأمم الحاضرة أن أمة الإسلام ستكون مقصرة في هذا الباب، وأن العصبيات ستحل محل العدل، ويدافع كل امرئ عمن ينتمي إليه ولا يبالي بغيره فيرجع الناس إلى سيرة الجاهلية الأولى، وإذن تتخطفهم الدول الغربية ويذيقونهم سوء العذاب، ويفرقونهم كما فرقوا أنفسهم، ولم يتحدوا ولم يعطوا كل ذي حق حقه، ولذلك أعقبه بذم الإنسان من حيث جنوحه عن الصراط السوي فقال: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ هذا دعاء عليه بأشد الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفر، فهذا يدل على سخط عظيم، وذم بليغ، ولا جرم أن الكفر أشد الذنوب مقتاً، وإنّما خصصه بالذكر لأنه جامع أصناف الذنوب، فمن لا يؤمن بالله لا يحفظ حقاً، ولا يسمع نصيحة، وإذا كان مقت الله على الكفر أعظم فله مقت عظيم على إضاعة الحقوق ووضعها في غير موضعها، وهذه هي المناسبة بين الآيتين، فهو يذم الإنسان لأنه يندفع في الذنوب ويترك الفضائل واحدةً واحدة حتى ينتهي إلى الكفر، فإذا تساهل المسلم في حفظ الحقوق ولم يعط كل ذي حق حقه جره ذلك إلى ذنوب أخرى فأخرى، والكافر يصل إلى نهاية الإفراط، فكان الذم لذلك.

وهاهنا ذكر تلطف الله في خلق الإنسان، وفي إدامة حياته بالغذاء، فلنفسرهما تفسيراً لفظياً، ثم نتبعه بالتفسير المعنوي، فنقول ومن الله التوفيق:

قال تعالى: ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ وهذا الاستفهام لتحقير ما خلق منه الإنسان، أي: من أي حقير خلق منه الإنسان، ثم أجاب عنه فقال: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: خلقه بمقادير منظمة سواء أكان ذلك في الأطوار التي يمر عليها وهو جنين أم كان في أشكال الأعضاء وانتظامها وترتيب أعضاء الحس وأعضاء الحركة ونظامها الجميل كما سيأتي ذكره هنا، وكما ذكر سابقاً، ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ سهل له سبيل الخروج من بطن أمه، وسبيل المعاش، وسبيل العلم والعقل، وجميع مرافق الحياة، ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ جعل له قبراً يوارى فيه، ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي: أحياه بعد موته للبعث، ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ لم يقض من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله جميعه، فلا بد لكل امرئ من تقصير ما. ومنها ألا يعطي كل ذي حق حقه الذي أمرنا الله به، وذكر أنه مكتوب في صحف شريفة بأيدي ملائكة كرام بررة، فالله بهذا القول يذكر الإنسان

بعالم الملائكة الطاهر الشريف، وأن الإنسان لا يستحق أعلى الدرجات إلا إذا تنزه عن الأغراض الضارة بالمجموع، وأعطى كل ذي حق حقه، وليس أحد قائماً بالقسط في هذا كالملائكة والأنبياء الذين يتلقون الوحي عنهم، فإذا كان الإعراض عمن يستحق العلم والإقبال على غيره يعاتب عليه، فأولى منه عظائم الأمور، والرشوة، والكذب، والغش في الامتحان لا سيما في المعاهد الدينية. وغير ذلك مما أضاع أمة الإسلام.

فالله يقول: إن النوع الإنساني لا يخلو من تقصير، ومدح عالم الملائكة الذي سلم من كل تقصير. كأنه تعالى يفهمنا أن هناك درجات في الفضيلة يجب أن نرقاها، وإلا بقي العتاب موجهاً لنا.

ومما يناسب هذا ما جاء في كتاب «الأرواح»، إذ سأل علماء النفس الروح قائلين لها: لماذا نرى قوماً منا كاملين إذا أحضروا الأرواح كذبت عليهم، فإذا كان الكذب من الأرواح لا يكون إلا على الفاسقين، فما بالها كذبت على الكاملين. فأجابت الروح تقول: كاملين! كلا ليس في أرضكم كامل، وإنّما فيكم صالحون لا كاملون. ولو كنتم كاملين ما سجنتم في هذه الأرض، وكم من صلاح تحته رياء وحسد وكبر، إنه لا كامل في أرضكم، وقد يكون الكذب ترويضاً لتلك الأنفس. أفليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾.

ثم إنه بعد أن قص خبر خلق الإنسان من أحقر الأشياء فسواه وأماته ثم يبعثه؛ أخذ يبين ما أنعم به عليه مما به بقاء حياته في الدنيا بالحياة الجسمية. وفي الآخرة بالحياة العقلية، هاهنا يذكر الله طعام الإنسان ونعمه عليه بالتفنن في خلقه، ويأمره بالنظر فيه ليكون له حياة عقلية من حيث نظره كما كان له حياة جسمية من حيث التغذية، فقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره.

وقوله: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ إما بالفتح على البدل وإما بالكسر على الاستئناف، لبيان كيفية إحداث الطعام، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي: بالنبات ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها الإنسان كالحنطة والأرز والشعير والذرة، ﴿ وَعِنَبًا ﴾ وهو غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر، ﴿ وَقَضْبًا ﴾ يقال: قضبه، إذا قطعه. فالقضب كل ما قضب، أي: قطع من الكلأ والحشائش لتأكله الدواب رطباً، وقد يطلق على كل ما تعلف به الدواب رطباً ويابساً لأنه قضب وقطع ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ أي: بساتين غلاظ الأشجار كثيرتها جمع غلباء، ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ مرعى لدوابكم، فهذه النعم متعكم الله بها ﴿ مَّتَٰعًا ﴾ تمتيعاً ونفعكم بها منفعة ﴿ لَّكُمْ ﴾ بالفاكهة المختلفة الأنواع ﴿ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ بأنواع المراعي المختلفة. ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ أي: صيحة القيامة. سميت صاخة لأنها تصخ الآذان، أي: تصمها، وجواب الشرط محذوف، أي: يجازى كل بما فعله، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ لأنه مشتغل بنفسه، وليس الفرار قاصراً على ذلك بل يتعداه إلى الأم والأب. بل يتعدى ذلك إلى زوجته. ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي: يكفيه في الاهتمام به. وفي قراءة: «يعنيه»، أي: يهمه، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة

من إسفار الصبح ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما ترى من النعيم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان، فيجتمع في الوجه الغبرة والسواد ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ أي: أهل هذه الحالة ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في حقوق الله ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في حقوق العباد، ولذلك جمع لهم الغبرة في الوجوه الناجمة من الفجور إلى السواد الناجم من الكفر.

انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

(٢) وفي قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾.

(٣) وكيف كان عدد النبات على الأرض يعد بمئات الألوف.

(٤) ومنه ما هو للتغذية وهي أنواع.

(٥) ومنه ما هو للباس والزينة.

(٦) ومنه ما هو للفاكهة، وهي ستة أنواع.

(٧) ومنه ما هو مطعوم للبهائم.

(٨) وما المقصود من قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾، وهل يكون ترك النظر كفراً للنعمة؟ وأي نظر هو المطلوب أنظر العامة أم نظر العلماء؟ ومن صرفت عنه النعمة أليست تعطى لغيره الذي يستحقها. أوليس هذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[المائدة: ٦].

(٩) وكيف كانت عناية القرآن بهذه العلوم، فقد كرر ذلك في أكثر سور القرآن. لا سيما السور الست التي نحن فيها.

(١٠) وكيف كانت عناية الأمة الإسلامية موجهة بهمة أكثر لغير ذلك وتركوا هذه العلوم.

(١١) وكيف كانت هذه العلوم لرقي الأمم. والأحكام الشرعية لحفظها. وآباؤنا حفظوا أمماً موجودة ونحن أصبحنا في أمم ضعيفة فيجب أن نحييها، ومستحيل حياتها بغير هذه العلوم.

(١٢) وكيف ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم بهذه العلوم وحرك الهمم لها ١٣ سنة والمسلمون تركوها واكتفوا بالقشور الجدلية.

(١٣) وكيف اكتفوا بشذرات ضئيلة من علوم البلاغة. ولو أنهم وصلوا إلى أقصاها لم يكن إثبات إعجاز القرآن بها إلا لصغار الطلبة الذين يبتدئون بقراءة اللغات فيفهمون أن القرآن معجز. وليس هذا بالشيء العظيم. إنّما العظيم هو العلوم والمعارف، فإذا وقف العالم في القرآن عند هذا فهو طفل صغير، ولماذا لم يقف في الأحكام الشرعية عند النكت البلاغية! إن المسلمين قصروا في البلاغة جداً فضلاً عن العلوم الطبيعية والفلكية والكونية.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

قد أسلفنا في سورة « البقرة » وسورة « آل عمران » وغيرهما أن العلم الحديث في أوروبا أظهر ما كان مخبوءاً في الديانات، إذ أقرت طائفة عظيمة من علماء أمريكا وأوروبا بأنهم خاطبوا عوالم أرقى منا بطرق مخصوصة، وعرفوا من ذلك أن هذه العوالم منها من هم أسفل منا درجات، ومنهم من هم أعلى منا. والذين هم أعلى منا نسبتنا إليهم في العقل والفكر كنسبة النمل إلينا. وهذه الطوائف العليا يهتمون بأمرنا ويساعدوننا، ولقد اتضح في هذا التفسير وأطلنا فيه بالنقل والبحث، ومن اطلع على كتابنا المسمى « الأرواح » عرف ما وصل إليه الإنسان اليوم من الإلمام بعالم الأرواح. ومن هذا يعلم الناس أن السفرة الكرام البررة يحيطون بنا من كل جانب، ويفكرون في أمرنا ويساعدون الناس على قدر استعدادهم، فهذا الذي جاء في العلم الحديث معجزة للقرآن. لا. لا. ليست معجزة واحدة بل معجزات. أليست هذه العلوم هي التي وعد الله بها فقال في سورة « القيامة الآية ١٩»: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾، أليس هذا من بيان الله لنا. أوليس هذا من إيرائنا ما في أنفسنا المفهوم من قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، أفليست هذه وما معها من العلوم الكونية هي التي بينت القرآن كما وعد الله. حقاً إن هذا لعجب عجاب! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ٩]. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد عرفت قبل هذه الآية أن الله عاتب رسوله صلى الله عليه وسلم على أمر يستسهل الناس فيه عادة، فاستطرد من ذلك إلى تذكير الإنسان بأنه غير مفكر في أمر خلقه. ولا أمر طعامه، كأنه سبحانه يقول: يا أيها الناس، هاأنا ذا عاتبت رسولي الذي اصطفيته من بينكم على أسهل الأمور عندكم، فأما مجموعكم أيها الناس فإنه منغمس في الملاهي، بعيد عن الكمال، جاهل بمنشئه ونعمي التي أنعمت بها عليه. أفلا تتفكرون أيها الناس فتعلموا كيف خلقتكم ورزقتكم، ومتى عرفتم ذلك استفدتم فائدتين: الأولى: تعلمون أنكم من نطفة قذرة في دم الحيض. الثانية: إنكم تعلمون أني أنا الذي جعلتها في أحسن تقويم. فأي فضل لكم في تلك الطلعة البهية، والجمال الرائع، والحسن البديع، والصوت اللطيف، فالفضل لي والقدرة والحكمة. فتوجهوا إلي بالعلم والمعرفة، وادرسوا نظامي في خلقكم وفي خلق ما يحيط بكم من الأغذية وغيرها، إذا غفلتم عن ذلك فإنكم تكونون قد رجعتم إلى أصلكم وتركتم نعمتي. وغادرتم النظر في حكمتي، مع أن منتهى الحكمة في خلقكم أن تكونوا حكماء.

أيها الناس، أنتم من الجرثومة الآتية من الرجل المتحدة بجرثومة الأنثى اللتين كونتا شكلاً صغيراً جداً منغمساً في دم الحيض في رحم المرأة.

(١) فهل كانت تلك المادة القذرة وما حولها من الدم المغذي لها قد فكرت في نظام أجسامكم وحسن قاماتكم.

(٢) هل علمت وعلم الدم معها أن هذا الجنين سيخرج إلى جو فيه هواء يوصل الأصوات فاخترعا له الأذنين اللتين تقدم شرح عجائبهما في سورة «آل عمران».

(٣) هل علمت وعلم الدم معها أن هذا الجنين سيخرج فتحيط به الأنوار الناقلة للصور من الخارج إلى الدماغ ففكرا في صنع طبقات العين السبعة ورطوباتها الثلاث بحكمة تدهش المفكرين. ونظام يعجز المهندسين والصانعين كما تراه موضحاً في سورة «آل عمران» أيضاً.

(٤) هل علمت وعلم الدم معها أن هذا الجنين سيحتاج إلى التغذية بالنبات والحيوان وشرب الماء. وستكون له أسرة يحافظ عليها. وهذا لا بد له من قوة علمية وقوة عملية. ولذلك اخترع دم الحيض هو وتلك النطفة القذرة اختراعين: أحدهما للعلم وهي الحواس الخمس الموصلة الأخبار من الخارج إلى النفس. وثانيهما: وهي أعضاء الحركة كاليدين والرجلين ليمتثلا الأوامر الصادرة من المخ بحسب ما وصل إليه من الحواس طلباً من المنافع وهرباً من المضار.

(٥) هل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان علمتا أن هذا الجنين سيحتاج للطعام. وهذا الطعام منه ما يحتاج للقطع كالحشائش. ومنه ما يحتاج للتمزيق كاللحم. ومنه ما يحتاج للطحن كالحب وغيره، فاخترعتا اللثات وهيأتاها لبروز الثنايا، والرباعيات للأول والأنياب للثاني والأضراس للثالث، فهذه الأخيرة عبارة عن طواحين كالطواحين التي يصنعها الناس، إنّما الفرق أن الرحى هنا تدور من أسفل، والرحى عندنا معاشر الناس تدور من أعلى.

(٦) وهل علمت هاتان المادتان أن طلب الرزق لا بد فيه من حركة، وهكذا دفع الأعداء، فجعلت اليدين مركبتين من عظام كثيرة، فهناك المرفقان، وعظام الرسغ، وعظام الكف، وعظام الأصابع التي لولاها لم تستطع اليد أن تقدم خيراً أو تدفع شراً.

(٧) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان أوعزتا إلى الجسم فاستخرجتا منه بإيعازهما عينين جاريتين تحت اللسان لعلمهما بأن اللقمة لا تساغ بماء البحر، وإنّما يسيغها ماء خاص يخلق على هيئة مخصوصة يسيغ اللقمة ويهضمها الهضم الأول.

(٨) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان كونتا المريء وجعلتاه خلف الحلقوم ووضعتا غطاء خاصاً يضعه الإنسان على الحلقوم حينما تمر تلك اللقمة إلى المريء، وقد كانتا تعلمان أن اللقمة لو نزلت إلى الحلقوم الذي هو مجرى النفس الموصل إلى القصبة الهوائية الموصلة للرئة لمات الإنسان حالاً، فهما لما علمتا ذلك ركبتا غطاء على ذلك المكان لئلا يموت الإنسان.

(٩) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان لما علمتا أن الإنسان إن لم يدخل في جسمه بدل ما تحلل منه مات اخترعتا له هذا الطعام والشراب، وعلمتا أن المضغ في الفم لا يكفي لأنه لا يمكن أن يكون الخبز الممضوغ مناسباً للحم الإنسان وعظمه إلا بعد عمليات كثيرة، فلذلك اخترعتا له المعدة، وفيها يطبخ ذلك الطعام مرة ثانية، ولما علمتا أن هذا الطبخ لا تكفي فيه الحرارة التي في المعدة اخترعتا

له سائلاً يسمى البنكرياس يساعد على إتمام هضم الطعام كما ساعد الريق في الفم على المضغ الأول، وهل كانتا تعلمان أن أحسن وضع للمعدة أن يكون القلب من فوقها، والكبد على يمينها، والطحال من شمالها، ولحم الصلب من ورائها، وصفاق البطن أمامها ليتمدد إذا امتلأت بالغذاء.

(١٠) وهل هما كانتا تعلمان أن الطعام إذا دخل المعدة لا بد من بقائه زماناً ما حتى ينهضم، وأنه بعد الهضم لا بد أن ينزل إلى الأمعاء فيصلح للترقي من حال الغذاء إلى حال الدم، وأن الباب الأعلى إذا بقي مفتوحاً لا ضرر فيه، لأن الإنسان لا ينزل الطعام إلا إذا جاع، وأن الباب الأسفل لا بد من إقفاله دائماً ولا يفتح إلا عند انهضام الطعام فيخرج منها إلى الأمعاء، فهل هما اللتان جعلتا المعدة لها بواب من أسفل يقفل ويفتح عند الحاجة.

(١١) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان بثتا عروقاً شعرية كثيرة تنتهي إلى قعر المعدة وإلى جميع أقسام الأمعاء التي يبلغ طولها عدة مرات بقامة الإنسان الذي يحملها، وهذه الأوعية الشعرية تمتص الغذاء الناتج من تلك الأماكن وتوصله إلى الكبد، بحيث تكون أغلظ فأغلظ كلما اتجهت إلى الكبد، وتصير عرقاً واحداً عند مقعره، ويدخل ذلك العرق فيوصل ما حمله فيتفرع في الكبد فروعاً كثيرة، ثم يطبخ فيصير دماً يتجه إلى أعلى الكبد ويخرج من حدبته، فهناك عرق عظيم يتجه إليه الدم كله من الكبد، فيتجه إلى القلب ويدخل في تجويفه الأيمن الذي جهة الكبد، ثم ينتقل إلى البطين الأيسر، ثم تكون الشرايين المتصلة بالقلب من الجهة اليسرى فتحمل الدم إلى سائر البدن.

(١٢) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان علمتا أن الإنسان لا علم له بما في الخارج إلا إذا وصل إلى مخه، وأن الأعضاء لا علم لها بذلك إلا إذا وصل الحس إلى القلب بطريق الانفعال، وقالتا وهما تفكران: إنه لم تقم أمة في العالم ولا دولة إلا إذا كان هناك قوة مفكرة آمرة تقوم بأمر السياسة، وقوة أخرى مأمورة تقوم بأمر العمل، وهي قوة الجيش، فكل أمة لها مجلس يسمى الشورى أو البرلمان وهذا وظيفته التفكير وإصدار الأوامر، ولها جيش يتحرك على مقتضى هذه الأوامر، ولا رأي له فيما يصدر إليه، فلما فكرتا في ذلك قالتا معاً: فلنضع دهناً لطيفاً في أعلى الجسم، ولنجعل ذلك الدهن اللطيف وهو الدماغ مسرحاً للأفكار بحيث يسع جميع المعقولات كما وسعت الأرض جميع النباتات ولنخص كل ناحية منه بحاسة من الحواس أو بعلم من العلوم ونحوها، فهذا مجلس أصحاب الحل والعقد، فمتى وصل خبر من الحواس إلى هذا المجلس نقحوه وأصدروا الأوامر إلى القلب في البريد البرقي «التلغراف» الذي له سلك، وسلكه هي الشعبة المبتدئة من الدماغ المتصلة بالغشاء الذي على القلب لحظة، فتنبث تلك الشعبة بواسطة فروعها في جميع أجزاء القلب، فإذا حصل قبض أو بسط، أو حزن أو فرح، أو طلب أو هرب، أو خوف أو أمن، وصل سبب ذلك من الدماغ إلى القلب بواسطة هذه الشعبة المتشعبة في القلب، وهذه الأعراض التي انفعل بها القلب تتصل بالروح الحيواني الذي يحمله البخار الدموي الساري في سائر العروق المغذية للجسم، ويصل ذلك الخبر بأعصاب الحركة إلى سائر أطراف الجسم كما وصل إلى القلب، فهذا العصب الواصل من الدماغ إلى القلب يسمى عصب الحركة هو وفروعه، والذي يوصل من الحواس إلى الدماغ يسمى عصب الحس، فإذن القلب يرد عليه

أمران: الأمر الأول: الغذاء الوارد من الطعام المهضوم في المعدة المنطلق إلى الأمعاء الذي تمتصه عروق شعرية توصله إلى الكبد، فيطبخ هناك ويصفى من الماء الذاهب إلى الكلية، ومن الصفراء الذاهبة إلى محلها، ومن السوداء المتجهة إلى الطحال، ومتى نقي الدم من ذلك كله جرى إلى القلب محل الحكومة، وهي توزعه على سائر الجسم للتغذية. الأمر الثاني: أنواع الوجدان من قبض وبسط الخ. وهذه ترد من الدماغ وتصل إليه، ومنه تسري الأوامر إلى الأطراف للهرب أو للطلب أو للفرح أو لضده، هل هذه العجائب كلها فكر فيها الدم والنطفة القذرة في الجسم.

(١٣) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان لما علمتا منفعة القلب ومنفعة الدماغ، وأنهما معاً عليهما حفظ الجسم بما فيهما من قوة الفكر وقوة العمل وضعتا المخ في حصن حصين يحيط به جسم صلب قوي، وجعلتا القلب جسماً صنوبري الشكل لحمي الجوهر قوياً متيناً لئلا تضره المؤذيات، وتفعل فيه العاديات (أ) وجعلتا له غلافاً ويسمى الشغاف (ب) وجعلتا أعلاه غليظاً لإنبات الشرايين (ج) وحصناه من خلفه بفقار الظهر، ومن الجانبين بالأضلاع ومن أمامه بعظام الصدر (د) ولما حصناه وأمنا عليه خافا عليه هو والرئة المحيطة به أن يمسهما جزء من هذا الجسم المحيط بهما، فقررا أن يكون كل منهما بعيداً عن ذلك الحصن، فيكون ذلك البعد مانعاً من التماس الضار بهذين العضوين اللطيفين الضعيفين المتحركين دائماً حركة انقباض وانبساط، فيكون هذا الحصن حافظاً لهما من الحر والبرد فتبقى الحرارة الغريزية متوافرة فيهما ولا يمسهما حصنهما بسوء.

(١٤) وأخيراً هل هاتان المادتان القذرتان في رحم المرأة هما اللتان قررتا أن يكون لهذا الإنسان مقياس تقاس به جميع أجزاء جسمه الظاهرة والباطنة بحيث تكون قامته عند الاعتدال ثمانية أشبار بشبره، وهكذا إذا مد يديه إلى الجانبين كما ما بين أطراف أصابع اليد اليمنى وأطراف أصابع اليد اليسرى مساوياً لطوله، وهكذا إلى آخر ما تقدم في سورة «آل عمران» وغيرها في هذا التفسير، وفي كتب الأمم المحيطة بنا وما فوق ذلك مما لا حصر له.

هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ﴾، هذا هو التقدير، وهذا هو علم التوحيد، وهذا مبدأ رقي الأمة. وهذا هو أهم مطالب الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان. فلم يمنع الناس عن هذا إلا الجهالة التي غشت على الأمم الإسلامية وأماتت نخوتها وأضاعت شرفها. فلتقرأ هذه العلوم وليرجع مجد الإسلام، وبهذا فليفهم كلام الله، وهاأنا ذا قد بينت وإني أحذر المسلمين الغفلة بعد الآن. وإني أبشرهم بمستقبل زاهر، وأن ما أقوله الآن سيتم، وسيكون قراء هذا التفسير من خير من يقومون بانتشال الأمة وبث الفكرة بينهم، ولتقرأ أيها الذكي لإخوانك في هذا المقام: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ولا جرم أن خير المحسنين هم الذين ينشرون العلم لا سيما بين خمس النوع الإنساني وهم المسلمون بطريق الدين الإسلامي. وأي إحسان خير من هذا الإحسان. فهذا خير الإحسان. فالله معك أيها الذكي حين تساعد في نشر العلوم على ما ذكرناه، فهذا هو الجهاد، والله وملائكته يساعدون من يقوم به: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٤]. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة:في إعداد النبات على سطح الكرة الأرضية

اعلم أن أعداد النبات على الأرض على حسب ما قال «اللورد أفبري» في كتابه «محاسن الطبيعة» يبلغ خمسمائة ألف صنف، وهذا مجرد عدد.

ويقول: أما الخواص والمنافع فالمعلوم منها قليل، ويقول: إن هناك نباتات محفوظة في المتاحف لم يسمها الناس باسم لأنها من النباتات المنقرضة. وكل يوم يعثر الناس على أصناف جديدة من النبات. فهناك نباتات مجهولة محفوظة، وأخرى لم يعثر عليها. فإذا ضم المجهول المحفوظ في المتاحف إلى ما يكشف كل يوم كان العدد أكثر من ذلك.

لقد ذكرت أنواع النبات وكيف كانت جميع هذه الأنواع مرتبة. وقد استخرجت كلها من الزهرة ونظامها وأوراقها، وتجد الزهرة في سورة «الشعراء» مرسومة مبيناً معها كيف استنتج علماء النبات جميع هذه النباتات بحيث يكون لكل نوع نظام في الزهرة مخصوص، وهكذا في سور كثيرة من هذا التفسير ذكرت عجائب النبات السارة للناظرين المبهجة للمفكرين. فالإنسان اليوم في جهالة عظيمة. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة:في أنواع النبات

فمنه ما هو للتغذية، ومنه ما هو للملبس، ومنه ما هو للدواء، ومنه ما هو فاكهة، ومنه ما هو مطعوم البهائم.

المواد الداخلة في النبات

أمر الله الناس بالنظر في النبات، وليس ذلك النظر ما يفهمه الجهال، فإن الحيوان ينظر النظر الظاهر السطحي ولا يستفيد منه علماً دينياً ولا دنيوياً. وإنّما يستفيد منه الغذاء. ولقد جد الناس قديماً وحديثاً في أمر تحليل النبات وإرجاعه إلى عناصره. فمنهم من بحث عن العناصر الأصلية الداخلة في كل نبات وقد وجدوها عشرة من بضع وثمانين عنصراً، ومنهم من بحث في المواد الداخلة في النبات ولم يقيد نفسه بالعناصر. ولنقتصر في هذا المقام على تحليل القمح والأب الحشيش والبطاطس، وإنّما اخترنا هذه من كتابنا «النظام والإسلام» لأن الآية فيها مطعوم البهائم والآدميين، فوجب أن نحلل من كل واحد منهما نوعاً لتعجب من أجزاء اجتمعت بمقادير خاصة كونت شيئاً يصلح تارة للبهائم، وتارة للإنسان، وتارة لهما. وتارة يكون ملبساً، وتارة يكون دواء، وتارة يكون سماً، وتارة يكون فاكهة وتارة يكون غذاء، تنوعات مختلفات من أصول محصورات. اختلفت المقادير فاختلفت النتائج.

إذا حللت كيلو غراماً أي ألف غرام من القمح فإنك تجد النشاء فيه ٦٦٣ غراماً، والماء المعتاد ١٣٤ غراماً. والخشب المنسوج ٣٠ غراماً. وملح النشادر ٦٠ غراماً، والفسفور المائي ٢٧ , ٩، وكبريت العمود المائي ٤٩ , ٣ من الغرام، والبوتاسا الكاوية ٦ . ٦ غرام، والمانيزيا ٢ . ٢ غرام. والزيت الصافي ١٥ غراماً، وهكذا أجزاء أخرى كالصوديوم، ومتى جمعت كلها بلغت ألف غرام، فهذه حال القمح على سبيل الإجمال. وأغلب هذه المواد في الأب وفي البطاطس بمقادير تخالف هذه. فيدخل النشاء في ألف غرام من الأب ٣٩٣ غراماً. وفي البطاطس ٢٠٠ غراماً، وهكذا الماء المعتاد في الأب ١٤٤ غراماً،

وفي البطاطس ٧٥٠. وهكذا بقية المقادير تختلف في هذه وغيرها. حتى إن أكثرها يدخل في القطن. وباختلاف المقادير صارت هذه المواد أنفسها ملابس بعد أن كانت في القمح مطاعم. وهي أيضاً تدخل في الفواكه الحلوة والنباتات المرة، وباختلاف المقادير ترى النباتات تختلف في الطعم واللون والقدر والعمر والآثار، والداء والدواء، والغذاء واللباس.

فهذه خلاصات ما كشف للناس في العصر الحاضر. وترى في سورة «البقرة» طريقاً آخر في التحليل وهي أوسع من هذه. وفيها عجائب لا يسعها المقام.

أفلا يعجب المسلمون كيف يأكلون ويلبسون ويتداوون بنباتات كلها من عناصر واحدة، ولكن الاختلاف جاء من اختلاف المقادير، أفلا يعجبون أن يكون ما تأكله الناس والدواب وما يلبس الناس وما يتداوون به، كل ذلك من عناصر واحدة اختلفت مقاديرها، أوَلا يدهش المسلمون حين يعلمون أن القطن الذي يزرع في بلادنا المصرية ويزرع في أمريكا وغيرها هو من نفس عناصر البرسيم للدواب والقمح للإنسان، وأن هذا باختلاف المقادير صار ملبساً لنا وزينة جميلة. وصنع منه أهل أوروبا المواد المفرقعة والمقذوفات النارية بحيث دخل في بعضها. فأفاد في تخريب المدن والبلاد التي أهلها جهال لا يفهمون قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

إن المسلمين اليوم جهال في الغالب فلم يسمعوا قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤] فلما جهلوا ذلك أرسل علينا الصواعق من نيران مدافع أوروبا. فويل للجاهلين. وويل ثم ويل لمن لا يعقلون معاني القرآن، وهذا أوان ارتقاء الإسلام. ولولاه لم تتحرك الأقلام. ولم يكتب الكتاب. ولم يكن هذا التفسير وأمثاله في بلاد الإسلام. ولا آراء العقلاء التي نشرت اليوم انتشاراً مدهشاً. وسيسرع الانقلاب في بلاد الإسلام، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨]، هذا ومن النظر في طعام الإنسان النظر في أمر الفاكهة.

إن الفاكهة من أنواع النبات. وهي أنواع لا علم لأحد بحصرها. ويجمعها سبعة أنواع كما قال العالم «فونساغريف»:

(١) الفواكه الحمضية كالبرتقال والليمون والتمر هندي والأناناس والرمان.

(٢) والفواكه المزة مثل: الشليك والتوت الشوكي «الفرامبواز» والخوخ.

(٣) والفواكه السكرية وهي التي غلبت فيها المادة السكرية مثل: البرقوق، والعنب، والتمر، والتين، والقراصيا.

(٤) والفواكه الزيتية وهي التي يكثر فيها مواد دهنية مثل: الزيتون، والجوز، واللوز، وجوز الكوكو.

(٥) والفواكه المائية: كالشمام والبطيخ.

(٦) والفواكه العطرية: كالمانجو، وكالخوخ.

(٧) والفواكه النشوية مثل: السفرجل والزعرور والغبيراء فهي نشوية وقابضة.

فهذه أنواع الفواكه، وتحت كل منها أنواع كثيرة، وكلها يأكلها الإنسان، ويستعين بها على غذائه ولا يجوز في الطب الإفراط منها. اهـ.

اللطيفة الثامنة: ما المقصود من قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾

يظن كثير من أهل العلم والعامة أن النظر للنبات هو النظر إلى شكله، ومتى رآه وحد الله وقال: لا إله إلا الله، ظن الناس ذلك وظنوا أن كل أمثال هذه العلوم لا غرض منها في الإسلام إلا الإيمان، ولا جرم أن الإيمان مركوز في النفوس، ومأخوذ بالتلقي عن الآباء والأساتذة، فكأن هذا المعنى هو الذي صرف المسلمين عن هذه العلوم العجيبة، وأنساهم مجد آبائهم، وجمال ربهم، وحكمته وحبه، والولوع بجماله. ظن المسلمون ذلك فتركوا هذه العلوم جانباً، وأكبوا على غيرها وحرصوا عليها، واكتفوا من النظر بكتب الكلام التي لم تؤلف إلا للرد على قوم كانوا معاندين وماتوا، فهذا العلم إنّما جاء لقوم دواء لا غذاء، لأنه علم جدلي، ولعلك تقول: من أين تدعي أن هذه الآية توجهنا لعلوم الطبيعة؟.

أقول: أقدم لك مثلاً ذكره علماء الفرس في كتاب «كليلة ودمنة» ينطبق على ما نحن فيه، ذلك أنهم قالوا: إنّما مثل من يطلب الآخرة بعمله ويطلب الدنيا فقط كمثل من خير بين زرع أرضه برسيماً وزرعها حنطة، فمن اختار البرسيم لأكل دوابه فإنه لن ينال قط ما به يقتات هو وأولاده، ومن اختار الحنطة أكل حبها وأكلت دوابه تبنها فنال النعمتين معاً، ذلك لأنه عمل للأعلى فنال الأدنى، ومن عمل للأدنى لم ينل الأعلى.

ونظيره هنا أن يقال: إن الله عز وجل قال لنا: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾[عبس: ٢٤]، ولا جرم أن نظر الإنسان لا يتم إلا بدراسة علوم الكيمياء كما رأيت في هذا المقام، وعلم النبات، ولا بد من زرعه، ويدخل فيه نظام البساتين، ومعرفة أنواع النبات، وبالجملة كلما ازداد الإنسان علماً بالحكم النباتية ازداد غراماً بربه وأدرك حكمته وجماله، ولا يزال في ازدياد للحب والقرب من ربه كلما ازداد غوصاً في عجائب العلم وفروعه وأصوله، وهذا العلم لا يتم إلا بعلوم كثيرة، وكلما أتقن علماً باعتبار أن ما فيه من العجائب إبداع خالقه تزداد النفس به من الله قرباً، حتى إذا بلغ الكمال في العلم بلغ الكمال في القرب، فإذا مات فقد استحق أن يكون في الملأ الأعلى الذين لا هم لهم إلا رقي المخلوقات، فيكون إذ ذاك من أولي العلم الذين عطفهم الله على الملائكة فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فهذا هو القيام بالقسط، فمن شهده فقد اقترب من الملائكة ومن ربه، ولا رفعة للناس عند الله إلا بالعلم الذي سببه التهذيب وحسن الخلق، هؤلاء هم المعطوفون على الملائكة المعطوفين على الله، ولذلك ترى الملائكة مذكورين في هذه السورة، وأن النصيحة التي نزلت فيها كتبت بأيديهم، وإنّما كتبوها ليجعلونا في درجة تقرب منهم ويرقونا إليهم.

أفلست ترى بعد ما تقدم أن يكون قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[عبس: ٢٤] موجهاً إلينا لمعرفته تعالى خاصة، لأنه أراد أن ننظر النظر الأعلى الذي لا يتم ولا يكون إلا مع النظر الأدنى. وبيانه

أن العلوم الطبيعية لا يعرف الناس جمال ربهم في نظامها، ولا حكمه في إبداعها، إلا إذا قتلوها بحثاً وتنقيباً بشوق وغرام وحب عظيم، وهذا البحث يستلزم النبوغ في علوم كثيرة بسببها ترتقي الصناعة والزراعة وغيرهما، فلن ينال الناس دقائق الحكمة إلا بعد أن يمروا على جزئيات العلوم ويتقنوها، وإذن يكون المثل هنا منطبقاً تماماً فيقال: كما أن الذي اختار زرع الحنطة لم ينل الأعلى وهي الحنطة إلا بعد أن نال الأدنى وهو ساق القمح وورقه وهي التي صارت تبناً للبهائم، وقد قلنا إنه أفضل ممن اختار البرسيم إذ حرم الحب ليقتات به هو وأولاده، هكذا هنا أمرنا الله أن ننظر في النبات لأجل معرفة جماله وحكمته، وهو يعلم أننا لا ندرك حقائق هذه الأشياء إلا بعد درسها وتمحيصها، وفوق ذلك تكون تلك الدروس سبباً في إحياء الزراعة والصناعة وعلوم الكيمياء وجميع العلوم المرتبطة بالنبات والأب والفاكهة، وهي علوم الطبيعة جميعها إلا قليلاً، فقد طلب الله منا الأعلى وهو معرفته على الوجه الأكمل، وهو يعلم أننا لا ننال الأعلى إلا بعد الأدنى، أي إن العالم بهذه العلوم سواء أكان واحداً أو أكثر يرتقي إلى ربه، ويقترب من ملائكته، ثم هو في أثناء ذلك قد أحسن لأمته بالعلوم الرافعة لشأنها، المعلية لقدرها، فهذا منه إحسان جاء له وهو يسعى إلى الأعلى كما أحسن الذي اختار الحنطة إلى البهائم بالتبن وهو يسعى إلى الأعلى.

قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

ولقد قرأنا في كتب آبائنا الفقهية قاعدة عجيبة توقظنا إلى حوز الحكمة والعلم فقالوا في قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[المائدة: ٦]: إن هذا الأمر للوجوب، ويجب علينا أن نغسل من وراء المرافق قدراً يسيراً من العضدين، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

هذا كلامهم، أفليس هذا منهم تعليماً لنا كأنهم يقولون: أيها الأبناء، قد نظرنا في أصغر الأمور وهو غسل جزء من العضدين احتياطاً للواجب، ومعلوم أن الوضوء غير مقصود إلا للصلاة، والصلاة غير مقصودة إلا لحضور القلب مع الله، وبغير ذلك تكون شجرة بلا ثمرة، وحضور القلب مع الله إذا تكرر جعل في القلب استعداداً للفهم عنه وللعلم، وأصبحت النفس صافية مستعدة لمكارم الأخلاق وللعلوم، هذا في الوضوء، فما بالكم بما هو المقصود الأعظم الذي إليه تشد الرحال، وهو معرفة جمال الله وجلاله، إن الله أمرنا بالنظر، والنظر لا يتم إلا بهذه العلوم، وهذه العلوم أشبه بما نغسله من العضدين وراء المرفقين، وإذا احتطنا في الصغير فقلنا ما لا يتم الواجب في الوضوء إلا به فهو واجب؛ هكذا نقول هنا: ما لا يتم الواجب في معرفة الله تعالى إلا به فهو واجب.

ثم إن هناك فرقاً بين المثلين: مثل غسل اليدين والنظر في النبات، فإن ما يغسل في الوضوء وراء المرفق ليس له إلا سبب واحد، فأما هنا فله ثلاثة أسباب:

السبب الأول: إنه إتمام للواجب كما في مسألة الغسل، وهذا الإتمام من حيث إنه لا يتم معرفة حكمة الله التامة إلا بهذه العلوم، فهو في هذا كمسألة الغسل.

السبب الثاني: إن معرفة هذه العلوم لا بد منها لبقاء الأمة وحياتها في هذا الزمان، فالأمة التي جهلت العلوم الطبيعية أصبحت اليوم ذليلة مستعبدة حقيرة تباع بيع السلع، فانظر إلى أمتنا الإسلامية

ألست ترى أن بعض دول أوروبا كإنكلترا وفرنسا ونحوهما يقولون : خذ أمة كذا وأنا آخذ أمة كذا في نظيرها ، وهذه الأمم الإسلامية ، فترى إنكلترا تقول : آخذ مصر وأعطيك يا فرنسا مراكش ، لماذا هذا؟ لأنها أمم جاهلة جهلت العلوم التي تتكلم فيها الآن وغيرها ، فإذن قراءة هذه العلوم لا يتم حياة الأمة إلا بها ، ولن يعرف الناس ربهم إلا إذا كانوا آمنين في بلادهم ، ولا أمان في البلاد للجهلاء الذين يستعبدهم العلماء بما خلق الله ، ومعلوم أن غسل جزء مما وراء المرفق لا تتوقف عليه حياة الأمة ولا حياة الفرد ، فهو ليس له إلا السبب الأول .

السبب الثالث : إن علماء الإسلام قاطبة أجمعوا أن الأمة عليها أن تقرأ العلوم وتعرف الصناعات التي بها حياة الأمة ، وذلك كله فرض كفاية .

سيقول بعض المسلمين : لقد نظرنا في النبات وعرفنا الله . فإذا متنا وسألنا الله نقول هكذا قد نظرنا وعرفناك ، وأنا أقول : لكن الله يقول : النظر التام يكون بالعلم التام فأين علمكم التام بهذه المخلوقات ولو بطريق فرض الكفاية؟ فيقول العالم المسلم : إني قرأت كتب قدمائنا كالمواقف وأمثالها فيقال له : كلا . ثم كلا . هذه كتب وضعت لزمن غير زمانكم ، ولأمم غير أممكم ، وليس لها مقصود إلا الرد على المبتدعة الذين ماتوا ، فأنتم تجادلون مع الأموات ، ولكن المقصود إدراك العوالم لذاتها لا للجدال بها . وليس يمكنكم ذلك إلا بإشاعة هذه العلوم في دياركم ، فيقرأ الصغار في المدارس فن الأشياء . ويقرأ الكبار نفس هذه العلوم . والعامة تبع الخاصة . وهناك سبب رابع ، وهو أن الغسل في مقدمات المقدمات للمقاصد ، ومعرفة الله هي مقاصد المقاصد . والعناية بمقاصد المقاصد أولى ألف مرة من العناية بمقدمات المقدمات .

نظرة في المثل الفارسي وفي الآية الشريفة

لقد ذكرت لك المثل الفارسي في « كليلة ودمنة » وقلت لك إنه منطبق على ما نحن فيه ، واستطردت إلى أبعد من ذلك ، والآن أقول لك : ألا تتعجب من هذه الآيات كيف ذكر الله فيها ما يأكله الإنسان وما يأكله الحيوان ، وكأنه يشير بطرف خفي وحكمة إلى باطن الأمر ، فيقول :

أيها المسلمون ، أنا أمرتكم بالنظر بالنبات لأجل معرفتي ، وأنتم بذلك الأعلون ، لأنكم أشبه بمن اختار الحنطة فزرعها فنال قوت الحيوان المذكور في هذه الآيات . ولو أني اخترت لكم قراءة العلوم من طريق الحياة الدنيا لعشتم بها كما عاش الفرنجة وغلبوكم ، ولكنكم أنتم الذين اخترتكم لحفظ أرضي ، وقد ملأت الأرض بعلوم النبات وغيره من علوم الطبيعة ، وأنتم خير أمة أخرجت للناس . فلتقوموا بعد قراءة هذا التفسير وأمثاله ، ولتأخذوا علوم الأمم المحيطة بكم ، وأنتم تقصدون بقراءتها الرقي إلي ، وإني أرقيكم أسرع من غيركم ، ويكفي في الرقي العلمي عشرون سنة كما يقوله علماء السياسة والاجتماع عندكم ، فهأنا ذا أيها المسلمون ملأت أوروبا وأمريكا واليابان بالعلم ، فقوموا من رقدتكم وخذوا هذه العلوم ، هم قرؤوها للدنيا فاقرؤوها أنتم لحبي وللغرام بي ولأجل لقائي ، بل ستقرؤونها وتعشقوني بها ، وغيركم يقرؤها وهو معرض عن النظر العالي ، فستكونون أنتم شهداء على الناس كما كان الرسول شهيداً عليكم ، وشهادتكم على الناس لا تتم إلا بدراسة علومهم ، ولا

تكونون شهداء عليهم إلا إذا قرأتم العلوم لحبي أنـا ، وهـذه القراءة يتبعها ارتقاء الأمـة سـريعاً حتماً ، فتعلو مدنيتكم وتنالون مثل ما نال غيركم ، ولكن أنتم الأعلون لأنكم تطلبون منالاً أرقى وأهـم ، فلذلك تكون مدينتكم أرقى وعدلكم أشمل ، وبالجملة فأنتم خلفائي في أرضي على هذه الأمم التي ستأخذون علومها كما أخذت علومكم وتقومونها بالحسنى بدل إذلالها لكم الآن وظلمها ، وهـذا هـو الذي سيكون قريباً . والله هو الولي الحميد .

قيمة النظر السطحي لهذه الآيات

سيقول قائل ممن يقرأ هذا القول : إننا لسنا ملزمين بهذا كله ، فإننا آمنا بـالله ، وليس الإيمان بـالله يلزمه هذا كله ، لقد نظرنا وآمنا . فجوابه أن نقول : لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه . وعلم الفقه ليس لـه في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية . فلماذا كثر التأليف في علم الفقه وقل جداً في علوم الكائنات التـي لا تخلو منها سورة . بل هي تبلغ ٧٥٠ آية صريحة . وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة ويجهلون علماً آياته كثيرة جداً . إن آباءنا برعوا في الفقه فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات . لنقم به لترقى الأمة ، فهذا الذي ينظر نظراً سطحياً لآيات النظر في العالم نراه لم يكتف في البيع والهبة والميراث والحج والصلاة بالنظر السطحي ، بل نراه في الوضوء الذي هو شرط من شروط الصلاة ، لـم يكتف بـالنظر الظاهري . بل ازداد البحث فيه جداً في مئات المجلدات المؤلفة في المذاهب الأربعة وغيرها . أفلا ينظر المسلمون اليوم إلى علوم الدين الحقة وهي علوم الكائنـات ، علـوم معرفة الله ، إن علم الفقه لحفظ الأمم . وعلم الكائنات لمعرفة الله وحياة الأمم ، وما به الحياة مقدم على ما به حفظ الحياة ، إذ لا حفظ للحياة ولا عبادة لله إلا بعد ثبوت الحياة . اهـ .

اللطيفة التاسعة: كيف كانت عناية القرآن بهذه العلوم

علم الله قبل أن يخلق الخلق وقبل أن ينزل القرآن وقبل أن يخلق الإسلام وأمة الإسلام أن هذه الأمة في بعض تاريخ حياتها ستتهاون في أمر العوالم العلوية والسفلية ، وعلم أنها ستنال قسطها من العذاب في الدنيا على هذا الكسل والجهل ، وأن هذا العذاب الذي يحل بها يكون من أدعى الدواعي إلى قبول البحث في آيات القرآن والنظر فيها عسى أن يجد المسلمون مخرجاً من ذلهم ، فماذا فعل الله لذلك؟ أكثر في القرآن من ذكر خلق السماوات والأرض ، بل هذا أكثر مـا في القـرآن ، وناهيك ما ترى في السور المتلاحقة التي نحن بصددها ، ألم تر إلى سورة « القيامة » كيف بدأها بخلق الإنسان وختمها بخلقه ، وإلى سورة « الإنسان » كيف بدأها بخلق الإنسان ، وإلى سورة « المرسلات » كيف ذكر فيها خلق الإنسان والنعم التي خلقت له ، وإلى سورة « النبأ » كيف ذكر النعم السماوية والأرضية فيها ، وإلى سورة « النازعات » كذلك ، وهذه السورة ، فهذه السور وكثير أمثالها لا يرى فيها حكم شرعي ، ولكن فيها الحث على النظر في هذه العوالم . أليس هذا من العجب .

أمة الإسلام التي تبلغ نحو خمس نوع الإنسان ينزل عليها هذا القرآن ويكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية ويأمر النظر فيها فيغفل أكثرهم عن ذلك : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦] ألم يأن للمسلمين أن يقدموا هذه العلوم على غيرها، ويقصدوها لذاتها. ألم يعلموا أن تعلمها أفضل من سائر العبادات النفلية. ألم يعلموا أن الله أكد الكلام فيها وكرره نظراً لعنايته بهذه العلوم.

يا عجباً! نزلت الأحكام الشرعية وقال الله فيها: يسألونك عن الخمر، وعن اليتامى، وماذا ينفقون. وهكذا في مسائل كثيرة يقول يسألونك عن كذا فيجيبهم، وذلك في الأحكام الشرعية. ولكنه قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[الأنعام: ٩٥]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾[الأنعام: ٢]، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾[عبس: ٢٤]، وقال: ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨-١٩]. يقول الله ذلك بلا سؤال من الناس، فدل هذا على عناية الله بهذه العلوم. وحقاً هي كذلك لأنها توصل إليه من حيث نظامها، وتحيي الأمة من حيث جني ثمراتها.

أمة الإسلام التي ينزل عليها وصف صنع ربها فتنام عنه. إن الله يحبها لأنه عذبها بالأمم المجاورة لها. سلطهم عليها لأمرين: الأول: أنهم لم يتسلموا هديتهم التي أهداها لهم في السماوات والأرض، إذ لا معنى للشكر إلا على ما يعلمه الشاكر من نعمة وصلت إليه، فمن لم يعلم النعمة لا شكر له عليها. والمسلمون تركوا معادنه في أرضه وبحاره. وآثار كرمه المسطرة على كل يابسة وخضراء. وقالوا: لا طاقة لنا بها، فأخذته الفرنجة وقاموا علينا ينتقمون منا على جهلنا. ذلك فعل ربنا هو الذي رتبه ونظمه. هكذا فعل الله ليؤدب المسلمين فيسمعوا كلام علمائهم إذا أسمعوهم منفعة هذه العلوم. الأمر الثاني: محبة الله والزلفى منه، فلا قرب لله إلا بالعلم. فبالعلم حياة الأمم. وبالعلم اقتراب أكابرهم من ربهم، وبالجهل استعباد الأمم. وبالجهل بعدهم من ربهم وسقوط منزلتهم. فإذا كان الجهل بنعم الدنيا يحرم الناس منها هكذا الجهل بصنعة الخالق يحرم الناس من الاقتراب منه. وكيف يقربون ممن لا يعرفون صنعته ولا آثاره. أما ذاته فممنوع الوصول إليها، فلم يبق إلا الصفات التي لا تعرف إلا بالآثار. اهـ.

اللطيفة العاشرة والحادية عشرة

كيف كانت عناية المسلمين موجهة بهمة أقوى إلى علوم غير هذه التي اهتم بها القرآن. وكيف كانت هذه العلوم لرقي الأمم والأحكام الشرعية لحفظها. وآباؤنا حفظوا أمماً موجودة، ونحن أصبحنا في أمم ضعيفة مريضة فيجب أن نسعى في إحيائها وتقويتها. ولا حياة لها ولا قوى إلا بهذه العلوم. وهاتان اللطيفتان ظاهرتان مما تقدم فلا نطيل فيهما.

اللطيفة الثانية عشرة

كيف ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته بهذه العلوم وحرك الهمم لها ثلاث عشرة سنة والمسلمون تركوها واكتفوا بالقشور الجدلية

إن المتأمل في نزول القرآن يجد السور التي نزلت بمكة تحض على النظر في السماوات والأرض لتوجيه الهمم إلى حوز النعم وحب المنعم. وذلك ١٣ سنة: وفي المدينة كانت تنزل آيات بذلك وبالأحكام

الشرعية، وهل هذا الترتيب نزل بلا معنى؟ أليس هذا يفهمنا أن نظام الإسلام لا يقوم إلا بهذا الترتيب؟ وبعبارة أخرى: إنه يجب أن يحث الشعب الإسلامي على معرفة العوالم العلوية والسفلية. فأما العامة فبالظواهر لمعرفة الخالق. وأما الخاصة فللتحقيق والتبيين، وبذلك يزداد الإيمان عند العامة والخاصة ويحب الله وتعمر البلاد. فأما الأحكام الشرعية التي في الفقه فإنّما هي لطائفة خاصة لتحكم الناس. وبقية الأمة ملزمة أن تعرف ما هو مقرر عادة من وضوء وصلاة وزكاة ونحو ذلك بلا تطويل كما أوضح هذا الأخير إمامنا الشافعي في رسالته، وإذن ليس يغني المسلمين ما يقرؤونه من المختصرات في علم التوحيد كالاستدلال على وجود الله بأن العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فهم يذرون العالم يتخبط ويجرون بالطالب وراء المخلوقات، ويقولون: إن العالم حادث. وهذا الحادث له محدث. فهذه طفرة لأن الطالب لم يعرف العالم إلا معرفة حيوانية. فالواجب أن يدرس له بعض نظام العالم، كأن يدرس له بعض عجائب الحيوان وبعض عجائب جسم الإنسان مثل الذي ذكرناه هنا وأمثال ذلك. ثم يقال له: هل عرفت هذا النظام؟ فيقول: نعم. إنه عجيب. فبهذا يشوقونه إلى ربه فيحبه، فيكون هذا التشويق قد انطوى فيه الدليل وزادت عليها المحبة. وكتب التوحيد كتب أكثرها جدلية، وليس ينقذ أمة الإسلام من جهالتها إلا تأليف رسائل قصيرة وطويلة ونشرها بين العامة حتى يعرفوا ربهم ويخشوه. ومن جمع ما كتبناه في هذا التفسير استخرج منه رسائل تنشر بين الناس بلا مشقة، فليعدل المسلمون عما هم فيه من قراءة كتب لأمم قد مضت وانقضت. ونحن في زمان أراد الله أن يظهر نور جماله إلى الأمم الإسلامية فيشرق نوره على ربوعها. ويكون ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]. اهـ.

اللطيفة الثالثة عشرة

كيف اكتفى المسلمون بشذرات ضئيلة من علوم البلاغة. ولو أنهم وصلوا إلى أقصاها لم يكن إثبات إعجاز القرآن بها نافعاً إلا لصغار الطلبة الذين يبتدئون بقراءة اللغات، فيفهمون أن القرآن معجز، وليس هذا بنهاية العلم، فإذا وقف الطالب على هذا في القرآن فهو طفل صغير. وإلا فلماذا لم يقف في الأحكام الشرعية على النكت البلاغية في الآيات القرآنية. إن المسلمين قصروا في البلاغة فضلاً عن العلوم.

هاأنا ذا أوضح هذا المقام باختصار فأقول: قد اعتادت أمتنا الإسلامية أن تقرأ كتب البلاغة المتداولة كمؤلفات عبد القاهر الجرجاني والسكاكي والتفتازاني وأمثالهم، ودرجوا على ذلك قروناً، فإذا أخذوا يدرسون القرآن طبقوه على تلك العلوم. فإذا بحثوا في التقديم والتأخير، والذكر والحذف والفصل والوصل، والإطناب والإيجاز من علم المعاني؛ وبحثوا في التشبيه والمجاز والكناية من علم البيان؛ وبحثوا في الجناس والطباق والمقابلة والتضمين والتورية وما أشبه ذلك من علم البديع؛ ثم لاحظوا ذلك عند دراسة القرآن؛ ظنوا أن هذا غاية ما يراد من الطالب، وهو خطأ يجب الإقلاع عنه لسببين: السبب الأول: أن هذه البلاغة بتراء ناقصة. فلعمرك لم يكن القدماء الأفاضل كالسكاكي والجرجاني والتفتازاني ليؤلفوا هذه الكتب لتكون هذه نتيجتها، وإنّما أرادوا أن يتمادى الناس في العلم

والبحث فيقرؤوا كتب القدماء والمحدثين، وتكون لهم ملكة يقتدون بها على ذوي الفصاحة والبلاغة بأنفسهم. وقد ذكرنا موازنات بين كلام العرب وبين القرآن فيما مضى، وسيأتي بعض ذلك في هذا التفسير، وإذن يعرف الناس الفرق بين القرآن وبين كلام العرب فيصدقون بأنه معجز، والدليل على أن ذلك مقصدهم أنك تجدهم يأتون تارة بآية، وتارة ببيت شعر، وآونة يأتون بآية ويذكرون وجوه الإعجاز فيها، فهم فتحوا الباب، وعلينا نحن في هذا الزمان أن نجعل الدراسة هكذا، يقرأ الطلاب طرفاً من علوم البلاغة بلا تطويل كما هي الحال الآن، ثم يعنى أشد العناية بترتيب الأشعار ومقالات النثر والخطب التي أنشئت في زمن الجاهلية عصراً فعصراً إلى زمن النبوة، وهكذا جيلاً فجيلاً إلى الوقت الذي يكون فيه الطالب مشتغلاً بهذا العلم، وهذا هو المسمى علم آداب اللغة، فبهذه الطريقة يطلع الطالب على أساليب كل عصر من أقدم أيام الجاهلية نثراً ونظماً، وإذن يعرف قيمة بلاغة القرآن بالملكة التي حصلت له من الخطب والنثر والنظم، وإلا فلو بقي الطالب يقرأ في نفس تلك الكتب سنين؛ فإنه يخرج منها لا يدري البلاغة لا في القرآن ولا في كلام العرب، إذ يخرج وليس عنده إلا قواعد مخترعة كثيرة التفاريع، وقد تباعد عن القرآن وعن مقاصده، وعن اللغة العربية، كما يتباعد الذي أراد الحج وأخذ يحضر الزاد والراحلة وتمادى في ذلك وتوسع، وأضاع جميع وقته في ذلك الاستعداد، فيرى أن غيره سبق إلى طريق الحج، وهو لم يفعل شيئاً فيبقى تلك السنة، وهكذا كل سنة هو في إعداد الراحلة وغيره يذهب ليحج، فهؤلاء يضيعون أوقاتهم في المقدمات فتفوتهم المقاصد.

السبب الثاني: أن الطالب إذا عرف بلاغة القرآن بالطريقة التي ذكرناها فهو لا يزال طفلاً، ما الفائدة التي استفادها في دينه أو دنياه، غاية الأمر أنه أصبح صاحب ذوق في النثر والنظم، واستعد لفهم العلم، وأصبح يصلح للكتابة والخطابة، ولكن القرآن جاء لتعليم الأمم علوم القرآن كالأحكام الشرعية والعلوم الكونية، فوقوف الطالب عند إعجاز القرآن واكتفاؤه بذلك جهالة كتعاء، فالقرآن لأمرين: حياة الأمة بالعلوم الكونية، وحفظ كيانها وبقائها بالعلوم الشرعية، بهذا تفهم قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، ثم أتبعه بذكر خلقه وخلق نعمه. اهـ.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: لقد وعدت في سورة «النبأ» أن تتم الكلام على أقسام النبات المذكورة هناك. وقد ذكرت هناك أنه إما ذو فلقة واحدة. وإما ذو فلقتين. وهذان نوعان لجنس النبات، ثم إنك ذكرت لكل من النوعين فصائل كثيرة كالبصل والثوم الخ في ذي الفلقة الواحدة، وكالكرنب والقنبيط في ذي الفلقتين، فأرجو أن تتم هذه الأقسام على سبيل الاختصار.

فقلت: إننا لا نريد في أمثال هذا المقام أن نقتصر على شحن الأذهان بالمسائل العلمية ثم نخليها من تجلي الجمال والبهاء.

العلم قد ملئت به الكتب وشحنت به الطروس، ولكنه إذا أعطي للناس بلا بهجة ولا جمال ولا تذكير يكون العالم به كمثل الحمار يحمل أسفاراً، ليكن الجمال هو المقصود بالدراسة، وعلم بلا جمال ولا تشويق إن هو إلا ميتة والميتة لا يأكلها إلا الخاطئون.

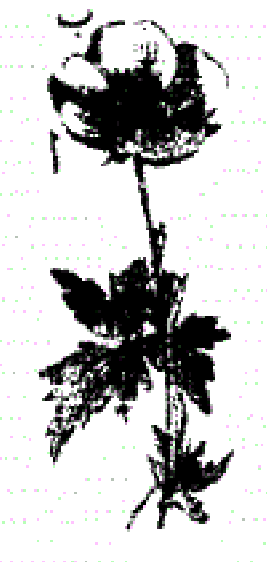
قدمنا أن النبات إما ذو فلقة وإما ذو فلقتين كما قلته أنت لي. إن هذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر: ٣]. العدد إما شفع وإما وتر. وليس في الوجود إلا شفع وإلا وتر. الشفع ظهر في أمثال الفول، والوتر ظهر في أمثال القمح والنخل.

حسن صنعك يا ربنا، تجلى جمالك في مظاهر القمح ومظاهر الفول. والفول والقمح يزرعان كثيراً في بلادنا المصرية، ونرى ساق الفول كالمخروط، ونرى ساق القمح كالعمود، فالأول أعلاه أدق من أسفله. والثاني أعلاه كأسفله، ومع الأول في شكل مخروطه جميع ما كان ذا فلقتين. وللثاني في شكله العمودي كل ما كان ذا فلقة واحدة من النبات.

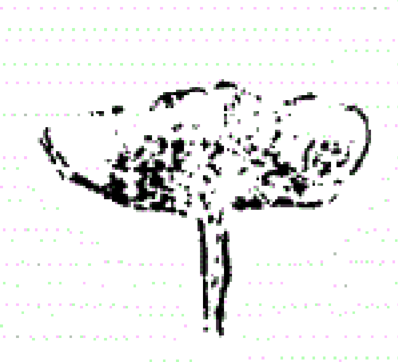
أليس من عجب أننا نرى الأرز والذرة بقسميها والبصل والكرات كل هذه عمودية الشكل كما تقدم في القمح. وهكذا نرى الفجل واللفت والتفاح والكمثرى والمشمش وأمثالها كلها مخروطية الشكل كالفول.

فيا ليت شعري من ذا الذي كان يظن أن هناك نظاماً كهذا في النبات. انتظمت حركات الأفلاك وأماكنها، هكذا انتظمت أعضاء النبات وأماكنها. فرأينا هنا ائتلافاً بين الفلقة والفلقتين وبين أشكال النبات من عمودي ومخروطي، وهناك نظام جميل آخر أيضاً. وهو أن ما كان ذا فلقتين يكون غالباً عدد أوراق كأسه وعدد أوراق تاجه وعدد أعضاء تذكيره، إما خمساً وإما مكرر خمس، ومن غير الغالب قد يكون اثنين وأربعاً، وما كان ذا فلقة واحدة فإنه يكون إما ثلاثة وإما مكرر ثلاثة. إذن الأعداد في القسمين راجعة إلى عدد ٣ وإلى عدد ٥ ومكرراتهما. وإلى عدد ٢ و٤.

أفلا تعجب من هذا الثبات، ثبات في هيئة الساق، وثبات في عدد أوراق الكأس، وعدد أوراق التويج، وعدد أعضاء التذكير، أو مكرر خمس لذوات الفلقتين. وهناك صوراً جميلة لبعض ذوات الفلقة الواحدة. وأخرى لبعض ذوات الفلقتين. فمن صور ذوات الفلقتين ما يسمى «كأس الزبدة» (شكل ٣٧)، وهو نبات عادي لكأسه خمسة أوراق. ومثلها لتاجه، وكلها منعزلات منفصلات، وفيه من أعضاء التذكير كثير (شكل ٣٨)، وفي المركز عدد كثير من المبيض (شكل ٣٩).



(شكل ٣٧)
كأس الزبدة أوراق كأسه منفصلات كذلك أوراق تاجه

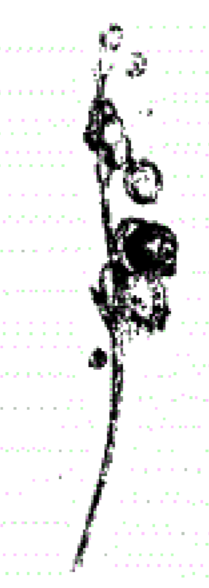


(شكل ٣٨)
كأس الزبدة واضحاً



(شكل ٣٩)
مبيض زهرة كأس الزبدة

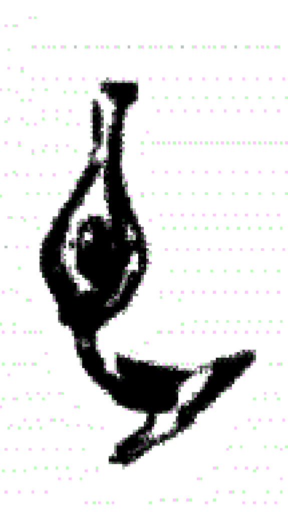
إن زهر زنبق الوادي (شكل ٤٠) مغاير لكل ما قدمناه، فشكل زهرتها يرى أشبه بالجرس مدور الشكل. وهذا الجرس منته بستة أطراف أو نتوءات، إن هناك ست أوراق متحدات مكونات للتاج. ولم تنفرج عند نهايتها، وفي أسفل الجرس (شكل ٤١) ستة أعضاء التذكير وعضو التأنيث الذي سيصبح فيما بعد ثمرة لحمية تسمى «برى». وبهذا تم الكلام على شجرة الزنبق، والحمد لله رب العالمين.



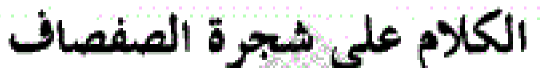
(شكل ٤٠) زنبق الوادي



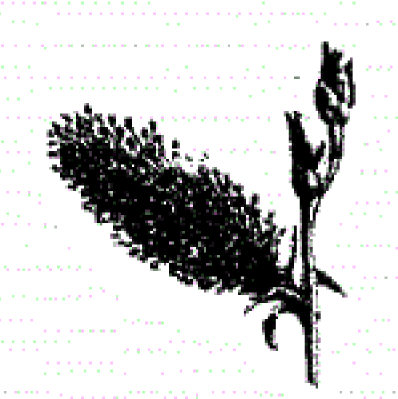
(شكل ٤١) جرس يرينا أعضاء التذكير وعضو التأنيث لزنبق الوادي



(شكل ٤٢) مبيض زهرة زنبق الوادي



الكلام على شجرة الصفصاف



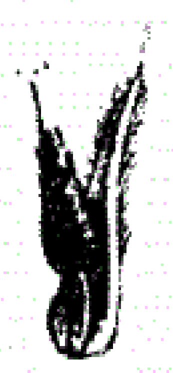
(شكل ٤٣) زهر الصفصاف، وفيه أعضاء التذكير



(شكل ٤٤) (أ) أعضاء التذكير في زهر الصفصاف (ب) ورقة صغيرة على الساق



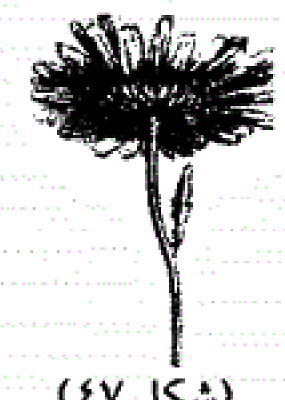
(شكل ٤٥) الزهر وعضو التأنيث للصفصاف



(شكل ٤٦) مبيض زهر الصفصاف

إن الثالث يشمل المبيض وما عليه. والثاني المبيض وحده. وبهذا تم الكلام على الصفصاف، والحمد لله رب العالمين.

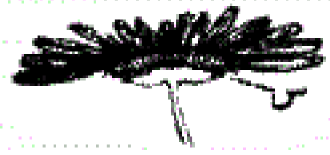
الكلام على الأقحوان



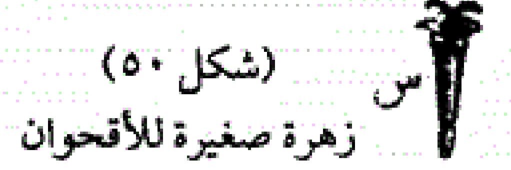
(شكل ٤٧) الأقحوان منظوراً من أسفله



(شكل ٤٨) الأقحوان منظوراً من أعلاه



(شكل ٤٩) خصلة من زهرة الأقحوان (س) زهيرة أقحوان أو زهرة صغيرة



(شكل ٥٠) زهرة صغيرة للأقحوان

إيضاح هذا المقام



(شكل ٥٠)



(شكل ٥١)
نصف زهرة للأقحوان

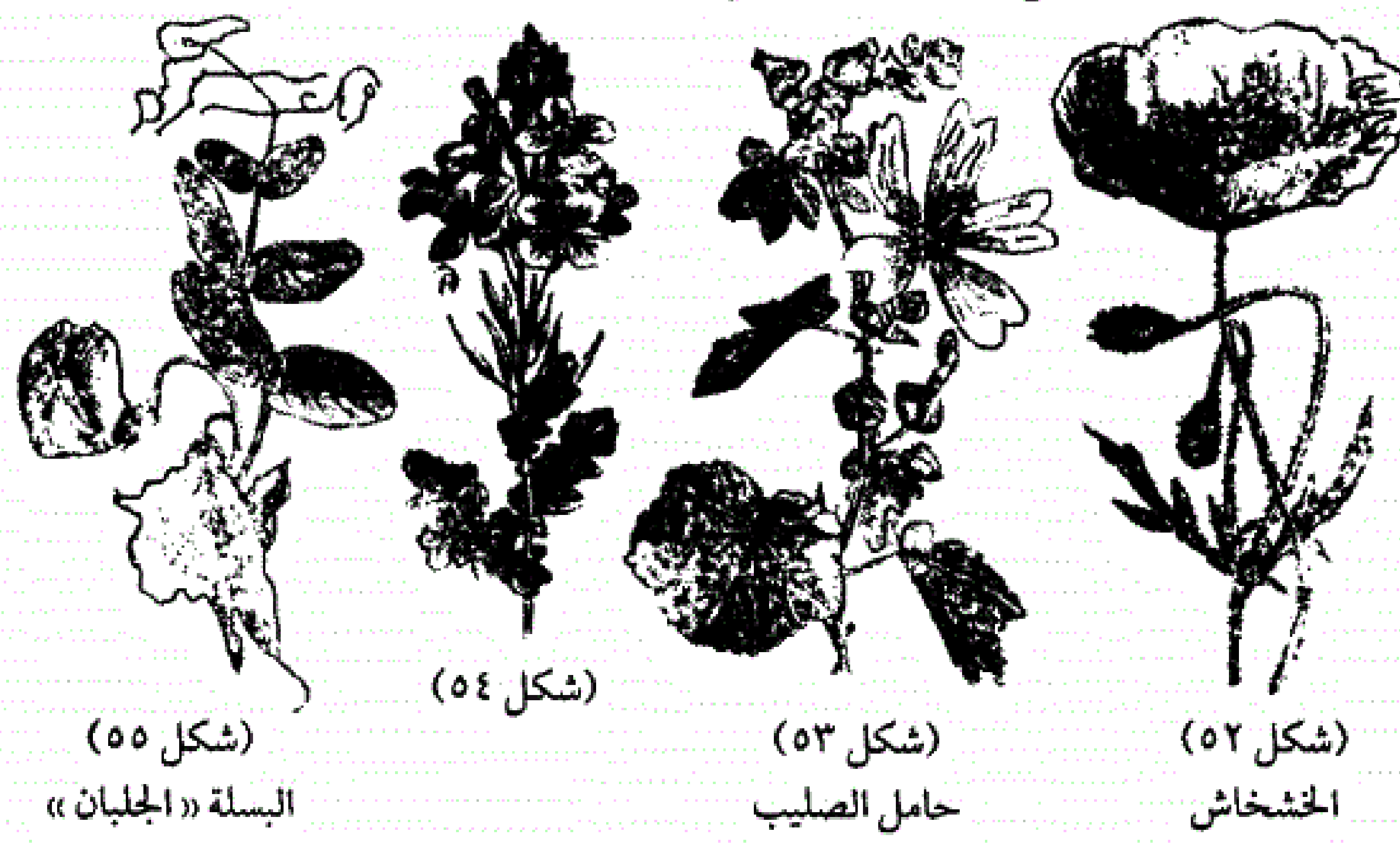
إن الزهرة الصغيرة (س) (شكل ٤٩) عبارة عن شيء أصفر، فلما رؤيت بالمنظار المعظم ظهر أن لها (٥) أوراق كونت التويج وصارت أنبوبة (شكل ٥٠)، وفي داخل هذه الأنبوبة (٥) أعضاء التذكير التي في وسطها عضو التأنيث المشتمل على الأصل الذي سيكون نباتاً جديداً «البذر الصغير» وكل هذا لن يعرف إلا بالمنظار المعظم، وهذا الأصفر اللون هو المسمى زهرة صغيرة، أما الأبيض اللون حرف (ب) (شكل ٥١) فإنه يسمى نصف زهرة.

إنه يظهر في بادئ الرأي كأنه أوراق تويج. ولكنه في الحقيقة زهرة أعطيت اسم نصف الزهرة، فكل واحدة منها مكونة من خمسة أوراق من أوراق التويج منضمات عند (ب) بهيئة خاصة من أعلى مكونات أنبوبة عند حرف (ج).

إذن في زهرة الأقحوان زهرات كثيرة وأنصاف زهرات، الأولى لونها الصفرة، والثانية لونها البياض، وكل هذا إنّما يكون بالاستعانة بالمجهر، وهي الآلة المكبرة أو المعظمة «المكرسكوب».

هنالك قال صاحبي: لقد جمعت أكثر النبات ذي الفلقة الواحدة وأكثر النبات ذي الفلقتين في سورة «النبأ» بذكر أسمائهما. فأريد الآن أن تصور صوراً من كل واحد من القسمين لينتهي المقام بالجمال والحسن والبهاء.

فقلت: أنا أوافق على هذا. فهاك صوراً من النباتات ذوات الفلقتين خاصة.

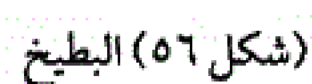


(شكل ٥٢) الخشخاش — (شكل ٥٣) حامل الصليب — (شكل ٥٤) — (شكل ٥٥) البسلة «الجلبان»

وإنّما سمي (شكل ٥٣) بحامل الصليب لأن أربع الورقات المكونات للتويج موضوعة على هيئة الصليب.

ثم انظر هذه الأشكال:





(شكل ٥٦) البطيخ (شكل ٥٧) الأقحوان (شكل ٥٨) الخرشوف (شكل ٥٩) شيكوري



(شكل ٦٠) بطاطس

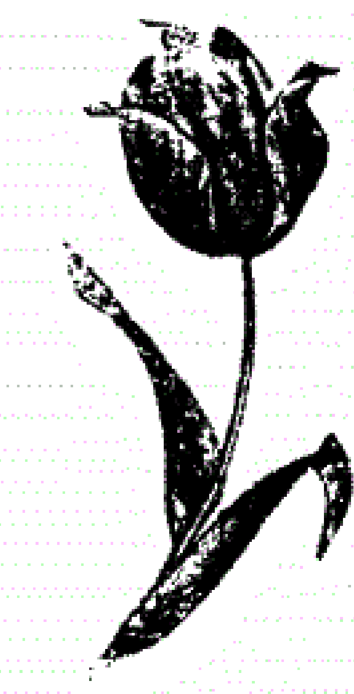
(شكل ٦١) سعتر



(شكل ٦٢) صنوبر

صور من النباتات ذوات الفلقة الواحدة

إيضاحاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴾ [الآية: ١٦] في سورة «النبأ»، ولقوله تعالى هنا في سورة «عبس»: ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولقوله: ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وهذا هو الزمان الذي أذن فيه الله بذلك.



(شكل ٦٣) نوع من الزنبق





(شكل ٦٤) قوس قزح



(شكل ٦٥)



(شكل ٦٦) فانلا، وهو نبات يكون في الأقطار الاستوائية به يجفف الثلج



(شكل ٦٧) هليون





(شكل ٦٨) القمح

هذا هو نهاية الكلام على النبات ذي الفلقة الواحدة، وذي الفلقتين، وهي ذوات الأزهار، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع الآن في الكلام على النباتات التي لا زهر لها، فنقول ومن الله التوفيق:

النباتات التي لا زهر لها

إن ما ذكرناه من النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إيضاحاً لقوله تعالى في سورة «النبأ الآية ١٦»: ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ كلها من النباتات المزهرة وما أكثرها على الأرض، ونحن لم نذكر منها إلا القليل دلالة على الكثير، ذكرناها:

(١) امتثالاً لأمر الله عز وجل إذ يقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس: ١٠١] ولقوله تعالى أيضاً: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾[الأنعام: ٩٩]، ولقوله هنا: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[عبس: ٢٤] الخ.

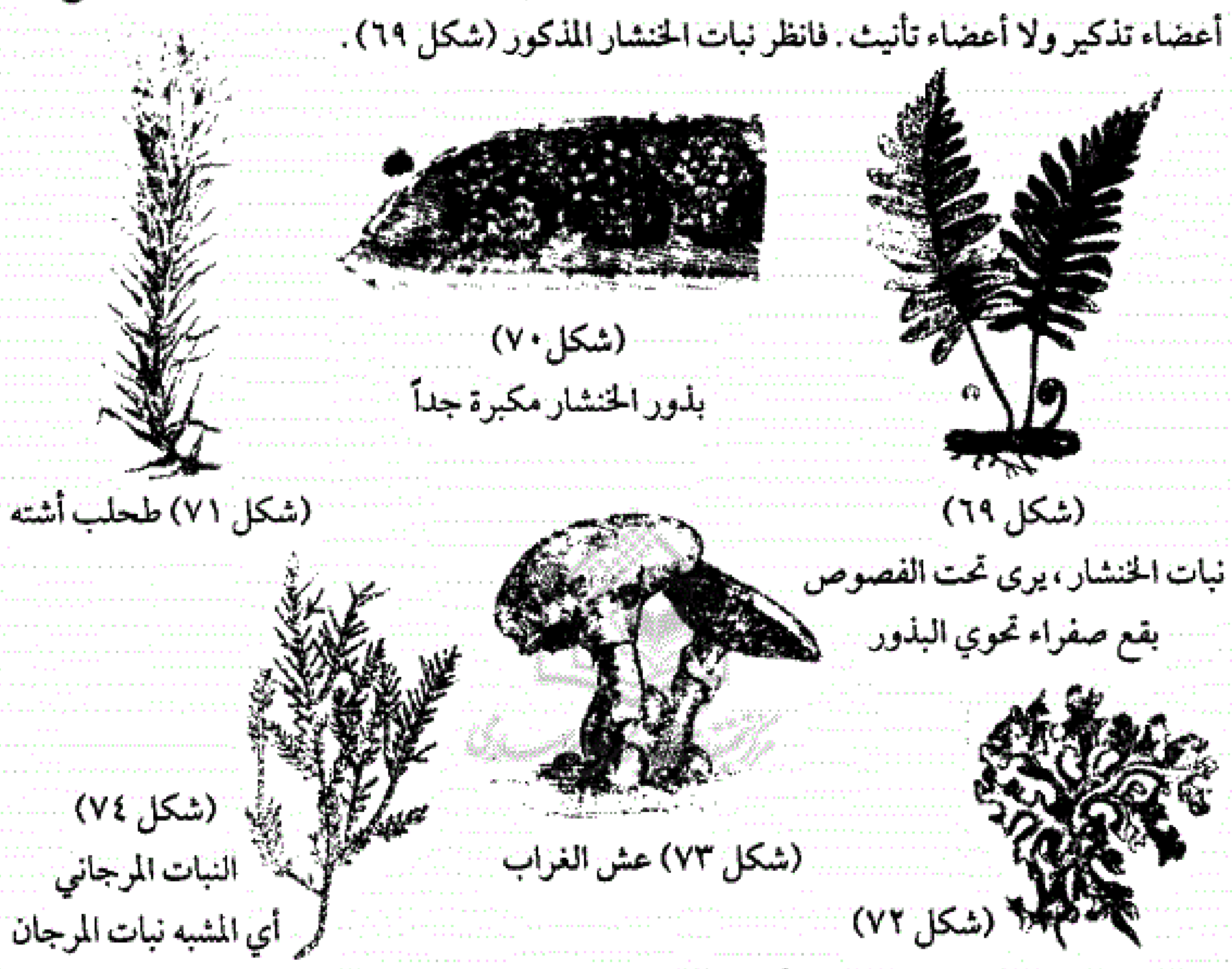
(٢) وشكراً لله تعالى إذ لا شكر إلا بعد الحب، ولا حب إلا بعد العلم بصفات وأعمال المحبوب.

(٣) وذكراً لله تعالى في أعماله وهو يقول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[البقرة: ١٥٢].

(٤) وتفكراً في مصنوعاته، وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبۡحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فهذا هو التفكر، فأما النظر السطحي فالحيوان والإنسان فيه سواء، والعالم الغافل إنّما هو من العامة قد ألبس لباس العلماء.

(٥) وقبولاً لنعمة السعادة، ذلك أننا قدمنا في بعض أجزاء هذا التفسير نقلاً عن علمائنا رحمهم الله تعالى: أن جزاء المحسنين أن ينعمهم الله النعيم الحقيقي في نفس الدنيا، وهو نعيم السعادة بالاطلاع على الحقائق والبهجة والسرور بها، ولا جرم أنني أكتب هذا الآن وأنا موقن أن هذا النعيم الحقيقي والبهجة الحقيقية بهذه العجائب يشاركني فيها حالاً في زماننا أمم وأمم من أذكياء المسلمين، فالسعادة إذن مضاعفة أضعافاً كثيرة.

(٦) وقياماً بفرض الكفاية لتأدية واجبه، لأن كل علم وكل صناعة فرض كفاية، والمسلمون جميعاً يأثمون بتركها، وهذا العلم يصقل العقول، وبه تظهر عقول وعقول. فهانحن أولاء الآن شارعون في ذكر بعض النباتات التي لا زهر لها، فإذا كانت النباتات المزهرة السابقة لها كأس وتويج وأعضاء تذكير وأعضاء تأنيث؛ فهذه ليس لها شيء من ذلك، غاية الأمر وقصاراه أن لها في مثل نبات «الخنشار» تحت كل فص من فصوصه بقعاً صفراء تحوي بذوراً، فلا زهر ولا كأس ولا تويج ولا أعضاء تذكير ولا أعضاء تأنيث. فانظر نبات الخنشار المذكور (شكل ٦٩).



(شكل ٦٩) نبات الخنشار، يرى تحت الفصوص بقع صفراء تحوي البذور

(شكل ٧٠) بذور الخنشار مكبرة جداً

(شكل ٧١) طحلب أشنه

(شكل ٧٢)

(شكل ٧٣) عش الغراب

(شكل ٧٤) النبات المرجاني أي المشبه نبات المرجان

نحمدك يا ربنا فلقد علمتنا وأنعمت علينا بالنظر والفكر، فنظرنا آياتك التي هي المقدمات لنظر وجهك الكريم، إن من لم يغرم بجمالك في الدنيا بأمثال هذا النظر فإنه لا ينال النظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة إلا بعد عناء وطول مشقة ونصب: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢].

إن من سعد في الدنيا بالبهجة بجمال العجائب الأرضية هو نفسه الذي يسعد بالنظر إلى وجه الله الكريم.

ومن عجب أن هذه الطائفة في الدنيا هي التي عليها مدار رقي وسعادة نوع الإنسان، فهم سعداء في الدنيا والآخرة، وهم مسعدون لإخوانهم في الدنيا لرقيهم بين الأمم، ومسعدوهم في الآخرة لأنهم يحبون ربهم الذي عرفوه بجميل الأفعال، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣]. انتهى، والحمد لله رب العالمين. كتب هذا المقال في سحر يوم الأربعاء ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١هـ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢م.

زيادة إيضاح لقوله تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

(١) نظام سير الشمس وأثره في النبات.
(٢) نظام النبات باعتبار الأشهر القبطية.
(٣) نظامه باعتبار علم تشريح الجسم الإنساني.
(٤) نظامه باعتبار العناصر من جهة، ومن جهة أخرى باعتبار صحة أعضاء الجسم الإنساني.
(٥) نظامه باعتبار علم الصحة خاصة للجسم الإنساني.

حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في هذا اليوم، أعني يوم الخميس قبيل الظهر آخر أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥١ هجرية، فقال:

الله الذي أنزل القرآن هو نفسه الذي خلق النبات، وهو الذي يقص علينا ما خلق منه، فهو يقول: إنه لم يخلق نباتاً واحداً بل نوعه أنواعاً كثيرة جداً، وهي تعد بمئات الألوف، فما السبب في هذا التنويع؟ فقلت: دعني أفكر في ذلك ملياً، وقابلني إن شاء الله غداً، فما كاد ينصرف حتى جاء الخيال يصور لي في اليقظة كأن جماعة في الهواء بين السماء والأرض، وقد جلسوا كما يجلس الناس على الأرض، وقد انتظم هناك مجلس، وفي المجلس عالم بعلم الفلك، وآخر بالزراعة، وآخر بعلم النبات، وآخر بعلم التشريح، وآخر بعلم الطبيعة والطب، وآخر اختصاصي بعلم الصحة.

وبينما أنا أتأمل في هيئتهم إذ أقبل أحد الفلاحين وسألهم نفس هذا السؤال قائلاً: أيها العلماء الأعلام، ما السبب في اختلاف هذه النباتات؟ فهذا أبّ، وهذا زيتون، وهذا نخل، وهذا عنب إلى آخره.

فأجابه عالم الفلك قائلاً: إن سبب اختلاف النبات آت من اقتراب الشمس وبعدها، فهي في الصيف ترسل الحرارة، وفي الشتاء تكون أقل حرارة، وتختلف المزارع على حسب اختلاف الأقطار حرارة وبرودة، إن السنة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً و ٢٤٢٢ جزءاً من اليوم، أو ١٢ شهراً قمرياً، و ٣٧ في المائة من الشهر، وكل من تلك الشهور مؤلف من ٢٩ يوماً و ٥٣ في المائة من اليوم، وهذه السنة عبارة عن أربعة فصول، وللشمس فيها حركات، فتكون في الذنب في أول يناير، وفي الرأس في أول يوليو، والأول بعد بضعة أيام من المنقلب الشتوي، والثاني بعد بضعة أيام من المنقلب الصيفي وبين هذين الاعتدالين الربيعي في ٢٢ مارس والاعتدال الخريفي في ٢٣ سبتمبر. فهذه السنة كلها، وقد سارت الشمس في جميع البروج وأتمت دائرتها. فتكون في برج الحمل والثور والجوزاء في فصل الربيع، وفي السرطان والأسد والسنبلة في الصيف، وفي الميزان والعقرب والقوس في الخريف، وفي الجدي والحوت والدلو في الشتاء، وهكذا إلى يوم القيامة. ويكون سطح الأرض معتدلاً في فصلي الاعتدال. وحاراً في الصيف، وبارداً في الشتاء ولكل زمان مزارع، كما أن لكل قطر مزارع على حسب الاقتراب من القطبين والابتعاد عنهما. وتجد القطن والنخل لا ينبتان في الأقطار الباردة، ونحو البندق لا ينبت في الأقطار الحارة.

هنالك انبرى عالم الزراعة فقال: ما لنا وللبروج والمنازل. أنا أعرف الاختلاف بحسب الشهور القبطية. ففي شهر «توت» الذي هو رأس السنة القبطية وأوله يسمى النيروز يبتدئ لقط الزيتون في ٧ منه، وفي ١٧ منه تفتح أكثر الترع بمصر. وفي ١٨ منه أول فصل الخريف.

شهر «بابه»: فيه يبذر كل ما لا تشق له الأرض كالبرسيم ونحوه. وفي آخره تشق الأرض بالصعيد ويحصد الأرز. ويطيب الرمان. وتضع الضأن الخ.

شهر «هاتور»: فيه يزرع القمح، ويطلع البنفسج، والمنثور، وأكثر البقول.

شهر «كيهك»: فيه تدرك البقلاء، وتزرع الحلبة، وأكثر الحبوب، ويدرك النرجس.

شهر «طوبه»: في زرع القمح فيه تغرير.

شهر «أمشير»: فيه تغرس الأشجار، وتقلم الكروم، ويدرك النبق واللوز الأخضر.

شهر «برمهات»: فيه تزهر الأشجار، ويعقد أكثر الثمار، ويزرع أوائل السمسم، ويقلع الكتان، ويدرك الفول والعدس.

شهر «برمودة»: فيه تقطف أوائل عسل النحل، وفيه تكثر الباقلاء والورد الأحمر.

شهر «بشنس»: فيه يكثر التفاح القاسمي، ويبتدئ التفاح المسكي، والبطيخ العبدلي والحوفي، والمشمش والخوخ الزهري الأبيض.

شهر «بؤونة»: فيه يكثر الحصرم، ويطيب بعض العنب، والتين البوني، والخوخ الزهري، والتوت والبلح.

شهر «أبيب»: فيه يكثر العنب والتين، ويقل البطيخ العبدلي، ويطيب البلح.

شهر «مسرى»: فيه يعمل الخل، ويدرك البسر والموز. وقد تقدم في سورة «الزمر» هذا المقام موضحاً بأوفر من هذا فارجع إليه إن شئت. ثم قال: هذا هو السبب الذي أعرفه.

فقال عالم الهيئة والفلك: إن ما قلته بعض نتائج سير الشمس. ولها نتائج أخرى. فبعدها عن الأقطار الشمالية والجنوبية يكون سبباً في نبات مخالف أشد المخالفة للنباتات العظيمة والغابات الهائلة في خطا الاستواء، فهناك انبرى عالم التشريح وقال: أيها الفاضلان قد قصرتما السبب في اختلاف النباتات على وجه الأرض على أمر الحرارة والبرودة، واختلاف الفصول والشهور والأيام، وكأنه لا تراعى هناك المصالح. أما أنا فأقول: إن النبات مختلف على حسب اختلاف القوى الهاضمة في جوف الحيوان، أفليس الأرز والقمح والشعير والفول وجميع المواد النشوية، أي: التي يكثر فيها النشاء، يحصل لها الهضم بما في الفم من الغدد اللعابية، وهي ثلاثة أزواج تفرز لعاباً يجري في قنوات، فالزوج الأول هو النكفي وهو أعلى، والثاني تحت الفك الأسفل، والثالث تحت اللسان، وهو اللعاب، فيه مواد مخاطية اسمها «تيالين» لها تأثير على ما تقدم من الأطعمة، ومتى أثر اللعاب على هذه المواد قلبها إلى مواد سكرية، وللأمعاء تأثير على ما لم يهضمه اللعاب في الفم مما تقدم، ونرى مواد أخرى نباتية وحيوانية يتجاذبها البنكرياس والمعدة، فهاهنا مناطق أرضية يربى فيها النبات تقابلها مناطق أخرى في الجهاز الهضمي فتهضمها.

هذا المقام مفصل في سور كثيرة منها سورة « فاطر عند الآية ١١ » : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ الخ ، فمن أراد استيفاء هذا المقام فلينظره هناك وفي مواضع أخرى .

هنالك قال عالم الطبيعة : يا قوم إن للعناصر لدخلاً في تنوع النبات وكذلك صحة الإنسان والحيوان ، أنتم ذكرتم الشمس وقربها وبعدها ، وذكرتم الأيام والشهور ، وذكرتم أعضاء الهضم التي وزعت عليها الأغذية لتهضمها . وأنا أقول لكم : إن للصحة وللعناصر مدخلاً أعظم :

انظروا الجير ، إن الجير مغذ للعظم لأن له دخلاً كبيراً في تكوينه ، وهو أيضاً يشفي الجروح ، فهذا يدخل في الكرنب والسبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردة ، وفي غير النبات في اللبن والجبنة التي لم تنزع زبدتها .

وانظروا إلى المغنيسيوم الذي يساعد العضل ويمنع الفتق ، فذلك في السبانخ والخس والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والباميا .

وانظروا الكبريت ، إنه منظف للدم وعدو الروماتيزم ، فهو في السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والباميا .

والفسفور يغذي المخ ، وهو في الخس والفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح وكشك الماز ، وهكذا سمك البحر وصفار البيض .

والحديد يعطي الدم اللون الأحمر ، وينفع من فقر الدم ، وهو في الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والبلح والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم .

والكلورين يساعد على الهضم ، وينظف المعدة ، وهو في الكرنب والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر .

ثم قال : أيها الناس ، هذا هو السبب في تنوع النبات ، فهذه عناصر جعلت لفوائد جسم الإنسان والحيوان ، وقد فرقت هذه العناصر على أنواع النبات ، وأنواع النبات موزعات على منافع في أجسام الحيوان والإنسان ، إذن ما لنا وما للشمس والشهور والأيام والحرارة والبرودة أيها العلماء .

هنالك انبرى العالم المختص بعلم الطب ، فقال : أنا أؤيد صديقي في قوله ؛ أيها الإخوان ،

الطماطم والهندبا يسمى بمصر « الجعضيض » والبصل كل واحد منها لأجل منفعة الكبد .

البقدونس وكشك الماز والفجل لمرض الكلى .

الخس والسبانخ لأجل الأعصاب .

الطماطم والليمون لأجل مرض يسمى « الرجريج » هذه كلمة عامية مصرية .

الجزر لأجل مرض الجلد . أنا أقول : إن الجزر جربته فمنع تلوين جلدي بعد ظهوره كما في هذا الكتاب .

البرتقال لقوة القلب والشجاعة . وكذا الليمون .

هنالك قال الفيلسوف الذي يلم بهذه العلوم كلها : أيها الإخوة ، إن مثلكم في أمر اختلاف النبات كمثل المثل الذي ضربه علماء الهند ، ذلك أن جماعة من العميان وصفوا الفيل بعد أن وضعوا

أيديهم عليه، فقال أحدهم: هو كالحائط، وقال الآخر: هو كالعمود، وقال آخر: هو شيء ناعم أملس وهكذا، فالأول وصف نفس جسمه، والثاني قد كان أمسك برجله، والثالث كان قد أمسك بنابه. وكانوا ستاً. وهكذا كان وصف البقية.

إن وصفكم لاختلاف النبات وصف جزئي، فهو حق من حيث إنه جزئي، فأما النظرة الكلية فإنا نقول: إن النبات ليس مخلوقاً منقطعاً عن العالم، كلا. إن عالمنا كله أشبه بشجرة واحدة أو جسم إنسان واحد بعضه مرتبط ببعض، الدماغ لا بد له من جسم، والجسم فيه ظفر وشعر وعروق الخ، وكلها لا بد منها للبقاء.

هذا النبات قد لوحظ فيه عند خلقته الحرارة والبرودة وطبيعة الأرض، وفي نفس الوقت لوحظ فيه أعضاء الهضم في جسم الحيوان، ففي الوقت الذي ينبت فيه الأرز والعدس والقمح مثلاً يخلق الحيوان بأعضائه الهاضمة على مقتضى ما يزرع في الأرض، فتكون الغدد اللعابية الست المتقدمة موضوعة مملوءة بذلك اللعاب الهاضم لتلك الحبوب أو الحشائش. وفي نفس الوقت يمتص النبات من الأرض الكبريت والمغنيسيا الخ، ليغذي أعضاء الحيوان، فهنالك لوحظت نفس العناصر المنتزعة من الأرض لأن هذا النبات مخلوق لحيوان ليتكون من أجزائه، وهكذا روعي في النبات تغذية الكبد والمخ والأعضاء الأخرى كما تقدم.

فليس ضوء الشمس غير مراعى فيه العناصر أو النبات أو أعضاء الإنسان. كلا. بل هذه كلها محسوبة في وقت واحد مراعى فيها التناسب. ولولا هذا لم يتم نظام.

ثم التفت إلى الأرض وقال: انظروا أيها الإخوان إلى أرض مصر، هاهنا يتجلى لي أيها الإخوان سعادات لا حد لها، إن في هذه النباتات المنتشرة في مصر وغير مصر نظام علم الأخلاق في مستقبل الزمان، ونظام علم السياسة وسعادة الأمم كذلك في مستقبل أزمان، وهكذا معرفة اتساع رحمة الله في الآخرة، كل هذا في النباتات التي سترونها في هذه الساعة، أصورها لكم وأبين معانيها، فإن للنباتات معاني تعرفها العقول كما تعرف معاني الكلام، بل المعاني هنا أكثر وأوضح فائدة، ثم رفع صوته وقال: الله أكبر الله أكبر، ألم يقل الله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]، إن ما أقوله الآن في النبات إنّما جاء من باب الإيقان واليقين هو العلم الذي لا يعتوره شك.

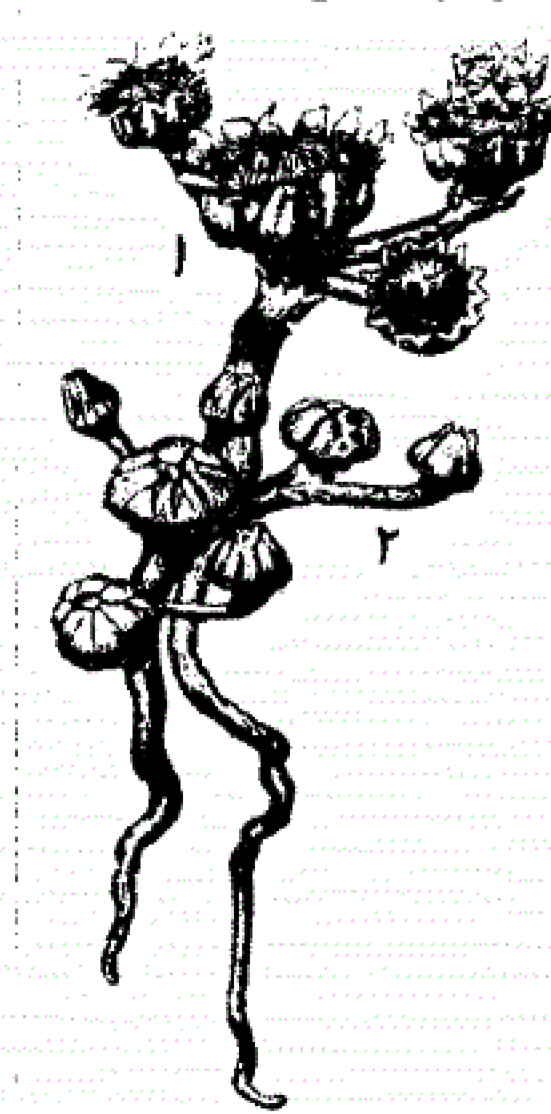
فلما قال ذلك رأيت العلماء الجالسين أخذوا يتعجبون من هذه المفاجأة.



(شكل ٧٥)

بل أنا كذلك اعتراني شيء من الدهش، وقلت في نفسي: علم الأخلاق وعلم السياسة وعلم الآخرة من النبات. إن هذه علوم فوق عقولنا في هذه الأرض، ثم يقول: إنها علوم يقينية، فقال له من حوله: قد أدهشتنا وشوقتنا فأرنا ما تقول.

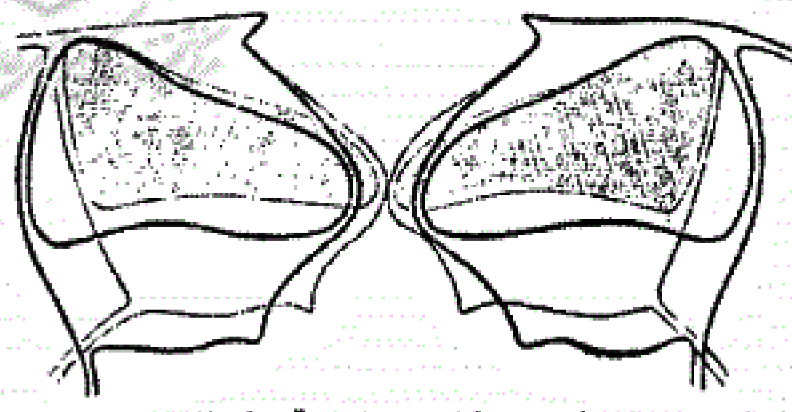
فما كادوا ينطقون بهذه الجملة حتى رأينا بساطاً منقوشاً جميلاً بأنواع الزخرف والزينة، محلى بكل أنواع البهجات، وقد ظهرت فيه رسوم ١٣ شجرة من أنواع مختلفة، وهاهي ذه. انظر (الشكل ٧٥) والأشكال الآتية في الصفحات التالية.



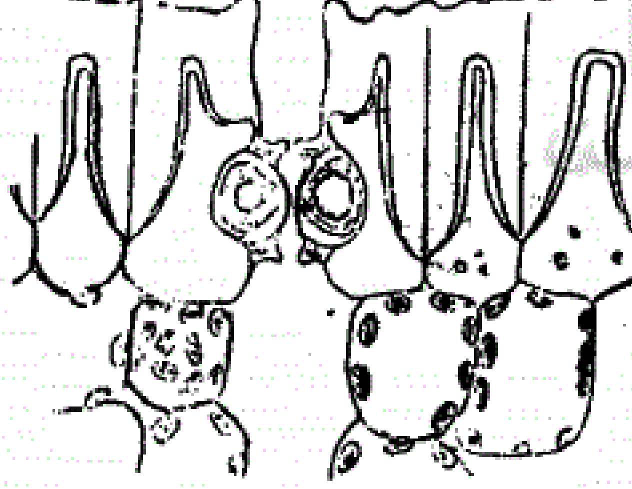
(شكل ٧٦) اليهق أحد النباتات الحولية التي تنمو في الصحراء الشرقية بمصر



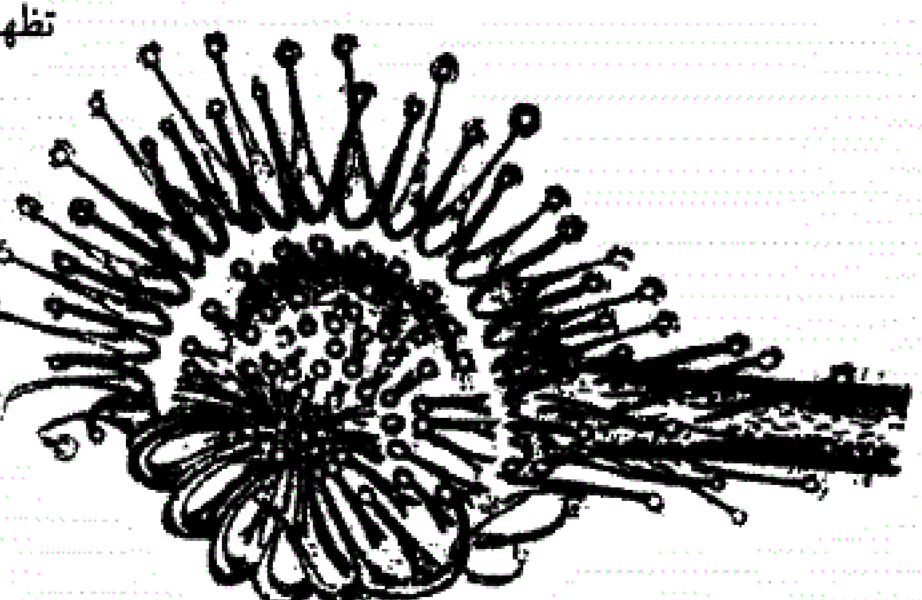
(شكل ٧٧) نبات اللصف



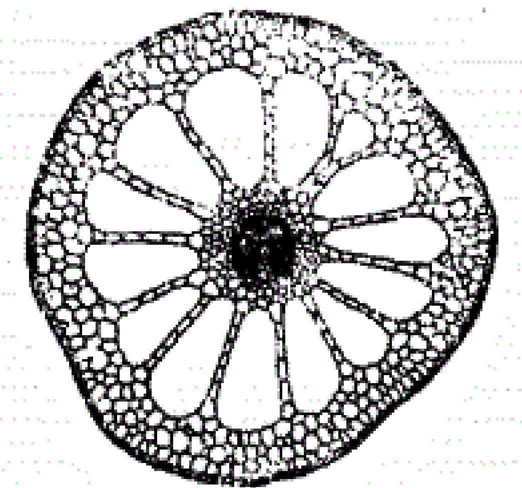
(شكل ٧٨) الخلايا الحارسة التي تحيط بالثغور



(شكل ٧٩) قطاع عرضي في ورقة الصبار تظهر فيه الثغور الغائرة والكيوتين الغليظ



(شكل ٨٠ ـ ورقة الدروزيرا)



(شكل ٨١) قطاع عرضي في ساق نبات مائي تشاهد فيه المسافات البينية الواسعة



ورقة هوائية

زهرة

ثمرة

الاوراق المائية الخيطية

(شكل ٨٣)
نبات مائي أوراقه
المغمورة خيطية والأوراق
الهوائية ذات شكل اعتيادي

(شكل ٨٢) المحاليق

ب أ

(شكل ٨٤ ـ النباتات الملتفة)
(أ) التفاف في اتجاه عكس حركة
عقرب الساعة
(ب) التفاف في اتجاه عقرب الساعة

(شكل ٨٥ ـ نبات الديونيا)

(شكل ٨٦ ـ جرة النبنش)

ب أ جـ

(شكل ٨٧ ـ حامول الماء «الانريكولاريا»)
(ا) جزء من النبات (ب) مثانة (ج) قطاع في مثانة

هذه هي الصور التي ظهرت منقوشة على ذلك البساط، وقد كتبت تحتها أسماؤها بهيئة بديعة بهجة للناظرين وحكمة للمفكرين.

فلما رآها القوم نظر بعضهم إلى بعض، وأخذوا يتساءلون ماذا من الفهم ومن الحكمة في هذه الصور، صور بديعة ونقوش جميلة، لا سيما أنها قد ظهرت بهيئتها في شجراتها، ولكن الصور المرئية شيء والعلم شيء آخر، الصور مبذولة للجهلة والعلماء، ولكن العلم يعوزه درس وتحصيل، ولا درس هنا ولا تحصيل.

ذلك هو الذي كان يدور في عقول بعض الجالسين وفي عقلي أنا أيضاً، هنالك أخذ الحكيم يفسر للجماعة ما أبنهم عليهم في هذه الصور المرسومات، فقال:

أيها الإخوان البررة الكرام، إنني الآن عرضت عليكم نوعين من الصور: صوراً ملفوظة، وصوراً مرسومة، والصور الملفوظة أبنت لكم بها معاني الصور المرسومة، وهاأنا ذا أوضح ما ذكرته فأقول:

معلوم أن النبات لن يعيش إلا بما يتخلل أجزاءه، ولكن كيف السبيل إلى ارتفاع الماء في أجزاء النبات؟ الله أكبر. الله أكبر. عجب وألف عجب! كيف يرتفع الماء في أجزاء النبات، إن الماء الذي هو حول هذه الأرض مضغوط عليه بطبقة سميكة من الهواء. ذلك الهواء الجوي البعيد المدى المقدر بعشرات الكيلومترات. وهذا الهواء أشبه بغطاء ثقيل يصل وزن ثقله إلى نحو ١٠ أمتار من الماء تضغط فوق سطح البحار. الهواء غطاء الماء، ولو انكشف هذا الغطاء لطار الماء، وثقل الأمتار العشرة المائية يساوي ثقل نحو ثلاثة أرباع المتر من الزئبق، إذن الهواء فوق سطح البحر ثقله يعادل ثقل تلك الأرباع الثلاثة. إن هذا الثقل تظهر ثمراته فيما يزاوله الناس في أعمالهم، إن الناس يرفعون الماء من الأنهر لسقي الزرع وهذا أمر متداول. ولكن الأمر العجيب إنّما هي الآلات البخارية التي بها يرفع الناس الماء من الأنهر، مثلاً النهر يجري وهو أوطأ من سطح الحقول متراً أو أمتار، فلنفرض أن نهراً كان أخفض من أرض الحقل نحو ٣ أمتار فكيف السبيل إلى رفع الماء من ذلك النهر إلى الحقل؟ لا سبيل إلى ذلك إلا بمعونة ثقل الهواء الجوي، وبيانه أن هذا الهواء ضاغط على سطح النهر والناس لا يشعرون ولا يفكرون. وهذه الآلة فيها أنبوبة حديدية متصلة بالنهر، ومتى فرغ الهواء منها اندفع الماء من النهر فخرج إلى الحقل. وذلك بقوة ضغط الهواء الجوي.

الله أكبر، إن ارتفاع الماء في أنبوبة الآلة البخارية أو الكهربائية إنّما يكون بضغط الهواء، أي: بضغطه على سطح النهر مثلاً، وهذا الضغط قلنا إنه يقرب من ١٠ أمتار. إذن الماء لا يرتفع أكثر من عشرة أمتار بهذه الآلات. بل التجربة أثبتت أنه لا يصل إلى هذا المقدار، ولم تكن في الأرض آلة ترفع الماء فوق ذلك، لأن الرفع بالضغط الجوي، والضغط الجوي هذا شأنه.

الآبار الارتوازية

إننا إذا وضعنا ماء في إناءين ووصلنا بينهما بأنبوبة مثلاً؛ فإنا إذا صببناه في أحدهما فإن الماء في الآخر يرتفع بمقدار ارتفاعه في الإناء الأول، لأن الإناءين متصلان بموصل بينهما، وهذه التجربة البسيطة التي يعرفها كل امرئ في الأرض هي التي بها كانت الآبار الارتوازية، تلك الآبار التي قد يحفرها قليل

من الأغنياء وتصل إلى غور بعيد جداً حتى يصل الحفر إلى أنهر عظيمة في غور الأرض تتصل بأعلى مجرى النيل في السودان. وهذا المجرى يصل إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجري النيل الظاهري تماماً.

فالماء المرتفع بهذا العمل العظيم يرتفع على سطح الأرض لأنه مبني على قاعدة الإناءين المتصلين ببعضهما، فعلى مقدار ارتفاع الماء في المنبع يكون ارتفاعه في هذه البئر تقريباً، لأن هناك عوامل تقلل ذلك الارتفاع، ولكن الذي قلناه هنا من رفع الماء بالآلات البخارية ليس من هذا القبيل، فليس الماء في نهر النيل الذي نرفعه بالآلة مرتفعاً في النهر بل هو منخفض. إذ لا يرفعه إلا ضغط الهواء الجوي. ولذلك لا يمكن ارتفاعه أكثر مما يستوجبه ذلك الضغط. وهذا ارتفاع محدود.

الله أكبر، ظهر ضعف الإنسان أمام هذه القوة القاهرة. وظهر اسمه الجبار المتكبر العزيز القابض الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل اللطيف، قهر الخلق وتكبر عليهم، وعز فقبض الماء عنهم بخفضه في النهر، ثم تفضل برفعه إلى الحقل بآلات ركبوها، كيف يصعد الماء في النبات وهو قد يرتفع فوق عشرين متراً، والنواميس الطبيعية لا تجيز ذلك الارتفاع. فلننظر الآن كيف ارتفع الماء في النبات وهو مخالف لذلك القانون.

الخاصة الشعرية

لاحظ الناس قديماً أن الماء يرتفع في الأنابيب الشعرية كالفتائل نبلها بالماء فنراه يرتفع فيها، وسموا ذلك الخاصة الشعرية، ذلك أن الماء يرتفع في الفتيل ضد الجاذبية، وكلما قل قطر الأنابيب الدقيقة ازداد ارتفاع السائل فيها، فلما رأى ذلك بعض العلماء قالوا: إن لهذه الخاصية الفضل في رفع العصارة في النبات عن طريق الأنابيب التي يتركب منها الخشب، كما يشاهد الناس في قطعة من السكر مبتلة بالماء من أسفلها، ولكن العلماء بعد ذلك بحثوا فوجدوا أن الخاصة الشعرية لا قدرة لها إلا على رفع قليل لا يتجاوز إلا بضع سنتيمترات.

الضغط الجذري

فكر العلماء في طريق للحل لما بطل الحل الأول، فظهر لهم أن الشعيرات الجذرية إذا امتصت الماء من التربة فإن الماء يندفع إلى أعلى بقوة غير قوة الخاصة الشعرية، ويسمونه الضغط الجذري، ذلك أنهم يقطعون ساق نبات تام في أصيص بحيث يكون القطع قريباً من سطح التربة، ثم يركبون أنبوبة زجاجية عليه (شكل ٧٥ المتقدم) ويصبون فيها زئبقاً، فعند خروج العصارة من الساق تحت تأثير الضغط الجذري يندفع الزئبق في الأنبوبة إلى أعلى، ومن الفرق الحادث بين سطحي الزئبق في البداية والنهاية يمكن تقدير الضغط الجذري، وخروج الماء من أجزاء النبات يسمونه «الإدماء»، والعصارة التي يدميها النبات تحتوي على أملاح معدنية، وعلى مواد عضوية ذائبة كالسكر والزلال، وهذا الإدماء تمكن مشاهدته إذا قطعت سوق العنب في أوائل الربيع عندما تبدأ الجذور بالامتصاص، ولكن وجدوا بعد البحث والتنقيب أن هذا الضغط الجذري لا يستطيع رفع العصارة من الجذر إلى قمم الأشجار العالية، فهو لا يزيد في الرفع عن مقدار جوين اثنين، أي: لا يستطيع رفع العصارة أكثر من عشرين متراً، فتبين بهذا أن في النبات قوة لرفع العصارات تفوق قوة الرفع الحاصلة من ضغط الجو فهي ضعفها.

الله أكبر، إن النبات أقوى في ضغطه ورفعه الماء من الهواء الجوي بل هو مثلاه، ولكن هذا الحل لم يوف المقام حقه، إذ من النبات ما يفوق عشرين متراً. وهو كثير جداً في كل مكان، فما الحل إذن؟.

الضغط الأسموزي

فهاهنا ضغط جذري، وضغط أسموزي. وهذا الأخير له قوة ترفع الماء إلى أمد بعيد فوق القوتين السابقتين، ثم أخذ يشير إلى الصورة الثانية. فقال: هذا اليهق (شكل ٦٧ المتقدم)، إنه أحد النباتات التي تنمو في الصحراء الشرقية بهذه البلاد «مصر». مصر فيها صحراء شرقية وغربية، والشرقية معظمها جبلي وفيها أودية غنية بالنبات. والصحاري بوجه عام تمتاز بارتفاع درجة حرارتها أثناء النهار وانخفاضها انخفاضاً شديداً أثناء الليل. وتندر الأشجار فيها مثل السنط والعبل، أما الشجيرات فهي كثيرة، وهذه تكون خشنة كثيرة الأشواك، ومن النباتات في الصحراء الشرقية «شوك القتاد»، وهو نبات معمر، ونبات «الرطريط»، وهو أحد النباتات العصارية المعمرة التي تنمو فيها، ومنها هذا النبات وهو اليهق (شكل ٧٦ المتقدم).

أنا أيها الإخوان لم أسرد لكم هذا لتقرؤوا علم النبات. كلا. فنحن في هذا المقام نستخدم جميع العلوم في حكمتنا، ومنها هذه النباتات التي في الصحراء، والصحراء قليلة الأمطار، فماذا يصنع النبات فيها. ماذا يصنع النبات والحر شديد، والماء نادر، كيف يعيش النبات؟.

علوم الأخلاق والسياسة المقتبسات من النبات

أيها الإخوان خبروني: إذا اشتد الحر على الناس فماذا هم صانعون؟ فأجابوه بأنهم:

(١) يلبسون الثياب البيض.

(٢) ويرفعون فوق رؤوسهم مظلات.

(٣) وينصبون خياماً يستظلون بها.

(٤) ويدخلون في سراديب في الجبال الخ.

فقال: وإذا قل الماء فماذا يصنع الناس؟ قالوا: يرفعونه من الآبار بأدواتهم.

(٥) يخزنونه في الصهاريج لوقت الحاجة.

فقال: الله أكبر، خبروني أيها الإخوان عن مقدار رفع الإنسان للماء. فقالوا: يرفعونه بالسواقي والشواديف وغيرها عدة أمتار. ويرفعونه بآلات البخار والكهرباء بمقدار عشرة أمتار كما اتضح في حديثنا السابق.

فقال: أي القوتين أرقى؟ أقوة النبات في رفع الماء أم قوة الإنسان؟ قالوا جميعاً بلسان واحد: قوة النبات. قال: ولماذا؟ قالوا: لأنك ذكرت أن النبات يرتفع الماء فيه عشرين متراً بقوة الضغط الجذري ويرتفع أعلى من ذلك بالضغط الأسموزي. فقال لهم: بالضغط الأسموزي؟ قالوا: نعم. فقال: وهل تعرفون إلى أي حد وصلت قوة الضغط الأسموزي؟ فقالوا جميعاً: منك نستفيد. فقال: إن الضغط الأسموزي يرفع الماء بمقدار مائة جو. ومعنى ذلك أن قوته في الرفع تساوي قوة ترفع ألف متر من الماء، أو نحو ٧٦ متراً من الزئبق، وذلك في نحو نبات «المليح» الذي يتخلل الصخور، فبهت القوم

من هذا الجواب. فقال لهم: هاهنا ظهرت ثلاثة علوم: علم الأخلاق، وعلم السياسة، كلاهما في مستقبل الزمان، وعلم معرفة سعة رحمة الله. فقالوا: وأي علاقة لهذا المقام بهذه العلوم؟ فقال: أنا أشرح لكم ذلك بعد استكمال هذا البيان. فقالوا: أي تبيان تريد. فقال: هاهنا فصلان:

الفصل الأول: في عجائب وبدائع في النبات.

الفصل الثاني: في أخلاق الإنسان وسياسته، وفي رحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة.

الفصل الأول:في عجائب وبدائع النبات

(١) إذا جلس الناس في المغارات والكهوف وأقفلوها عليهم وقت القيظ فإن للنبات نظير ذلك إذا اشتد الحر عليه في الصحراوين المصريتين أمراً عجباً. فهناك النبات المسمى «اللصف» (شكل ٧٧ المتقدم)، في وقت القيظ والجفاف تغطى ثغوره وفتحاته بمادة شمعية تمتد حتى تغطي الورقة كلها، فيمتنع الحر بالمرة ويبقى النبات في حال سكون إلى أن يعود فصل المطر.

(٢) وإذا لبس الناس بيض الثياب وقت القيظ؛ فإن النبات المسمى «الرخامي» يلبس أوباراً بيضاء تعكس أشعة الشمس فتمنع الحرارة الشديدة عنه.

(٣) وإذا اجتهد الناس أن يقللوا خروج العرق من أجسامهم بطرق مختلفة خوفاً من العطش؛ فهاهو ذا النبات المعروف بنبات «الطقطيق» يغطى بقشور من كربونات الكلسيوم فتمنع عنه شدة الحر.

(٤) وإذا رفع الناس مظلات فوق رؤوسهم، أو نصبوا خياماً بها يتقون الحر؛ فهاهو الشيح والبعيثران تتكون في جوهما أنواع من الزيوت الطيارة تنتشر في الجو المحيط بالنبات فتمنع نفوذ الحرارة بسهولة إليه، كما يدلك أهل السودان أجسامهم بالزيت لشدة حرارة طقسهم.

(٥) وإذا خزن الناس الماء في صهاريجهم لوقت الحاجة؛ فهاهو ذا النبات المسمى «العنيصيل» فإنه يحفظ الماء في بصله وفي درناته المدفونات تحت الأرض كما تخزن الجمال الماء في متسع خاص له في أجوافها وتعيش به أياماً.

(٦) وإذا رأينا الناس إذا اشتد الحر ولا ماء عندهم يمتصون بعض الرطوبات القليلة تقليلاً لظمئهم فهكذا نجد نبات اليهق (شكل ٧٦ المتقدم) له خلايا خاصة تمتص الرطوبة من الجو وماء الندى.

(٧) وإذا رأينا الرجل إذا قلّ ماله يسعى في تخفيف أعباء الحياة عنه، فإذا كانت له مركبة أو حصان يركب عليه باعهما، وإذا اعتاد البذخ والظهور بمظاهر الزخرف والزينة بين الناس قلل ذلك تخفيفاً لعبء الحياة عنه، هكذا نجد أن منه في فصل الجفاف ما تتساقط أوراقه فتبقى عارية كما في «السل» و«شبت الجبل»، ومنه ما يخلق عارياً بلا ورق البتة كما في «الرثم».

(٨) وإذا رأينا الناس في وقت القيظ قد يلزمون حجراتهم. فهكذا نجد «السنامكي» و«القتاد» فهذان تنطبق وريقاتهما اتقاء الحر.

(٩) وإذا وجدنا أن للأنهر الجاريات في الأرض مهندسين يقدرون ارتفاع الماء وانخفاضه على حسب الحاجة؛ هكذا نجد في بعض النبات خلايا حارسة، وهذه تحيط بثغور النبات. فإذا كان الهواء الخارجي شديد الجفاف فإن البخار الذي في المسافات التي سماها العلماء «بينية» يخرج عن طريق

هذه الثغور، فيحل محل هذا البخار ماء جديد من الخلايا المحيطة بالمسافات البينية ليحل محل البخار المفقود، فيزداد تلوين العصارة في هذه الخلايا ويصغر حجم الثقب، وعلى ذلك تكون الخلايا الحارسة هي التي تنظم مقدار الماء الخارج من النبات، الخلايا الحارسة (شكل ٧٨ المتقدم). إن بخار الماء الذي يخرج من النبات على هذا النحو، وهو الذي يسمونه «النتح» قد يكون كثيراً جداً حتى تفقد الشجرة الواحدة به ٥٠٠ ليتر من الماء في اليوم العادي، وتفقد أضعاف هذا المقدار إذا اشتد الجفاف وارتفعت درجة الحرارة.

(١٠) ومن النبات ما تكون ثغوره غائرة في حفر كما في الصبار (شكل ٧٩ المتقدم)، فلا تتصل بالهواء الجوي مباشرة. وقد تكون في الحفر حول الثغور شعور كما في نبات الدفلة.

(١١) وإن من العجب أن تنويع النبات دائماً مناسب للأحوال التي تحيط به، تنوع غريب وإبداع عجيب، إن بعضه أعطي قوة أشبه بقوة الضفادع من حيث إنها تعيش في الماء تارة وعلى الأرض أخرى، وتلبس لكل حال لبوسها من خياشم في الماء ورئة في الهواء، أفلا تعجب ألف مرة من النبات المائي الهوائي (شكل ٨٣ المتقدم)، فإن أوراقه المغمورة تحت سطح الماء تكون شريطية الشكل تتحرك مع الأمواج بكل سهولة، أو مجزأة إلى خيوط رفيعة، وفي الوقت نفسه تكون الأوراق التي في الهواء أو على سطح الماء، شكلها على مقتضى ما جرت به العادة.

(١٢) ومن أعجب العجب أن الثغور لا تكون إلا في الأوراق الطافية، أي: على السطح العلوي منها، أما السطح السفلي فلا ثغور له، لأن الثغور جعلت لامتصاص ما ينفعها من الهواء. فأما الثغور التي في الهواء فثغورها في السطحين معاً.

(١٣) فقال بعض الحاضرين: أنت ذكرت لنا المسافات التي سماها العلماء «بينية»، ولكن هذه كلمة مجملة فهل تتفضل بإيضاحها. فقال: إن المسافات البينية قد يشتد اتساعها جداً ليتمكن النبات من تخزين الأكسوجين فيها لتهوية أنسجته (شكل ٨١).

(١٤) ومن أعجب العجب أن في النبات ما له إحساس واضح كما هو واضح في الإنسان، وبهذا الإحساس يقبض على ما يحس به ويستمسك به كما يستمسك الصبي بجسم أمه أو بثديها، وهذه النباتات لها ما يسمى «المحاليق» (شكل ٨٢)، وهذه النباتات ذات المحاليق تسمى بالنباتات المتسلقة، وهذه ذات أنابيب متسعة، وذلك الاتساع جعل لتسهيل تحرك العصارات المختلفة في سوقها الطويلة الملتوية.

(١٥) وللنباتات المتسلقة التي تنمو في الغابات الكثيفة في المناطق الحارة سوق خشبية ضخمة. أما سوق المتسلقات العادية فهي ضعيفة، والتسلق إما بالجذور أو بالمحاليق المتقدمة، أو بالأشواك الخطافية، أو بالتفاف سوق النبات حول دعامة النبات الآخر، ومن أعجب الالتفاف ما في (شكل ٨٤ المتقدم)، فانظر كيف تجد الالتفاف إما في اتجاه حركة عقرب الساعة، وإما في اتجاه عكس حركتها.

(١٦) وإذا رأينا أن من نوع الإنسان من لا يعيش إلا على اللحم مثل «الأسكيمو» في الأقطار الشمالية إذ لا طعام لهم هناك غيره، فهم مضطرون إلى الاقتصار على أكل ما يصطادونه منه؛ فهكذا

من النبات ما يعيش في الأرض الحمضية التي تقل فيها بكتريا « التأزت »، أي : في الأرض التي لا تتوافر فيها الآزوتات اللازمة لحياة النبات، فماذا يفعل ذلك النبات إذن؟ إنه يسعى للحصول على الآزوت من أجسام بعض الحيوان وخصوصاً الحشرات، وهذه نباتات تسمى آكلات الحشرات. وهذه لا مندوحة لها عن أن تحور أجسامها تحوراً يلائم وظيفتها، وهي الاقتناص، فهاك (شكل ٨٠ و٨٥ المتقدمين)، فإن على أوراق النبات فيهما زوائد حساسة تفرز مادة حمضية لزجة تلتصق بها الحشرات إذا لامستها. وعندما تحاول الحشرة النجاة تشتبك بزوائد أخرى حتى يصبح خلاصها مستحيلاً، ثم تنحني هذه الزوائد على الحشرة وتفرز عليها مواد هاضمة تذيب جسمها، وتمتص بعد ذلك المواد المذابة، وعند نهاية عملية الامتصاص تعتدل الزوائد وتعود الورقة إلى شكلها الطبيعي.

وأنا أقول : انظر هذا المقام موضحاً أعظم إيضاح بصور بديعة جميلة في سورة « الرعد » عند آية : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الآيتان : ٣-٤]، فراجعه هناك إن شئت

(١٧) وفي (شكل ٨٦ المتقدم) طريقة أخرى للاصطياد، وذلك أن في النبات المسمى « نبات النينشس » تصير ورقته أشبه بهيئة الجرة. وهذه الجرة لها غطاء يقفل ويفتح حسب الحاجة، وماء المطر يجتمع داخل الجرة. ثم يفرز النبات فيها رحيقاً، وهذا الرحيق يجذب الحشرات، فإذا ما دخلت فيها حشرة انزلقت أرجلها وسقطت في الماء، ومتى سقطت يقفل الغطاء عليها ليمنعها من الفرار، ويفرز النبات مواد تهضم جسم الحشرة، ثم يمتص النبات بعد ذلك المواد الناتجة من ذلك.

(١٨) وليس في مصر من النباتات التي تأكل الحشرات إلا نوع واحد، وهو « حامول الماء »، وهذا النبات يحمل أجساماً منتفخة تشبه « المثانات »، ولكل منها غطاء خاص يسهل فتحه من الخارج ويتعذر فتحه من الداخل، فإذا دخلت حشرة مائية في إحدى المثانات تحبس فيها ولا يمكنها الخروج فتبقى حتى تموت، وتمتص مادتها بواسطة خلايا خاصة تبطن جدار المثانة من الداخل. (شكل ٨٧ المتقدم).

هذا أيها الإخوان ما أردته من البيان توطئة لفهم العلوم السياسية في مستقبل الزمان، والعلوم الأخلاقية، وسعة رحمة الله تعالى. وآن لي الآن أن أبين ذلك فأقول :

الفصل الثاني:في الكلام على ارتقاء أخلاق الإنسان وسياسته في مستقبل الزمان وسعة رحمة الله تعالى

ذكرت لكم فيما مضى أيها الإخوان أن نبات « المليح » يصعد الماء فيه بقوة ١٠٠ جو. وبعبارة أخرى : قلت لكم : إن فيه قوة ترفع ألف متر من الماء، أو نحو ٧٦ متراً من الزئبق، مع أن هذا الرفع مضاد للجاذبية العامة، إن طبائع هذه العوالم الأرضية إنّما هو الثقل والنزول إلى أسفل، فالحجارة والجبال والشجر والدواب كلها ثقيلة، كلها مجذوبة نحو الأرض، إن هذه الجاذبية نعمة على سكان الأرض. لولا هذه الجاذبية لتفرقت أجزاء الأرض في الجو، ولم يبق جبل ولا جمل ولا شجر ولا

حجر، بل كانت هذه كلها تطيح في الأجواء فلا يعرف مستقرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر: ٤١]، والناس سموا ذلك جاذبية وهم لا يعلمون ما هي هذه الجاذبية، وهم لم يجدوا في الطبيعة كلها أمراً يرفع الثقيل، اللهم إلا أن الأنابيب الشعرية ترفع الماء بعض سنتيمترات، فهذا أمر عام في كل جماد فيه تلك الأنابيب، ولكن الأمر العجيب الغريب الذي لم تعرفه المواد التي ليست فيها حياة؛ ما امتاز به النبات، وكيف أعطي قوة تقاوم ثقل الهواء الجوي مرتين وأكثر إلى مائة ضعف، هذا أمر حادث لم يعرف في الجماد ولكن النبات اتصف به، إن الجاذبية كما قلنا ضرورية للمادة في أبسط أشكالها، فأما إذا ارتفعت المادة بأن صارت نباتاً مثلاً فإننا نراها تخلع هذا الجلباب الخشن وتلبس ما هو أرقى منه، ولا ترضى بالذلة والحبس والهوان، بل تحارب هذا الخلق وتتكبر عليه وتأباه وتأخذ بالارتفاع.

ننظر إذن في نوع الإنسان فنرى أنه الآن في أخلاقه وفي سياساته لا يزال يتسكع في الجهالة، لا يزال على المبادئ الدنيا من أخلاقه، هو كالمادة في أبسط أحوالها. إذن هي لا تعرف إذ ذاك إلا الجاذبية لكي تبقى محفوظة، فالإنسان الآن في أخلاقه لا يزال على وجه العموم أقرب إلى الوحشية، وما الوحشية إلا التشبث بأخلاق البغضاء والحسد والقطيعة التي تجعل الإنسان عاكفاً على شهوات نفسه، غير مبال بما ينفع غيره، فهو أشبه بمن يلتصق بالأرض فلا يبرحها وهو يضارع الوحوش في معاملتها الإنسان، إن أخلاق الإنسان اليوم أقرب إلى أخلاق الأطفال، الطفل يريد أن يجعل كل شيء تحت أمره. فكأن العالم لم يخلق إلا له، وعلى هذا المبدأ سارت جميع الدول في معاملة غيرها. كل دولة لا تود إلا أن تجعل غيرها كالمسخر لها. وهذه أخلاق كثير من جماهير الناس والأفراد لا سيما الأشرار، فهم يقتلون ويسرقون ويسطون، وهذه بعينها طبيعة المادة العامة، وهي النزول من أعلى إلى أسفل، نعم في طبائع بعض الأمم اليوم صفات الارتقاء والعلو الأخلاقي، ولكنه علو قليل جداً كارتفاع الماء بالأنابيب الشعرية بعض سنتيمترات.

الله أكبر، للنبات قوة الارتقاء عن بسائط المادة لا نسبة بينها وبين الارتقاء الذي وجد في الأنابيب الشعرية.

الله أكبر، أي نسبة بين سنتيمترين أو ثلاثة وبين ألف متر، نبات المليح يقاوم الأجسام التي تعوقه مقاومة ترفع ألف متر من الماء. هذا والله عجب! الإنسان أرقى من النبات أضعافاً مضاعفة، والإنسانية اليوم أخذت ترتقي، وفي الإنسان من القوى الكامنة ما يدهش اللب. سيرتقي الإنسان المستقبل عن الإنسان الحالي أضعاف أضعاف ما ارتقاء النبات عن المادة البسيطة في مضادته لها في جذب العصارات.

موازنة بين قوى النبات وقوى الإنسان
وأن تلك القوى كامنة لا يبرزها إلا اختلاف البيئات

في الإنسان قوى كوامن، وتلك القوى لا يظهرها إلا عوامل تكون سبباً فيها، نبات الحقول في مصر موفر الماء فلا ترى فيه هذه القوى الجاذبة إلى أعلى، لأن ماء النيل يعم الأرض، ولكن نبات

الصحاري والقفار قليل الماء يحيط به الحر والضوء. فتظهر فيه قوى كانت كامنة فيرفع الماء إلى أعلى بقوة هائلة.

ضرب مثل للنبات في ظهور قواه الكامنة بظهور قوى الأمم برقيها بالعوارض المزعجة

الله أكبر، إذن كلما كان الإنسان موفر الغذاء لا يعوزه شيء من خارج كان ضعيف الإدراك والقوى، وكلما كان أكثر حاجة وتعرضاً للتهلكة والمزعجات كان أرفع شأناً وأعظم قوة. فهذه اليابان التي تعيش في جزائر مهددة بالبراكين والزلازل، منعزلة في البحر جهة الشرق الأقصى. وهذه إنكلترا التي تعيش مثلها في جزائرها يحيط بها البحر من كل جانب، وأرضها لا تعول سكانها أكثر من بضعة شهور، دفعتها الحاجة أن تعبر البحار، وتسلك القفار، وتدرس الأمم وتحتلها. ومثلها اليابان كل هذا لما انتابها من الضيق، وأحاط بها من الفاقة، فهي مثل نبات الصحاري المصرية مثلاً لما حرم ماء النيل والمطر الغزير أعطي هذه القوة الكامنة فيه.

سياسة الأمم والأفراد في المستقبل

إن مثل النبات في صحرائنا المصرية ومثل الأمم النشطة كسكان حضرموت واليابان وإنكلترا، جعلها الله ضرب مثل للأمم المستقبلة في كرتنا الأرضية، يرى الناس أن ارتباطهم وتواصلهم واختلاطهم يزداد سراعاً، ويرون الراديو والتلغراف بنوعيه والطيارات التي تسير بالناس شرقاً وغرباً في السلم، وتنزل عليهم الصواعق في الحرب، فتغير هذه الأحوال طباعهم، ويقتربون اقتراباً تولده الحاجة، وأقرب مثل لذلك النبات في الصحراء، والأمم التي علمتها الحاجة كيف تفكر في شؤونها.

وإذا كانت الأرض قد قدر العلماء لحياة حيوانها ٣٠٠ مليون سنة، ولحياة الإنسان عليها ٣٠٠ ألف سنة، فإذن هذا الإنسان حديث العهد بالحياة على الأرض، إذن هو طفل وقد أخذ الآن يبلغ رشده، وبلوغ الرشد يستلزم ارتقاء قواه بمناسبة ظهور هذه العوامل الجديدة، فإذا عاش بضعة آلاف سنة أفلا تكون الأفراد من نوع الإنسان أوفر ذكاء وأعظم حكمة، وأقرب إلى المحبة، وتكون الإنسانية في حالة تشبه حال الملائكة في السماء، ويكونون كأنهم رجل واحد، هذه أخلاق الإنسان وسياسته في المستقبل القريب فضلاً عن البعيد.

سعة رحمة الله

أما إن أحوال هذا النبات تدل على سعة رحمة الله فهو ظاهر أعظم ظهور في الإبداع العجيب والتنويع الغريب الذي ظهر وقت اشتداد الحر وجفاف الماء، فهذا نبات «اللصف» غطيت ثغوره وقت القيظ رحمة به وبكل حيوان ينتفع به، وهذا نبات «الرخامي» لبس أوباراً بيضاء بحكمة تامة، و«الطقطيق» غطي بقشور، و«الشيح» و«البعيثران» حامت أنواع الزيت في جوهما رحمة بهما من الحرارة، «والعنيصيل» خزن له الماء في بصله في الأرض وغيره أعطي قوة امتصاص الندى والرطوبة من الجو، وسواء رمى أوراقه، أو لم تخلق له، أو أطبقت أوراقه، أو منح خلايا حارسة، أو غارت ثغوره في حفر، أو نبتت له حول الثغور شعور، فهذه وغيرها رحمات متنوعات لا حصر لها.

فائدة علم هذه الرحمات للعلماء

إن الله عز وجل أرانا هذه الرحمات في النبات ونوعها، وكأنه سبحانه يخاطبنا قائلاً: يا عبادي أنا لم أخلق العالم إلا للرحمة، فهاأنا ذا لا أدع فرصة للرحمة التي أظهرتها، وهذا في نبات لا روح له، وإذا كانت هذه أعمالي مع نبات لا روح له فكيف تكون أعمالي مع من له روح، وهم خلاصة خلقي وأرقاهم وهو الإنسان.

وتكون نتيجة هذا المقام أن الذين يفهمون أمثال ما فهمناه في هذا المقام ويوقنون به، هم وحدهم الذين يتمتعون بسعادة في نفوسهم لا يحلم بها جميع الناس حولهم.

هذه الطائفة مخلوقة في الأرض، وكأن الله يخاطبها في كل صباح ومساء، بماذا يخاطبها؟ يخاطبها بالشمس والقمر، بالماء والثلج والبرد، بالحر والبرد، وبكل ما دب وطار، يشاهد فيها رحمة لا حد لها، فيفرح هو بالرحمة التي تحيط بالعوالم فرحاً لا حد له، وهذه الطائفة تحدثهم نفوسهم بما يأتي:

إن أرواحنا آتية من العالم القدسي الشريف، وهي أقرب إلى صانع العالم بحسب فطرتها، بدليل أنها تفرح بهذا الحكم، وتزداد بسطاً وانشراحاً بهذه العجائب، ما هذا الفرح؟ إنه دليل على أن هذا الجمال ديدنها هي، لأن الإنسان لا يفرح إلا بما يواتي عقله ويناسب مزاجه، فهذه النفوس أقرب إلى ربها، لأنها تفرح بأسرار أعماله، وكأنه يخاطبهم، وهو يلهمهم كل عمل جميل وجليل.

هذه الطائفة إذا درست أمثال هذه النباتات الصحراوية المصرية تطير فرحاً كأنها هي التي اتصفت بهذه الصفات، وهذا شعور عجيب يدل على قربها من ربها قرباً علمياً، والله منزه عن المادة وعن الحوادث، وهؤلاء الآن يكاد ينطبق عليهم في الحياة قبل الموت أنهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٥]، وهم الذين سيقال فيهم يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣].

فلما سمع ذلك العلماء من حكيمهم قالوا بلسان واحد: لقد وجدت وعلمتنا ما لم نكن نعلم من الحكمة المخبوءة في علومنا. فقال الفلاح الذي سألهم هذا السؤال: لقد شرح صدري هذا البيان. فقال الحكيم لهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣] فأما أنا فإني وعيت ما سمعت، فلما رجعت إلى حسي وأخبرت صديقي الذي سألني في موعده الذي حددته له، وهو اليوم الثاني، انشرح صدره وقر عيناً، وقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[عبس: ٢٤-٣٢].

وبهذا تم تفسير سورة «عبس»، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١هـ، ١٠ يناير سنة ١٩٣٣م.

تفسير سورة التكوير

هي مكية

آياتها ٢٩، نزلت بعد سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تشتمل هذه السورة على مقصدين:

الأول: في وصف أهوال يوم القيامة، وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾.

الثاني: الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح أن القرآن منزل من الله بواسطة الملك الموصوف بصفات الكمال، وإثبات النبوة، وذلك من قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول

لقد ذكر الله في هذا المقصد أهوال يوم القيامة على سبيل أنها فعل الشرط الذي جوابه أن كل نفس تعلم إذ ذاك ما أحضرت من خير أو شر، وهذا الوصف اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا وستة في

الآخرة، فأما التي في الدنيا فاسمع ما قاله أبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فتحركت واضطربت وهرعت الإنس والجن، واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾، فحينئذ تقول الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلى البحر فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة، إلى أن قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. فهذه العبارات جعلت للتقريب ليتصور الناس بالإجمال معاني ألفاظ هذه الآيات. وأما التي في الآخرة فأولها: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ وآخرها: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾، ولنشرع في تفسير الألفاظ فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لفت، تقول: كورت العمامة، إذا لففتها. أي: يلف ضوؤها لفاً فيذهب انبساطه، وذلك معروف الآن في علم الفلك، وهو أن كل شمس من الشموس إذا جاء أجلها فتتت ورجعت لحالها الأولى، وذهب جميع نظامها، وأحيلت إلى المصانع الإلهية في العوالم الأثيرية ليصاغ منها عالم جديد. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: أظلمت. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: عن وجه الأرض، وأبعدت فسارت في الجو كما يسير السحاب. ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ هي النوق الحوامل اللواتي أتى على حملهن عشرة أشهر، جمع عشراء، ولا يزال ذلك اسماً لها حتى تضع لتمام سنة، وهي أنفس مال العرب. فإذا كان ذلك اليوم ﴿عُطِّلَتْ﴾ وتركت هملاً بلا راع، فأهلها إذن يهملونها مع أنهم قبل ذلك لم يكن عندهم أعز منها، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ هي دواب البر ﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت من كل ناحية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها: موتها. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أوقدت فصارت ناراً، لأن الأرض جميعها نار والبحار فوق قشرتها حفرت فيها حفراً، فمتى سقط قاع البحر وهو طبعاً أقرب ما يكون إلى الكرة النارية أصبحت البحار ناراً كما تقدم ذلك في سورة «الطور» وسورة «آل عمران» وغيرهما مما جاء في العلوم العصرية.

هذه هي الست التي في الدنيا. أما الست التي في الآخرة فأولها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت كل نفس بشكلها: الصالح مع الصالح في الجنة، والطالح مع الطالح في النار. وهذا مشاهد في الدنيا. فجميع المتشابهات تتكاثف، فمواد الهواء في الجو معاً، ومواد الماء في البحار معاً، ومواد الأرض تحت البحار لا فوقها. ونرى أن العناصر الداخلة في النبات تسرع لترجع لأصلها فيذهب التراب إلى الأرض. والماء إلى مقره، والهواء إلى مقره وهكذا. ونرى الحجر إذا رفعناه يسقط إلى الأرض ثانياً. لأن الهواء ليس مستقره. وهذا هو سر الحديث: «أنت مع من أحببت»، وهكذا الحيوانات كل يألف جنسه. وهكذا بنو آدم لا يألف أحدهم إلا من على شاكلته. فهل الآخرة تخالف

هذا النظام؟ كلا. فسيكون الناس كل منهم في المكان الذي يجد فيه من يألفهم أخلاقاً وديناً وعلماً. وجهلاً وكفراً. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ أي: المدفونة حية، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق ولحوق العار بهم من أجلهن، وإنّما سميت موؤودة لأنهم يلقون عليها التراب فيثقلها فتموت، وكانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة صغيرة فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفيرة، وإذا ولدت غلاماً حبسته، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد ولم يئد، فافتخر به الفرزدق فقال:

ومنا الذي منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد

وقوله: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ معناه تسأل الموؤودة: بأي ذنب قتلت، ومعنى هذا التوبيخ لقاتلها لأنها قتلت بغير ذنب. ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي: صحائف الأعمال تنتشر للحساب بعد طيها قبله ليقرأ كل ما عمله، ويقال: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، وقرئ: «قشطت»، و«الكاف» و«القاف» كثيراً ما يتعاقبان. ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً، ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قربت من المؤمنين، هذه هي الست التي في الآخرة. وجواب الشرط المشتمل على الاثنتي عشرة خصلة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشر. وبهذا تم المقصد الأول، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني

الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح

أن القرآن منزل من الله بواسطة الملك الموصوف بصفات الكمال

قال تعالى: ﴿فَلَآ﴾ «لا» زائدة، ﴿أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ يقال: خنس، إذا تأخر، وكنس الوحش: إذا دخل كناسه. وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر. أقسم الله بالكواكب كلها سيارة كانت أو ثوابت لأن لكل منها رجوعاً في مطالعها سريعاً كما في السيارات، أو بطيئاً في عشرات الألوف من السنين كما في الثوابت، وهكذا جميعها تكنس، أي: تستتر وقت اختفائها تحت الأفق ووقت النهار لأنها تستتر بضوء الشمس، فجميع الكواكب تستتر وهي تحت الأفق، وكذلك بالنهار، والشمس ساترة لها لا يراها الناس، وكل الكواكب جارية سواء أكانت ثابتة أم سيارة، بل جري الثوابت أقوى، راجع ما ذكرناه في هذا التفسير في سور كثيرة كسورة «آل عمران» و«البقرة» وغيرهما. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ إذا أدبر أو أقبل ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أضاء الجو عند إقبال روح النسيم الذي يلازم الصبح عادة، فجعل ذلك النفس له مجازاً، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام. وإنّما جعل القرآن قوله لأنه نزل به، ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه. ومن كرمه نشره للفضائل بين الأمم على ألسنة الأنبياء، ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلف لا يعجز عنه ولا يضعف وهو شديد القوى، وهو يهبط من السماء إلى الأرض في أسرع من طرفة عين، فقوة الملائكة لا يقف أمامها شيء. فهم أشبه بما نحس في أنفسنا من أنها تستحضر مكاناً في الشرق، فما أسرع أن تستحضر آخر بالغرب، هذا نحس به في أنفسنا، وهي من عالم الأرواح، والملائكة هم أعلى ذلك العالم فقوتهم

عظيمة. وبهذا المثال نفهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾[النحل: ٧٧]، و« من عرف نفسه عرف ربه » فإذا عرفنا في أنفسنا حركات أسرع من حركات النور ونحن محبوسون فهذه إشارة من ذي العزة والجلال يفهمنا بها أمرين: أولاً: قوة الملائكة. وثانياً: قوته التي لا نهاية لها. فكأن أرواحنا التي بين جنبينا رمز لذلك. وبأنفسنا وسرعة انتقالها نفهم هذه الآية ونفهم قوة جبريل عليه السلام.

ولولا ما أودع الله في النوع الإنساني من قوة كامنة وإن لم يلاحظوها ما صدقوا الأنبياء في أن هناك ملائكة وأرواحاً، وأنهم أقوياء قوة عظيمة. وهذا كله باعتبار ما قبل هذا الزمان، وأما هذا الزمان فالأمر قد ظهر بوضوح في علم الأرواح كما ذكرته في سور كثيرة في هذا التفسير، وأوضحته في كتابي « الأرواح »، وقوله: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ﴾ أي: ذي منزلة وجاه عند ذي العرش، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في ملائكته هناك، ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي. فهذه أوصاف أربعة لجبريل عليه السلام: فهو مكرم عند ربه، ذو جاه عنده، يطيعه الملائكة التابعون له، وهو قوي وأمين.

ثم أخذ يصف النبي صلى الله عليه وسلم، فنفى عنه الجنون، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ﴾ كما يصفه الكافرون، وهل يكون مجنوناً من اتصلت نفسه باستعدادها بملك هذه أوصافه، فهو أمين ومطاع وذو جاه، لا عند ملك من ملوك الأرض، ولكن عند ذي العرش، فهل من اتصل بهذا يكون مجنوناً. ولولا ما بين الملك وبين الرسول من العلاقة والصفات المتشابهة ما أمكن الوحي ولا الرسالة، إنّما يكون ذلك بالمناسبة. ثم أخذ يذكر معرفته بجبريل فقال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ أي: ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى من ناحية الشرق حيث تطلع الشمس.

واعلم أن الملائكة لا يراهم الناس بأعينهم لأنهم أرواح. و الأرواح لا تتناولها عيون الأجسام الأرضية. والأرواح والملائكة يقدرون على التشكل بأشكال مختلفة، فكما نقدر نحن أن نتصور في أنفسنا صوراً عظيمة ولكن لا نقدر أن نخرجها في الخارج؛ هكذا يقدر الملائكة وتقدر الأرواح أن تتصور ما تشاء.

ولكن تلك العوالم تقدر على إبراز ما أرادت في الخارج وتشكل ما تشاء من الأشكال. ولما كانت عظمة النفوس الشريفة كالأنبياء والعلماء والملائكة لا يمكن الاطلاع عليها إلا في عالم غير عالمنا فإننا لا نرى نفس الكرم. ولا نفس علم العالم. ولا شجاعة الشجاع في هذه الدنيا، وإنّما نرى الآثار. هكذا الملائكة لا يمكننا أن ندرك ما غرس فيهم من المكارم والعلوم والقوى، ولكنهم قادرون أن يبرزوا ما كمن فيهم بالأشكال التي يظهرون بها ليعرفونا جمال أنفسهم وعظمتها وطهارتها. ظهر ذلك في علم الأرواح في أوروبا. فقد ظهرت لهم الأرواح بصفاتها من شقاء وسعادة. وهذه هي الأرواح السافلة، فإنها تظهر بصور تدل على مقدار مقامها ومركزها في البرزخ.

إذا عرفت هذا فهمت حديث ابن عباس من رواية البغوي: « أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من جبريل أن يراه في صورته التي يكون عليها في السماء، قال جبريل: فأين تشاء أن أتخيل لك؟

قال: بالأبطح. قال: لا يسعني ذلك، قال: فبمنى. قال: لا يسعني ذلك. وقال في عرفات مثل ذلك، فواعده بحراء، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم في الموعد، فرأى جبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه صلى الله عليه وسلم خر مغشياً عليه، فتحول جبريل إلى صورته وضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف، فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله جل جلاله حتى يصير كالصعور، يعني كالعصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته. اهـ.

هذا ما رواه البغوي بإسناد الشعبي عن ابن عباس مع بعض اختصار، وليس المقام مقام تصحيح الحديث أو تضعيفه. وإنّما المقام مقام أن الآية أثبتت أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى.

ونحن لا ندري كيف رآه إلا إذا جاءنا بسند صحيح، فأما ما نقلناه هنا فإنه صرح فيه بما قدمنا فقال: فأين تشاء أن أتخيل لك، ومعنى هذا أن أتصور لك بالهيئة التي تعطيك ما يشبه خلقتي الروحية فهذه أشكال صورية تدل على ما وراءها كما يدل وجه الإنسان وشكله على ما وراءه من الأخلاق، وأما كونه ملأ ما بين المشرق والمغرب، وأن رأسه في السماء ورجليه في الأرض فهذا تمثيل لاطلاعه على العالم العلوي والسفلي، لأن الملائكة مدبرون للعوالم، والمدبر مطلع على ما دبره، فجعل ذلك المظهر ليدل على حقيقة كماله في العوالم العلوية والسفلية، فسده الفراغ بين المشرقين واتصاله من أعلى بالسماء ومن أسفل بالأرض تصوير لحقيقة علمه وقدرته. وما ذكرت هذا الحديث إلا لما عرفت أن هذه قوة الأرواح، فهي تتشكل للنائم المغناطيسي على مقدار مقامها. فهنا تصور الملك على حسب مرتبته واتساع نظام عمله ودائرة أحكامه. وأما وصفه لإسرافيل بما وصفه فذلك دلالة على تفاوت الملائكة، وهذه الأوصاف دلالات على الحقائق التي لا يمكن الاطلاع عليها في عالمنا، وإنّما ظهرت صورتها لا هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن نفسه مستعدة لذلك بالنبوة، فهذا المثال معقول صح الحديث أو لم يصح. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الوحي وخبر السماء ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: بخيل، أي: لا يبخل بالتعليم والتبليغ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: إن القرآن ليس بسحر ولا كهانة، إذ كانوا يقولون: إن الشياطين المسترقة للسمع يلقونه إليه فهو كاهن أو ساحر، وإذا سدت هذه الأبواب ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: أي طريق تسلكونه، يقال لتارك الجادة: أين تذهب؟ وهذا معناه الاستضلال. كأنه يقول: أنتم ضالون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تذكير لمن يعلم ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ يتبع الحق ويقيم عليه وينتفع به. ثم بين أن مشيئة العبد تتوقف على مقدمات ترجع في أواخر أمرها إلى مشيئة الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مربي الخلق أجمعين. وهو لا يشاء إلا ما اقتضته الحكمة، والحكمة تقتضي عدم الطفرة. بل لا بد من النظام التام في العالم. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

إيضاح: في هذه السورة إعظام أمر الكواكب، واختلاف الليل والنهار، وتذكير الناس بأمر الملائكة، وإرشاد لهم أن هذا العالم الذي أنتم فيه ضيق محصور، والذي يعيش فيه يعيش في أوساط فيها ضلالة وخيانة. أما العالم الأعلى فالذين فيه أمناء قد قربوا من ربهم، ولهم قوة عظيمة وعلم. فأما أنتم في الأرض فضعفكم ظاهر وعلمكم قليل، فليجتهد الناس حتى ترقى نفوسهم بحب ربهم وخدمة عباده كما يفعل الملائكة والأنبياء. فالعلم والعبادة وحب الخلق هذه هي المقربات لله، لأن الله جواد يحب من اتصف بالجود، وأعظم الجود بث العلم بين الشعوب كما تفعل الملائكة. فهم عند الله ذوو جاه والأنبياء عند الله ذوو جاه. فليجد كل امرئ في أمرين: حب العلم حباً مفرطاً، وحب الناس، فيجتهد المرء في تكميلهم، فإنه لا محالة سيلتحق بالأنبياء والملائكة على مقدار ما عمل. فهذه أوصاف الملائكة والأنبياء، فهم جميعاً أمناء على الوحي يبلغونه للناس ومحبون للعلم، ولولاه ما نالوا هذه المراتب، والعلم وحده هو المقرب من الله، بل العبادة من أسباب لطف الوجدان الذي يعد النفس للعلم. اهـ.

تذكرة: لقد أعظم الله أمر العلم في هذه السورة. وأمر عالم الروح والملائكة، وفتح للناس باب الذكرى فانظر كيف ذكر ذهاب عالمنا وإقبال عالم الآخرة في اثنتي عشرة صفة، وذكر ظلام الليل المدبر وقد تبعه ضوء الصبح المسفر مذكراً الإنسان بأمر الدنيا الملتبس المشتبك وأمر الآخرة الواضح البهي الذي لا اشتباه فيه، وكما أن الناس في وضح النهار ونور الصباح يعرفون الألوان والأبعاد والأشكال ويبصرون أكثر الأشياء وقد كانوا بالليل لا يفرقون بين الأبيض والأسود؛ هكذا سيكون الناس يوم القيامة الكبرى والصغرى، أي: عند الموت الفردي، إذا انقضت آجالنا، يتنفس صبحهم، وتشرق شمس أرواحهم، ويطلعون على ما كانوا يجهلون. وحينئذ لا يبقى إلا ما حملته الروح من الخصال العلمية والعملية، فقد تكون النفس ذات مكانة عند ذي العرش مطاعة أمينة. وقد تكون بضد ذلك فتلقى في سجين.

ليست هذه الدنيا كلها للواحد منا، إن أحدنا متى مضى من هذه الأرض فقد جسمه، وانطفأت شمس روحه من العالم الأرضي، وغابت نجوم حواسه، وسيرت جبال جسمه، وهي العظام، وذهبت قواه التي بها يسافر ويتنقل، وجمعت له جميع أعماله فعرفها وهكذا، وكل ما قيل في القيامة الكبرى له نظير في الصغرى، والناس لا محالة راؤون نتيجة حياتهم في قيامتهم الصغرى، فالناس في حال البرزخ مطلعون على ما أكنّ لهم في الغيب، متمتعون بنعم، أو معذبون بجحيم، والإنسان بعد الموت هو الإنسان الآن، وعلى مقدار استعداده تكون رتبته، والقيامة الكبرى أشبه بالمدارس العليا يوضع فيها الناس على مقتضى الدراسة الثانوية، والثانوية على مقتضى الدراسة الأولى، فحياتنا ابتدائي، والبرزخ بعد الموت ثانوي، والقيامة الكبرى نتيجة الحياتين وهي على مقتضاهما. اهـ.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾

مما يناسب هذه الآية ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية وهي الأهرام بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٣٣م تحت العنوان الآتي ونصه:

إشارات من المريخ في القطب. الفلكيون يحاولون العلم بما فيه التكنوكراسي دواء جديد لداء العالم

لمراسل الأهرام بنيويورك في ١١ يناير سنة ١٩٣٣م

إذا عجز العلماء والفلكيون عن إتحافنا ببرهان مقنع على وجود حياة في المريخ وغيره من السيارات المجاورة فلا يكون ذلك العجز ناتجاً عن إهمال منهم، أو قعود عن السعي لبلوغ تلك الغاية، لأنهم من يوم اخترع التلسكوب ما فتئوا يوجهونه إلى هاتيك الأجرام السماوية، وعلى الخصوص إلى ما يسمونه السيار الأحمر والزهرة، محاولين العلم بما إذا كان لأرضنا هذه من مشاكل في الأقطار العليا يكون مثلها مأهولاً بمخلوقات حية، فقد قرأنا في هذا الحين عن جماعة منهم في لندن مصممة على مناجاة إحدى هاتيك السيارات، ولا سيما المريخ، مدفوعين إلى ذلك برسائل لاسلكية قيل إنها قد ترامت بكثرة على الأصقاع الخالية من الدائرة القطبية، وإنها محمولة على أمواج هوائية من قياس يختلف عن مقياس التموجات التي تستخدمها آلات الأرض اللاسلكية المعروفة، وقد ظن بعضهم بادئ بدء أن هذه الرسائل والعلامات الغريبة متسببة عن اضطرابات كهربائية تطرأ على الأقطار المتجمدة فترة بعد أخرى، إلا أن رجال العلم قد جزموا بعد التحري بعدم وجود مسوغ لهذا الظن. فهل ما حدث في مجاهل القطب علامات من المريخ، أو هو حادث طبيعي متأت عن باعث غريب يستحيل على العلماء إماطة اللثام عن سره الخفي؟ ولكن جماعة العلماء في لندن يعتقدون عن يقين أنها علامات قصد بها مرسلوها التخاطب مع سكان الأرض، وهم عازمون على إنشاء مركز لاسلكي في الإقليم القطبي يتناول تلك العلامات لكي يدرسوها ويفسروها وينشروها للعالم.

وهناك وسيلة أخرى قد عمد إليها رجل أمريكي اسمه «هري برايس» للفت أنظار سكان الأجرام السماوية، وهي أن يوجه إليهم عموداً من نور يضارع ضياء خمسة عشر مليون شمعة، ويكون ذا ثلاثة أشعة يصوبه إلى المريخ من قمة جبل في سويسرا، وهذا النور يفوق بقوته فيما يقال كل ما ابتدعه الناس من نوعه لمثل هذه الغاية، وهو يتوقع أن يجيبه المريخيون على هذه الإشارة الضوئية، بما يدل على أنهم أدركوا الغرض منها، ومن غريب ما طالعناه عن مقاصد تلك الطائفة من العلماء في لندن هو أنهم سوف يعتمدون في فهم العلامات اللاسلكية التي يتوقعون التقاطها من الأقطار القطبية وتحويلها بعد ذلك إلى اللغة الإنكليزية على براعة «وسيطة» في لندن لم يشاؤوا إعلان اسمها، تدعى المقدرة على مناجاة أهل المريخ بطريقة عقلية خاصة بها، وهي قد وصفت المريخ وسكانه بتلك الطريقة العقلية أو الفكرية «تليبثي» التي يماثلها قولنا: من الفكر إلى الفكر سبيل. وأوضحت بها حسب زعمها نسق معيشتهم وهيئاتهم وملابسهم، فإذا أمكن التوفيق بين ما تدعيه الوسيطة وما يترامى من هذه العلامات اللاسلكية على أرجاء القطب الشمالي؛ يكون العلماء على يقين من أنهم بالغون المراد مما هم شارعون فيه، ويقال: إن تلك العلامات ما برحت تتساقط على تلك الأماكن الجليدية تباعاً دراكاً. وهي حسبما يقولون لا تختلف عن طريقة المخاطبات أو العلامات التلغرافية بل تشاكلها، وذلك بضرب خطوط ثلاثة واضحة تتلوها أربع نقط فخطان فنقط متتابعة يضعف صوتها على التوالي

وقد شرع عالمان كبيران ومخترع ومهندس كهربائي في إعداد ما يلزم لمخاطبة ذلك السيار الذي يبعد عنا ٣٤ مليون ميل، يعضدهم جماعة من الماليين، ولكن الجرائد لم تعلن الأسماء، ولن تعلنها إلا بعد اكتمال المعدات اللاسلكية وغيرها التي يعدونها لذلك.

وثقتهم بمقدرة الوسيطة عظيمة مبنية على صدقها في كل ما تنبأت به في الماضي بطريقتها الروحية أو الفكرية، وهم يقولون: إنه إذا كان سكان المريخ يعرفون عن أرضنا هذه نصف ما تدعي تلك الوسيطة معرفته عن حياة المريخيين؛ فإنهم يعرفون شيئاً كثيراً، وقد جربوا طريقة التخاطب الفكري في اجتماع سري عقدوه مؤخراً، فبان لهم من ذلك ما شجعهم على متابعة العمل، وهم يقولون نقلاً عن الوسيطة: إن سكان المريخ يقرؤون أفكار بعضهم بعضاً كما نقرأ نحن ما يكتب أو يطبع على القرطاس.

ومما علمته الوسيطة من مناجاتها لسكان المريخ أن النقود غير معروفة عندهم، وأن كل واحد منهم يخزن عمله في أرضه في المستودع العمومي، ويتناول منه على معدل إنتاجه لحاجاته الخاصة، وأن الواحد منهم لا يموت إلا إذا شاء ذلك. على أنه عندما يبلغ من العمر عتياً يخلع الرداء الأرضي إذا أراد، وأن السنة في المريخ تماثل تسع سنوات من سني أرضنا، فيكون ابن الثمانين هناك في السبعمائة والعشرين من عمره بحسابنا، والشاب يتزوج في الرابعة عشر من العمر، أو هي السنة ١٢٦ على حساب هذه الأرض، ومساكنهم معظمها أشبه بالقباب. وجدرانها من الزجاج. والطبقات العليا من السكان تشرب المياه المعدنية، ولا يدخل أي نوع من اللحم في أطعمتها. والقسوة عندهم جريمة لا تغتفر، ولا أثر هناك للقتل والسرقة، ثم إن الغش والخداع وغير ذلك من ضروب المكايد غير معروفة عندهم، لأن كل واحد منهم يقرأ أفكار الآخر ويعرف ما يضمره.

فإذا صح ما تقوله هذه الوسيطة عن المريخ فإننا إن تمكنا من الاطلاع على أنظمته وطرائق المعيشة والتدابير العمرانية فيه؛ نكتسب من ذلك ما يرينا كيف نتخلص من بلادنا الضائقة، وكيف ندبر شؤون الأرض على صورة ترضي الغني والفقير، والعظيم والحقير، وعندئذ تتمتع ببركات العصر الذهبي الذي يحاول الوصول إليه والحصول على غبطته الشيوعيون وغيرهم من الاشتراكيين. وهكذا تكون هداية هذه الأرض في الزمنيات كما كانت في الروحيات هابطة من السماوات.

«تكنو كراسي» اسم أطلق في هذا الحين على بدعة اقتصادية جديدة يحتج أتباعها على الآلات المختلفة التي بلغت من الإتقان والسرعة في الإنجاز حداً حرم ملايين الناس العمل، ويقولون: إن الحبوحة في البلاد لا تجيء إلا عن طريق تحصيل المال الكثير وإنفاقه بسخاء. فالذين لا عمل لهم لا مال لهم ينفقونه، لأن الآلات قد نابت عنهم في كل عمل فحرمتهم الاثنين. فهي لذلك من أكبر الأخطار التي تهدد التمدن بالخراب.

والمفهوم منها وهو لا يزال في معظم مناحيه غامضاً هو أنها تقول بإلغاء النقود في المعاملات والاعتياض عنها ببدل يبنى على الإنتاج السنوي بما يقرب من المقايضة، بحيث ينال الواحد كل ما يحتاج إليه بعمله فلا يزيد لديه ما يوفره أو يستغله أو يهبه. وهي تقضي بتشغيل كل ذي جسم صحيح

من ابن ٢٥ إلى ٤٥ سنة يعمل أربع ساعات في يومين من كل أسبوع، ويتعهد مبتدعوها لكل واحد من المشتغلين بعيشة يعدل مستواها مستوى معيشة من يبلغ دخله السنوي عشرين ألف دولار.

ويدعي مروجو هذه الفكرة ومعظمهم من رجال العلم؛ المقدرة على جعل الأشياء التي يستعملها الناس متينة بحيث تدوم إلى وقت طويل، وذلك بواسطة اختراعات هي الآن موجودة ولكن استعمالها ممنوع، لمقاصد لا تخفى على اللبيب، هذه الاختراعات تجعل السيارة مثلاً صالحة لخدمة ٦٥ سنة. وشفرة الحلاقة حادة لوقت طويل بدون أن تسن أو تصقل، والملابس على اختلافها تظل على جدتها خمس سنوات على الأقل، وهكذا إلى آخر ما هنالك من الحاجات، وإنهم يستطيعون المثابرة على هذا المستوى من البحبوحة إلى ما شاء الله.

ومن أهم مبادئها تشغيل الكل لخير الكل، ونبذ طريقة الأثمان، والحيلولة دون إثراء جماعة من الناس بوسائل الاحتكار الحالية وغيرها، وهو ما يجعلها قريبة من الشيوعية، ومن المعلوم أن المبشرين بها صادقون في قولهم: إن الآلات قد نابت عن البشر في صنع حاجات الجنس البشري وكمالياته، بحيث لا يمر طويل وقت حتى يستغنى عن الأيدي بالكلية. والذين يحتاج إليهم في إدارة الآلات لا يحصلون من ذلك ما يفي بوقتهم. فقد اعترف أحد الخبراء بأن السيارة التي تباع بثلاثة آلاف دولار لا ينال المشتغلون في تركيب أقسامها سوى ١٨٠ دولاراً، وعلى السيارة تقاس بقية الأشياء التي تصنعها الآلات المختلفة.

فالتكنوكراسي تبغي تشغيل الآلات على اختلافها لما فيه منفعة المجموع كله، أما كيف يتسنى لها غير ذلك فغير مفهوم. وكل واحد من الذين يستحسنونها والذين يقبحونها يفسرها على الطريقة التي يتوسم فيها الخير أو التي توافق هواه. وهي بالرغم من كل تفسير لا تزال غامضة. وغاية ما يمكن أن يقال عنها إنها مقاومة للنظام الرأسمالي الحالي. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة. وبهذا تم تفسير سورة «التكوير»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الانفطار

هي مكية

آياتها ١٩، نزلت بعد سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾

هذه السورة أربعة مقاصد:

المقصد الأول: في وصف بعض أهوال القيامة.

المقصد الثاني: في ذكر تقصير الإنسان في مقابلة إحسان خلقه وتسوية أعضائه، وجعل صورته في أحسن تقويم.

المقصد الثالث: في تبيان أنه ليس مهملاً بل إن عليه هناك كاتبين يكتبون الأعمال من حسنات وسيئات.

المقصد الرابع: في تبيان أن الناس بعد ذلك على قسمين: أبرار، وفجار، على مقتضى ما كتبه الملائكة الأبرار عنهم.

التفسير اللفظي

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ انشقت ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ تساقطت متفرقة ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴾ فتح بعضها إلى بعض وصارت البحار كلها بحراً واحداً ﴿ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴾ بحثت وأخرجت موتاها ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ ﴾ أي: كل نفس بارة أو فاجرة، وهذا جواب الشرط، ﴿ مَّا قَدَّمَتۡ ﴾

أي: ما عملت من الطاعات، ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي: تركت ولم تعمل. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أي: أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه مع نهاية كرمه، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ هذه صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم، والتسوية جعل الأعضاء سليمة مسواة معدة لمنافعها، والتعديل جعل البنية معتدلة متناسبة الأعضاء، ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ أي: ركبك في أي صورة شاءها لك. و« ما » زائدة، أي ركبك في أي شبه من طول وقصر، وحسن وقبح، وذكورة وأنوثة، وورد أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر كل عرق بينه وبين آدم، ثم قرأ: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾، ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ إضراب لتبيان السبب في اغترارهم، والدين: الجزاء أو الإسلام. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ يحفظون أقوالكم وأعمالكم من الملائكة ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ يكتبون أقوالكم وأفعالكم، ومنها تكذيبكم بالجزاء، ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من خير أو شر. ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ الأبرار هم الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما فرض عليهم واجتناب ما نهوا عنه، والنعيم نعيم الجنة، والفجار خلاف الأبرار، والجحيم هي جهنم. وهذا هو الذي يكتب الملائكة لأجله، ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ يقاسون حرها يوم القيامة، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أي: إنهم ما غابوا عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سمومها ويحسون بألم عذابها في القبور، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ تعجيب لأمر اليوم وتفخيم لأمره. ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه، فإن شفعت فإنّما يكون ذلك بالإذن. ولا إذن إلا حيث يكون الاستحقاق ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ أي: لا أمر إلا لله دون غيره. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

كأن الله يقول: أيها الناس، هذه السماء وهذه الكواكب وهذه البحار التي جعلتها نعمة لكم تمدكم بالأنوار والأمطار، وبها تحيون وأنتم اليوم عنها غافلون، تأكلون وتشربون وتتمتعون وأنتم لا تعلمون أن هذا كله مصدره أنوار الكواكب المشرقة على البحار التي ينبعث منها البخار فيصعد إلى الجو فيصير سحاباً فتكون الأنهار الجاريات، فالزرع والحيوان، هذه نعمي عليكم وأنتم تعيشون ولا تدرسونها ولا تفكرون فيها. سأميتكم ثم أخرجكم من القبور، وقد شققت السماء ونثرت الكواكب وفجرت البحار. فذهبت كل هذه هباء منثوراً. وهناك تكون النتائج فليست الكواكب ولا السماوات ولا البحار مقصودة لذاتها، إنّما المقصود لذاته هي هذه الأنفس الإنسانية، أفلا يستخرج نتائجها التي كتبتها حين كانت السماء تظلها والكواكب تشرق عليها والبحار تمدها. هناك تسألون عن نتيجة الحياة الدنيا. فهل درستم نظامها. وعرفتم حكمها.

أيها الناس، إن سمائي كانت تظلكم، ألم تروها كأنها فسطاط أزرق اللون لإراحة أعينكم وصحة نظركم، ألم أجعلها محيطة بكم مشرقة بالكواكب المرصعة في جوانبها ذاهبة آيبة، وهي تجري بنظام ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء، هل رأيتم سقفاً كسقفي، أو بيتاً كبيتي جعلته يتلألأ نوراً بالليل ببهجة النجوم، وبالنهار بضياء الشمس، وهذه الحرارة سلطتها على البحار فكان البخار، فجرت الرياح فنزل

المطر فكان الحيوان وكنتم. ذلك كله مصدره الأنوار الكوكبية والبحار الأرضية. ألم يكن هذا الجمال والنظام كافيين لاستخراج ما كمن في نفوسكم من الحكمة والعلم.

أيها الناس، هاأنا ذا قد مزقت السماء، وأسقطت النجوم، وفجرت البحار، ولم يبق إلا نتائجها في صحائفكم، هذه هي نعمي عليكم في الآفاق وهي لا تحصى. فأين أعمالكم التي عملتموها مع هذه المشوقات الكونية من النظم الفلكية والعجائب الأرضية. هل كنتم عن هذا غافلين؟ نعم. أنتم غافلون ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣]، هذا هو المقصد الأول.

وكأنه يقول في المقصد الثاني والثالث، هاأنتم أولاء يا عبادي تمتعتم بنعم الآفاق. وهي نعم لا تحصى، فإذا عظمت هذه النعم فأعظم منها تلك النعم التي جعلتها في خلقكم، وحسن تصويركم. وإبداع أشكالكم. وتقدير أعضائكم. وإشراق نفوسكم. وتنظيم حواسكم. وإعطائكم كل ما تسألونه في أنفسكم وفي الآفاق. أفليس ذلك كرماً فائقاً وإحساناً شاملاً. لم أذر نعمة في الآفاق إلا أعطيتكموها ولا في الأنفس إلا منحتكموها، ففي الآفاق خلقت الأغذية والأدوية وأدوات المساكن، ولم أدع الزينة التي بها تتزينون، ولا الدواب التي عليها تركبون، ولا الأزهار التي لها تشمون، ولا الكهرباء التي بها تصنعون وتوقدون، وفي الأنفس لم أذر عضواً تحتاجون إليه إلا نلتموه، ولا حاسة لنفعكم إلا خلقتها بل لم أذر أدق الأشياء كتقويس الحاجب وإنبات الأهداب على شفار العيون بحكمة، لعلمي بأنها تدفع الغبار وتدخل الضوء، وهكذا أنبت شعرات بالأنف لتحفظ داخله من البرودة الخارجة، حتى إذا هبت نسمات باردات قلت حركتها بتلك الشعرات فتسخن شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الخيشوم دافئة لا يضرها، وهكذا ركبت شعرات على شحمة الأذن لتدفع الحشرات الضارة فتمنع دخولها أو تعطلها، وهكذا الدقائق التي لا يحصيها الكاتبون، كما تقدم من خلق الريق في الفم لإساغة الطعام وهكذا مما مر في سورة «عبس».

أفليس هذا كرماً في الآفاق. وكرماً في الأنفس، والأنفس أحكمتها، والصور عدلتها، والأعضاء قومتها، والأغذية أكثرتها، والزينة نصبتها، والسعادة لكم أعطيتها، فكيف يغركم الكرم وأنتم نائمون وكيف غاب عنكم أنه من اتسع فضله فلم يغفل عن إمدادكم في مستقركم ومستودعكم، وحافظ على كل جليل ودقيق من مصالحكم حكيم، والحكيم لا يفعل عبثاً.

مثل الناس مع ربهم

إنّما مثلكم أيها الناس وأنتم في الأرض كفقراء نزلوا عند ملك جليل القدر عظيم المنزلة فجعلهم في قصر بهيج حسن الشكل، مضاء بالثريات، مملوء بالخيرات، ثم أحاطهم بالخدم، وأمدهم بالنعم، وأسبغ عليهم الخيرات، وهو قد أرسل لهم رجالاً من كرام عشيرته يتطلعون لهم، وينظرون أحوالهم، ويكتبون ما صدر منهم، وأمر هؤلاء الكتبة ألا يبيحوا أسرارهم، ولا يخبروا بما في دواوينهم ولا يعاقبوا هؤلاء الفقراء، فدرجت عشيرة الملك على أخلاقه، ولم يؤذوا أحداً ولم يكدروا صفوه، بل لم يظهروا لهم. فأما هؤلاء الضيوف الفقراء فإن منهم من فكر في أمر النعم والمآكل والملابس، وقال: هذا الملك شأنه عجيب، فأخذ يفكر في أمره وفي نظامه، فأعجب جداً بكرمه وحسن خلقه

وعطاياه ومواهبه، ذلك كله بدقة عقولهم وحكمتهم. فأخذ هؤلاء يقلدون الملك في أخلاقه، ويواسون إخوانهم ويعطفون عليهم تقليداً له، ويصبرون على أذاهم كما صبر هو، لأنهم كانوا يسمعون من أكثر الضيوف معهم سخطاً وامتعاضاً من الملك، يستقلون الكثير منه، ويصخبون لكل حادث، حتى إذا تمت أيام الضيافة أحضر الملك عشيرته ومعهم الدفاتر المكتوبة، وأحضر هؤلاء الضيوف وأخذ يوبخهم قائلاً لهم: كيف غركم الكرم، ألم أفض عليكم النعم، هل ضايقكم أحد من عشيرتي الذين يراقبونكم؟ إني أطلقت لكم الحرية، وهاأنا ذا أضع كلًّا في مرتبته، فأما أنتم أيها المفكرون المحبون لعملي ونظامي، الساعون لخير إخوانكم حباً لي وتقليداً لأخلاقي؛ فكونوا معي ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وأما أنتم أيها الغافلون عن عملي الكافرون لنعمي، فإنكم لا تزالون تحتاجون إلى تربية بعد تربية وما أنا بغافل عنكم. اهـ.

فهذا التمثيل يفهمك ذكر الكرم في جانب الله، والكرم في وصف الملائكة، فكرم الملائكة هنا تقليد لكرم الخالق سبحانه وتعالى، وقد جاء في هذا التفسير وصف عالم الأرواح في العلم الحديث كما في سورة «آل عمران» وغيرها، فارجع إليه إن شئت، فقد أصبح ما في القرآن يدرس في جميع العالم الإنساني بطريق استحضار الأرواح، فقد علم الناس أن هناك عوالم روحية تنفعنا وتدبر شؤوننا وعندها كرم وإحسان لنا لا حد له، وهذا هو الذي في هذه السور من قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [الآيتان: ١٥-١٦] في سورة «عبس»، وقوله هنا: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١].

أما المقصد الرابع فإنه ظاهر واضح.

وبهذا انتهى تفسير سورة «الانفطار».

تفسير سورة المطففين

هي مكية

آياتها ٣٦، نزلت بعد سورة العنكبوت

وهي آخر سورة نزلت بمكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة كأنها إيضاح لما قبلها، أو متفرعة عنها، وتفصيل لإجمالها، كما أن السورة السابقة مشابهة لسورة «التكوير» وسورة «التكوير» متناسقة مع سورة «عبس»، فسورة «المطففين» و«الانفطار» و«التكوير» و«عبس» كأنها سورة واحدة من حيث تناسقها وتكاملها، وبيانه:

إعادة التمثيل السابق بشكل أجمل،وهو الملك والقصر البديع

إن من يتأمل هذه السور الأربع يتخيل صورة تمثل البدائع المرسومة فيها على مقتضى ما يعتاده الناس ويشاهدونه . وكيفية ذلك :

تصور قصراً فخماً عجيب البنيان رفيع الأركان واسع الساحات :

(١) قد فرشت أرضه بأنواع الزرابي المبثوثة ، والبسط المنقوشة ، المتنوعة الأشكال البهجة المناظر .

(٢) وزينت سقوفها بالدراري الحسان ، والمصابيح البهجات ، والثريات المضيئات .

(٣) بحيث تجعل بينها مناسبات ومقاييس تعرف السكان كيف يسيرون في طرق القصر وروضاته . وأماكنه المتشابهات .

(٤) وهذا القصر لملك عظيم القدر كبير المنزلة .

(٥) له أعوان من عشيرته يسيرون على نهجه ، وهم قد تعلموا منه الكرم جعلهم قواماً على قصره وهو من فوقهم مدبر لهم .

(٦) ثم أمرهم أن يدخلوا في القصر قوماً من الفقراء .

(٧) ويعطونهم مفاتيح لكل إنسان منهم مفتاح . وجعل تحت أرض القصر خزائن مملوءة حباً وذهباً ومعادن وجواهر كثيرة . ثم جعل لتلك المخازن الكثيرة أقفالاً تفتح بتلك المفاتيح ، وليس على الفقير منهم إلا أن يأخذ مفتاحه ويجربه على تلك الأقفال . ومتى فتح مفتاحه قفلاً منها استخرج ما كان داخل المخزن إما ذهباً وإما حباً وإما ملابس وهكذا .

(٨) وهؤلاء العشرة الذين نصبهم الملك أمرهم أن يكونوا أساتذة لهؤلاء الفقراء يعلمونهم ويرشدونهم .

(٩) وأن يكونوا من جهة أخرى كاتبين لهم لكل صغيرة وكبيرة من أعمالهم .

(١٠) أما الفقراء فإنهم انقسموا فريقين : فريق أدهشه هذا الكرم والمعروف العظيم والفضل العميم ، فصار مغرماً بالملك وإن لم يره باحثاً عن أعماله مشتاقاً إليه لما رأى من المدهشات والعجائب ، أما الآخرون فإنهم أخذوا يتقاتلون على ما وقع بأيديهم من تلك المواهب ، فتارة يحارب بعضهم بعضاً ، وتارة يأخذون في التبادل ، فصاحب الذهب يأخذ الثياب ويعطي صاحبها ذهباً ، وهكذا صاحب الحب يعطي صاحب الذهب ما فضل عن حاجته ويأخذ منه ذهباً وهكذا .

(١١) فأخذ هؤلاء يحتالون في اقتناص الأموال والخدعة في نهبها من أصحابها ، وكثر استعمال الحيلة في الأخذ والعطاء ، فيزيد المرء منهم في الميزان والمكيال إذا أخذ من غيره ، وينقصهما إذا أعطى غيره .

(١٢) هنالك أوقفهم الملك بين يديه جميعاً ، ورفع البررة إلى مرتبة شريفة . فأما الفجرة فإنه أحصى أعمالهم التي كتبها عليهم الموكلون بهم من عشيرته ، وحاسبهم حساباً دقيقاً . وأنزلهم في أسفل سافلين قائلاً : إن الكرم الذي غمركم لم يتم إلا بنظام تام في قصركم ، وحسن تنسيق وعدل . ومن العدل أن أضع كلًّا في موضعه ، فهل غركم كرمي أيها الجاهلون . أوَما علمتم أني على قدر الكرم حكيم في صنعي لا أفرط في مثقال ذرة فيما تعملون .

وهاك تفصيل هذه الاثنتي عشرة مسألة من الآيات في السور المذكورة :

(١) أما القصر الفخم فهي هذه الدنيا العظيمة .

(٢) وأما فرش أرضه بالبسط المنقوشة الملونة البديعة فهو قوله تعالى في : ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ في سورة « عبس » .

(٣) وأما كون سقفه مرصعاً بالمصابيح الجميلة البديعة ؛ فهي السماء وكواكبها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ ﴾ في سورة « الانفطار » ، وقوله أيضاً : ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ ﴾ في سورة « التكوير » ، فهذه هي المشرقات المضيئات أطفأها في الآخرة بعد ما أضاءها في الدنيا وأخذ يحاسب الناس عليها . وأما وضع المناسبات بين هذه المصابيح فذلك ما نعرفه من أن أهل الأرض لا يستطيعون الملاحة والسير بالسفن في البحار المحيطة بالأرض إلا إذا كانوا عارفين نظام هذه النجوم ومواقعها وسيرها .

(٤) وأما الملك العظيم القدر فهو ضرب مثل لخالق العالم .

(٥) وأما الأعوان الذين يسيرون على حسب أمر الملك فهم هنا الملائكة .

(٦) فهم معلمون لهم . وهو قوله تعالى : ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ في سورة « عبس » ، وهذا من باب التعليم . وقوله في سورة « التكوير » : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾ .

(٧) وهم من جهة أخرى يضبطون أعمالهم ويكتبونها في صحائفهم ، فهم من هذين الوجهين أشبه بمدرسي المدارس في العالم ، فهم يعلمون بشفقة ورحمة ، وهم مهيمنون على التلاميذ يحصون أعمالهم العلمية وأخلاقهم الأدبية . وهذا الأخير في قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ في سورة « الانفطار » .

(٨) وأما كونهم يعطونهم مفاتيح يجربونها على الأقفال الموضوعة للخزائن الموضوعة في الأرض ، فهذا تمثيل لما هو حاصل في هذه الدنيا . فإن الناس على الأرض لم يرسلوا ضوء الشمس من السماء ، ولم يخلقوا البحار ، ولا هم الذين جعلوا ضوء الشمس الذي يسطع فوق ماء البحر يستخرج البخار ، ولا هم الذين جعلوا تلك الحرارة الشمسية تهيج الهواء فيصير رياحاً مختلفة تحمل السحب . وغاية الأمر أنهم وهم مغمورون في النور يهب عليهم الهواء وتنزل الأمطار فتجري الأنهار ، يبذرون الحب في الأرض بشروط خاصة فينبت الحب والزرع ولا علم لهم بإنباته ، فليس الناس هم المنظمين للنبات كما هم منظمون للمساكن ، إن الناس يبنون المساكن وينظمونها بقوتهم وحكمتهم ، ولكنهم قط لم يقدروا أن يخلقوا نباتاً من الأرض وينظموا أوراقه وحبه ، فالناس إذن ليس لهم في الرزق من عمل إلا ما يعمله من معه مفتاح يجربه على الأقفال المختلفة حتى يعثر على المخزون في الأرض ، وإنّما جعلنا المفتاح يجرب على أقفال كثيرة ، لأن الناس مختلفو المواهب ، والمواهب تستخرج بالبحث عنها والتنقيب ومتى ظهرت موهبة الإنسان استخرج ما يليق به من معدن أو حب أو غير ذلك ، وهو لا عمل له فيه

إلا هذا، فالأرزاق ليس للناس دخل في صنعها البتة، يشير لهذا ذكر الشمس والكواكب والبحار في سورة « التكوير » و« الانفطار » وقوله في سورة « عبس »: ﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾.

(٩) وأما كون الفقراء قسمين: بررة وفجرة؛ فقد ذكر في سورة « الانفطار » وسورة « عبس ».

(١٠) وأما جزاء البررة والفجرة، فالأولون ضاحكوا الوجوه مستبشرون وهم في نعيم، وأما الآخرون فوجوههم عليها غبرة ترهقها قترة، وهم في جحيم، وهذا في سورة « عبس » و« الانفطار ».

(١١) وأما كون هؤلاء الفقراء يزيدون في الكيل والميزان تارة وينقصون أخرى ولم يكونوا في أخلاقهم كأولئك الأشراف منهم الذين أدهشهم حسن الصنع معهم، وعجبوا لجمال النقوش في سقف القصر ونظام مصابيحه، ولوفرة الأقوات وبدائع الجمال في المخازن الأرضية، ومن كثرة النقوش في الأبسطة، فأصبح الأولون منهم في قتال دائم، والآخرون منهم في تعجب وعلم واقتراب من الملك ومن عشيرته يسعون لخير إخوانهم، ويصبرون على أذاهم، ويتحملون كل ما يصيبهم. فهذا هو الذي سيذكر في هذه السورة سورة « المطففين » المكملة للسور السابقة. إذ فيها تفصيل لأمرين: الأول: هم الأقوام الذين يطففون المكيال والميزان، وهذان أظهر أنواع الظلم عند العامة والخاصة، وإنّما ذكرا ليدلا على سواهما، فإن القصر المنظم لا تبقى له قائمة إلا بحسن النظام، والنظام يكون في كل شيء، فهكذا لا يتم نظام النوع الإنساني إلا بالعدل في كل شيء. ومنه الكيل والميزان، فليكن العدل في جميع الأحوال من قول وفعل ومجاملة. الأمر الثاني: وصف الكتب التي كتبها أولئك الكرام الكاتبون للفجرة وللبررة، وبيان أن كتاب الفجرة في خسار وضلال، وحبس وضيق، أي أنه يكتب فيه ذلك، وكتاب الأبرار كتاب مرقوم فيه ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة.

فهذان الأمران هما اللذان جاءت سورة « المطففين » لإظهارهما، وعلى ذلك تكون متصلة بما قبلها مفصلة لبعض ما أجمل في السورة قبلها. فهي إذن متممة لبناء ذلك القصر المنيف خاصة بعمل الأساتذة المدرسين وعمل التلاميذ المتعلمين، أما القصر ونظامه، وجمال سقفه، وبهجة أرضه، والأرزاق والنعم والدولة والملك، فذلك مشروح في السور الثلاثة السابقة. فتعجب.

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن. وذلك لأن ما يبخس إنّما هو شيء طفيف حقير. فالذين ينقصون المكيال والميزان لا يسرقون منهما إلا الشيء اليسير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾، فأحسنوا الكيل، ويقال إنه كان في المدينة رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فأنزل الله: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾، ثم بيّن من هم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ أي: إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وذكر « على » للدلالة للتحامل على الناس أثناء الكيل، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ ﴾ أي: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، كما تقول: نصحتك ونصحت لك، ﴿ يُخۡسِرُونَ ﴾ أي: ينقصون الكيل والوزن، فكل من

أخذ لنفسه زائداً ودفع إلى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً لحقه الوعيد ما لم يتب. فإن تاب قبلت توبته إذا رد الحقوق إلى أربابها. وإذا لم يتب وأصر كان مصراً على الكبيرة. ويروى: «خمس بخمس: ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر».

ثم أعقب الوعيد المذكور بما يؤكده مذكراً بما تقدم من أن الملائكة يكتبون هذا التطفيف كما يكتبون كل حسنة وسيئة للأبرار والفجار، وإنّما كان الوعيد شديداً على المطففين لأنهم وهم في هذا القصر المشيد تركوا مواهبهم العقلية، ولم يدركوا سعة هذا القصر البديع وجماله، ولا حكمة صانعه، ولا سعة الأرزاق التي ادخرها لهم في الأرض، فلذلك ضيقوا على أنفسهم دائرة التفكير، وتركوا كل جمال ونعمة وحكمة وبهجة ورونق في سقف القصر وجوانبه وأرضه وبسطه المنقوشة، وضاقت عليهم دائرة عقولهم وصغرت، فلم تعقل من هذه المواهب إلا ما رأوه في يد غيرهم، فهم يختطفون تارة بطريق التطفيف، وأخرى بطريق السلب والنهب والسرقة وهكذا، فهذا كله يكتبه الملائكة في كتاب يسجل عليهم الضيق والحبس كما حبسوا أنفسهم في دائرة ضيقة. وأما الآخرون فلما وسعوا على عقولهم مجال التفكير ولم يحصروها في دائرة الحسد والسطو على ما بيد غيرهم؛ جعل الملائكة كتابهم فيه ما يعلي قدرهم وشأنهم لعلو نفوسهم وسمو عقولهم، فكأن الآيات الآتية الواصفة لكتاب الأبرار ولكتاب الفجار ترينا تلك العقول في نفس كتابها، فلما كانت آراء الأبرار عالية سجل في كتابها ذلك العلو، وهو الانطلاق من سجن المادة، ولما كانت آراء الفجار ضيقة محصورة في الحسد وأخذ مال الغير جعل نتيجة ذلك في كتابها، وهو أن الضيق الذي كان محيطاً بها في الحياة هو الذي سيلازمها بعد الممات، فنتيجة الآراء ملازمة لها، وكتابها كأنه نسخة منها، بل نفس الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره. فهو في الدنيا يعلم أهو منطلق الفكر إلى هذا الجمال أم هو محدود الفكر ضعيف النفس محصور في شهوات البهائم والأطفال.

هذا ما يشير إليه مجيء سورة «المطففين» بعد ما في «الانفطار» و«التكوير» من العوالم المحيطة بنا التي تزول يوم القيامة، ومن الملائكة المعلمين تارة والكاتبين تارة أخرى، فهم يحفظون أعمال الأبرار والفجار المطففين الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. عن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة، فلما بلغ هنا بكى نحيباً وامتنع عن قراءة ما بعدها، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ متعلق بـ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لأمره وجزائه. ﴿كَلَّآ﴾ ردع وتنبيه، يردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه، ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ صحائف أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ ۝٨ إنما يأتي بالاستفهام تعظيماً لأمر سجين.

يقول الله: إن هناك سجلًا للشر دوّن فيه أعمال الشياطين والفجار من بني آدم، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، فكتاب الفجار في هذا الديوان العظيم. وهذا السجل سمي بسجين، وهو

مأخوذ من السجن، وهو الحبس والتضييق، لأنه يكتب فيه حبس أولئك الفجرة والتضييق عليهم في جهنم، فالتسمية باعتبار ما يكتب في السجل، ولما كان هذا الضيق شديداً أعقبه بقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم يخرج المكتوب ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ الجزاء والحساب ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ ﴾ أي: بذلك اليوم ﴿ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ مجاوز للحد ﴿ أَثِيمٍ ﴾ مكتسب للإثم ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: أحاديث المتقدمين، والأساطير أيضاً: الأباطيل، واحدها أسطورة، مثل: أحدوثة وأحاديث. ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول، ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: غطى قلوبهم كسبهم، أي: غلب على قلوبهم حتى غمرها ما كانوا يكسبون من السيئات. وهذا بيان لسبب هذا القول، فإن هؤلاء ما قالوا هذا القول وادعوا أن الوحي أساطير الأولين إلا لما رسخ في نفوسهم من المعاصي المتراكمة معصية بعد معصية، حتى أظلمت النفس فأصبحت لا تحس بالمعارف الصائبة ولا بالآراء الجميلة، لأنها اعتادت الأحوال المنحطة، والأقوال الزائغة والشهوات والعداوات والمنافرات، فصارت نفوسهم ملطخة بتلك الأحوال واحدة بعد أخرى حتى أصبحت كأنها مغلفة بأغلفة من تلك السجايا منعتها الاستضاءة بنور العلم، لأن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات. قال عليه الصلاة والسلام: « إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه »، والرين المذكور هو الصدأ، أي: إن تلك الأعمال تجعل حجاباً على قلوبهم أشبه بالصدأ الذي يغطي بعض المعادن فيذهب رونقها وبهجتها. ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن الكسب الذي يوجب الرين والصدأ على القلب، ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فلا يرون، وكيف يرونه وقد حالت آراؤهم الضيقة وأعمالهم الشائنة دون المعارف والعلوم التي لا يرى الله إلا من تكمل بها، وكيف ينالون المعارف والعلوم والقلوب مغلفة بصدأ يحيط بها من الأخلاق الرديئة والمعاصي المتراكمة، وإذا كانوا يحجبون عن ربهم بسبب الجهالة والمعاصي وضيق الفكر حتى حصروا الحياة في هذه الدنيا وقالوا: لا حياة وراءها فهم إذن ينحطون إلى أسفل الدرجات، ولذلك قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ليدخلون النار ويصلونها ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهذا قول الزبانية ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن التكذيب ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ الأبرار: هم المطيعون الذين لا يطففون ويؤمنون بالبعث، وعليون: هو الديوان الذي تدون فيه أعمال الصالحين والملائكة وإنما سمي « عليين » كما سمي ضده « سجين »، لأنه سبب الارتفاع، فهذا سمي بما يتسبب عنه كما سمي الأول بما يتسبب عنه، فهذا لعلو الأبرار، وذلك للتضييق على الفجار، وقوله: ﴿ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ أي: أي شيء هو، وقوله: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي: تحضره الملائكة المقربون من كل سماء أي: يحضرون ذلك المكتوب، وإنما سيحضرون هذا ويطلعون عليه ولا يطلعون على السجين لأن الأستاذ يفرح بمهارة تلاميذه وينشرح صدره لذلك، فهؤلاء لما كانوا المعلمين للناس بالوحي تارة وبالإلهام أخرى؛ حضروا تلك الدواوين المسماة بـ« عليين »، فإذا كان الأستاذ في الدنيا يفرح بمن نبغ من تلاميذه؛ فهؤلاء يفرحون ألف مرة، بل هذا نوع من النعيم عظيم لأنه نعيم جاء من طريق العمل. وهناك نعيم علمي وهو الإحاطة بالمخلوقات علماً على قدر الإمكان. هذا هو قوله: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، فنعيم

الملائكة المقربين وسرورهم أشبه بسرور الآباء بأبنائهم، وسرور الأساتذة بتلاميذهم، وهذان الصنفان لذتهما في هذه الدنيا أرقى من لذة الابن بما أنعم عليه أبوه، ولذة التلميذ بما نال من الفوز، لأن لذة الآباء والأساتذة فعلية علوية، ولذة الأبناء والتلاميذ انفعالية مادية. فهكذا هذه اللذات التي ينالها المقربون أرقى من لذات أهل الجنة من الناس، ولذلك قال: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ على الأسرة في الحجال ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى ما يسرهم من النعيم ﴿ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم وبريقه ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ شراب خالص ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ أي: ختم ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار، ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ ﴾ أي: إن أوانيه تختم بمسك بدل المواد الأخرى كالطين الذي يختم به الشراب في الدنيا، فهذا الشراب أمر الله بالختم عليه إكراماً لأصحابه ولنفاسة الشراب وشرفه، ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ ﴾ الرحيق أو النعيم ﴿ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ أي: فليتسابق المتسابقون وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل ليحصل لهم هذا الشراب المختوم بالمسك الذي لا يفض إلا لهم، ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ أي: مزاج الرحيق من عين قد وضع عليها هذا العلم، وهو «تسنيم»، وسميت كذلك لارتفاع مكانها ورفعة شرابها أمدح ﴿ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ﴾ منها ﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ فالمقربون يشربونها صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ ﴾

إن ختام الرحيق الذي لا يفض إلا إذا فضه الأبرار رمز إلى ما نشاهد في الدنيا من أحوال العلماء والحكماء والجهال، ألم تر أننا خلقنا في عالم مغطى بغطاء ثابت عليه يحجبه عن الناس جميعاً، ألم تر أن أرضنا وسماءنا يموجان بأنواع النفائس الحكمية، والبدائع العلمية، والعجائب الجميلة، وأكثر الناس يغدون ويروحون، وهم عنها غافلون، فهذه الدنيا أشبه بزجاجة لأنها كلها نور مشرق، فالكواكب أنوار والأقمار أنوار والأرضون هي المظلمة، ومع ذلك تحيط بها الأنوار من كل جانب، وتموج بالبدائع والحكمة، ولعمري إن الجهال جميعاً في الغرب والشرق وأهل الملل جميعاً يعيشون ويموتون وهم لم يشربوا من الرحيق المختوم الذي في هذه الدنيا، ورحيقها هي حكمها وبدائعها التي ظهرت للأنبياء وأكابر العلماء.

فكر أيها الذكي فيما أقول لك، وانظر ألست ترى أن أكثر الناس يرى هذا العالم كله ظلمات لا سعادة فيه ولا نور ولا حكمة، بل تراه ضيق الصدر من هذا الوجود، ويقول: لمَ خلقت فيه؟ أتدري لمَ هذا؟ لأنه ليس أهلاً لأن يفض ختام الوجود الذي هو يشبه المسك. وذلك لأن هذه الدنيا مملوءة بالحكم. ولكن تلك الحكم لا يعقلها إلا قليل، وهذا القليل يدرك السر في الشرور التي تنتاب هذا العالم. فإذا رأى انحطاط أمم في الشرق وظلم أمم في الغرب، ورأى مرضاً ووباء يعم الناس، ورأى مصائب تتلو مصائب؛ فإن عقله يحل له هذه المعضلات وهو مطمئن بالحل. ثم يرفع رأسه إلى هذه العوالم كلها فيطلع على معضلاتها ويحلها فتكون نفسه نوراً مشرقاً ويفض ذلك الختام المسكي. وليس يعرف أن ختام ذلك مسك إلا إذا وصل إلى هذه الدرجة، فأما غيره فإنه يرى أن الختام رائحته قبيحة.

وبعبارة أخرى: إن الذين أشرقت عقولهم يرون رذائل هذا العالم محلولة في نظرهم. فهي عندهم خير يعبر عنه بالمسك، وفي نظر غيرهم شر، فعاقهم عن الفهم فلم ينالوا معرفة العوالم ولا إدراكها. وهذا الفض لا بد فيه من درس جميع هذا الوجود إجمالاً. ولا يكون ذلك إلا بعلوم الحكمة، أو بإشراق نبوي يرزقه الله لمن يشاء حتى تطمئن النفس. ولا تظن أني أقول إن هذا هو معنى الآية، وإنّما أقول: إن الآية ذكرت خمر الآخرة. ومعلوم أن ذلك لا نعرفه في الدنيا، كما قال ابن عباس: «إن كل ما ذكر في نعيم الآخرة مما في الدنيا فليس له إلا الاسم»، فخمر الآخرة مجهول لنا عبر عنه بالرحيق. وعبر عن نفاسته بكونه مختوماً وأن الختام مسك. فإذن يكون الرحيق المختوم شيء غير ما نعرفه، يأخذ الاسم ولكنه أعلى من الوصف. ولعله درجات بعضها فوق بعض. وإنّما الذي أتحققه من أكابر الصالحين في أمتنا الإسلامية أن أعلى لذة في الآخرة العلم. ولقد نقلت لك عن الإمام الغزالي في سورة «البقرة» أن الذين عشقوا العلم في الدنيا هم الذين قد استعدوا لرؤية ربهم. وكلما زاد الإنسان علماً زاد من ربه قرباً. قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤].

أقول: فإذا كانت الآخرة هي نتيجة الدنيا؛ والدنيا ما هي إلا مزرعة الآخرة؛ والقرآن أتى لكل جيل لمن قبلنا ولمن بعدنا وأسمعنا هذا القول؛ فلنقل هانحن نشاهد أناساً مغرمين بالعلم يودون لو يفقدون كل شيء إلا العلم، وهم مجدون باحثون ليلاً ونهاراً، ويرون لذتهم في إدراك الحقائق. فكما نرى أناساً مغرمين بالبنين وآخرين بالنساء وآخرين بالمال؛ هكذا نرى قوماً مغرمين بالعلم. ونرى أن العلوم محجوبة عن غيرهم، حتى إنك لترى الرجلين في مكان أحدهما مغرم بالعلم والثاني يسخر منه ويضحك. هكذا دأب أهل الأرض: قوم يفقهون هذا الوجود، وقوم حيل بينهم وبين الفهم. والغطاء الذي غطى على عقول الجهلاء يراه العقلاء كله نوراً بهجاً ومسكاً فيفضونه، وأما غيرهم فيعيشون كما تعيش الأنعام، لا يدرون لماذا خلق هذا العالم، ولماذا تكون الزلازل الأرضية. والزلازل النفسية، والزلازل الدولية، ولماذا يتناوب النعيم والشقاء والعز والذل بين الأمم والأفراد، فهؤلاء ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون.

أما أكابر الحكماء وأولياء الله فإنهم يقفون على الحقائق، وترسم حقائق الوجود في بصائرهم. فإذا رآهم المغفلون مكبين على العلم شديدي الحرص عليه منهمكين فيه سخروا منهم وضحكوا وظنوهم مجانين جهلاء أغبياء. وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ وهم الرؤساء من قريش ﴿ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ أي: متلذذين بالسخرية منهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ أي: وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ حَٰفِظِينَ ﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وبضلالهم، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ حال من قوله: «يضحكون»، ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: هل أثيبوا وجوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا.

تبصرة في هذه الآيات

قد رأيت أن الله تعالى يقول في كتاب الأبرار: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢١]، وقد علمت مما قاله المفسرون أن المقربين هم الملائكة المختارون من كل سماء. فهؤلاء المقربون يفرحون بما أنعم الله به عليهم من نبوغ طائفة من الناس ملحقة بهم، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران: ١٨] فأولوا العلم بعد الملائكة لأنهم مستمدون منهم، فلذلك يفرحون بنبوغهم وقربهم منهم فرحاً لا يضاهيه فرح الأب بابنه، ولا الأستاذ بتلميذه، فهم يفرحون بالمؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء وبالحكماء الذين يبرعون في العلوم ويدركون سر هذا الوجود.

ثم انظر إلى قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢٧-٢٨]، وقد علمت أن قول العلماء: إن المقربين يشربون من هذه العين صرفاً، ولكنها تمزج لأصحاب اليمين، إذن المزاج الذي من التسنيم إنّما يكون لأصحاب اليمين، أما الصرف فهو للمقربين. ثم انظر للمقربين من نوع الإنسان كيف ذكرهم هنا مع ذكر المقربين فيما تقدم بمعنى الملائكة. فهؤلاء لهم قرب والملائكة لهم قرب، وهؤلاء شربوا التسنيم صرفاً، والملائكة شهدوا بعض رقي النوع الإنساني في الدرجات، فإذن يكون المقربون من نوع الإنسان قد أدركوا الحقائق خالصة، وأصحاب اليمين أدركوها مشوبة بالتقليد، والملائكة فوق ذلك، فهم يعرفون الحقائق ويربون غيرهم ليلحقوا بهم.

ولعلك تقول: كأنك لا تجعل لأحد سعادة في الآخرة عالية إلا الذين أدركوا نظام هذا الكون.

أقول: لا أريد ذلك. وإنّما أقول: إن المؤمنين درجات، مؤمنون باليقين العقلي فهؤلاء مقربون. ومؤمنون بالتقليد وهؤلاء يشربون رحيقاً ممزوجاً وهم أصحاب اليمين. ومن قبلهم يشربون تسنيماً خالصاً، وأصحاب اليمين هم في إيمانهم درجات، فمنهم من زاد إيمانه حتى أدرك الوجود كله على ما هو عليه، ومنهم من هو دون ذلك، وتكون لهم درجات متفاوتة في ذلك. أما الملائكة فهم كذلك درجات باعتبار معارفهم وأعمالهم، وهم يزيدون على الإيمان والعلم أنهم يربون الناس بالوحي والإلهام والتدبير، فهم بذلك يسرون بلذة لا يعرفها المقربون من الناس فضلاً عن أصحاب اليمين.

تبصرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾

اعلم أن كثيراً من الناس يمر على مثل هذه الآيات سواء أقرأ التفسير أم لم يكن قرأه، وهو لا يعيرها التفاتة واحدة. ويقول: إن كفار قريش كانوا يسخرون من الذين آمنوا. وستنقلب الحال يوم القيامة ويضحك المسخور منهم من الساخرين، ويتركها ويسرع إلى غيرها قراءة، مع أن هذا القرآن نزل للناس قاطبة لا للعصر الأول الإسلامي وحده، فهو الآن لنا نحن معاشر الأحياء، فإذا متنا فهو لمن بعدنا، بمعنى أنني أنا ومن معي الآن من المسلمين الأحياء متى فارقنا هذه الأرض سندخل في عالم آخر ولسنا مكلفين بالقرآن، بل الذي يكلف به الأحياء بعدنا، فماذا يفهمون؟ أقول في الجواب على ذلك: إنه ما من أمة إلا لها أناس لهم عبقرية ظاهرة ونبوغ يخرجون مخالفين من حولهم في علم أو دين أو صناعة، وهؤلاء إنّما يخلقهم الله في الأمم لتحويل لآرائها، واستخراج مكامنها، وإظهار ما اختبأ في نفوسها وأعضائها من المنافع، فينبث هؤلاء في الأمم ويفكرون ويخترعون، وينظرون بدقة ويظهرون

ذلك للناس. والناس حولهم قسمان: قسم مستهزئ بما يعملون. وقسم عالم بأن ذلك نافع ولكن يمنعه الحقد والحسد ويقول: كيف يفعل زيد ما أنا عاجز عنه ويرتفع اسمه بين الناس. ولا يزال ذلك النابغة مجداً في عمله والناس من حوله يسخرون ويجدون في إحباط عمله حتى يظهر حقه على باطلهم، وينقلب الضحك إعجاباً والاستهزاء مدحاً. والحاسدون يكتمون حسدهم في قلوبهم، ويعلو هو عليهم، ويعلمهم ويستفيدون من علمه جميعاً.

إن الله تعالى لم ينزل ذلك في القرآن لأجل الواقعة نفسها وحدها، بل هو ضربها مثلاً لكل من قام بأمر نافع والناس حوله يجهلونه، فهذا المجد يبشره الله بالنجاح في الدنيا والآخرة، وليس له برهان إلا سيرة الصحابة وكفار قريش، ولا فرق في ظهور الحق على الباطل بين الأديان والأعمال النافعة للأمم.

خلق الله أنبياء وخلق أشخاصاً مستعدين لنقل الأمم من حال إلى حال، من حال الذل إلى العز، وهؤلاء فرق: فرقة في النظر في أمر الدين، وفرقة في أمر الصناعة، وفرقة في أمر العلوم، فهؤلاء يبشرهم الله بالنجاح في الدنيا والآخرة إذا صبروا على ضحك الناس وعداوتهم.

فهاأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير اعلم أن الله عز وجل ضمن لك النجاح ضماناً تاماً إذا أنذرت الأمة الإسلامية وبشرتها بمثل ما في هذا الكتاب، وبما يلوح لك في نفسك وينشرح به صدرك من العلوم والمعارف. وأنت إذا قمت بهذا وأمثاله فسيقوم لمعاداتك طائفتان: جاهلون مستهزئون، ومفكرون حاسدون، وسترى الجهال يقولون، إن هذا وأمثاله لضالون، وسترى أن الذي تعلم تعليماً ناقصاً كالذي قرأ بعض اللغات الأوروبية وهو لم يذق العلم الذي امتلأت به أوروبا.

أقول: ستراهما اصطلحوا على الكيد لك، هذا بجهله البسيط، وهذا بغروره وجهله المركب، إذ ظن أن اللغة هي العلم، وما علم أن العلوم ملأت أوروبا التي يفخر بالانتساب إليها.

فإذا رأيتهم تألبوا عليك فافرح واعلم أن هذا دليل على أن عملك ذو قيمة شريفة عندهم. فسر في طريقك وثق بنجاحك في الدنيا والآخرة، وليس لهذا إلا التجربة فهي المصدقة لما جاء في هذه الآيات: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[فاطر: ٤٣]، وبهذا تم تفسير سورة «المطففين»، وذلك في يوم الأحد ٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الانشقاق
هي مكية
آياتها ٢٥، نزلت بعد سورة الانفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝٢٥ ﴾

تشتمل هذه السورة على مقصدين:

المقصد الأول: أن الإنسان يلاقي نتائج عمله يوم القيامة، ويأخذ كتابه بيمينه أو وراء ظهره. وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ ﴾.

المقصد الثاني: أن الناس في أحوال الدنيا والآخرة يتنقلون في أحوالهم طبقة بعد طبقة إما في نعيم وإما في عذاب. وذلك من قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول
التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقد جعل الله اسم الشرط وهو «إذا» في حيزه ثمانية أفعال: ثلاثة للسماء، وخمسة للأرض، يقول الله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أي: انشقت السماء، انشقت بالغمام عن مجرتها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ واستمعت له، أي: انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها. فهي أشبه بالمطيع الذي يذعن لمن أمره

ويأتمر بأمره. وكيف لا تأذن له وهو خالقها، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي: وحق لها أن تطيع أمر ربها، كيف ولا قدرة لها على الامتناع، ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ بسطت وسويت باندكاك جبالها وآكامها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي: خلت خالية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها من الموتى والكنوز ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، وجواب الشرط محذوف، أي: إذا انشقت السماء إلى آخره لاقى الإنسان كدحه، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ جاهد إلى لقاء ربك وساع إليه في عملك سعياً ﴿ فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ أي: فملاق جزاء كدحك وعملك بجد إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ سهلاً لا يناقش فيه ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي: إلى عشيرته المؤمنين، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي: يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ يتمنى الثبور ويقول: يا ثبوراه، أي: أيها الهلاك احضر فهذا وقتك ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ أي: ويقاسي التهاب النار وحرها ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي: كان في أهله في الدنيا مسروراً باتباع هواه وركوب شهواته، ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي: لن يرجع إلى الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت تفسيره حتى سمعت إعرابية تقول لبنتها: حوري، أي: ارجعي ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ أي: ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا ويبعث ويحاسب، ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ أي: من يوم خلقه إلى أن بعثه. انتهى المقصد الأول.

إيضاح

هذه السورة مشاكلة لما قبلها مناسبة لها، ألا ترى أن في سورة « المطففين » في الشق الثاني منها حديث كتاب الأبرار وكتاب الفجار، وهكذا أولئك الذين يسخرون من المؤمنين ويرجعون إلى أهلهم فرحين، فهاهنا فصل بعض ما أجمل في مسألة تسلم الكتاب أيؤخذ باليمين أم يؤخذ بالشمال ومن وراء الظهر، ومن الذي سيكون مسروراً في أهله يوم القيامة، وكيف ينقلب سرور الدنيا حزناً يوم القيامة. واعلم أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾[الانشقاق: ١٣] تحته كنز علم.

كنز العلم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾

اعلم أن هذا المقام متشعب الأطراف، واسع الأكناف، وذلك أن الناس في الدنيا يفرحون باللذات ويسرون بالنعم من زوج ومال وولد وصيت وسمعة، وهذه إذا صرفت لغير وجهها انقلبت شقاء في الآخرة، والمثال في ذلك أننا نرى العاشق يفرح بمعشوقه ويسر بلقائه، ويهش لذكره، ويبش لطلعته، ويهنأ بمجالسته ومحادثته، ولاستماع حديثه، فلا تمضي أيام حتى يموت ذلك الحبيب أو يألف سواه، فينقلب الفرح حزناً، والسعادة شقاء، والهناء غماً، والحب حزناً ولوعة. فانظر كيف انقلبت الصفات ونحن في الدنيا. واعلم أنك أنت وكل امرئ وأنا في هذه الحياة الدنيا نرى هذا كل يوم، ولكن الغفلة مستحكمة، فإننا نرى أننا على قدر استمساكنا بما نحب من أي نوع من الوجود نحزن إذا فقدناه أو تغيرت حاله بمقدار ذلك الاستمساك والغرام والولوع. فنحن في الحياة نقع في تجارب لا حد لها، فأكثر النعم على ما اعتبرناه محبوباً لنا كأنه دائم لا فناء له إذا به تغير أو ذهب من أيدينا سواء أكان ذلك

مالاً أم إنساناً، وكأن الله خلقنا في هذه الدنيا ليعطينا دروس الكمال وعدم التعلق بشيء منها. بل تمر بنا الأشياء والأحوال العارضة لنا كما يمر الليل والنهار. راجع ما كتبته في هذا التفسير في سورة «البقرة» إذ شرحت هناك هذا الموضوع عند قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[الآيتان: ١٥٥-١٥٦]، وذكرت لغز قابس اليوناني الذي كان قبل المسيح بنحو ٥٠٠ سنة. وكيف شرح سعادة الإنسان وأنها تتوقف على أن تكون النفس مهذبة قانعة بما هي فيه، جاعلة جميع الأحوال تمر كمرور الليل والنهار صابرة. وجعل السعادة مقصورة على هذا. فلا مال ولا جاه ولا علم ولا جمال ولا غيرها. فهذه كلها سعادات وقتية تنقلب أذى وحزناً إذا اعتبرها الإنسان سعادة له. فليوطن نفسه على الصبر في هذه الحياة. وليكن كوكباً مشرقاً في هذه الدنيا تمر عليه حوادثها مروراً وهو أشبه بالمنسلخ منها فيقل الحزن والألم في الدنيا والآخرة. اهـ.

المقصد الثاني

إن الناس في أحوال الدنيا والآخرة يتنقلون في أحوالهم طبقة بعد طبقة: إما في نعيم وإما في عذاب. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ أي: فأقسم بالحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس، أوبها وبالبياض الذي يعقب تلك الحمرة. والثاني مذهب أبي حنيفة. والأول مذهب عامة العلماء. ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمع وضم الظلمة وما كان منتشراً بالنهار من الخلق والدواب والهوام، لأنه إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع وتم بدراً. وجواب القسم قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: لتركبن أيها الناس أحوالاً بعد أحوال. والطبق جمع طبقة وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. يقول الله: لتركبن أيها الناس طبقات مجاوزات لطبقات، ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون، أو لا يسجدون لتلاوته، أو لا يصلحون.

ولا جرم أن السجود جزء من الصلاة، والمعاني متقاربة. وروي أنه عليه الصلاة السلام قرأ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق: ١٩] فسجد بمن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم، فنزلت هذه السورة. وجعل أبو حنيفة هذه الآية موجبة للسجود فإن فيها ذماً لمن يسمعه ولم يسجد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سجد فيها وقال: ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم من الكفر والعدوان فيجازيهم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاء بهم، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع. أو غير ممنون به عليهم، انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾

لأقدم لك مقدمة توضح المقام فأقول: اعلم أن أحوال الناس جميعاً تشابه أحوال العالم المحيط بنا، فحال الأجسام وحال الأرواح سواء في أن كلًّا منهما مشابه للعوالم المحيطة بنا.

عالم السماء

فعالم السماء تلقى منه الأشعة على العالم الأرضي صباحاً وضحى وظهراً وعصراً فيكون الظلام. فإذا جن الظلام فهناك شفق أحمر فأبيض قليل. والليل إما مظلم كله في آخر الشهر أيام السرار. وإما مضيء بعضه أقل من ساعة فيزيد ضعفاً فضعفين وهكذا. فالليل درجات في الإضاءة والإظلام قلة وكثرة. وللنهار كذلك.

عالم الإنسان

فلننظر عالم الإنسان نجده يكون صبياً في صباح حياته، فشاباً في ضحاها، فبالغاً أشده في ظهرها فشيخاً فهرماً في عصرها، فميتاً إذا غربت شمس الحياة، وأظلم الجسم ودفن في التراب. وكما أن الليل يختلف ظلاماً ونوراً بنظام، هكذا النفوس البشرية تختلف ظلاماً ونوراً. فمنها التي إذا غابت شمسها أصبحت في ظلام دامس كما تقدم في هذا التفسير في قصة روح الغني الذي أحضرته الجمعية النفسية بفرنسا، وهو لم يعرف أنه في العالم الآخر وعقله مشغول بالمال الكثير الذي خلفه ولم يفهم ما هو الموت ولا ما هي الآخرة. فهي نفس مظلمة ماتت جاهلة لا تعقل إلا المادة، والمادة لا تنفع بعد الموت. ومنها التي تشرق بعض الإشراق. ومنها التي يتجلى لها الوجود على ما هو عليه فتشرق بالأنوار وترى ربها، كما تقدم في أحاديث الصحيحين من أن الناس يرون ربهم كما يرون القمر ليلة البدر لا يتضامون في رؤيته.

فنحن كما رأينا الجنين ينمو طبقة فطبقة فيكون صبياً إلى آخر ما تقدم، هكذا أرواحنا بعد الموت وبعد البعث لا تزال ترتقي في العالم الذي استحقته، وفي أثناء ذلك الارتقاء تعرف أإلى شقاء ترتقي هي أم إلى سعادة، فهي دائبة التنقل والتحرك كما كانت في الدنيا، وكما أننا نرى الإنسان يرتقي في الصناعة التي قام بها، والأخلاق التي اتصف بها، هكذا تنمو في الناس أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا فينعمون أو يشقون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾[الحديد: ١٢]، وفي قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٧٢]، فلا تزال الأخلاق تعذب غير المهذب وتنعم المهذب حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وهناك عوالم نجهلها نحن في الأرض.

أقسم الله بالشفق وبالليل وبالقمر أننا نرتقي طبقات، أي: كطبقات الأنوار الليلية، أو ظلمات كطبقات الظلمات الليلية، وفينا من استناروا وأدركوا الحقائق كليلة البدر. ومنا من هم في ظلام دامس كليالي آخر الشهر، هذا القسم من مفاتيح العلوم كالقسم بالسماء ذات البروج. وبالنهار إذا تجلى. وبالضحى. وبالشمس وضحاها، وبالقمر إذا تلاها، وبالنهار إذا جلاها. وبالليل إذا يغشاها. وبالسماء وما بناها. وبالأرض وما طحاها. وبنفس وما سواها. وبالتين وبالزيتون. وبالطور. وبالبلد. وبما نبصر وبما لا نبصر. وهكذا من الأقسام الكثيرة لا سيما ما تراه في هذه السورة.

فيا ليت شعري ماذا أراد الله بهذا قسماً. أقسم الله بمخلوقاته مع أن هذه المخلوقات التي ذكرها ليست أعظم شيء عنده. وكيف تكون أعظم شيء عنده وقد ظهر في العلم الآن أن شمسنا وقمرنا

وليلنا ونهارنا وأرضنا ليست شيئاً البتة بجانب ما عرفه الناس من الشموس والأقمار. وقاسوا على ذلك الأرضين التي عرفوا عدها بالظن ومقدارها بالحدس. فإذا ثبت أن هذه المذكورات ليست شيئاً مذكوراً عنده فلماذا أقسم بها؟ والقسم لا يكون إلا بعزيز. ولا عزة لهذه متميزة عند خالقها. بل عند الله ما هو أجمل وأعجب. راجع ما نقلناه عن العلامة الأمريكي « فلامريون » وعن روح « غاليلي » التي استحضروها في الجمعية النفسية، وكلاهما في سورة « آل عمران ». إذن عظمة هذه المخلوقات بالنسبة لنا، ولا معنى لعظمتها بالنسبة لنا إلا دراستها ومعرفتها واستخراج عجائبها المكنونة فيها المخبوءة في مشارق الأرض ومغاربها وانتقالاتها وأحوالها.

هذا هو السر في هذه الأقسام، هذه الأقسام أكثر منها الله سبحانه بعد سورة « المطففين » كأنه يقول: أي عبادي، إن الرحيق المختوم الذي ختامه مسك لا يفك ختامه إلا أنتم، وقد حفظ لكم خاصة في الآخرة، لن تنالوه إلا إذا نلتم مقدماته في الدنيا. وبعبارة أخرى: لا يفض الختام في الآخرة من عجز عن فكه في الدنيا. وإذا أردتم الإيضاح فهاكم إقسامي في القرآن، انظروا إلى الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق. هذه مفاتيح العلوم. أقسم الله بالشفق وبالبدر وبالليل ليدل على أحوال الآخرة من حيث المشابهة. هذه العوالم التي نعيش فيها كأنها زجاجات مشرقات مضيئات بهجات، ولكل منها ختام، وهذا الختام من مسك. ولا جرم أنه لا يعرف ذلك المسك إلا من أشرقت نفسه ففك الختام عن عالم وبحث فيه، فأشرقت نفسه بخالص العلم الذي يلذ أهله لذة لا يعرفها سواهم في الدنيا، فإذا مات فهناك تقدم له زجاجات أبهى وأضوأ من هذه التي في العالم، فإذا رآها أشرقت عليه وسعد بفتحها سعادة لا يعرفها في هذا العالم. ولولا مرانه على فتح الختام في الدنيا وشرب رحيق العلم المختوم المكتوم عن غيره الذي يعيش معه وهو لا يحس بما يحس به؛ لولا ذلك ما أمكنه إزالة ذلك الختام. وكيف يزيل الختام من لم يزاوله في الدنيا.

يا عجبا لأمتنا الإسلامية. أظننتم أن الله أنزل هذه الأقسام للبلاغة اللفظية، ألم تروا كيف دهش العرب لما سمعوا هذه الأقسام. أليس ذلك لأن فطرهم الصادقة أحست بأن هذا أمر عظيم، ألم يقل الله: إنا نرتقي طبقاً عن طبق، هل خص ذلك الله بالآخرة. كلا. فالطبقات في الدنيا أيضاً، ولقد ركبنا طبقات فوق طبقات في العلوم في هذه الدنيا، ولكن جاءت فترة زحف فيها التتار على الإسلام فخربوه وزحفت أوروبا للحروب الصليبية فحملوا علومنا وأخلاقنا وزادوا فيها ما زادوا، وشادوا ما شادوا، ونمنا قروناً ونحن نقرأ هذه الآيات ونرى الله يقسم بالشمس والقمر والليل والضحى والشفق والأرض فنمر عليه بلا فكر ولا روية، حتى إذا استيقظنا الآن، فلنرفع أصواتنا للعالم الإسلامي.

ولنقل: أيها المسلمون اقرؤوا علوم العالم جميعها، والعلوم جميعها مخبوءة في هذه الأقسام، وما أقسم بها إلا ليدلنا عليها، وهاأنتم أولاء رأيتم أن علوم آبائكم أخذتها أوروبا، وهذا نعمة من الله عليكم، فإن الله أرانا العبر لما تركناها. وانصبت علينا من سماء تلك العلوم المدافع والنيران المحرقة. كل هذا من ربنا ليوقظنا، حتى إذا أخذنا تلك العلوم كرة أخرى استمسكنا بها وارتقينا ورقينا الأمم معنا.

أيها المسلمون، يقول الله لكم: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩] يقول ذلك في جواب القسم. ومن تلك الطبقات طبقات الأمم بالارتقاء، وأن الله سبحانه من فضله لما أخذ علوم آبائنا وسلمها إلى أوروبا لم يبقها على حالها بل سخرهم فرقوها. حتى إذا جاء هذا الزمان وقرأنا القرآن وعرفنا مغزى هذه الأشياء المقسم بها أخذنا بضاعة آبائنا زائدة نامية غير منقوصة، ومتى أخذناها رقيناها، ونفعنا الناس بها. وعدلنا ولم نظلم وارتقينا طبقات كما وعد ربنا. فكما ارتقى آباؤنا طبقات ثم ارتقينا في الاضمحلال طبقات؛ فهكذا سترتقي من الآن طبقات ولكنها ستكون أرقى، لأن أمة تألبت عليها الأمم ولم تمحها ثم بقي قرآنها وهي تحافظ عليه وهم في كل يوم يسمعون أن الله يقسم بالشمس وبالقمر الخ؛ فهذه الأمة سترتقي رقياً لم يعهد له نظير لمتانة دينها، ولعمري من لم يفض الختام المسكي العلمي في هذه الدنيا فكيف يسلم له الرحيق المختوم العلمي الذي هو أرقى من هذا بما لا يتناهى في الآخرة. هذا أوان ارتقاء الإسلام وظهور العلم والحكمة في الأمم الإسلامية، والله هو الولي الحميد.

يا أمة الإسلام اسمعوا لما أقول، أذكركم بأمر عجب، أذكركم أن آباءكم الأولين سمعوا هذه الآيات فحركت عواطفهم، وقرؤوها فأقضت مضاجعهم، وعرفوها فأكبرت مطامعهم، فتحوا البلاد ثم أخذوا يقرؤون العلوم، أتدرون ماذا كانت الدنيا إذ ذاك؟ أما أمريكا فلم تكن معروفة، وأما الصين والهند فكانتا في سبات عميق، جاءت لهم ديانات فطال عليها الأمد فقست قلوبهم، فوقفت حركات صناعاتهم. فرجعوا القهقرى، وكانت فارس قد لحقها ما لحق الأمم من التدهور والانحطاط فركدت فيها ريح العلوم.

أما الروم الذين ورثوا ملك اليونان وعلومهم فكانوا قد حفظوا كتب الحكمة في خزائنهم لا يدرون منها شيئاً. أتدرون ماذا حصل؟ هذه الآيات القرآنية والأقسام السماوية والشمسية والقمرية وغيرها مما أقسم به القرآن حركت همم الأمة فتحركت العواطف، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم يطلب ما خزن عندهم، فأرسل إليه كتب «إقليدس» وغيره مما ذكرته في كتابي «الفلسفة العربية»، هنالك راجت سوق العلوم في الأمة العربية، ونبغ النابغون في بلاد الإسلام وحدها، وورثوا علوم الأمم فترجموا عن الهند والفرس واليونان. فلما أثاروا هذه الحركة ومضت قرون تخطفتهم الأمم من كل جانب، فأبيد بعضها كما تقدم بيد التتر والباقي بيد الأوروبيين، وبقي بعض الكتب وبعض التلاميذ الذين حملوا العلوم عن ابن رشد وأضرابه بالأندلس، فهؤلاء بذروا بذور العلم في تلك الأقطار فقامت أوروبا فارتقت في ثلاثة قرون، وتبعتها أمريكا واليابان، وهكذا الصين آخذة الآن في التقدم.

أيها المسلمون، بقي دورنا الآن نحن معاشر المسلمين لا سيما الجنس العربي، فلنأخذ العلم، فهاهو ذا حاضر لنا بضاعة آبائنا باقية في أوروبا مزيداً فيها غير منقوصة.

يا سبحان الله. الله قد حفظ الأمانة لكم، فيا ليت شعري ماذا يكون حال رقي الأمة العربية والإسلامية عموماً في مستقبل الزمان، فإذا كانت هي التي استخرجت كتب الأوائل وقد نام العالم

الإنساني كله وحركت هذه الحركة مع أن الفقهاء في الدين كان أكثرهم من الغافلين المعطلين، فما بالنا في هذا الزمان والعلم ليس في الخزائن، بل هو يطير فوق رؤوسنا، وينصب على بيوتنا، ويطير بالطيارات فوق جبالنا، فإذا تلقيناه الآن فماذا تكون حال النوع الإنساني؟ فالحق والحق أقول: إن دين الإسلام ليس كماله ما نحن فيه الآن.

نحن معاشر المسلمين في مهزلة، اللهم إني أشهدك وأشهد العلماء في الأرض أني أقول بأعلى صوتي: إن الإسلام دين الفلسفة، ودين الحكمة، ودين العلم، وسينبغ فيه بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله فلاسفة وحكماء يقلبون وجه المعمورة، ويكونون رحمة للجنس البشري، ويرقونه كما ارتقى العالم بشذرات من العلم قليلة نقلت عن آبائنا، لولا الحروب الصليبية والمدارس الأندلسية ما كانت أوروبا الحاضرة ووراءها أمريكا واليابان، فكيف تكون الحال حينما نحمل العلم مرة أخرى ونظهره للعالم

نحن معاشر المسلمين شهداء الله على خلقه عرفنا أو لم نعرف قد رقيناهم فيما مضى بعلومنا التي استخرجناها من خزائنهم وهم نائمون، وسنعيد الكرة ونريح الإنسانية من عذابها كما أرحناها سابقاً.

الإسلام دين حرك العالم قديماً للارتقاء وسيحركه في المستقبل للعلوم وللسعادة وللسلام، هذا حق سيقع ومبدؤه من الآن.

انتهى تفسير سورة «الانشقاق».

تفسير سورة البروج
هي مكية
آياتها ٢٢، نزلت بعد سورة الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه السورة لإظهار عظمة الله، وصفات الجمال، وأنه يبيد الأمم الظالمة في كل قرن لا سيما الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ أي: الكواكب العظيمة التي بلغت حداً من الكثرة عرف بعضها علماء العصر الحاضر حتى بلغت مئات الملايين، ومنها ما لا يصل ضوؤها إلينا إلا في ألف ألف سنة وما يقرب من خمسمائة ألف سنة، مع أن الضوء يسير في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر، ويصل في سيره إلى القمر في قدر ثانية ونحو ثلث الثانية. وهو لو جرى حول الكرة الأرضية فإنه يدور في الثانية الواحدة نحو ثمان مرات، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجري نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة، فكيف إذن يكون بعد الكوكب الذي يصل ضوؤه إلينا بعد مليون ونصف مليون من السنين تقريباً كما تقدم في سورة «آل عمران»، ثم كيف كانت عظمة تلك الكواكب بالنسبة لشمسنا هائلة جداً:

(١) فلقد علموا أن الشعرى اليمانية أثقل من الشمس جرماً بعشرين مرة، ونورها خمسون ضعف نور الشمس، وهي أبعد منها مليون ضعف بعدها عنا.

(٢) والشعرى اليمانية تجري بسرعة ١٠٠٠ ميل في الدقيقة.

(٣) وثلاث من بنات نعش يفقن الشمس نوراً، واحدة منهن أربعمائة ضعف، والثانية أربعمائة وثمانين، والثالثة ألف ضعف، وسهيل أضوأ من الشمس ٢٥٠٠ مرة.

(٤) والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس، ولا يصل إلينا ضوؤه إلا في مائتي سنة.

ثم إن الشعرى اليمانية التي هي أسطع من خمسين شمساً كشمسنا، ولا يصل نورها إلينا إلا في ١٦ سنة، إنها لا يصل من نورها إلينا إلا واحد من ألفي مليون منه. ولقد تقدم في التفسير بعض هذه الأوصاف، فلننظر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ أي: الكواكب السماوية التي لا نعرف منها إلا ما رأيت، فإنا نراها مبعثرة في السماء. وأكبرها ترى صغيرة جداً. ولا نرى من نورها إلا واحداً من آلاف الملايين من حقائق أنوارها وأقدارها. فإذا كانت الشعرى اليمانية هذا وصفها فنحن إذن على الأرض لا ندري شيئاً في هذا العالم. فإذن أقسم الله بالسماء ذات البروج ليهيجنا ويشوقنا إلى الاطلاع على تلك العوالم في الحياة وبعد الممات. وسترى مناسبة هذا القول لهذه السورة.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد: الملائكة على الناس. ومحمد صلى الله عليه وسلم على أمته. وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء على أممهم. فالملائكة يشهدون على الناس بأعمالهم بعد أن يكتبوها في صحائفهم، ونسبة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى أمتنا كنسبة أمتنا إلى الأمم الشرقية والغربية. وقد صرح الله بهذا فقال: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، وقد جاء في السورة السابقة: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩]، وذكرنا هناك أن ذلك يشمل طبقات الفرد الواحد في نموه. وطبقات الأمة في ارتقائها. وطبقات العقول في زيادة فهمها. وطبقات الأرواح بعد الموت ويوم القيامة، سواء أكانت تلك الطبقات انحطاطاً أم ارتقاء نعيماً أو عذاباً. وهذه المعاني بكل منها قال مفسر من المفسرين. فالمعنى الذي اخترناه شمل الأقوال كلها، فإذن أمتنا الإسلامية يشار في السورة السابقة إلى رقيها لأنها بلغت النهاية في الانحطاط. وسترجع لدورها الجديد. وهذا هو الذي يجعلها شاهدة على الأمم. أما الآن فليست شاهدة، ولكنها تريد أن تأخذ دورها لتلحق غيرها ثم تفوق الأمم ثم تكون شاهدة عليها، وحافظة للأمم الأرضية وقائمة بإسعادها، فالله هنا يقسم بالأنبياء وبالملائكة وبأمتنا الإسلامية. إذ هم شهداء على الناس، وإذا أقسم الله بالأمة الإسلامية وبالأنبياء وبالملائكة وبالأمم المشهود عليها؛ فهذا تهييج لأمة الإسلام أن تأخذ دورها وتحافظ على الأمم، لأن الله إذا أقسم بأمتنا الشاهدة وبالأمم المشهود عليها؛ فمعنى هذا أن الأمم الإسلامية يجب أن تكون قوامة على الأمم بعد رقيها، وجواب القسم أن كفار مكة ملعونون كما لعن ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ والأخدود: الخد، وهو الشق في الأرض، كما تقول: الأحقوق والحق. وأصحاب الأخدود قوم من الأمم السابقة كانوا من ظلمهم يحفرون حفراً ويوقدون فيها النار، ويحرقون فيها من خالفهم في كفرهم. روي ذلك عن ذي

نواس الحميري وقد كان يهودياً فأحرق في الأخاديد من تنصر من أهل نجران. وروي عن بعض ملوك المجوس أنه خطب بالناس وقال: أيها الناس، إن الله أحل نكاح الأخوات، فلم يقبلوه، ففعل ذلك. وروي أيضاً عن ملك كان له ساحر وقد ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر. فلما ترعرع الغلام وقابل راهباً مال إليه وتدين بالنصرانية وأظهر ذلك، وظهرت غرائب على يديه، فقتله الملك بأن رماه بسهم وقال: بسم الله رب الغلام. وإنّما قال ذلك لأنه قد أعيته الحيل في قتله، فاتبعه الناس فحفر الأخاديد، فكل من تنصر رماه في الأخدود.

وهذه الروايات غير مقصودة لذاتها. وإنّما القرآن ذكر الأخدود وأصحاب الأخدود ولم يبين من هم. وليس يقصد من ذلك في القرآن إلا أن الظالم مأخوذ بذنبه، لا سيما من ظلم من هو قائم بالحق بأن اتبع ديناً حقاً كالنصرانية قبل الإسلام، وكالإسلام بعد ظهوره. وهذا القول في هذه السورة بشارة من الله لمن على الحق أنهم منصورون، وأن عدوهم مأخوذ بذنبه. وأن هؤلاء الكفار بمكة الذين يؤذون المؤمنين لا فرق بينهم وبين أصحاب الأخدود. والله حاضر سميع عليم سيقتص من الظالمين وينصر المظلومين.

فبعد أن أشار في السورة السابقة إلى أن الأمة الإسلامية ستأخذ حظها في الارتقاء؛ أتبعه هنا بما يفيد أن الله حافظ لهم مقتص من ظالمهم ما داموا على الحق، وبهذا تفهم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾ وهي بدل من الأخدود بدل اشتمال، ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفة تفيد تعظيم أمر تلك النار، وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي: لعن أصحاب الأخدود حين أحرقوا المؤمنين بالنار كونهم قاعدين حولها يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يفرط أحد منهم فيما فوض إليه من تعذيب المؤمنين، وذلك كله حث على تحمل المؤمنين أذى أهل مكة والصبر على أذاهم أيام الصحابة، وحث المسلمين الآن على التمسك بالصبر والعناية بأنفسهم، وأن لا يضجروا مما تفعل الأمم الغربية معهم، فكما أهلك الله الظالمين من الأمم القديمة التي كانت تحرق الناس في الأخدود وكما نصر الله المسلمين بمكة أيام مبدأ النبوة؛ فهكذا ستقوم الأمم الإسلامية بحظها في هذه الكرة الأرضية، ويزول عنهم ضيم الأمم الظالمة الفاتكة بهم، إذا رجع المسلمون لعقولهم، وفكروا في عجائب ربهم، ودرسوا علوم هذه الدنيا ونظمها كما أمر بذلك القرآن. وهذا آت لا شك فيه. ثم بين ذلك فقال: ﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾ وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهذا نوع من أنواع البديع كقوله:

وما نقموا من أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

فإذا كان لهم ذنب يعاقبون عليه فذنبهم أنهم يؤمنون بالله الموصوف بصفات الغلبة والقهر. وبصفات الإنعام التي يحمد عليها ومنه يرجى الثواب. والانتقام والإنعام يكونان في ملوك الأرض بصفة واضحة، لذلك أعقبه بصفة أعلى من ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فعلى

كل من فيهما عبادته والخضوع له والخشوع، فإذن هؤلاء الناقمون غير محقين وهم أهل للانتقام. لأن من هذا وصفه حقيق أن يعبد وأن يطاع. لا أن يعاب من عبده وخشع له. ثم أوعد هؤلاء الناقمين بعد أن أدحض حجتهم بالصفات العالية فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: إنه أعلم بما فعلوا وهو مجازيهم عليه. ثم صرح وأتى بقاعدة عامة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: عذبوهم سواء أكان بالأخدود أو بالإيذاء كما فعل أهل مكة، أو بالحرب والطيارات كما في هذا العصر ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ لم يرجعوا ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم وظلمهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يقال: إن أصحاب الأخدود أحرقوا بنارهم في الدنيا. والمقصود من هذا أن الظالمين يعذبون في الآخرة وفي الدنيا كما سيأتي إيضاحه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهذا عام في الصابرين على حرق الأخدود وغيرهم.

ثم أعقب ذلك بما يمثل عظمة الله زيادة شرح لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[البروج:٨]، ولنقدم مقدمة للإيضاح فنقول: اعلم أن الملك في الأرض لا يعظم سلطانه وهيبته إلا بأمرين ووصفين ثابتين: الإنعام العام. والجود الشامل، والفضل العظيم، هذا أولهما. وثانيهما الجيش الجرار، والأسطول، والعظمة والأبهة. والمدافع والسجون، فبالنعم يرجى خيره. وبالنقم يهاب جانبه. ولا قيام لعرش الملك في الأرض إلا بهاتين الصفتين، وهاتان الصفتان هما: العزيز الحميد كما تقدم. فهاهنا أخذ يوضحهما فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف. فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، والمراد أخذ الظلمة والجبابرة بالانتقام، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً. فإذا كان قادراً على البدء والإعادة فهو قادر على شدة البطش بهم، لأنهم في قدرته وقبضته، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب، ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ الفاعل لأهل طاعته ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: ذو الملك، ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالجر صفة للعرش وبالرفع صفة لله، ومجد العرش: علوه أو كماله، ومجد الله عظمته. ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره. ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ فرعون وثمود بدل من الجنود، والمراد بفرعون هو وقومه، يقول الله: قد عرفت تكذيبهم للرسل وما حاق بهم من تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم، فسيحل بقومك ما حل بهم وبأصحاب الأخدود، وستنصر كما نصر موسى وصالح عليهما السلام. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾ لا ينزجرون عنه، و«بل» للإضراب كأن الله يقول: إن حال أهل مكة أعجب من فرعون وثمود، فإنهم سمعوا قصصهم ورأوا آثار الأمم السالفة. فتكذيبهم أشد من تكذيبهم. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ لا يفوتونه، وهل يفوت المحاط المحيط، ثم أضرب عن ذلك كأنه قال: لا عبرة بهؤلاء ولا بتكذيبهم فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف وحيد في النظم والمعنى فلا يضره كفر المعاندين، ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وهو إما بالرفع صفة للقرآن، فهو محفوظ من التغيير والتبديل، وإما بالجر صفة للوح، وهو عند الحسن شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه. وضرب له ابن عباس مثلاً بالدرة البيضاء، طولها ما بين السماء والأرض، وعرضها ما بين المشرق والمغرب، وقال: إن القلم من نور وكل شيء فيه مسطور، وهذا

التمثيل للتفهيم، وإلا فنحن نجهل ذلك العالم الشريف فلا نعرفه إلا بالتمثيل. فهذا اللوح محفوظ من وصول الشياطين إليه، واطلاع من ليس مستعداً للاطلاع عليه.

شرح وتفصيل

قد ذكرت لك أن الغلبة والإنعام هما الصفتان اللتان لا يقوم العرش ولا يبقى إلا بهما، وقلت لك: إن العزة والحمد هما الصفتان المذكورتان، وإن ما جاء بعد ذلك إنّما هو شرح للعزة والحمد، ألا ترى أن البطش الشديد الذي أكده بالقدرة على البدء والإعادة هو معنى العزيز، ألا ترى أن الغفران والود يرجعان لمعنى الحمد، لأنه لا حمد إلا على نعمة، والغفران والود يستوجبان النعم من الغفور الودود، ألا ترى أن ذكر العرش يذكر بالملك، أوَلا ترى أن قوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[البروج: ١٦] شامل للنوعين الإنعام والانتقام، إذن يتجلى لك في هذه الأوصاف أبهة الملك الإلهي من عرش وإنعام وانتقام، فإذا كان لصاحب العروش الأرضية جيوش جرارة؛ فالله يبدئ ويعيد، وإذا كانوا يعطون فجميع النعم من الله، فهو يستر عيوب المخلوقين، ويفعل معهم من الإحسان ما يفوق الوصف كما يأتي شرحه، وإذا كان هذا شأنه فمن فرعون وجنوده وثمود وجنودهم، ألم يهلكهم الله ببطشه، هذا ملخص هذه الآيات، إذن فلنشرع في ذكر جمال هذا القول، فنقول ومن الله التوفيق:

اعلم أن الناس يعيشون على الأرض غارقين في النعم، مغمورين في الخير تحيط بهم الأنوار الكوكبية والهواء الجوي. ولا حياة للناس إلا بالأضواء. ولا بقاء لهم دقائق إلا بالهواء. ولا ترى أحداً من الناس يفكر في نعمة الهواء. ولا في نعمة الأضواء الشمسية والقمرية والكوكبية. ولا حياة للناس إلا بماء وبنبات وبحيوان، فلا يستغنون عن الماء. ولا عن الغذاء، ويحتاجون للدواء، ويسرون بالفاكهة وبالإخوان والأصحاب. فالناس غارقون في النعم الهوائية والمائية والضوئية والغذائية والدوائية. ونعم الملابس. ونعم الدول والممالك. ونعم العلوم والديانات. ولكن كثرة النعم توجب إنكارها، لأنها لشدة ظهورها زادت خفاء. كثرت النعم على الناس حتى صارت منكورة لأنهم غرقوا فيها.

هذا هو قوله تعالى: ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[البروج: ٨]، وقوله: ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[البروج: ١٤]، فانظر ماذا فعل لتعرف إحسانه بالنقم كما عرفت إحسانه بالنعم. انظر ألست ترى أن الإنسان له روح وجسم، فهذه النعم لحياة الجسم وحياته قصيرة. فانظر كيف أراد الله أن يرينا ذلك، فماذا فعل؟ سلط الحر والقر والقحط والمرض والوباء والجدري والتيفوس والتيفود والموت والفراق والقتل والخنق والضرب والحرب والمدافع والطيارات والغازات الخانقة وعداوات الأمم لأجل الغذاء والملك.

فهذه هي النقم المذكورة في قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾[البروج: ٨] وفي قوله: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج: ١٢]. فبينما ينظر الإنسان في السماء ذات البروج فيرى جمالاً وإشراقاً وحسناً وبهجة تأخذ بالألباب، إذا به قد فجع بموت عظيم أو قريب أو حبيب، أو فوجئ بخطب جسيم كأنه يقال له: أنت لم تخلق للبقاء هنا فاذهب إلى ذلك الجمال.

هذه النقم هي الموقظات للأمم والأفراد، فتجعلهم يفكرون فيما حولهم، وينظرون في أمرهم فالمريض يعرف نعمة الصحة. والجائع يعرف قيمة نعمة الغذاء. والذي عطش يعرف نعمة الماء، والأمم

التي وقعت في حرب تعرف نعمة الاجتماع. فالناس يعيشون مذهولين من كثرة النعم حتى يحسد بعضهم بعضاً على الصحة والقوة والغنى والثروة. فإذا جاءت الحرب عرفوا أن هؤلاء نعمة عليهم لا نقمة. وهناك تأخذ تلك المصائب تفتح العقول المقفلة، والأبواب الموصدة، والأفهام الخامدة، والنفوس الجامدة، وتطلق الأرواح المسجونة، ويقول العلماء: لا يظهر الفلاسفة في أمة إلا أيام محنتها، فالمحن تظهر مواهب هؤلاء الفلاسفة.

شذرة عامة من التاريخ

لقد قدمت لك في هذا التفسير ما خاطب به أرسطاطاليس الفيلسوف اليوناني تلميذه الاسكندر قائلاً: إياك أن تنيم الشعب على فراش الراحة الوثير، فإن الناس لا يتحملون النعم كما يتحملون النقم. ونصحه أن يشغل الناس بأعمال، وإلا ذهبت منهم النخوة وبطروا وشرهوا فاستولى عليهم الذل والهوان وقهر الأمم المحيطة بهم. وضرب لهم مثلاً بالأمم التي هلكت بالنعيم.

وقد أذاع فلاسفة الألمان في عصرنا كتباً نشروها قبيل الحرب الكبرى، إن الدولة إذا لم تصب بحروب مهلكة فإنها تغرق في النعيم وتنسى كمالها وعظمتها، فمن أراد أن يوقظ دولة فليبتدع لها حرباً تنشطها وتلم شعثها. ثم إننا نرى الله عز وجل جعل هذا قاعدة عامة. فالأمم البدوية التي ترحل من مكان إلى مكان في تتبع مساقط المطر تكون أقوى أبداناً وأصح نفوساً وأقرب إلى الشجاعة. والأمم التي أتاها الخير والنعيم من كل جانب فهم يزرعون ويأكلون ويشربون لا يخافون الفقر والقحط؛ فهؤلاء يكثر نسلهم كما قل نسل من قبلهم، ولكن انظر ماذا ترى. ترى الأولين أعزاء أقوياء لا يتغلب عليهم متغلب إلا قليلاً. وإن تغلب لا يقدر على كسر شكيمتهم، وترى الآخرين قد رخصت الأسعار عندهم، وكثر الذين يعطونهم بالربا الفاحش، ورخصت أجورهم في العمل لكثرة عددهم. وفوق ذلك يأتي لهم العدو بالمدافع والجيوش فيتسلط عليهم ليشاركهم في رزقهم. فانظر كيف أيقظ الله الناس على الأرض. قوم خلقهم في أرض قفراء فعلمهم الشجاعة والهمة، وقوم منحهم سعة الرزق وسلط عليهم الذل.

انظر إلى أمتنا الإسلامية. جاء الإسلام لعرب في بادية الحجاز وحضره، فلمّ شعثهم وكانوا متفرقين، إنّما كانت بلادهم قد علمتهم الجلد والصبر وشظف العيش. وهذه آثار العزة وصفات البطش الشديد. فتعلموا قبل النبوة تعلماً طبيعياً مرنهم على الصبر ومكارم الأخلاق كما تراه في أشعارهم. جاء الإسلام وأمروا بالفتح.

ولكن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيح وذكرته في هذا التفسير سابقاً قال لهم ما معناه: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها». فقال له إعرابي: أوَيأتي الشر من الخير؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم ضارباً المثل بالمطر والنبات. فالمطر خير ولكن الشر عارض، فهو صلى الله عليه وسلم لما انتصر الإسلام لم تفته هذه، فأفهمهم أن كثرة النعم أخافته صلى الله عليه وسلم على المسلمين، وقد تم ذلك بعد وفاته، فإنهم فتحوا البلاد شرقاً وغرباً. فاتسعت دائرة الحسد والعداوة بينهم وكان ما كان حتى عظم الملك وتداخل فيه الفرس والترك.

وذهبت الدولة بسبب البطنة والنعيم كما أخبر صلى الله عليه وسلم في البخاري أنه يخاف ذلك. وكما قال تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠].

هنالك جاء التتار والمغول في القرن السادس والسابع وما بعدهما وضربوا دولة الإسلام من جهة الشرق، ولم يكن عند قطب أرسلان الذي هجم عليه جنكيز خان هو ولا علماء الإسلام علم بقوة المغول والتتار، كما تقدم في سورة «الكهف» عند ذكر يأجوج ومأجوج، هذا في جهة الشرق، وترى نظيره في بلاد الأندلس فذهبت الدولة الأموية هناك. ثم تفرقت المملكة إلى ممالك صغيرة. ولما سلطت عليهم البطنة والإسراف تفرقت القلوب وصار كل منهم يتقرب إلى ملوك الأسبان وهم في خمرهم ولهوهم وتفرنجهم وشعرهم الغزلي وخيالهم مغمورون، قد تركوا العلوم العقلية وفرحوا بالغزل. وأضحى كتاب «الأغاني» هو دائرة معارفهم، وما فيه من الخمر والغزل والشهوات وحكايات أبناء الملوك الفاسقين، حتى خر عليهم السقف من فوقهم، وطرد الأسبان المفكرون هؤلاء الخياليين النائمين في أوائل القرن العاشر الهجري، وهم نحو خمسة عشر مليوناً غرق منهم قوم في البحر، وقتل آخرون، وتنصر بعض، ونزح إلى مراكش وتونس والجزائر جماعة، فماذا حصل؟ هاهم أولاء الآن يحاربون الأسبان الذين لحقوهم هم والفرنسيون ودخلوا بلادهم في هذا القرن، وماذا حصل؟ رأينا أيام كتابة هذه السطور أن النار المحرقة وشظف العيش في نحو أربعة قرون ربى هؤلاء المطرودين من أسبانيا، فهاهم أولاء الآن يطردونهم من بلادهم ويأسرونهم، فأما الأسبان فإن الدرس الذي أعطي لأبناء العرب درس لهم بنفسه، فإنهم ورثوا أرض الأندلس فوقعوا في النعيم، وهاهم أولاء اليوم يفرون من وجه من كانوا أخرجوهم بالأمس، وقد أسر الأمير عبد الكريم منهم مليوناً وبضعة آلاف، وشركات الأسبان أنفسها تبيع لهم الذخيرة والآلات الحربية.

هذا هو تفسير بطش ربك. بطش بأمتنا الإسلامية في الشرق وفي الأندلس، وسيبطش بجميع الأمم الظالمة في الشرق والغرب، وهذه مصر وسوريا والعراق وبلاد جاوة، كل هذه رازحة تحت سيطرة الأمم الغربية، وإن بطش ربك لا بد منه، وسينقذ هؤلاء كما أنقذ الروس من حكم القياصرة، وجعل الترك وإيران والأفغان مستقلات، وهذا أمر قريب الحصول.

أقسم الله بالسماء ذات النجوم العظيمة، ولا جرم أن السماء هي العوالم جميعها، إن الإنسان ينظر وهو فوق الكرة الأرضية فيرى قبة زرقاء فيها جميع العوالم الكونية، ومعلوم أن في السماء أسباب رزقنا من مطر ونور وحرارة بأشعة الكواكب والشمس، فإن لم تكن هذه فلا رزق في الدنيا، وهذه العوالم مدبرة بملائكة طبقاً عن طبق، وتحت هؤلاء كلهم نفوسنا الأرضية، ومعلوم أن المقصود من هذا كله النفوس وترقيها، وذلك يظهر في اليوم الموعود حين يحضر هناك الشاهد والمشهود وهما جميع الأمم كما عرفت.

أقسم الله بهذا كله أن الظالمين يلعنون قديماً وحديثاً، وقد شرحت ذلك تفصيلاً قبل هذا. انتهى تفسير سورة «البروج» يوم الاثنين ٤٤ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥م، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الطارق
هي مكية
آياتها ١٧، نزلت بعد سورة البلد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧ ﴾

ولأقدم لك مقدمة تعرف بها صلة هذه السورة بما قبلها ومبادئ تفسيرها، فأقول:

لقد ذكر الله في سورة «البروج» السماء وبروجها، والبروج في الأصل القصور، فسميت بها النجوم دلالة على أنها ليست كما يظنه الناس صغيرة، والبروج الاثنتا عشرة المعروفة داخلة كواكبها ضمن النجوم العامة التي أقسم الله بها وباليوم الموعود وبالأمم المحشورة هناك شاهدة ومشهودة، وذكر في السور قبلها أن الملائكة معلمون للناس، وأنهم يكتبون أعمالهم، فهذه السورة جاء فيها ذكر العلاقة بين السماء وبروجها وبين هذا الإنسان، حتى ذكر معها في قسم واحد، ويجعل له أجل يحاسب فيه على أعماله وإهماله، وجاء فيها بقية أوصاف الملائكة، فاسمع البيان:

اعلم أننا ونحن على الأرض لا رزق لنا إلا من جهة السماء.

(١) تشرق الشمس فترسل أشعتها على سطح الأرض فتثير الهواء فيصير رياحاً مختلفة شرقية وغربية وشمالية وجنوبية ومتنكبة لها خرائط مرسومة، ودروس مقروءة في مدارس الشرق والغرب، فيقال رياح موسمية ورياح تجارية ورياح ضدية ورياح دورية، وهكذا مما أوضحناه في سورة «الحجر» ثم إن ضوء الشمس كما يشرق في الهواء فيفعل ذلك يشرق على أكناف البحار ومواضع الماء في البر، فيثير بخاراً يطير في الهواء فيكون سحاباً. فماذا يكون بعد؟ تحمله الريح، تلك الريح التي أثارتها الحرارة، فالحرارة الشمسية أثارت الحامل والمحمول، فإذا جرت السحب في الجو وحفظتها الجبال أن تميد يمنة ويسرة أمطرت على اليابسة.

(٢) قد علمت أن الهواء والماء قد اتحدا على نتيجة واحدة، وهي إنزال المطر، كما كانا مسببين من أمر واحد، وهي حرارة الشمس، فانظر ماذا ترى: نزل المطر، جرت الأنهار، جمدت الثلوج فوق الجبال، أشرقت عليها الشمس فأذابتها، ساعدت في جري الأنهار، سقت الأنهار الأرض. بذر الناس الحب في الأرض ونبت فصار منه الغذاء والفاكهة والملابس والدواء. وهذه الرياح الجاريات تذهب وترجع، وهذا الماء الذي يخرج من البحر في الجو ويصير سحاباً ويمطر على الأرض ويصير أنهاراً ويشربه الإنسان والحيوان، ينقسم قسمين: قسم يرجع إلى البحر ثانياً فيتم الدورة كما في النيل الذي يصب في البحر الأبيض، وكما في دجلة والفرات وسائر أنهار الدنيا، وإما أن يبخر من الأشجار والأنهار وجميع المخلوقات على الأرض فيرجع للجو بخاراً كما نزل على الأرض مطراً، فإذن الماء يصنع دائرة والهواء كذلك.

(٣) الماء يدور ما بين الجو وما بين الأرض دورات متتاليات إلى آخر الدهر، إنّما كان ذلك لأن الكواكب في السماء دائرات والشمس والقمر. فكما أن الكواكب تشرق وتغرب. وكما أنها لها دوائر تتمها في أمد معلوم كشهر أو سنة أو عشرة أو ثلاثين أو آلاف، هكذا هذا الماء الذي أثارته الحرارة المنبثة من الشمس له دوائر تكون في البحر وفي بعض أماكن في البر، فيكون بالحرارة بخاراً يحمله الهواء ويكون مطراً. وبعد تمام الدورة يرجع مثل فعل الكواكب سواء بسواء، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨].

(٤) هذا الماء أثناء دورانه يكون من أسباب الحياة فجعله الله سبباً لنمو النبات وحياة الحيوان، فالأرض تنشق عن النبات، والحيوان يتزاوج، ويكون في كل من الحيوان والنبات ذكور وإناث، وسبب هذا أن حياتنا فوق الأرض متوقفة على حرارة سماوية، وعلى مادة أرضية، فالحرارة فيها قوة الفعل، والمادة فيها قوة الانفعال، فالحرارة الشمسية أثارت الهواء وأثارت الماء من البحار، وفيها هناك أسرار وراء ذلك أرسلها الله، فكان الذكور والإناث في الحيوان والنبات، فالذكور مشابهة للقوة السماوية، والإناث مشاكلة للقوة المادية في الأرض، وكما كان اتحاد العوامل السماوية والأرضية سبباً من عند الله لوجود هذه الحياة على الأرض؛ هكذا كان ازدواج الذكورة والأنوثة سبباً من عنده ليكون هناك خلق على شاكلتهما.

فانظر كيف كان اجتماع قوة الذكورة والأنوثة سبباً في خلق أشكال الزوجين في الحيوان والنبات، وكيف كان اجتماع القوة السماوية بالحرارة الشمسية والأرضية كالماء والهواء سبباً إلهياً في أن يدور الهواء ويدور الماء دائرة كالدائرة الكوكبية وكدوران الأرض حول الشمس.

(٥) كما ذكر الله في السور السابقة أن الملائكة معلمون وكاتبون؛ هكذا هنا ذكر أنهم حافظون لنا من المهالك والمعاطب إلا ما جرى به القدر.

هذه هي المقدمة. وبها تم تفسير السورة. ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها، فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ الطارق في اللغة بحسب الأصل: هو من يسلك الطريق ليلاً أو نهاراً، ثم خصه العرف بمن يأتي ليلاً، ثم استعمل فيما يبدو ويظهر فيه، أقسم الله بالسماء والنجم الظاهر بالليل، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه، ويثقب السماوات وينفذ فيها، لأن السماوات كما تقدم هي عالم الأثير الذي أصبح الناس لا يدركون له آخراً، وقد قدمنا لك مراراً أن ارتفاعها لم يقف له الناس على حد، حتى إن الضوء الذي يجري جرياً سريعاً جداً، يجري في تلك السماوات مليون سنة ونصف مليون ويصل لنا، هذا ما وصل إليه علماء الفلك إلى كتابة هذه السطور. وأما علماء الأرواح فقد رووا عن روح « غاليلي » في المقالة التي ذكرتها في سورة « آل عمران »: إن من الكواكب ما يصل نورها إلى الأرض الآن، وقد كان هذا النور جارياً منها قبل خلق الأرض، وربما كان هذا الكوكب الآن قد قامت قيامته، فالسماء أصبح الناس لا يعرفون لها آخراً، والنجوم تنفذ فيها وتخترقها. فلا للسماء آخر ولا للطارق عدد نعرفه، فارتفاعها عظيم وكم لها من طارق لا يحصى عدده. أقسم الله بهذه السماء العظيمة وبالطارق، أراد الله أن يعظم السماوات في أعين الخلق فأقسم بها، ولقد ظهر نورها وحكمتها في هذا الزمان، وأتى بالقسم لإعظام أمر النجوم، والمراد بالطارق جنس النجوم، فاعجب أليست النجوم الطوارق هي عينها البروج المذكورة في السورة قبلها، أقسم الله بها ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ يقسم الله بالسماء وبالنجوم الظواهر بالليل على أنه ما كل نفس إلا عليها حافظ، هذا إذا قرأت « لما » بالتشديد، فإذا قرأت بالتخفيف كان المعنى أنه أي الحال والشأن كل نفس لعليها حافظ، فـ « إن » هي المخففة، و« اللام » فاصلة، و« ما » مزيدة، وهذا الحافظ يحفظها من المهالك إلى أمد معلوم، فالملائكة إذن يدبرون أمر هذا العالم فيدبرون نظام الحياة كما هنا ونظام التعليم، ويقومون بكتابة الأعمال كالمدرس الكامل يحافظ على صحة التلاميذ ويعلمهم ويكتب نتيجة أعمالهم. ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ نظر تفكر واعتبار ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ من أي شيء خلقه ربه. ثم بيّن ذلك فقال: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ أي: من مني مدفوق مصبوب في الرحم والمراد به ماء الرجل وماء المرأة، فهذان الماءان يخرج من أحدهما وهو ماء الرجل جرثومة حية دقيقة جداً لا ترى إلا بالآلات المعظمة « المكرسكوب »، فلا تزال تجري حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم ماء المرأة، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكونتا جرثومة دقيقة تستمد من ماء الحيض فتصير جنيناً قد شرحناه في سورة « آل عمران » وغيرها، وشرحنا الأدوار التي مر عليها. يقول الله: ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ فجعله ماء واحداً مع أنه ماءان. أتدري لماذا؟ لهذه الحكمة التي أظهرها الله في علم الأجنة في هذا العصر، فهو يقول: ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ مع أنهما ماءان كما تحقق في العصر الحاضر، وهذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩]، وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ أي: يخرج من بين الرجل والمرأة، لأن هذا الماء منهما معاً واتحد بعد ذلك.

واعلم أن الدماغ فيه مركز الإدراك وخليفته في الجسم النخاع الشوكي المخزون في الصلب، وهذا النخاع له شعب كثيرة تصل إلى جميع أجزاء الجسم موصلة الحس لتنذر أعضاء الحركة فتقوم بالعمل. ولن تقوم حركة الجماع إلا بوجود هذه القوة، ومعلوم أن ترائب المرأة التي هي عظام الصدر محل القلادة وأنواع الزينة التي تتحلى بها المرأة، فأهم شيء في الرجل عند اجتماع الزوجين قوته العضلية والعصبية التي تجري في النخاع في الصلب. وأهم ما في المرأة في تلك الحال وحدها حسن زينتها. وأهمها ما على الصدر، فإذا جمل الصدر وحسن الحلي فقد تم نظام الأحوال التي بها تكون الذرية، فعلى هذا عبر بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة، وهذا من محاسن البلاغة. فإن هذا مجاز مرسل في علم البيان من إطلاق الجزء الذي له أهمية على الكل، كما تقول في العبد: رقبة، وفي الكبش: رأس، وأنت تقصد نفس العبد لا رقبته، وتقصد نفس الكبش لا رأسه، لكن لما كانت المزية ظاهرة في هذين العضوين عبر بهما عنهما، هكذا هنا في مسألة الأبوين فمزية كل منهما فيما ذكر معبراً عنه حتى يتم الفعل المؤدي لحصول الذرية، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ أي: إن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حياً بعد موته. وهو أهون عليه، وقوله: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ رَجۡعِهِۦ ﴾ أي: إعادته يوم تختبر السرائر ويميز بين ما طاب من الضمائر، وما خفي من الأعمال وما خبث منها، ﴿ فَمَا لَهُۥ ﴾ فما للإنسان ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ يمنعه. ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي كانت فيه، وهكذا إذا جاء أجل هذه الكواكب فيها تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات غير السماوات، وترجع عوالم جديدة لا نعلمها بنظم ثابتة، وأيضاً تكون هناك دوائر هوائية ودوائر مائية كما تقدم على مقتضى دوران الكواكب، وقوله: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾ أي: الشق بالنبات والعيون، وقد تقدم في مقدمة هذه السورة بشرح واف. ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي: القرآن ﴿ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ﴾ فاصل بين الحق والباطل ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴾ فإنه جد كله. وكيف لا يكون جداً وهذه السورة نفسها كافلة بحياة الأمم إذا عملوا بها، فهي مع قلة عدد آياتها أشارت إلى السماء وبهجتها، والنجوم ودورتها، والمياه وحكمتها، والسحاب وأويتها، والأهوية ونعمتها، والنباتات وآيتها، وحياة الإنسان وخلقتها، وذنوبه ونقمتها، والملائكة وسلطتها.

جمعت السورة جمال العالم العلوي وربطه بالسفلي، أبانت ارتباطهما وانتظامهما. وتفرع كل شيء في الوجود بينهما، فيا ليت شعري أين يفر المسلمون؟ أليس هذا قول ربهم. أليس هذا ديننا؟ يا عجباً كل العجب! أمة تقرأ: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾[الطارق: ١] ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾[البروج: ١] ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[الشمس:١]، وهكذا مما لم يسمع به العرب في نثرهم وشعرهم، ثم يغمضون الأعين ويصمون الآذان حتى أصبحنا نرى غيرنا فاقونا في هذه العلوم وفي غيرها. فليقرأ المسلمون جميع العلوم فهذا هو مقصود القرآن. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴾ أي: في إبطاله وإطفاء نوره، ﴿ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ﴾ وأقابلهم بكيدي في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون، ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم وسر في دعوتك ولا تستعجل بإهلاكهم، ﴿ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ أي: إمهالاً يسيراً، وقد أخذهم الله يوم بدر والأيام بعده. انتهى تفسير سورة «الطارق»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الأعلى
هي مكية
آياتها ١٩، نزلت بعد سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾

مقدمة

اعلم أن السور السابقة جاء فيها ذكر السماء وكواكبها وطوارقها المضيئة المشرقة. وذكر الملائكة الكاتبين المدبرين الحافظين. ولما كان العالم الذي نعيش فيه إنّما هو أشبه بجسم إنسان واحد، وهذا الجسم له أعضاء بطش وأعضاء حس وروح تدبره كله فتدبر أعضاء الحس وأعضاء الحركة؛ أتى سبحانه بهذه السورة ليبين سر السور السابقة كأنه يقول: أي عبادي، خلقت لكم السماء وملأتها بالنجوم الثوابت، والبروج النواضر، والمشرقات الزواهر، وأدرتها وجعلت ملائكتي مدبرين لها حافظين لكل نفس، معلمين للأنفس الإنسانية بالإلهام والوحي، فإياكم أن يصدكم هذا النظام عن مبدعه. وهل للجسم نظام في حركاته أو حفظ لحواسه إلا بالروح المدبرة. فأنا في العالم بمنزلة الأرواح في أبدانكم، فما السماء ونجومها. ولا المياه وسحابها، ولا الهواء وحمله لها إلا كأعضاء الحركة في الأجسام الإنسانية. وما الملائكة المدبرون والكاتبون إلا كالحواس الخمسة في الإنسان. وكل ذلك بلا روح باطل وقبض الريح. هكذا هذا العالم لا بقاء لكواكبه ولا لملائكته إلا بالرب المدبر العالم الذي مقامه فيه يمثل له بقيام الروح بالجسم. وهذا معنى القول المشهور: « من عرف نفسه عرف ربه »، فيعرف أن نفسه لها أعضاء حس وأعضاء حركة، والله له ملائكة وسماوات وكواكب، فهذا هو

المقصود من قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ أي: نزه ذاته عما لا يليق به. والاسم صلة. والعلو هنا بمعنى الاقتدار والقهر وشمول العلم، فهو أعلى من الملائكة علماً، ومن الكواكب قدرة، فكلاهما خاضع لسلطانه وعلمه وقهره.

فما العالم كله إلا أجرام تدور حول أخرى، وكل طبقة أعظم مما بعدها وأقل مما قبلها إلى أن ينتهي الأمر إلى الأقمار، فهي تحت الأرضين. والأرضون أقل من الشموس، وكل شمس تدور حول أخرى وهكذا إلى شمس المجرة الكبرى، وهكذا نفوس الناس تستمد من نفوس أعلى منها. وهكذا طبقة تتلوها طبقة أرقى منها، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]، فالعالم كله من أجسام وأرواح في قبضته، فعلينا أن نسبحه من كل ما لا يليق به، فهو أعلى الموجودات. وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي: خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية، ولم يأت بالمخلوقات متفاوتة غير ملتئمة، بل جعلها ذات إحكام واتساق دال على صدورها من عالم حكيم وإلا فكيف نراه.

(١) جعل جمال الوجه في أربعة أعضاء: الفم والأنف والعينين، فإن تلاءمت كان الجمال، وإن لم تلتئم كان القبح.

(٢) وجعل الجمال الباطني في أربع أيضاً: الحكمة والعفة والشجاعة والعدل. فإن تمت فهو جميل الخلق، وإن لم تتم فهو سيئ الخلق.

(٣) وكيف جعل عظام الأصابع دقيقة. لكل أصبع ثلاثة أنامل موضوعة بدقة بحيث تمكنه من جعلها مجتمعة لدفع المهاجم، منحنية لإمساك آلات الصناعة والزراعة والحرب. ومنبسطة ليحمل عليها. ومنقبضة بعض القبض لتكون له مغرفة أو مجرفة.

(٤) وجعل الأظافر لحفظ أطراف الأصابع وليتمكن من ضبط دقائق المادة المتساقطة.

(٥) ولمَ كان «السنا المكي» و«زيت الخروع» مسهلين للإنسان؟.

(٦) ولمَ كان الورد ملائماً لحاسة الشم في الإنسان؟.

(٧) ولمَ كان القطن نافعاً لملابس الإنسان؟ ولمَ كانت الطيور النافعة كأبي قردان تأكل الدود من الحقول التي فيها نبت غذاء الإنسان، وأين المناسبة بين أبي قردان وبين الإنسان حتى تعدى أثره إليه فجناه؟.

(٨) ولمَ كان اختلاف العناصر الداخلة في النباتات جعلها مختلفة المنافع للإنسان. فالكلور يدخل في شعر القطن ٦,٣٧ من مائة. وفي حب الشعير ٠,٣٠ من مائة. أي: نحو ثلث واحد من المائة من تركيب الشعير. وهو في حب الذرة آثار ضئيلة. وفي حب الفول ١,٠٤ من مائة. وفي البطاطس ٢,٢ من المائة. وفي القصب المجرد من قماماته ٨,١٠ من المائة. وفي البرسيم ١٣,٩ من مائة.

فانظر كيف جعل هذه الحكمة بأن أدخل الكلور الذي هو أحد مادتين يتركب منهما الملح في البرسيم نحو ١٤,٠ من المائة. وفي القصب نحو النصف من ذلك. وفي البطاطس نحو ربع ما في القصب. وفي الفول نحو نصف البطاطس وهكذا. فانظر لولا جعله الكلور في هذه النباتات مثلاً بهذه المقادير لم تتكون ولم تظهر فوائدها. فكما قدّر عظام اليدين بحساب لتكون المنافع المطلوبة؛ هكذا

قدّر وسوّى أجزاء النبات لتكون النتائج المقدرة، ولو اختلف أي جزء عن مقداره لاختل أمر النبات ولم ينبت، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أي: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وآثارها وأفعالها وآجالها ومناطقها وأيامها وحرها وقرها. فلم يذر نجماً إلا قدر حركاته بحسابه. ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً سياراً إلا جعل لها حساباً مقدراً لا خلل فيه. ولو اختلت الشمس عن سيرها المعتاد ثانية واحدة لاختلت مواعيد القطرات على اليابسة والسفن في البحار فعطل ذلك مصالح الناس. يعرف ذلك القائمون بأمر الرصد الذين يأمرون بضرب المدفع في القاهرة وفي غيرها من البلدان وقت الظهر. ومن هذه المقدرات الحيوان. فقدر لكل حيوان ما يصلحه وهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع. ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ أي: أنبت ما ترعاه الدواب ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً ﴾ يابساً هشيماً ﴿ أَحْوَىٰ ﴾ أسود، وهذه صفة «غثاء»، فمن فعله هذا كله فهو حقيق أن يسبح ويعبد.

ولا جرم أن المسبح المصلي العابد مقترب من ربه بروحه لكثرة ذكره وعبادته وتلاوته وصلواته ولذلك قال تعالى بعد ذكر التسبيح لمن اتصف بهذه الصفات البديعة: إنك يا محمد من المسبحين ولذلك ثبتنا العلم في قلبك كما أنزلناه عليك، وهذا قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ أي: سنقرئك القرآن فلا تنساه ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن ينسخه فإنك تنساه، فأما بقية ما تقرؤه فأنت مبشر يا محمد أن يحفظ في قلبك حتى لا ينفلت منه شيء. ثم إن الذي شاء الله نسخه يرفع حكمه وتلاوته، ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أي: يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم. ثم عطف على قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ قوله: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي: ونوفقك للطريقة التيهي أيسر وأسهل، فنجعل الوحي محفوظاً في قلبك ونجعل شريعتك أيسر الشرائع ونوفقك للعمل بها، ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بعد ما استتب لك الأمر، أي: عظ بالقرآن، ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ فذكر، ومعنى هذا أن الذكرى إنّما تصح إذا ظن أن المذكرين سينتفعون، فأما إذا يئس منهم فيجب الإعراض عنهم، ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أي: سيتعظ من يخشى الله فإنه يتفكر فيها فيعلم حقيقتها، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي: ويتجنب الذكرى ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ الكافر فإنه أشقى من الفاسق ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ نار جهنم والصغرى نار الدنيا. وتوضيحه في سورة «آل عمران»، فقد استبان هناك درجات الحرارة النارية في أرضنا. وكيف تزداد بالتوغل في الأرض حتى تصل إلى حرارة تذيب سائر المعادن، وأن هناك في باطن الأرض ناراً لا يتصورها العقل، هذا معنى قوله: ﴿ ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح من العذاب ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة يتلذذ بها، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ نال الفوز ﴿ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من الشرك، وتطهر للصلاة، وأدى الزكاة. وتخلى عن الحسد والحقد والكبرياء وغيرها من الصفات المهلكات، ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ ﴾ لأنه إذا تخلى من النقائص الظاهرة والباطنة فإن الذكر إذ ذاك يصادف قلباً خالياً فيتمكن منه. والذكر إما بالقلب أو باللسان، وقوله: ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ أي: إنّما الصلاة يراد بها توجه العبد لله. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه: ١٤]، ومن الصلاة الصلوات الخمس. ومن ذكر الله تكبيرة الإحرام. ومن التزكي التصدق يوم الفطر، ومن ذكر اسم الرب والصلاة تكبير يوم العيد وصلاته، فالأقوال المختلفة تحتملها الآية جميعها. فتكبيرة الإحرام وحضور ذكر الله في

الصلاة كلها ذكر والباقي ظاهر. ثم خاطب الأشقياء على سبيل الالتفات فقال: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ على الآخرة فلا تفعلون ما به تسعدون، ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فإن نعيمها لا يشوبه نغص وهو دائم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ واسم الإشارة راجع إلى قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فإن هذا القول جامع لطهارة النفس من النقائص وتحليتها بالفضائل، مؤثراً للآخرة رافضاً الدنيا إلا ما أعان على الآخرة. وهذا جامع خلاصة الديانات والكتب المنزلة جميعها، وقوله: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ بدل من «الصحف الأولى».

وجاء في الأثر أن في صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه. عارفاً بزمانه. مقبلاً على شأنه. اهـ.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

في هذه اللطيفة ثلاث جواهر:

(١) عجائب الأشكال في تبلور المعادن.

(٢) وعجائب النخل والتين والعنب وغيرهما، وبدائع حكم خلقهما. ونقتصر منها على ١٥ عجيبة يشاهدها أكثر الناس وهم لا يدرسونها.

(٣) وعجائب الحيوان.

الجوهرة الأولى
في عجائب الأشكال المتبلورة في المعادن

قدمنا في المجلد الثامن رسم شكلين هرميين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها. من الذي رسم هذا بحيث استقام شكلهما وانتظم أمرهما. لم يرسم هذا أحد ولكنه رسم إلهي ظهر في الصودا الكاوية. التي هي من مركبات الصوديوم وهو فلز أبيض ذو لمعان فضي. وإذا ألقي في الماء اصطهر وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء وينتهي في العادة بفرقعة. فمن مركبات هذا الجسم الناري الذي يلتهب في الماء هذه المادة التي تسمى بالصودا الكاوية، ومن مركبات الصوديوم ملح الطعام الذي يكون كتلاً عظيمة في بعض الصخور الجبلية. ويعرف بالملح الجبلي. ويكون في مياه البحار، ومن مركباته أيضاً النطرون.

إذا عرفت هذا أيها الذكي وأدركت أن الصوديوم المذكور نراه في النطرون وفي ملح الطعام وأشباه ذلك عرفت أن رسم الهرم المذكور سر من أسرار هذا العصر، وطريقة ذلك الشكل ورسمه أن توضع عشرة دراهم ماء في إناء صيني أو بلوري على منصب حديد، وأن يغلى هذا الماء بقنديل بهيئة خاصة في علم الكيمياء يسمى «القنديل الكحولي»، ثم يوضع فيه عشرون درهماً من الصودا الكاوية فيذوب جميعه في الماء الحار المذكور. فإذا نزعت القنديل من تحته وتركته حتى يبرد فإنك ترى قطع الصودا تتجمع على جدران الكأس على هيئة أجسام لامعة سميت بلورات، وهذا العمل يسمى

تبلوراً. ومتى لاحظت بلورات الصودا وجدتها جميعاً على شكل واحد وهيئة واحدة مع اختلاف في الحجم كبراً أو صغراً فيكون شكلها هرمين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها، وهو (شكل ٦) في المجلد الثامن، انظره هناك.

وإذا أعدت العمل بالشب الأبيض عوضاً عن الصودا ترى البلورات تتكون على هيئة تقرب من الهيئة المتقدمة في الشكل. وإذا أعدت العملية بالشب الأزرق أي كبريتات النحاس عوضاً عن الشب الأبيض فإن البلورات تتكون على الهيئة المرسومة في الشكل المكعب المرسوم في الجزء الثامن من هذا التفسير. انتهى الكلام على الجوهرة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية: في عجائب النبات والأشجار كالنخل والتين الخ

اختلاف النبات في الطباع

لقد اختلف النبات في طعومه وألوانه وروائحه. ذلك لأنه غذاء للحيوان، والحيوانات مختلفة الطباع، فقد جعل لكل نوع من النبات غذاء لنوع من الحيوان، ودواء لداء يعرض لها، ولا نعرف هذا إلا باستقراء علوم الطب وعلوم البيطرة، هذا هو الذي يعرفنا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، فهذه هي التسوية، وهذا هو التقدير، وهذه هي الهداية. فإنه قدر النبات والحيوان وسواهما، ثم هدى الحيوان لغذائه ودوائه.

اختلاف الأشجار من حيث إن منها ما هو تام، ومنها ما هو ناقص وصفات التام، وصفات ما هو أتم وأكمل

وصف الكامل من الأشجار: يكون له تسعة أجزاء: (١) الأصل. (٢) العروق. (٣) القضبان. (٤) الفروع. (٥) الورق. (٦) النوى. (٧) الثمر. (٨) اللحا. (٩) الصمغ.

وصف الشجر الناقص: الشجر الناقص ما ينقص واحدة من هذه الأوصاف أو أكثر كشجرة الألب، وأم غيلان، وشجرة الصفصاف التي تسمى بالخلاف، وكشجرة الطرفاء. وما شاكل ذلك مما لا ثمر له. أو لا ورق أو لا نوى أو لا صمغ له.

تفاضل الشجر: (١) منها التين واللوز والجوز وأمثالهما، فهذه تفضل بارتفاعها في الهواء، وتفرعها في الجهات. (٢) ومنها ما يرتفع في الهواء منتصباً منفرداً كشجر النخل والسرو والقنا والصفصاف والساج. (٣) وتختلف أيضاً بعروقها الضاربة في الأرض، فمنها ما هي كالأوتاد المنتصبة، ومنها ما يذهب في الجهات على الاستقامة، ومنها ما ينعطف ويتعوج ويلتف.

اختلاف النبات من جهة الأماكن: منه ما ينبت على وجه الأرض، ومنه ما ينبت تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من العكرش، ومنه ما ينبت على وجه الماء كالطحلب، ومنه ما يعيش على الشجر والنبات بحيث ينسج عليهما كاللبلاب والكشوثا، ومنه ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن، وبعضه يختص بأمكنة فلا ينبت إلا في البلاد الحارة كالنخل، أو في البلاد الباردة، أو في الأرضين السبخة، أو في الأرض الطيبة أو في الرمال وبين الحصا والحجارة والصخور أو في الأرضين اليابسة.

فبهذا نفهم قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣]، فهذا هو التقدير بحيث يقدر لكل حال، ولكل حيوان، ولكل مكان، ولكل نوع، ولكل كمال، ولكل نقص، ولكل صقع، ولكل حرارة أو برودة، نوعاً من النبات، فلم ينس الحصا والرمل، ولم ينس البرودة، ولم ينس الكمال، ولم ينس أنواع الحيوان، ولم ينس الأرض السبخة، بل جعل لكل من هذه حظها من النبات.

وهنا أقص عليك قصص الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة والشرف والجاه ورقي الأمة، وأن تقوم بواجبها. وأتلو عليك من نبأ الحكم الإلهية والعجائب الربانية والنظم العلية ما شقي بجهله الأكثرون وغاب عن علمه المتأخرون، وليس يفض مسك ختامه إلا المفكرون.

سأتلو عليك نبأ من الدروس الحكمية، والأسرار المحجوبة. أسدلت عليها الحجب وهي في وضح النهار، هن مقصورات في الخيام، ظاهرات للأنام. فاعجب لجميل محجوب جماله والعيون تراه مستورة محاسنه، ولكنه أمام المرآة تجلى للناظرين، واحتجب عن الجاهلين. العيون مبصرة، والقلوب مقفلة، فكم من امرئ رأى الجمال فأخطأه، وحظي بالوصال فما عقله، رأى المحبوب وعقله مغلوب ونفسه في لغوب. فكم من عاقل أسدل على عقله الحجاب، وغاب رأيه عن الصواب، فنظر القشر ولم يدرك اللباب. وإياك أن تظن أيها الذكي أن هذا القول من نزعات جهلة المتصوفين، أو الذين يسجعون وأحاديثهم شجون، كلا. إني سألقي عليك في هذا المقام بدائع ولطائف تبهر العقلاء، ويسخر منها المغفلون، وينشرح لها المفكرون. إن الأمة الإسلامية يعوزها استخراج هذه العجائب، وإظهار هذه الغرائب والبدائع والحكم، فاصغ لما أقول واعجب من العلم المعقول. إننا نأكل التمر ونأكل العنب ونأكل التين ونحوها هل خطر ببالنا أن نقول:

(١) لمَ كان جرم النخلة متخلخلاً تركيبه، وحشي بمواد رخوة زبيرية؟.

(٢) ولمَ نرى عروق النخل في الأرض كثيرة جداً؟.

(٣) ولمَ نرى أن النخلة قد اختصت بأن لفت عليها مآزر من الليف شدت ثلاث طبقات. ولمَ لم نر هذا الليف في العنب. ولا في التين، فلماذا؟.

(٤) ولماذا نرى طلع النخلة عليه غلاف ولكن لا نرى هذا الغلاف في العنب ونحن نأكلهما. وليس على قطف العنب إلا ورقة فوقه؟.

ولمَ جعل على جرم النواة نسج حريري. ولمَ هذا النسج حول العجمات الصلبة الخزفية الداخلة في حب العنب؟.

(٦) ولمَ كان في جرم النواة في التمرة حفرة مستطيلة فيها فتيلة؟.

(٧) وما هذه النقرة التي على ظهر النواة وما فائدتها؟.

(٨) وما فائدة القمع الذي على رأس التمرة؟.

(٩) ولماذا نرى ثمار الفستق والجوز واللوز قد جعل الغليظ في ظواهرها واللطيف في باطنها؟ وعكس ذلك في التمرة؟.

(١٠) ولماذا نرى التين والجميز لم يميز لطيفها عن غليظها كما ميز في الجوز والتمر؟.

(١١) ولماذا نرى عروق شجرة التين وأصولها وقضبانها بحال غير حال النخل؟ . ذلك أننا نرى العروق غلاظاً ذاهبات تحت الأرض في الجهات على استقامة واعوجاج في العمق . وفيها تجويفات كما في جوف القصب لكنها أضيق قليلاً . وهكذا تركيب الأصول والقضبان والفروع فكلها تجويفاتها لطيفة وعقدها كعقد القصب وفي كل تجويف مواد زيبرية محشوة خللها .

(١٢) ولماذا نرى عروق العنب على هيئة غير هيئة التين والنخل مفرقة تذهب تحت الأرض ممتدة في الجهات دقاقاً وغلاظاً . وفيها تجويفات مثل تجويفات شجرة التين ، ولكن هنا يكون جرم أصولها يمتد طويلاً دقيقاً على وجه الأرض . ولا يكاد يقوم على ساق مرتفعاً في الهواء كثيراً كما يقوم غيره من الأشجار؟ .

(١٣) ولماذا نرى عقد قضبان تخرج منها شظيات لينة منبثة تلتف على الشجرة وتتعلق بها؟ .

الجواب على هذه الأسئلة

(١) أما كون جرم النخلة متخلخلاً الخ فذلك لأن النخلة لها جذع طويل يمتد في السماء . ولها سعف وورق وليف وجمار وقنوان وثمر ونوى ، فأعمالها كثيرة وارتفاعها عظيم ، لذلك جعلت متخلخلة لكي يسهل على القوى الطبيعية التي بثها الله فيها أن تجذب تلك المواد من أسفلها إلى أعاليها ورؤوس أجذاعها وفروع سعفها الخ . ولو كانت متكنزة صلبة كالأشجار الذاهبة في السماء طولاً من الساج والدولب والسرو ؛ لعسر على القوى الطبيعية جذب تلك المواد إلى هناك لكثرتها وتفننها ، فكيف ترفعها مع الصلابة المتناهية ، فهذه هي الحكمة .

(٢) وأما كثرة عروق النخلة في الأرض فإن كثرتها مناسبة للمواد التي تجتذبها ، لأن الأعمال كثيرة في التمر والنوى والليف والسعف الخ . فيجب أن تكون لها أغذية متنوعة ، وهذه الأغذية المتنوعة تحتاج إلى عروق متنوعة حتى تمد الشجرة بشيرجها ودبسها وثمرها ونواها وقنوانها وطلعها وسعفها وخوصها وسلائها وغلاف طلعها وأقماع تمرها وجمارها وجذعها الطويل ، ولذلك ترى جرمها مركباً من قضبان كأنها خيوط مجتمعة متداخلة ، وكل خيط منها ممتد لعرق ممتد في الأرض يمتص المواد ويوصلها إلى ذلك الخيط منفرداً لتسهل الأعمال على طبيعة النخلة ، فانظر كيف وزعت أعمال التغذية على تلك الخيوط المنضمة وهي متصلة بالعروق الضاربة في الأرض ، بحيث يكون التقسيم من أول الأمر ، فلا يصعب بعد ذلك التقسيم على قوى النخلة ، كما ترى الحكومات تقسم الأعمال على رجالها . وتجعل كل جماعة في ديوان مخصوص ، فالنظام العام واحد .

(٣) وأما كون الليف مختصاً بالنخلة فذلك لحكمة عجيبة ، وذلك أنك عرفت أنها متخلخلة ، وأن جذعها مركب من خيوط ، فكيف تستطيع أن تحمل ذلك السعف الكثير والقنوان والخوص والسلاء حمل عظيم يؤودها حمله ، فلذلك شد عليها الليف شداً محكماً كما يشد الرجل المئزر على وسطه ، فلذلك نرى النخلات الباسقات يملن ذات اليمين وذات الشمال عند هبوب العواصف ولا نرى سعفة تقع ولا قنواً ، ذلك لليف المشدود ، وهو ثلاث طبقات منسوجات متوازية ملتفة على أصول

السعف، فلئن جعل الناس ذلك الليف رباطاً لبضائعهم ومنافعهم لم يكن لهم ذلك إلا بعد ما انتفع النخل به في شد قواه، وحفظ فروعه وتقوية جذوعه في يوم الريح العاصف.

(٤) وأما كون طلع النخلة عليه غلاف، ولسنا نرى ذلك الغلاف في العنب، وإنّما على كل قطف ورقة تستره فقط، فذلك لأن طلع النخلة يخرج رطباً ندياً رخصاً رخواً تضره الآفات العارضة من برد وحر مفرط ومطر شديد ورياح وعواصف وغبار وما أشبه ذلك، فجعل عليها ذلك الغلاف المسمى «الكفري»، فإذا استحكم الطلع واشتد انشقت الأكمام والغلف عنه، وظهر لنسيم الهواء وحرارة الجو، فيربو ويسمن وينضج بحرارة الشمس ويصير بسراً ورطباً جنياً هضيماً، ثم يجف ثم يصير تمراً ودبساً جامداً، فهو أشبه بالمسلمين وهو مقلدون جامدون، فإذا فكروا ونظروا كما ذكرنا في هذا التفسير عرفوا هذه الدنيا وأدركوا سر القرآن، فهدتهم عبادتهم إلى العلوم، وتسبيحاتهم إلى نظام الأفلاك وعجائب الإنسان والحيوان، وهذا أوانه فقد انشقت الأكمام، وظهر الطلع الآن، وسيصير رطباً جنياً فتمراً شهياً. وأما حبات العنب فإن مادتها غليظة صلبة عفصة لا تعرض لها الآفات كما تعرض تمرة النخل لأنها تخرج رخوة رخصة ندية ترفة تسرع إليها الآفات كما ذكرناه، فلا حاجة إذن لحبات العنب أن يكون عليها غلاف بل يكون لا فائدة منه، وهو حمل ثقيل على العنبة، وليست تحتاج إلا إلى قشرة رقيقة حريرية النسيج لتحفظ تلك الرطوبات والدبس والشيرج من الآفات العارضة لها، من الرياح والغبار وحرارة الشمس، خيفة أن تنشف تلك الرطوبات كما تفعل بالمياه المستنقعات، هذا هو الفرق بين العنب والتمر، وهذه المسألة الرابعة في الحقيقة مسألتان: إحداهما للنخل والأخرى للعنب.

(٥) وأما جعل النواة عليها نسج حريري فذلك بين مما ذكرناه في سورة «الفاتحة»، وهو أن تلك الغلافة جعلت حاجزاً بين جرم النواة ودبس التمرة لئلا يمتص عفوصة جرم النواة وغلظ جوهرها دبس التمرة وشيرجها، لأن طبع الجواهر الجسمية الأرضية أن تشرب نداوة الرطوبات الرقيقة الدهنية وتمتصها، فلو لم تجعل تلك الغشاوة الرقيقة الحريرية النسيج هناك لاختلط دبس التمرة مع جرم نواتها وقل الانتفاع بها، ألا تنظر هذا العجب! قشرة حريرية على حبة العنب، لماذا؟ ونسيج حريري على النواة، لماذا؟ فالأولى لمنع الأضرار الجوية، والثانية لمنع اختلاط المتجاورين، لا لخوف من حر ولا برد ولا غبار. ولما كانت عجمات العنب على حال غير النوى لم يجعل عليها غشاء حريري كالذي جعل على النواة، ذلك أن تلك العجمات صلبة خزفية مجوفة، وفي داخل التجويف لب دسم هو بذر العنب وبزره، وهذه البذور صغار جداً ليست كبيرة كالنواة، وهي رخوة ليست في صلابة النواة، وهي ليست في غلظها، وهذه العجمات غنية بما في داخلها من الدسم عن أن تمتص من شيرج العنب، فإذا احتاجت النواة إلى نسيج يفصلها فهذه مستغنية لأنها ندية من داخلها فكيف تطلب النداوة مما حولها. ثم إن دبس العنبة وشيرجها كثير بالإضافة إلى جرم تلك العجمات كلها، وليس هكذا التمرة، فإن جرم النواة بالنسبة إلى دبس التمرة وشيرجها كثير، فهذا هو السبب الذي لأجله لم يكن في العنب على العجمات نسج حريري.

(٦) وأما الحفرة الطويلة في النواة والفتيلة فيها فإنّما جعلت هكذا لكيما تجري فيها تلك المواد من أولها إلى آخرها، ثم تجمد أولاً فأولاً، فما هذه الفتيلة إلا كالقناة يسقى منها الزرع وكالأنهار وما أشبه ذلك.

(٧) وأما ما يرى من نقرة على ظهر النواة فإنّما ذلك هو الباب الذي ستخرج منه النخلة عند غرسها، فمن هناك يخرج العرق النازل في الأرض ليجذب المواد الأرضية ويمتص النداوات والرطوبات الأرضية، ويخرج أيضاً من أعلى طاقة مورقة تكمل شيئاً فشيئاً حتى تصير جذعاً يعظم على طول الزمان.

(٨) أما الأقماع التي على رؤوس التمرات فقد ذكرناها في سورة «الفاتحة» أيضاً مختصرة، وذلك أن هذه الأقماع ما جعلت إلا كأنها المصافي جمع مصفاة تصفي المادة الواصلة إليها، فهي أشبه بما يفعل الناس من جعل الماء مرشحاً ليبعدوا عنه المواد الضارة للإنسان، هكذا هنا فإن القوى الإلهية التي بثها الله في تلك الشجرة مرسلة إلى القمع تميز الغليظ من اللطيف، وتجعل الرقيق في ظاهر التمرة، وتجذبها إليها شيرجاً ودبساً وترسل الغليظ إلى جرم النواة وتجمده عليها.

(٩) وأما ثمار الجوز واللوز والفستق وأمثالها التي خالفت النخل والعنب إذ جعل الغليظ في ظواهرها فصار قشراً حافظاً، واللطيف في بواطنها فصار مادة لطيفة زيتية تؤكل، فاعلم أن الحكمة في ذلك أن العنب والرطب كلاهما يجف ويصير تمراً وزبيباً. فكانت تلك المادة لا تستضر ببقائها بلا قشر بل هي نفسها حافظة لما غلظ في داخلها، أما الفستق والجوز واللوز فإن هذه مواد زيتية لا تقوى على تحمل المصادمات التي تفتت أجزاءها وتسرع في تفرقها، فلذلك أحيطت بالقشر. أما التين والعنب والتمر فإنها قوية متينة.

(١٠) فأما ثمرة التين والجميز فإن غليظهما لم يميز من لطيفهما لأن موادهما وأغذيتهما معتدلة ليس بينها كبير تفاوت، فلا حاجة إذن للتمييز بين الأجزاء تمييزاً قوياً كالذي رأيت في التمر والجوز، وإنّما جعل الغليظ هنا حباً صغاراً، وجعل على الخارج قشرة رقيقة لتصون الرطوبة من الأذى كما في العنب فلا قشر لها ولا نواة.

(١١) وأما تركيب أصول شجرة التين على ما ذكرناه في السؤال فإنّما كان ذلك ليسهل على القوى التي بثها الله هناك أن تجذب تلك المواد الغذائية من الأرض فترفعها إلى أصول الأشجار ومنها إلى أعاليها. وإيضاحه أن هذه التجويفات في القصبات كل واحدة منها أشبه بمعدة الإنسان وبكرش الحيوان يهضم فيه الغذاء، ويعطي تلك الأنابيب وأوراقها وزهرها وعناقيدها بدل ما تحلل منها، فتتمثل تلك المواد المنجذبة من الأرض المرفوعة إلى ذلك التجويف بما دخلت فيه من ثمر وورق إلى آخره، ثم هل يتم ذلك التمثيل إلا إذا بقيت مادة الغذاء المجذوبة لتلك الأنبوبة زماناً ما ريثما يتم النضج والتمثيل، لذلك جعل في آخر كل أنبوبة عقدة لتحفظ تلك المواد إلى وقت الحاجة، فهذه التجويفات أشبه بالمعدة، فإن الطعام يبقى فيها وعليها سدادة، فإذا هضم فتحت السدادة ونزل الطعام إلى الأمعاء.

(١٢و١٣) وأما كون عروق العنب تخالف عروق النخل وعروق التين فإن الأولى دقيقة والثانية غليظة، فأما هذه فإنها دقيقة وغليظة ولها تجويفات مثل تجويفات التين، فأما أصلها فإنه يكون طويلاً دقيقاً يمتد على وجه الأرض إلى آخر ما تقدم، فاعلم أن تجويف القضبان المحشوات زبيراً في العنب فحكمتها مثل ما تقدم في التين سواء بسواء، والعقد التي بين الأنابيب حكمتها كحكمة عقد التين وأما الشظيات اللينة المنبثة التي تلتف على الأشجار وتتعلق بها وترتقي عليها فذلك أنه كما أن النخل لما كان رخواً جعل له الليف ليحفظ السعف والقنوان من التفرق والانحلال، هكذا هنا جعلت تلك الشظيات لتتعلق بالشجر فيحمل عن شجرتها ثقل ثمارها، فهذه الشظيات قامت مقام ضعف الشجرة العنبية التي لا قدرة لها على الانتصاب فضلاً عن حمل الأثقال، فانظر كيف أبدع الله فعوضها عن ضعفها قوة بما أخرجه حولها من تلك الشظيات المنبثات الملتفات على الأشجار وعلى السقائف التي يصنعها الناس ولكن أكثر الناس لا يفكرون. اهـ.

شجرة اللوف

مشاهدات المؤلف في أيام كتابة تفسير هذه السورة

ألست تعجب أيها الذكي أن أقول لك: إن منزلنا فيه شجرة زرعت حديثاً وأنا أباشرها كل يوم، تلك الشجرة لا تحمل نفسها وإنّما تحمل على غيرها، ثم ألا تعجب معي كيف زرعت في هذه الأيام! ألا ترى أن هذا لأقص عليك نبأ ما رأيت في تلك الشجرة، نحن نسقيها كل يومين أو ثلاثة تقريباً، ولما أن جيء بها إلى منزلنا وضع لها سعفه ذات خوص مدلى، وهذه السعفة مدت بجانب حائط المنزل لتكون حاملة لتلك الشجرة، لما نقلت الشجرة إلى منزلنا أخذ العود المستطيل فوق السعفة ييبس شيئاً فشيئاً، وبعد أيام رأيت غصناً خرج من أسفل، ففي أول الأمر كان أنبوبة واحدة، وهذه الأنبوبة لها شظيات رقيقات كأنها شعرات خضرات، رأيتها تدور ذات اليمين وذات الشمال لترى أي شيء يصلح للاستمساك، وأخيراً استمسكت بالخوص المدلى من السعفة، وهكذا رأيت الأنبوبة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة حتى قربت من الحائط وارتفعت عن الخوص، فرأيتها بعد أيام تمد تلك الشظيات الرقيقات إلى شقوق الحائط ثم تنزلها وتدور ذات اليمين وذات الشمال، فلم تجد ملجأ تلجأ إليه فماذا تصنع؟ كنت في أثناء ذلك كله أتعجب وأقول: إني كنت أراها أولاً تمد هذا الخرطوم، أو الشعرة، أو الشظية إلى خوصة عالية عليها، وتتنكب ما كان أسفل، ثم متى تعلقت بالأعلى أخذ ذلك الممتد يتقلص على نفسه ويصير أشبه باللولب، ولماذا هذا؟ ليقصر ويقصره ترتفع، لأن الشجرة دأبها الارتفاع.

أقول: فلما جاوزت الخوص المذكور وارتقت إلى الحائط لاحظت أفعالها فوجدت أنها تمد خيطها الدقيق إلى شقوق الحائط الدقيقة، فأراها لا تجعل ذلك الخيط مجعداً كما كانت تفعل، فلما وجدت الحائط لا يصلح للاستمساك أخذ ذلك الخيط يذهب ذات اليمين وذات الشمال بالتدريج بحيث يكون صباحاً متجهاً شرقاً وضحى غرباً وهكذا، وأخيراً وجدت تلك الشعرات اللاتي تدور الأمكنة حولها قد اجتمعت كلها وكونت كرة منسوجة من تلك الخيوط وتدلى رأس الشجرة إلى

أسفل أشبه بما يفعل الإنسان حينما تعييه الحيل، فقست انحناء الرأس فوجدته أكثر من قيراطين، فقلت في نفسي: إذن فلأجعلها مضمومة إلى نفس السعفة، فقومتها وضممتها إلى السعفة المنصوبة، فلما طلع الغد وجدت الرأس المنحنية قد انتصبت تمام الانتصاب، وأخذت تمد خيوطها إلى أعلى كأنه لم يكن هناك حزن ولا كآبة. وهاهي ذه الآن أمامي فرحة مستبشرة رافعة رأسها إلى أعلى، ولقد كنت في هذه الليلة أقول في نفسي: ماذا عسى يحصل لهذه الشجرة غداً؟ وإذا لم يعتدل برعومها المتدلي بعد اعتدالها على السعفة، فماذا أكتب غداً في التفسير؟ إن التجربة تكون ناقصة، وأنا الآن أقول: قد اعتدلت وسارت كعادتها.

أليس ذلك الذي أشاهده وأنا أكتب التفسير، وما قرأته أيها الذكي قبله يعرفك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣]، فإذا كانت عناية الله بإنسان جعلته يخلق شجراً ليس له عمل عند الناس إلا إخراج مادة ليفية يستعملها الناس في اغتسالهم، وهذه المادة لطف بها أشد اللطف، وأعطاها خيوطاً تستمسك بالأشياء الثابتة، والأعواد المنصوبة، وأعطاها شيئاً يشبه شعور الحيوان فتبحث وتدقق ما حولها، وتعمل أعمالاً أشبه بأعمال الحيوان.

بهذا أيها المسلمون فلنفهم: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣]، فهذا هو التقدير، قدر كل شيء حتى الليف الذي يعيننا على غسل أجسامنا، وهدى شجر الليف وأعطاه نوعاً من الشعور به يدرك حتماً منافعه، وهذا لا شك أنه نوع من الإدراك، كما عرف الناس في الشجرة المسماة «المستحية» والأشجار التي تصطاد بعض الحشرات بمادة خاصة فيها، حتى إنهم وصلوا إلى ٣٣ نوعاً عندها شيء من الإحساس، والقدماء جعلوا كل نبات عنده شعور قليل، وبرهنوا على ذلك بأن عروقه تترك المحال اليابسة وتأتي المواضع الندية، وبأن فروعه إذا كانت في مكان مظلم وفيه نور قد أتى من سقفه توجهت نحو ذلك الثقب الذي جاء منه النور.

وبالجملة فهذه اللوفة التي ذكرت لك تاريخها ظهر لي منها ما يأتي:

(١) كيف تمد أنبوباً شعرياً يقف في كل جهة من الجهات الأربع زماناً ما.

(٢) ثم كيف لا يتعلق بالذي هو أدنى.

(٣) ثم لماذا لا يتعلق إلا بما هو أعلى.

(٤) ثم إذا تعلق بما هو أعلى فلماذا نرى ذلك الأنبوب الشعري يأخذ في الانثناء ليقصر فترتفع الشجرة.

(٥) ثم لما وصل إلى الحائط حار في أمره فلم يدر ما يصنع، وصارت تلك الأنابيب الشعرية الدقيقة تجوس خلال الجهات الأربع.

(٦) ثم إنها لم تنثن كما كانت تفعل من قبل، ولما يئست من مكان تستمسك به ضمت جميع فروعها الشعرية، ودلت رأسها كالحزينة، وأسلمت نفسها للقضاء والفضاء والهواء.

(٧) ثم لما ضممتها إلى السعفة المنصوبة محافظاً على كل أحوالها كيف ارتفعت رأسها المنكسة ورجعت إلى حالها الأولى من الانتصاب وسارت بهيئتها المعتادة. اهـ.

استخراج الزيت من الفحم

جاء في إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٥م تحت هذا العنوان ما يأتي :
نشرت « التاجليشه رونتشا » خبراً مؤداه أن حكومتي برلين وبروسيا قد منحتا شركة « إيفانج » إعانة قدرها مليونان وخمسمائة ألف مارك ذهباً ، لتنشئ بها مصنعاً لاستخراج الزيت من الفحم على طريقة « برجيوس » . وسينشأ هذا المصنع في « فنسلاوس » في « سيليزيا » السفلى ، ويجهز بآلات تستطيع أن تستصفي مائتي ألف طن من تراب الفحم سنوياً .

ومخترع هذه الطريقة هو الأستاذ « برجيوس » من « هيدلبرج » اخترعها سنة ١٩٠٣م .
وخلاصتها أنه يستصفي تراب الفحم مع الهيدروجين في جو يصل الضغط فيه إلى مائة وخمسين أو مائتي درجة ، وبهذا تم الكلام على الجوهرة ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثالثة: عجائب الحيوان

لقد ذكرنا في هذا التفسير من عجائبه وغرائبه ما فيه مقنع ، ولكن لا بد أن نذكر في هذا المقام بعض العجائب في لطائف :

الأولى : إن الحيوان إما تام الخلقة كامل الصورة ، وهي التي تنزو وتحبل وتلد وترضع أولادها كالإنسان والقردة وذوات الأربع ، ومنها ناقصة ، وهي التي تبيض وتحضن أولادها وتربيهن كالطيور ، ومنها ما هي أنقص منها وهي التي تبيض ولكن لا تربي أولادها كالحشرات من الجراد والذباب وما شاكلها فهي درجات ثلاث : أم تلد وترضع ، وأم تبيض وتربي ، وأم تبيض ولا تربي .

الثانية : إن الحيوان الناقص الخلقة مقدم في الوجود على كامل الخلقة ، كما أن النبات مقدم على الحيوان ، وحيوان البحر مقدم على حيوان البر ، لأن الماء كان قبل التراب ، والبحر قبل البر .

الثالثة : من الحيوان ما يسكن الهواء ، ومنه ما يسكن الماء ، ومنه ما يسكن البر ، ومنه سكان التراب . فالأول : أكثر أنواع الطيور والحشرات . والثاني : كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والضفادع والسرطان والصدف ونحو ذلك . والثالث : البهائم والأنعام والسباع . والرابع : الهوام .

الرابعة : في تزاوج الطيور وفي طيرانها : إن الطيور من حيث التزاوج أصناف :

(١) ما يتعاشق ويتزاوج في فصول السنة كلها ، ويعاون الذكر الأنثى في تحضين البيض وتربية الأولاد كالحمام .

(٢) الديك لا يعاون الأنثى وبعض الطيور مع أنه في طول السنة يهيج كالحمام .

(٣) ومنها ما لا يهيج إلا في فصلين : الربيع والخريف .

(٤) ومنها ما يكون في الصيف وحده .

(٥) أكثر الطيور لا تهيج إلا في آخر الشتاء وأول الربيع ، لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأقوات .

(٦) وبعضها تتخذ العش : (ا) بين أغصان الشجر . (ب) أو الورق . (ج) والأراضي الدغلة بين الحشيش والشوك كالقبج والدراج والطيهوج . (د) أو ثقب الحيطان والخرابات . (هـ) أو رؤوس الجبال

والتلال . (و) أو شطوط الأنهار وسواحل البحار . (ز) أو في البراري القفار . (ح) أو بين الحجار والأخشاب . أما البيض فمنه ما يحضن بيضتين ، ومنه ٤ ، ومنه ٦ ، ومنه ٨ ، ومنه ١٠ ، ومنه ١٢ ، ومنه ٢٠ ، ومنه ٣٠ .

الطيران

(١) فهو إما ثقيل الطيران قليلاً كالسمانى .

(٢) أو بعيد الورد كالقطا .

(٣) بعيد الأسفار كالغراب .

(٤) لا يفارق الوطن كالعصفور .

(٥) تطير قطاراً كقطار الجمال كالكراكي .

(٦) أو صفوفاً متحاذية كصف المصلين .

(٧) أو جماعات ملتئمات .

(٨) أو مستقبلات الريح .

(٩) أو مستدبرات الريح .

(١٠) أو تطير متوازيات على الجانب .

(١١) أو متوجهة نحو القصد .

(١٢) أو مرتفعة ومنخفضة يمنة ويسرة في أول طيرانها .

(١٣) أو تطير مستقيمات .

(١٤) أو تعدو على وجه الأرض خطوات ثم تستقل في الجو .

(١٥) أو تطير دفعة واحدة .

(١٦) أو ترتقي في الجو صاعدة كالصاعد في المنارة .

(١٧) أو كالصاعد في العقبة .

(١٨) أو أمسك عن تحريك جناحيه .

(١٩) أو يمسك تارة ويحرك أخرى .

(٢٠) أو ينكس رأسه عند النزول .

(٢١) أو ينزل برفق كما ينزل من المنارة .

(٢٢) أو كما ينزل من العقبة .

فهذه ٢٢ خصلة من خصال الطيور لا يشارك طير منها سواه فيما اختص به . وقد تقدم في سورة « الملك » عند الكلام على آية : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾[الآية : ١٩] الكلام على أنواع الطيور وصورها البديعة ، فراجعه هناك إن شئت .

فإذا تأملت في هذه النظم بحيث يكون لكل مكان نوع من الحيوان ، ولكل خصلة وحال من الأحوال نوع يتصف به ؛ عرفت أن تقدير الله يشمل تفريق الطيور والحيوانات على الأزمنة والأمكنة

وعلى الخصال بحيث يكون ما يخطر ببالنا من الأحوال يحصل في الخارج، فإذا تصورنا طائراً يمشي أو لا يطير فهو موجود، وهكذا بقية الأحوال، فهذا من معنى قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣].

عجائب الطيور والهوام والحشرات

(١) إن النحل نوع من الحشرات. وقد تقدم ذكر عجائبه في مواضع كثيرة لا سيما في سورة «النحل»، فهذا يتخذ المساكن طبقات مستديرات كالترس بعضها فوق بعض كأنها غرف من فوقها غرف مبنية، بيوتها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا، لإتقان صنعها، وإحكام بنيتها، وهي لم تقرأ هندسة ولا عندها بركار أو مسطرة أو شاقول، ثم هي تجمع الشمع من ورق الأشجار والنبات بأرجلها فلا زنبيل ولا سلة ولا ملقطة ولا مكتل ولا آلة مثل الفأس والمسحات.

(٢) العنكبوت: هي من الهوام، تنسج شبكتها أولاً فتجعلها أولاً خطاً ممتداً من حائط إلى حائط أو من شجرة إلى شجرة، أو من غصن إلى غصن، أو من جانب نهر إلى آخر. ثم تمشي على ذلك الذي تمده أولاً. ثم تمد خطوطاً مستقيمة كأنها أطناب الخيم المضروبة. ثم تنسج لحمتها على الاستدارة، وتترك وسطها دائرة مفتوحة حتى تتمكن فيها لصيد الذباب، وذلك من غير مغزل، ولا مفتل، ولا مشط، ولا أدوات.

(٣) دود القز: وهو من الهوام، فهذه إذا شبعت من الرعي طلبت مواضعها بين الأشجار والشوك ومدت من لعابها خيوطاً دقاقاً ملساء لزجة متينة، ونسجت هناك على أنفسها كنَّاً يشبه الكيس ليكون لها حرزاً من الحر والبرد والرياح والأمطار، ونامت إلى وقت معلوم، كل ذلك تفعله من غير تعليم.

(٤) الخطاف: هو نوع من الطير يبني لنفسه منزلاً ولأولاده مهداً معلقاً في الهواء تحت السقوف من الطين، فلا سلم يرتقي عليه، ولا راقود يحمل الطين عليه، ولا عمود يسند بيته إليه، وليست لديه آلة من الآلات، أو أداة من الأدوات، فإذا عميت أبصار أولادها حملت حشيشة خاصة يسميها القدماء «الماميراف» وتحك بها أعين أولادها فتبصر، وليس هناك أطباء ولا معلمون.

(٥) ثم إن الأرضة وهي من الهوام تبني على نفسها بيوتاً من الطين الصرف في شبه الآزج والأزقة، وهي لم تجمع تراباً، ولم تبل طيناً، وإنّما هي دابة ظريفة الخلقة، عجيبة الطبيعة، وهي باردة الطبيعة جداً، وبدنها متخلخل، منفتح المسام، يتدخلها الهواء، ويجمد البخار من شدة البرد ويصير ماء ويرشح على ظاهر بدنها. وتبني به على نفسها من تلك الآزاج كنَّا لها، ولها مشفران حادان شبه المشراطين، تقرض بهما الحب والخشب، والتمر والنبات، وتثقب الآجر والحجارة وغيرها. اقرأ عجائبها في سورة «سبأ» فهناك أبدع البدائع.

(٦) ثم إن النعامة وهي مركبة من طائر وبهيمة تجمع عشرين أو ثلاثين أو أربعين بيضة من بيضها وتقسمه ثلاثة أقسام: فثلث تدفنه في التراب، وثلث تتركه في الشمس، وثلث تحضنه. فإذا خرجت فراريجها كسرت ما كان في الشمس وسقتها ما كان فيها من الرطوبات التي فيها مما ذوبتها الشمس ورققتها، فإذا اشتدت فراريجها وقويت أخرجت المدفون منها وفتحت لها ثقباً يجتمع فيها الذباب والبق والهوام والنمل والحشرات، ثم تطعمها أفراخها ثم تقوى وتعدو.

(٧) أنواع الدراج والدجاج والقباج والطيهوج وما شاكلها ينقشر عنها البيض وتخرج تعدو من ساعتها، وتلقط الحب وتهرب من طالبها، ولذلك ترى الذكور منها لا تساعد الإناث في التربية.

(٨) أنواع الحمام والعصافير تخرج لا ريش لها ولا قدرة على مشي أو عدو، وهذا لا بد فيه من معاونة الذكر للأنثى، وهذا هو الذي قدره الله فهدى ذكور العصافير والحمام أن تساعد الإناث. اهـ.

أسرار النبوة في هذه السورة

اعلم أن النعم التي يحمد الإنسان عليها ربه على قسمين: نعم ترجع إلى ما يحتاجه هو من طعام وشراب ونار لوقاية الجوع والعطش والبرد ونحو ذلك، ونعم ترجع إلى النظام العام بحيث لا تكون لأجل شيء خاص بل يكون المحمود عليه جميع النعم، ولقد بينت ذلك في سورة «الفاتحة»، وأن المسلمين لا ينالون السعادة في الدنيا والآخرة إلا إذا كان مجموعهم متجهاً إلى جميع ما في هذه الدنيا من المعارف والعلوم حتى يكون الحمد على نعمه السماوية والأرضية لا مجرد ما يضطر إليه الإنسان، وبهذا تكون الهداية، فقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يدخل في استقامته أن يكون الإنسان حمده على النعم كلها بحيث يعرف منها كثيراً. وكلما عرف نعمة كان ذلك استيجاباً لحمده عليها. ثم إن النعم المذكورة في هذه السورة بعد قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ هي الخلق والتسوية والتقدير والهداية وخلق المرعى وجعله غثاء أحوى. وثبات القرآن وعدم نسيانه، وهذه نعم ليست جسمية خاصة، بل هي ترجع إلى النظام العام والحكمة التامة كما بيناه وأطنبنا فيه. وهناك نعم خاصة بالشهوات الشخصية. وذلك كما في سورة «الواقعة» إذ ذكر الله هناك أنه خلقنا من نطفة وليس لنا دخل في ذلك. وأنه هو الذي زرع الزرع وأنبته، ولولا أنه أنبته لحرمنا منه، وأنه هو الذي أنزل الماء ولو شاء لجعله أجاجاً، وكذلك تكلم في النار وقال إنها متاع لنا، فهناك تكلم عن هذه المذكورات من حيث منفعتها لنا. ثم قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤].

وأما هنا لما ذكر الخلق والتقدير والهداية إلى آخره؛ وهي عجائب ترجع للعلم والحكمة والنظام العام؛ قال: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]، وهنا ذكر التسبيح قبل النعم، وهناك ذكره بعد ذكر النعم، فهناك تسبيح بعد ذكر نعم نحتاج إليها في أجسامنا، وهنا تسبيح على نعم تزدان بها عقولنا كالذي قرأته في هذا المقام من العجائب! أتدري ماذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم في هذه وفي تلك، وهو يرمي إلى ما ذكرناه لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤]، قال: صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزل: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]؛ قال: صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في سجودكم».

فاعجب من حكم النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف جعل التسبيح الذي فيه العظمة في الركوع والتسبيح الذي فيه ذكر الأعلى في السجود، وما ذلك إلا ليكون العبد في سجوده أقرب إلى الله منه في ركوعه. وإذا كان المرء معظماً لله في الركوع الذي هو أقل من السجود فهو معترف لله بكونه أعلى في السجود. وليلاحظ المسلمون أن هذا حسن في العبادة، وقد درج عليه المسلمون في أقطار الأرض، فهم يسبحون هذا التسبيح في الركوع والسجود، ولكن هذا القول لأجل مجرد العبادة، والعبادة باب لفتح

القلب للعلوم والمعارف. وكلما كان المرء أكثر تقديساً وتسبيحاً كان أقرب إلى ربه، فيلقي عليه العلم والحكمة. فإذا نظرنا إلى الوجهة العلمية فلنقل: إن هذا من النبوة إشارة إلى طريق العلم. فطريق العلم إذا كان لإكمال النفس بالنظر العام مثل ما ذكرنا هنا من الكلام على التقدير والخلق والتسوية والهداية وعجائب النبات والحيوان وغيرهما كان أرقى من العلم الذي يقف دون ذلك. ونسبة العلم الذي يعرف به المرء نظام هذا العالم الموقوف على بعض الحاجة وإلى النعم الجسمية كنسبة السجود إلى الركوع.

فنحن نعظم الله إذا أحسن إلينا بما نحتاج. ولكنا نعرف مقداره معرفة أعلى إذا أدركنا بعقولنا نظامه. وعلى ذلك فهذا من النبوة إشارة قدسية إلى أن هذه الأمة إذا برعت في معرفة بدائع هذا العالم من الخلق والتسوية والتقدير والهداية إلى آخره تكون في حال أرقى مما لو بقيت واقفة عند حد في العلم كما هو حاصل الآن. والساجد أرقى من الراكع، والسجود فيه قرب يرمز لقرب العارف بجمال هذه العوالم الذي لا يدانيه مدان من العباد. والأمم الإسلامية ستسير في هذه الطريق إن شاء الله تعالى، فليفطن المسلمون لهذا الرمز النبوي. جعل الأعلى في السجود والعظيم في الركوع مشيراً إلى المعاني اللاحقة بالوصفين، كأنه يقول: فضلوا العلوم ورقي النفس والمعارف العامة. والتحقق من الحكم الإلهية المصحوبة بالأعلى على الشهوات النفسية. وبعبارة أخرى: علو المسلمين دنيا وأخرى بالحكمة العامة.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ ﴾

حضر في يوم الاثنين ١٢ رمضان المعظم سنة ١٣٥١هـ، ٩ يناير سنة ١٩٣٣م صاحبي الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير، فقال: لقد فكرت اليوم في هذه الآيات، أتبع الله التسبيح بتسعة أمور: (١) الخلق. (٢) والتسوية. (٣) والتقدير. (٤) والهداية. (٥) وخلق النبات. (٦) والإقراء. (٧) وعدم النسيان إلا ما شاء الله. (٨) والتيسير لليسرى. (٩) وأن الذي يخشى هو الذي يتذكر.

هذه تسع مطالب ذكرت في حيز التسبيح. إن قراءة نحو هذا التفسير قد جعلتني شغفاً بأمثال هذه المباحث بعد أن كنت عنها غافلاً. وأي مناسبة بين التسبيح وبين هذه المطالب التسع. وهل ذكرت بعده لحكمة؟ فقلت: أيها الذكي، أنا موقن أنك تعرف حكماً كثيرة في ذلك. فقال: نعم. ولكني أريد أن تشرح الموضوع شرحاً واسعاً لأنه مهم جداً. فقلت له: أيها الأخ فيم يكون الخلق والتقدير والتسوية؟ قال: في المخلوقات التي حولنا. فقلت: كم أنواعها؟ فقال: هي سماوات وأرضون وما فيهما. فقلت: ولمن تكون الهداية. قال: للحيوان. قلت: إذن لنبحث في أمر الحيوان ثم في أمر النبات لأنه مذكور معه ولكن سابق التفسير مشحون بذكره. فقال: أنا فكرت في ذلك فخطر لي أمر خاص، وهو أن في القرآن عناية خاصة بتسمية السور. فهناك سور سميت بأسماء إنسانية. وسور أخرى سميت بأسماء حيوانات

من ذوات الأربع ، وسور أخرى سميت بأسماء حيوانات من ذوات الحلقات وهي الحشرات ، فهل هذه التسمية عبث ، وعسى أن يكون في التسمية علم نافع . فقلت : نعم . إن في التسمية علماً جماً ، وأنا باحث في ذلك العلم . إن من السور ما سميت بأسماء الأنبياء ومن نحا نحوهم كآل عمران ويونس وهود ويوسف وإبراهيم ومريم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء إذا سميت السور بأسمائهم فذلك لفضلهم ونفعهم العميم ، وشرفهم عند ربهم وعند الناس أجمعين ، ومن السور ما سميت بأسماء حيوانات من ذوات الأربع كالبقرة والأنعام . ومنها ما سميت بأسماء الحشرات كالنحل والنمل والعنكبوت . والعلماء قسموا الحيوان إلى ذي فقرات ومنه ذوات الأربع ، وإلى ذي حلقات ومنه الحشرات والعنكبوت وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود . كل هذا تقدم الكلام عليه في هذا التفسير .

فهذه خمسة أقسام في مقابلة الخمسة التي لذوات الفقرات . وهي ذوات الأربع ومعها الإنسان والطيور والزواحف والضفادع والسمك ، فهذه خمسة أقسام أخرى ، أما الحيوانات الهلامية والشعاعية فأمرها سهل تقدم شرحها في آخر سورة « الحج » .

ولما كان كلامنا في الحق والتقدير والتسوية إلى آخر ما تقدم في الكلام على خشية الله تعالى وجب حصر القول في موضوع خاص يعوزه الشرح والتفصيل أكثر مما تقدم ، ليكون أبهج شرحاً ، وأبدع تفصيلاً ، وأروع تذكيراً وتعليماً . ذلك أن الحيوانات ذوات الحلقات المقسمات إلى الأقسام الخمسة المذكورة أهمها الحشرات ، وهذه الحشرات (٢٠٠,٠٠٠) مائتا ألف صنف . فهل كان يخطر لأحد قبل ظهور هذه العلوم اليوم أن النحل والنمل اللذين سميت بهما سورتان في القرآن يدخلان في مائتي ألف نوع . ذكر الله في القرآن الذباب وذكر العنكبوت . والذباب أيضاً من الحشرات . ثم يقول الله في قوم حقروا ذكر هذه المخلوقات : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦] الخ .

عجباً . هاهنا ذكر الضلال والهدى بعد حشرات قذرة لا قيمة لها . وجاء في سورة « العنكبوت » : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [الآية : ٤٣] بكسر اللام .

هذه أمور عظيمة جداً . وفوق هذا وذاك يقول هنا : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٠] ولا جرم أن الذي يخشى طائفة خاصة هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] فمن هؤلاء العلماء؟ نقرأ الآية من أولها فنجده يوبخ الناس على تقاعدهم عن الفهم فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] ، فهناك في سورة « فاطر » جعل الخشية خاصة بهذه الطائفة الناظرة في هذه العوالم . وهنا ذكر الخلق وما عطف عليه . وختم ذلك بالخشية أيضاً ، ويقول في آية أخرى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] ، فكأنهم لما نظروا جمال

صنعه في الدنيا نظروا جمال وجهه في الآخرة، بلا كيف ولا انحصار، كما حارت عقولهم هنا في جمال صنعه وحكمه العالية. إذن فلنجعل كلامنا اليوم محصوراً في طوائف الحشرات لما تقدم. ولنعلم لماذا نراها تطوف حولنا صباحاً ومساء وتلازمنا ملازمة الظل للشبح، فمن ذباب قذر وبراغيث مؤذيين إلى نحل ودود قز نافعين إلى غير ذلك. فما السر في كثرة هذه الطائفات حولنا؟ وكيف كانت أنواعها أكثر أنواع الحيوانات عدًّا. فلنبحث إذن في أمر خلقها وتسويتها وتقديرها وهدايتها. وكيف تكون محبة الصانع موقوفة على الوقوف على جمال صنعته. ويزداد الحب الذي لا نهاية لمداه، والقرب بازدياد هذا العلم الذي لا نهاية له أيضاً. وعلى مقتضى ذلك الحب تكون خشية العلماء. أما خشية الجهلاء فهي خشية منشؤها الخوف. والخوف إنّما يلازم الجبناء.

فقال صاحبي: حسن هذا البيان. فلنبدأ في شرح عجائب الحشرات بحيث يكون من العلم الذي لم يتقدم له في التفسير نظير. فقلت: نعم. ومن عجب أني في هذا اليوم كنت أقرأ في كتاب بالإنجليزية يسمى « علم الطبيعة » وفيه هذا المبحث الجميل بطريقة شيقة جميلة لم يتقدم نظيرها في هذا التفسير. وإن كان بعض المباحث تقدم مفرقاً. ولكن هذا الأسلوب جميل محلى بالصور مع حسن الإيجاز. ذلك أنه قسم الحيوان إلى ذي فقرات وإلى ذي حلقات. وإلى هلامي. وإلى شعاعي كما قدمناه. ولما أتم الكلام على ذي الفقرات شرع يشرح الكلام على ذي الحلقات، فقال مخاطباً تلاميذه:

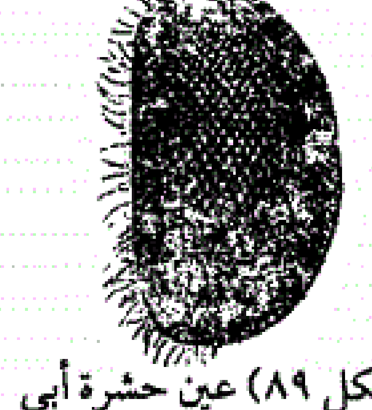
كلكم تعلمون ما معنى الحيوان الحلقي، ثم أخذ يشرحه فقال: إن أجسام المخلوقات من هذا النوع مركبات من حلقات منضمات إلى بعضها، أي: في مقابلة الفقرات في الحيوانات الفقرية، وغاية الأمر أن هذه الحلقات ليست يشبه بعضها بعضاً. ثم أخذ يقسم الحيوانات الحلقية إلى ما ذكرناه هنا قريباً. ثم أخذ يشرح الأنواع الخمسة المذكورة وبدأ بالحشرات وهي المطلوب هنا، فقال: إن الحشرات هي التي لها ستة أرجل ومثل لها بحشرة أبي دقيق.

وهنا أخذ يقص علينا قصص تركيب تلك الحشرات، فقال: إن أجسامها مركبات من ثلاثة أجزاء كما في (شكل ٨٨)، وفي الرأس أيضاً عينان واسعتان تظهران بهيئة الأحجار الثمينة إذا نظرناها بمنظار معظم، فإنها ذات وجوه كثيرة جداً كما في (شكل ٨٩).

إن أرجل الحشرة الست منوطة بقسم صدر الحشرة كما ترى في صورة أبي دقيق، وهكذا الأجنحة الأربعة في حشرتنا المذكورة. والجناحان اللذان تحملهما تلك الذبابة (شكل ٩٠).



(شكل ٨٨) جسم حشرة أبي دقيق (أ) الرأس (ب) الصندوق أو الصدر (جـ) البطن (د) القرنان الحساسان



(شكل ٨٩) عين حشرة أبي دقيق ذات شكل مقسم إلى فصوص بهجة، وهي مكبرة جداً



(شكل ٩٠) الأرجل الست والجناحان منوطان بالصندوق (أ) الرأس (ب) الصدر (جـ) البطن (د) الجناحان

ثم قال المؤلف: إن القرون الحساسة والأرجل والأجنحة وكل ما ماثل ذلك من الأعضاء يسمى «الملحقات»، ولا شيء من ذلك يناط بالبطن، وعلى ذلك نقول: إن البطن مجرد من هذه الملحقات.

فصل في تقسيم الحشرات إلى قسمين

قسم تام التغيرات، وقسم ناقص التغيرات

إن كثيراً من الحشرات يعتريها التغير والاستحالة من حال إلى حال بهيئة أكثر تعقيداً مما يتم للضفادع في أثناء نموها. الضفادع مشروحة في تفسير سورة «البقرة» من أول الطبعة الثانية فما فوقها.

ثم قال للتلاميذ: انظروا هنا (شكل ٩١) حرف (أ) الآتي: هذه دودة أو فراشة تسمى «كتربلر» بالإنكليزية، وقد خرجت حديثاً من بيضة حشرة أبي دقيق، وهي تنمو بسرعة شديدة. وهي تنسلخ من جلدها ٤ مرات، فأما في المرة الخامسة فإن جلدها يكون سميكاً صلباً. وفي ذلك الوقت تغط الحشرة في نوم تام. وفي أثناء تلك الحال تغزل خيوطاً حريرية تجعلها مهداً لها ودثاراً، وتسمى شرنقة أو فيلجة إذ ذاك، ثم إنها بعد ذلك تمزق هذه الفيلجة وتخرج إلى الهواء. وعند تغير جلدها في الحال السادسة تنقلب تلك الشرنقة إلى حشرة ذات أجنحة مطلقة في الهواء وهي حشرة أبي دقيق. إذن لها ثلاثة أحوال. وتغيراتها ست: ٤ منها في حال أن كانت فراشة أشبه بالدودة. وواحدة في حال نومها. وواحدة عند ظهورها حشرة تامة التكوين مستعدة لأن تبيض. حرف (جـ) في (شكل ٩١).



(شكل ٩١)

(أ) الفراشة أو الدودة المسماة بالإفرنجية كتربلر. التغير التام لحشرة أبي دقيق

(ب) الشرنقة (جـ) حشرة أبي دقيق

وهذا القسم هو الذي يقال له تام التغير. فأما القسم الذي يقال له متغير ناقص التغير فهاك أولاً الجندب، فإن ذريته حينما تبرز من بيضتها ـ وهي لا أجنحة لها ـ يعتريها التغير خمس مرات، وفي أثناء ذلك تنمو الأجنحة شيئاً فشيئاً. وفي المرة السادسة يتم خلق أجنحتها وتصير هي جندباً تام التركيب مستعداً للبيض كما كانت أسلافه وذلك دأبه أبداً. ولكن الفرق بين هذا الفريق والذي قبله أن هذا الجندب مثلاً لا يستغرق في النوم كحشرة أبي دقيق، ولا شرنقة له، كما أنه أيضاً ليس يعتريه من التغير ما هو غير مألوف كما في حشرة أبي دقيق، وهذا معنى قولهم: إن هذا القسم غير تام التغير، أو قولهم: إن تغيره جزئي. إن الذباب (شكل ٩٠) المتقدم والخنافس (شكل ٩٢) والبراغيث (شكل ٩٣) والنحل (شكل ٩٤) مندرجات تحت ما هو تام التغير. وهاك أشكالها:



(شكل ٩٢) الخنفساء

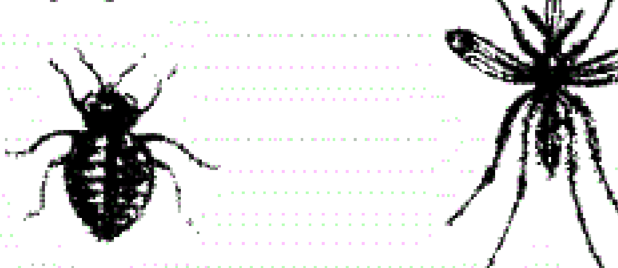


(شكل ٩٣) البرغوث مكبراً



(شكل ٩٤) النحلة

إن أمثال الحشرات الثلاث الآتية :
وهي حشرة الثعبان والناموس المعروف (شكل ٩٥) وبق الأسرّة والفرش (شكل ٩٦) كلها مندرجة فيما هو ناقص التغير.



(شكل ٩٥ الناموس البعوض مكبراً) (شكل ٩٦ بق الأسرّة والفرش مكبراً)

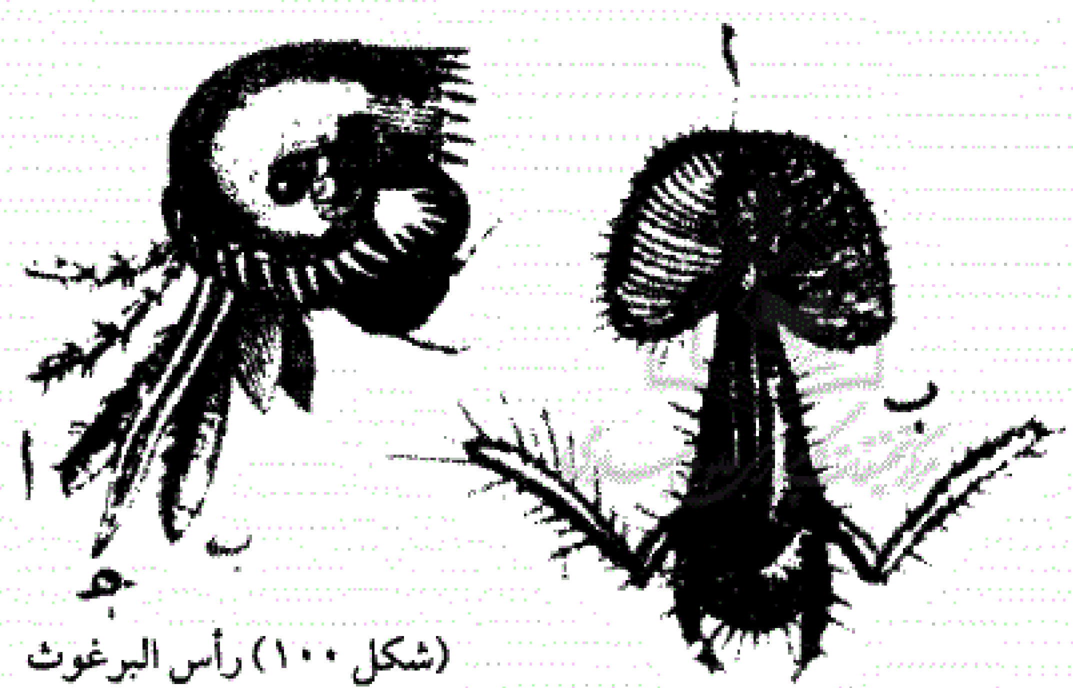
إن فم الحشرات في تركيبه مخالف كل المخالفة لتركيب أفواهنا . ويعبارة أخرى : مخالف لتركيب ذوات الفقرات . إن فكيها يتحركان من اليمين إلى الشمال بدل أن يتحركا إلى أعلى وأسفل ، انظر إلى فم هذه الخنفساء (شكل ٩٧) إنه قوي جداً ، حتى إنها تقدر أن تستحوذ على فريستها من الحشرات الأخرى وتمزقها قطعاً صغيرة وتتغذى بها ، إن هذه الحشرة المسماة « كوكتشفر » (شكل ٩٨) التي تعيش على ورق النبات فكاها ضعيفان . وللذبابة خرطوم « ب » (شكل ٩٩) قوي قصير جداً معد للامتصاص . وللبراغيث والبق شوكات حادات « جـ » (شكل ١٠٠) بها تخترق الجلد لأجل أن تمص الدم من فريستها . انظر هذه الأشكال :



(شكل ٩٧) رأس الخنفساء مكبراً منظوراً من أسفل



(شكل ٩٨) رأس كوكتشفر مكبراً جداً منظوراً من أسفل



(شكل ٩٩) خرطوم الذبابة مكبراً (أ) الآلة الماصة (ب) غلاف تلك الآلة .

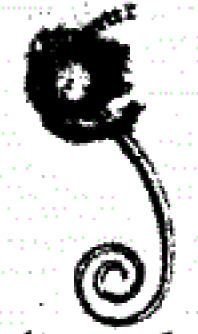
(شكل ١٠٠) رأس البرغوث مكبراً (أ) و(ب) غمد أو غلاف الآلة الماصة (جـ) الشوكة ذات الطرف الحاد .

إن حشرة أبي دقيق لها خرطوم طويل مطوي ملفوف (شكل ١٠١) به تفتح الزهرة وتقتحمها لأجل أن تستحوذ على المادة السائلة الحلوة التي في داخل كأس الزهرة العطرة الرائحة .

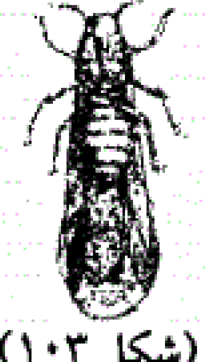
إن عدد أنواع الحشرات على الأرض أكثر جداً من أنواع أي جنس من أجناس مملكة الحيوان الأخرى . إن عدد تلك الأنواع يربو على ١٥٠,٠٠٠ مائة وخمسين ألفاً .

الحشرات قسمان: نافع وضار

فأما القسم النافع منها فذلك مثل دودة الحرير والنحل والحشرة المسماة « كوكهينيل » ، وهي حشرة تستعمل لصبغ اللون القرمزي وهكذا . فأما القسم الضار فذلك كالفراشة ، وهي دودة حشرة أبي دقيق ، وكالحشرة المتقدمة المسماة « كوكتشفر » ، وهكذا حشرات أخرى .


(شكل ١٠١)
رأس حشرة أبي دقيق مكبرة جداً


(شكل ١٠٢)
فيلوكسرا بغير أجنحة مكبرة جداً


(شكل ١٠٣)
فيلوكسرا بأجنحة مكبرة جداً

يقول المؤلف، وذلك كان في أوائل القرن التاسع عشر، بعد ذلك ما نصه: إن أكبر مدمر من الحشرات وأكثرها خطراً، وأعظمها ضرراً، إنما هي الحشرة «المبيدة النبات» التي وطنها أمريكا. وقد انتقلت إلى فرنسا وعاثت في أرضها فساداً. وذلك من نحو ٢٠ سنة. وهي تسمى «فيلوكسرا» وهي حشرة صغيرة جداً، حتى إن المرء قلما يراها بالعين المجردة. هذه الحشرة تعيش على جذور شجر العنب. فكم عاثت فيه فساداً وأهلكت الحرث وأبادته أيما إبادة، حتى إنها لم تبق منه باقية في مدة ثلاث أو أربع سنين.

كيف تغزو هذه الحشرة

هذه الحشرة الصغيرة تتكاثر بسرعة مدهشة جداً. وتجتمع الملايين من الذرية وتأخذ في المهاجمة والغزو على نهج آبائها. وبعد زمن قصير تغادر مستعمرة الآباء الأولين وتسير تحت الأرض بغير أجنحة لتبحث على مستعمرة حديثة لتغزوها بجنودها المجندة منها الجرارة فتفتحها فتحاً مبيناً.

فيلوكسرا التي لها أجنحة

وهناك فيلوكسرا أخرى ذات أجنحة (شكل ١٠٣)، وهي من هذا النوع أيضاً مهلكة مدمرة يحملها الريح وتطير لتضع بيضها في مكان يناسبه. فلا عجب إذن إذا قلنا إن جموعاً كثيرة من هذه الحشرة بقسميها خربت قسماً عظيماً جداً من أشجار العنب في شمال فرنسا، ولم يجد نفعاً في صد غارتها كل ما حوربت به من أنواع المهلكات وصنوف المدمرات بأيدي أمة الفرنسيس وجهاد علمائهم المجدين. وبهذا تم الكلام على الحشرات، والحمد لله رب العالمين.

العنكبوت

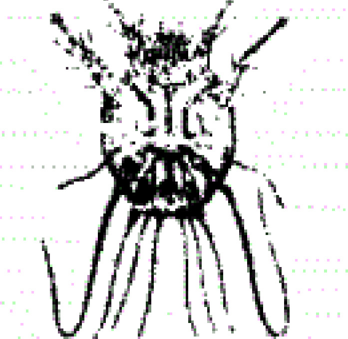
فلنبدأ بالكلام على العنكبوت بعد تمام الكلام على الحشرات (شكل ١٠٤). إن للعنكبوت ثمانية أرجل كما قدمناه. إن الرأس والصدر أو الصندوق قد اتصلا معاً في الجسم، وقد نبتت في ذلك الثمانية الأرجل. ليس للعنكبوت أجنحة، إن للعنكبوت فكين طويلين سميين (شكل ١٠٥) وبهما تثقب وتخدر ثم تقتل الحشرات التي تفترسها.

(شكل ١٠٤)
العنكبوت ذات ثمانية أرجل والرأس والصندوق قد اندمجا معاً.

(شكل ١٠٥)
(أ) خطاف العنكبوت المملوء سماً مكبراً جداً
(ب) الصندوق وقد نظر من أسفل مبيناً أين اتصلت الأرجل.

إن بعض أنواع العنكبوت في أمريكا حجمها بمقدار حجم إبهامي، ومع ذلك تقتنص الطير وتمتص دمه حتى يموت.

(شكل ١٠٦)
عقرب عنكبوتية قد جعلت
أدوات سمها في طرف ذيلها



(شكل ١٠٧)
أتش هي حشرة عنكبوتية
صغيرة جداً لا ترى بالعين
المجردة منظورة من أسفل

أدوات النسج والغزل في جسم العنكبوت

إن أكثر أنواع العنكبوت ذات غدات مكونات في آخر البطن جعلت مصانع للخيوط منها تخرج خيطاً قوياً متيناً دقيقاً جداً في غاية العجب العجاب. ومن هذا الخيط تصنع نسيجاً دقيق الصنعة معقداً.

بعد أن يمد العنكبوت هذا النسيج ـ هذا مشروح شرحاً وافياً مصوراً تصويراً واضحاً جداً في سورة «العنكبوت» وفي سورة «الرحمن» ـ يجلس منتظراً حشرة مسكينة لا علم لها بما خبأه القدر. وما نصب لها من الحبائل والشبك، فبينما هي طائرة تبحث عن قوتها إذا هي واقعة في الحبائل، فتنقض عليها العنكبوت أسرع من البرق وتخدرها بما في سلاحها من السم، ثم تسجنها بلف خيطها الحريري الممتد في الهواء على سجينها.

العقرب العنكبوتي
وعنكبوت يحدث أمراضاً جلدية

إن في الأقطار الحارة تحت الأحجار في الأرض الجافة اليابسة ترى هناك مخلوقات طويلة الأجسام لها نوع شبه بالعنكبوت، والآلتان الحساستان في ذلك المخلوق العنكبوتي لهما آلة كماشة متينة قوية، أو ملقط كذلك، وهاتان الآلتان لا تغزلان. فأما الغدة التي يكون فيها السم فإنها بدل أن تكون في الفم عند طوائف العنكبوت؛ قد جعلت هنا في نهاية الذيل، وهذه تسمى عقرباً (شكل ١٠٦) المتقدم. ولدغات هذه العقارب العنكبوتية تحدث في أجسام الناس حمى، وفي أجسام الحيوان موتاً. وهناك حشرة أخرى تحدث مرضاً مبغضاً يسمى مرضاً جلدياً، وهي حشرة صغيرة جداً (شكل ١٠٧) المتقدم، وهي نوع من العنكبوت، قلما ترى بالعين المجردة. وهذه تحدث تحت الجلد ثلمة تكون سبباً للمرض الذي ذكرناه.

لقد كان الناس من قبل يظنون أن ذلك المرض الجلدي ليس له سبب من خارج، وما هو إلا أن الدم غير نقي فيأخذون في المداواة بنحو الفصد للمريض المسكين بحماسة وثقة أنه دواء لهذا المرض المشين، وفي النتيجة لا نجاح. ولقد ثبت الآن ثبوتاً قاطعاً أن سبب ذلك المرض إنّما هو وجود هذه الحشرة تحت الجلد. إن دلك محل المرض الذي فتكت به تلك الحشرة بما يسمى «مرهم الكبريت» أو «دهن الكبريت» كاف لطرد ذلك المرض.

ثم قال الكاتب: انظر كيف ينفع العلم حتى في هذه الأشياء الصغيرة. وكيف عرفنا العلم عدونا فاجتنبناه.

الكلام على ذوات الأرجل الكثيرة

هذه الحشرات أقل ما لها من الأرجل ٢٠ زوجاً. انظر (شكل ١٠٨)، إن رأس هذه الحيوان منفصلة عن جسمه. إن جسم هذه الحشرة لا صدر له ولا بطن مثل ما للحشرات وللعنكبوت. وإنّما هو سلسلة من حلقات، وكل واحدة من هذه الحلقات تحمل زوجاً واحداً من الأرجل أو زوجين بحسب اختلاف أصناف هذا النوع.

(شكل ١٠٨) ذات الأرجل الكثيرة المسماة بمصر أم أربعة وأربعين

ولقد تقدم في هذا التفسير الكلام على ذوات الأرجل الكثيرة بأوسع من هذا.

الحيوانات القشرية أو الصدفية

إن كل ما شرحناه هنا من الحيوان لا يخرج عن دائرة الحيوان الهوائي الذي يعيش فوق الأرض، والحيوان الذي نحن بصدده بعكس ذلك، فهو يعيش في الماء، فمن ذلك السرطان البحري (شكل ١٠٩) الآتي، وهو يعيش في الأنهر، والسرطان المعروف (شكل ١١٠)، وهكذا حيوانات أخرى من هذا القبيل كلها حيوانات مائية، ولما كان جلد هذه الحيوانات قشرياً صدفياً أطلق عليها اسم الحيوانات القشرية أو الصدفية، وذلك مأخوذ من كلمة لاتينية وهي «كراستا» أي: «كراست»، وهو القشر أو الصدف.



(شكل ١٠٩)

السرطان البحري من الحيوانات القشرية أو الصدفية



(شكل ١١٠)

السرطان المعروف من الحيوانات القشرية أو الصدفية

إن كثيراً من الحشرات مثل ذبابة الثعبان «دركون فلاي» تكون حيوانات برية بحرية، وعيشها في الماء يكون في زمن صغرها، ومن جهة أخرى نرى أن من الحيوانات القشرية السرطان البري كثيراً ما يعيش على البر، ويتنفس بالهواء، ولكن الحيوان المسمى بقمل الخشب من هذه الحيوانات لا يتنفس إلا وهو في الهواء، ولا يعيش إلا على الأرض.

الدود

هذه الحشرة ليست لها رأس منفصلة عن جسمها، ولا درع لها يقيها أو زردية، وليس لهذا النوع ما لبقية الحيوان من أرجل ذات مفاصل، بل كان لها بدل ذلك هلبات جمع هلبة أو أدوات ماصة تقوم بحركة التنقل أيضاً، إن ما تسمى دودة الأرض خير ما عرفه الناس من هذا النوع. فانظر فهاهي ذه دودة قطعت نصفين حينما كان البستاني يعزق في الحديقة بفأسه، وإذا وضعت هذين النصفين في

إناء الزهر مع طين رطب دائماً (شكل ١١١)؛ فإنك في مدة أقل من سنة تجد دودتين تامتين فالنصف الذي فيه الرأس ينمو ويكون له ذيل، والنصف الذي فيه الذيل ينمو حتى تكمل الدودة بالنصف الآخر، إن الدود المسمى بالفرنجية «ليتش» هو العلق بالعربية، والعلق الطبي نوع منه له آلة ماصة (شكل ١١٢)، وبهذه الأداة تثبت الدودة جسمها فيما يتعلق به، كما أن ما ينفع طبياً منه أعطي أسناناً قوية بها تقدر الدودة أن تثقب جلد الإنسان



(شكل ١١١) في أقل من نصف سنة تجد كل نصف من النصفين دودة تامة



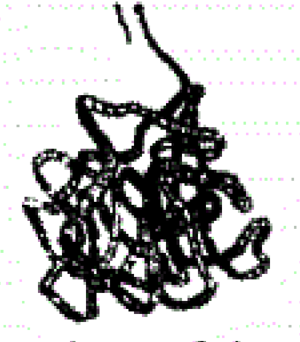
(شكل ١١٢) الآلة الماصة للحشرة المسماة «ليتش» وهي العلقة بالعربية منظورة من أسفل

إن النوعين السابقين وهما الدود والعلق بقسميه الطبي وغيره كلها تعيش فوق الأرض وفي الماء العذب والملح، إن من الدود ما يكون تركيبه بهيئة أنبوبة أرضية أو حجرية مشاكلة لما يعيش فيه ويتركب منه.

إن الدود المسمى «الدود الباطني» وهو الذي يعيش في أجسام الحيوانات الكبرى دائماً أبيض، وليس الإنسان ناجياً من فتكه.

الدودة التي تشبه دودة الأرض والدودة الشريطية، ومن الدودة نوع يشبه دود الأرض المتقدمة، وهذا الشبه لا يشمل لونها.

ونوع آخر يسمى الدودة الشريطية، إنها ترى بهيئة شريط طويل مقسم إلى حلقات (شكل ١١٣)، وقد يصل طولها ٢٠ ياردة. وفي نهاية طرف الدودة المسنون المحدد يمكننا أن نرى بمساعدة المنظار المعظم رأساً صغيرة جداً (أ)، وهذه الرأس قد أمدت بأداة ماصة وبخطاف أو كلاب. إن نوع الإنسان وكل حيوان من الحيوانات التي تأكل اللحم؛ مزارع وحقول خصبة تعيش فيها هذه الدودة الشريطية، إن تاريخ هذه الدودة حقاً لفي غاية العجب.



(شكل ١١٣) الدودة الشريطية بنفس حجمها (ا) الرأس وقد تصل هذه الدودة عشرين ياردة

ألم تر كيف كانت كل حلقة من حلقاتها الكثيرة مملوءة بالبيض، وفي وقت ما قريب أو بعيد تنتثر هذه الحلقات على الأرض ويعتريها الجفاف، ولا جرم أن ما اشتملت عليه من البيض بعد أن ألقيت تلك الحلقات على وجه الأرض يصبح مفرقاً مبدداً منتشراً بعد أن كان مجتمعاً في الحلقات.

فإذا كانت تلك الأرض مراعي ومزارع وطافت بها الحيوانات آكلات الحشائش كالبقر والجاموس وأخذت تأكل العشب والكلأ؛ فقد يدخل في أجوافها مع تلك الحشائش بعض هذه الدودة المنتشر المنبث فيه، ولا جرم أن هذا باب آخر لانتشار ذلك البيض المستكن فيه الموت الزؤام. ولا يكاد

هذا البيض يدخل معدة هذا الحيوان المجتر حتى يفقس ويخرج منه دود صغير للغاية . ولا يكاد هذا المخلوق الجديد يظهر حتى يسعى فيدخل في أمعاء ذلك الحيوان المجتر الذي ابتلعه . ثم يختار له مسكناً يأوي إليه . وبعد ذلك ينمو على طرف جسم هذه الدودة ما يشبه الكرة في شكله ، وينتفخ وتختفي الدودة في ذلك الانتفاخ ولا يظهر منه إلا رأسها .

ولا جرم أن هذه الرأس مشابهة تمام المشابهة للرأس المعروفة للدودة الشريطية (شكل ١١٣) المتقدم .

وهذه الكرة المنتفخة التي تشتمل على أكثر جسم الدودة الشريطية حينما تنمو تحت جلد الخنزير يحصل له ما يسمى مرض الحصبة .

ثم إن هذه الدودة الصغيرة تبقى في مقرها أمداً طويلاً حتى يتاح لها كلب أو إنسان يأكل قطعة من لحم الخنزير ـ تعيش فيها دودة مكورة من هذا النوع أو أكثر ـ وهي نيئة أو مطبوخة طبخاً غير جيد . فهنالك تهضم تلك الكرة التي اندمجت فيها الدودة . أما الرأس فإنه لا يهضم ولو كان الطعام مملحاً أو مدخناً ، ومتى بقي الرأس كان وحده رأس البلاء . فهناك تنمو عليه حلقة وتتلوها أخرى ، وهكذا . وحينئذ يقال : إن هذا الإنسان أو الكلب قد مرض بالدودة الشريطية والويل له إذ ذاك لذلك المريض . هذه هي سبيل حياة الدودة الشريطية المعقدة .

ثم قال المؤلف : إن في دراسة تاريخ الحشرة الشريطية علماً ونوراً مبيناً يوجب علينا أن نحترس جد الاحتراس من أكل ما لا يوافق الصحة من لحم الخنزير . (الحمد لله ، إن الإسلام حرمه فلسنا نحن المسلمين في حاجة إلى هذه النصيحة) .

قال : وبعبارة أقرب ألا نأكل منه إلا ما كان مطبوخاً طبخاً تاماً . فإن الطبخ المعتاد الذي لا مبالغة فيه لا قوة له على التأثير في هذا الحيوان الطفيلي الثقيل . انظر (شكل ١١٤) .

منذ ٢٥ سنة قد كشفت دودة لا ترى بالعين المجردة . وهذه أيضاً لا تعيش إلا في لحم الخنزير يسمونها « تريتشنا » (شكل ١١٤) . إن هذه الدودة أصبحت عادية في بلاد أمريكا ، وفي بلاد الألمان .



(شكل ١١٤) (أ) قطعة من لحم الخنزير المشتمل على الدودة المسماة « تريتشنا » مكبرة جداً . وعند (ب) يرى الدود الصغير مدفوناً في أجزاء اللحم ، وهو عند (أ) حر مطلق السراح

فإذا ما كان لحم الخنزير المشتمل على تلك الدودة الصغيرة غير مطبوخ طبخاً جيداً وأكل منه إنسان مثلاً ؛ فإن الدود الكثير العدد الذي اشتمل عليه هذا اللحم إذا وصل إلى الأمعاء ألقى بيضه فيها ، ومتى فقس ذلك البيض تفرق في الجسم وكان سبباً في ألم لا يطاق وحمى مميتة لا يستطيع الإنسان طاقتها لشدتها المتناهية .

ملخص هذا المقام: الحيوانات الحلقية

إن من الحيوانات قسماً عظيماً يسمى بالحيوانات الحلقية. وهو مكون من حلقات متتابعات مندمجة اندماجاً تاماً. إن هذا النوع ينقسم إلى الحشرات والعناكب وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود.

الحشرات: الحشرات لها ستة أرجل. وبعضها تغيره تام. وبعضها ناقص التغير، أي أن تغيره جزئي. وأول القسمين أشد تعقيداً من تغير الضفادع. مثلاً حشرة أبي دقيق متى فقس بيضها خرج منها فراش، أي: دود كبير، وبعد تغير جلد الفراشة أربع مرات تنام نوماً عميقاً. وتزمل جسمها أثناء نومها بخيوط غزلها، وتسمى إذ ذاك شرنقة، ثم تخلع ذلك وتصير حشرة أبي دقيق تامة التكوين. فهذا هو المسمى بالانقلاب التام. إن الذباب والخنافس والنحل والبراغيث داخلات تحت هذا القسم وهو التام التغير. أما الجندب والمسمى ذباب الثعبان والناموس والبق، فهذه من القسم الثاني، وهو جزئي التغير.

إن أصناف الحشرات أكثر المملكة الحيوانية عدداً، فهي فوق مائتي ألف صنف، إن حشرة «الفيلوكسرا» المتقدمة من الحشرات التي لا ترى بالعين المجردة. إنها تعيش على جذور الكرم وتمتصها حتى تدمرها تدميراً غير مكترثة بما يقابلها به الإنسان من السلاح والكراع. وبكل ما استطاع من قوته. إن نحو مليون فدان من الكرم قد دمرت تدميراً في القارة.

العنكبوت: للعنكبوت ثمانية أرجل، وبالقرب من الفم كلاب متين به يقتنص الفرائس من الحشرات ويخدرها ويميتها ويغتذي بها. وفي نهاية بطن العناكب غدة ممتلئة بمادة حريرية تصير عند مقابلة الهواء خيوطاً عجيبة دقيقة جداً منها تصنع نسيجاً محكماً. إن في جنوبي أوروبا وفي جميع الأقطار الحارة مخلوقات لها شبه ما بالعنكبوت، وهذا المخلوق يسمى «عقرباً» وحمته «أداة اللدغ» تكون في آخر طرف ذيله، تحدث حمى شديدة للإنسان الذي بها يصاب، وهناك مرض جلدي خبيث يحدثه نوع من العنكبوت لا يرى بالعين المجردة. وهذا يحدث في جلد الإنسان قروحاً تحت الجلد بها يكون المرض الخبيث.

ذوات الأرجل الكثيرة؛ وهي المسميات: أم أربعة وأربعين: هذا الحيوان وإن لم يكن له ألف رجل كما يقتضيه اللفظ اللاتيني فإنه ذو أرجل كثيرة وجسمه مركب من حلقات متصلات.

ذوات القشور والأصداف: منها السرطان المائي الذي يعيش في الأنهر، والسرطان المعتاد وهكذا، كل هذه الأنواع مائية، أي: تعيش في الماء، وجلدها قشري صدفي ومنه اشتق اسمها.

الدود: الدودة إذا قسمت نصفين ووضعت في الطين المبلول دائماً فإن كل نصف منهما في أقل من سنة يصير دودة كاملة لها ذيل، فالنصف الذي فيه الرأس يكمل بالذنب، والنصف الذي فيه الذنب يكمل بالآخر، إن الدودة الشريطية تظهر بهيئة شريط طويل ذي حلقات كثيرة، وهذه تصيب الإنسان وبعض الحيوان. وهناك دودة أخرى تسمى «تريتشنا» صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة، وتعيش في لحم الخنزير، وإذا أردنا إهلاك هذه الحشرة فعلينا أن نطبخ لحم الخنزير طبخاً جيداً، ولنحترس من أكله إلا بعد ما نتحقق تمام الإنضاج. وبهذا انتهى ما أردناه من وصف هذه الحيوانات الحلقية.

فقال صاحبي: حسن جداً هذا البيان وجميل، ولكني أخاف أن من قرأه بعد هذا التفصيل ينسى أننا في تفسير القرآن. وبعبارة أخرى: ينسى أنك تريد بهذا البيان أن تعرف كيف أتبع التسبيح بالخلق والتسوية والهداية وإخراج المراعي والأمر بالقراءة وعدم النسيان والتيسير. وأن الذي يخشى هو الذي يتذكر. إن المقصود مما تقدم من هذا الشرح الجميل إنّما هي معاني القرآن الكريم. ثم قال: إنني على حق إذا قلت: يا الله أمرتنا بالتسبيح، وأن نعتقد تنزهك في إنعامك عن الشر والإضرار وإحداث الأذى، فكيف السبيل إلى ذلك؟ وهانحن أولاء نرى الفتك بمزارعنا من القطن بمصر وأمريكا بهذه الحشرة الفتاكة، وهي حشرة أبي دقيق، تلك الحشرة التي تتفيأ ظلالنا، وتسكن في قصور خضر من أوراق قطننا الذي نقوم بزرعه وسقيه وحفظه من كل مكروه، فضلاً عما أمددتها به أنت يا ربنا من السلاح والكراع، ومكنتها بخرطومها الطويل الملتف من امتصاص الرحيق المختوم في أزهاره. ثم تكون لها ذرية تملأ السهل والجبل فتفتك بقطننا، وتجعلنا عبرة للمعتبرين. وفريسة للطامعين، بقلة ما نجنيه، وضياع ما نبغيه، وليس ما أصاب الأمتين المصرية والأمريكية من تدمير أشجار القطن بأقل مما أصاب أمة فرنسا من تدمير الكروم وضياع ثمرات الفلاحين من الأثمان الغالية للكرم، وهم حيارى يقولون: إنا لمغرمون بل نحن محرومون. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن من هذه الحشرات ما تخطت نباتنا وأشجارنا وهاجمتنا في أجسامنا فأعملت فيها السلاح من الأسنة المشرعة المتينة الحادة القوية التي أمددت أنت يا ربنا بها أمم البراغيث والبق والناموس. ومن تلك العقارب العنكبوتية المحدثة في أجسامنا أمراضاً لا يخلصنا منها إلا مرهم أو دهن الكبريت، ولم نعرف ذلك إلا بعد اللتيا والتي، فهذه يا ربنا مخلوقاتك مسلطة علينا بالأذى ونحن فريسة لها في كل حين.

فلما أتم كلامه أجبته قائلاً: أيها الأخ قد خيل إلي وأنت تقص قصص الغزوات التي يغزوها الحيوان للإنسان ولما له من الحقول كأن رب العزة فوق عرش عظمته قد كشف الحجب بيننا وبينه ــ وهذا مجرد خيال ــ وأشرقت الأنوار من سرادقات العرش، وأشرقت السماوات والأرض بأنوار جماله، وألقى الخطاب لخواص الحكماء فيقول: أي عبادي، ليست حقائق الأشياء شرعة لكل وارد، ولا يرد عليها إلا الواحد بعد الواحد. أنتم يا عبادي لا تزالوا مختلفين مضطربين في آرائكم وعلومكم ودياناتكم، لأنكم في عالم المادة، والحقائق فوق ما تعلمون.

هذا خلقي وتقديري وهدايتي لمخلوقاتي، وأنتم أزواج ثلاثة: جماعة لا يقرؤون ويعيشون وهم لا يعقلون، وجماعة يقرؤون الخلق والتقدير والتسوية والهداية للحيوان ونظام النبات ولكنهم ينسون، وآخرون يقرؤون وهم لا ينسون. فأما أكثر الناس فهم من الفريق الأول، يعيشون محمولين على أجنحة الفريقين الآخرين. وهم العلماء أولاً والحكماء ثانياً. وهؤلاء هم الفريق الأول، فأكثر نوع الإنسان غافل ساه يقلد القسمين الآخرين ويكتفي بظواهر الديانات. وهؤلاء عن الحقائق محجوبون. والقسم الثاني هم جميع العلماء الذين نسبتهم إلى الحكماء كنسبة الصناع والفعلة والزراع والتجار إلى العلماء، إن في كل أمة رجالاً لمعرفة ظواهر الدين، وآخرين لعلوم اللغات، وآخرين لعلوم الرياضيات كالفلك والحساب والهندسة وغيرها، والطبيعيات كالنبات والحيوان والإنسان، وهؤلاء

أشبه بعمال عند الذين هم أعلى منهم وهم الحكماء، فهذه الطبقة المتوسطة الذين برعوا بالعلوم الجزئية آباء الطبقة التي قبلهم وأبناء طبقة الحكماء، فهؤلاء هم الذين يقرؤون وينسون لأنهم لا يفكرون، ولا يبحثون فيما وراء هذه الظواهر التي تبدو من ظواهر الحشرات وما معها، فهم يرونها تميت الإنسان وتهلك زرعه تارة، وتسقيه العسل وتلبسه الحرير وتعطيه الصبغ القرمزي أخرى، وتهاجمه وتناصبه العداء آونة، كل ذلك لا يعقله القسمان المذكوران، لا علماء الأمم ولا مقلدوهم من الجهال، وإنّما هؤلاء يقدرون أن يحترسوا من تلك الحشرات ويحاربوها ويداووا من جراحاتها، أما الوقوف على السر في هذه المتناقضات؛ والسبب في هذه المناورات؛ فإنهم عن سمعها محجوبون، وهذه درجتهم عندي في كتابي المحفوظ. أما طائفة الحكماء، وهم خلاصة الأمم بعد الأنبياء، فهؤلاء هم الذين يفهمون عني ما أفعله كما يفهمون ما أقوله، وهؤلاء أقول لهم بحق: أي عبادي المخلصين: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾[الرعد: ٢٤]، لو أنني لم أخلق في هذا العالم إلا الخير؛ وجعلت جميع الحشرات تفعل ما فعلته النحل بعسلها ودودة القز بحريرها؛ ولم يعتركم النقيضان؛ لكانت حالكم أقل من حالة الحشرات، خلقت فيكم اللذة والألم، فلو أني لم أُتمّ فيكم إلا قوة اللذة، وأنمتكم على فراش الراحة الوثير لهلكتم مع الهالكين، ولكني أثرت فيكم ثائرتي الألم واللذة فجعلتهما كجناحي الطائر ورجلي الإنسان ويديه، لولاهما لأصبح الإنسان كعلقة في الطين، أو فراشة في ماء مهين، ليست اللذة ولا الألم مقصودين، إن هما إلا جناحان بهما تطيرون، أنتم من عالم المادة ولا سبيل إلى ولوجكم العالم العقلي إلا بأمر واحد هو الجد والعمل والتفكير، ولن يكون ذلك كله قط إلا بما يوجبه، وهو الضدان: اللذات والآلام، أنا لم أخلق الألم فيكم عبثاً، أنا خلقته فيكم لتنتفعوا به في رقيكم كانتفاعكم باللذات، هما عاملان قويان لرقيكم.

أي عبادي الحكماء، أنا قد كشفت لعقولكم أن هذه المادة كسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فالعلماء يوضحون للعامة ليعيشوا، فيرون أن ظواهر المادة نقمة وعذاب، ولكن أنتم الذين كشفت عن عيونكم الغطاء وأطلعتكم على الحقائق، فقرأتم ولم تنسوا ما قرأتموه، بل وصلتم إلى ما وراء هذه الحجب والظواهر؛ فألفيتم بدائع ورحمات محتجبات وراء هذه الظواهر، وأخذتم تشربون من رحيق مختوم ختامه مسك، فأنتم في ذلك تتنافسون، فترون بهجة وجمالاً وحسناً في التزويق والنقش والتصوير، وكأن تدركوا بهجة هذه العيون التي في الحشرات، تلك العيون التي تعد بالمئات والألوف للحشرة الواحدة، كل عين منها تنظر نظراً مستقلاً.

هذا المقام مشروح في سورة «النمل» تحت عنوان «رسالة عين النملة»، فقد ثبت هناك عن العلماء لا سيما علماء النمسا وألمانيا في أول هذا القرن أن كل عين من عيون الحشرة التي تقدم رسمها مقسمة إلى مئات العيون التي رأيناها في الصورة الشمسية، وقد كان المؤلف يحسب أن تلك الفصوص في العين ما هي إلا زينة كزينة الأحجار الثمينة، وهو قد ألف الكتاب منذ قرن ونيف، أما الآن فقد ثبت أن هذه عيون مستقلة، لكل عين مناظرها، ولكل عين أعضاؤها الخاصة الواضحة في سورة «النمل» كما قدمناه.

أي عبادي، إن الناس لا يزالون مختلفين في دياناتهم، وفي علومهم، وفي أحوالهم، وكل حزب بما لديهم فرحون، إلا من رحمتهم، وهم الذين أدركوا الرحمة العامة في الخيرات والنعم، فهؤلاء يدركون الرحمات في هذه المتناقضات، ولن تقعد بهممهم اللذات، أو تصدهم عن إدراك تلك الحقائق الآلام، فعقولهم تشرق إشراق الشمس في رائعة النهار، وهم هم الذين يعقلون عني ما ألقي في روعهم بإلهام، فأقول: لئن ردعت الفلاح المصري والأمريكي بتدمير قطنه بحشرة أبي دقيق وفتكها به وتدميرها مئات الألوف بل الملايين من الأفدنة؛ وأبدت مئات من ألوف الفدادين أيضاً من الكرم في فرنسا؛ وأوقعت العداوة والبغضاء بين أرباب الأموال وعمالهم القائمين بالصناعات القطنية والزخارف الحريرية في قارتي أمريكا وأوروبا؛ وعممت الكساد في تلك الصناعات زمناً ما؛ وفعلت مثل ذلك في منتجات الكرم، فأسلط الأمراض والفقر واختلال القوى العقلية وانتشار الفساد في الأسرات بين الرجل وزوجته وبين الأخ وأخيه بما يكرعون من بنت الحان، وما يدمنون من المسكرات الناجمات من حدائق العنب؛ لئن فعلت ذلك بهؤلاء وهؤلاء؛ ليكونن ذلك مني تذكيراً ووعظاً وحكمة وإيقاظاً لغفلتهم وهم ساهون لاهون.

إن زراعة القطن مثلاً وزراعة الكرم ـ وإن كان الأول ملابس والثاني فاكهة ـ لا غنى للإنسان عنهما، قد تمادى الإنسان فيهما فصرف أكثر محصولهما فيما ليس من الضروري لحياة الإنسان، ليس الخمر ضرورياً له بل هو ضرر عظيم كما ألقيته في روع العلماء القائمين بمنع المسكرات، وهكذا كثير من الصناعات المستخرجات من القطن، قد جعلت من المشجعات على إتقان الآلات الحربية المدمرات لنوع الإنسان، أو على التباهي والتفاخر بالزينة الحريرية المستخرجة من القطن المصري، وقد أصبح الناس في جميع ما قدمناه ساهين لاهين غافلين مكبين، هؤلاء على زروعهم وهؤلاء على خمرهم وسكرهم، وهؤلاء على زينتهم وزخرفهم، ونسوا أن هناك صنائع أخرى، وهناك علوم، وهناك معارف، وهناك حياة مملوءة نشاطاً.

إني إذا فعلت ذلك بهذه الأمم لم أفعله لاعباً أو غافلاً، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان: ٣٨]، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وإنما أوقعت العداوة بين أرباب الأموال والصناع في القطن مثلاً. وأوقدت نار الشحناء والنزاع بين شاربي الخمور، وأوحيت إلى حشرة أبي دقيق أن تدمر قطن المصريين والأمريكيين، وإلى حشرة فيلوكسرا أن تدمر عنب الفرنسيين لأوقظهم من غفلتهم. وضربت طيرين بحجر واحد، فلم أنزل من السماء ناراً تهلك زرعهم لأني رحيم، فمن الرحمة أن أداوي الداء بالداء كما يقول شاعركم:

من يعتصم بإله العرش يحفظه فهو الحكيم يداوي الداء بالداء

بل أخلق تلك الحشرات وأكثرها جداً حتى تتغلب على ما تقذفون عليها من المدمرات، ليكون في إبادة القطن والكرم مثلاً حياتين: حياة جسمية لهذه الجيوش الجرارة التي خلقتها برحمتي، وأيدتها بالسلاح والكراع، وأمددتها بالقوى والقدر، وأسبغت عليها نعمتي بالأعين الكثيرة التي تعد بالمئات والألوف. وحياة روحية للزارعين وعمال الصناعات والمستهلكين.

ضرب مثل لتدمير القطن والعنب بإحداث الخراج في جسم الإنسان

فهاأنا ذا أصنع مع هؤلاء ما أصنعه في أجسام الإنسان، فإني أبني فيها ثكنات لجنودي الجندة التي تسمونها أنتم الكرات البيضاء، وثكناتها تسمونها أنتم الخراريج والدمامل جمع خراج ودمل، وإن هي إلا ملتقى الجيوش الجرارة التي تهاجم أجسامكم، وتدخل من مسام جلودكم، لتوردكم موارد حياض الموت، فيلتقي الجمعان في تلك الثكنات، وتقوم الحرب على ساقها، ويشتد الخطب، ويعظم الكرب، وترتفع الحرارة وهي «الحمى»، وما هي إلا ازدياد الحرارة لإبادة ما في الجسم من ميكروبات ضارة تطهيراً له منها وإراحة لأجسامكم.

فأما الجيشان المهاجم من الخارج والمدافع من الداخل؛ فإن الصرعى من الفريقين يصيران قيحاً خارجاً من الدمل والخراج، فإذا شفي الجرح صارت أجسام أولئك القتلى رتقاً لفتق الجرح وسداً لثلمته والتئاماً له، وإصلاحاً لظواهر الأجسام وبهجة الجمال. تقدم هذا مشروحاً مصوراً بالصور الشمسية في سورة «الفتح» عند آية: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[الآية: ٧].

إن هذه الطائفة الحكيمة من الإنسان هي التي تفهم ما أصنعه في أجسام الناس وفي حقولهم. وهؤلاء هم الذين يفهمون قولي: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]، فأنا المربي الأعلى. أربي الأمم وأربي الأفراد بنوعي الخير والشر والضر والنفع. إن هذه الطائفة الحكيمة من عبادي هي التي تفهم معنى التسبيح في قولي: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]، وتفهم أن ذلك تربية عالية، فليست تربيتي لعبادي كتربية الأم لولدها، ولا الأستاذ لتلميذه، أنا فوق ذلك أراقب النفع العام الذي يقصر عن إدراكه الآباء والأمهات والمدرسون، وهي التي تفهم التسوية والتقدير والهداية، وهم الذين يقرؤون ولا ينسون، ويفهمون رحمتي وعلمي وحبي لمخلوقاتي ولطفي بهم وإسعادي، وهم الذين من دون عبادي أنزلت في القرآن أنهم يذكرونني ويخشونني خشية المحبة. وأولئك هم أولو الألباب. اهـ.

هذا هو نهاية الكلام على سورة «الأعلى»، وقد كتبت ذلك في منتصف ليلة السبت ١٧ رمضان سنة ١٣٥٢هـ، ١٤ يناير سنة ١٩٣٣م، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الغاشية

هي مكية

آياتها ٢٦، نزلت بعد سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) ﴾

تشتمل هذه السورة على مقصدين:

الأول: في وصف أهل الجنة والنار، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾.

والمقصد الثاني: في ذكر عجائب الصنعة الإلهية، وذلك من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها، وهي القيامة، وجهنم وأهوالها، و«هل» بمعنى «قد»، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ذليلة، وهي وجوه الكفار لما يظهر عليها من الحزن والكآبة، ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أما عملها فإنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جر السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وأنها ترتقي دائباً في صعود من نار وهبوط في حدور وما أشبه ذلك، والمراد بالوجوه أصحابها، وخصت بالذكر لأن مظاهر السرور والكآبة تظهر

فيها، فهي مرآة الإنسان. فإذن أصحاب الوجوه أذلاء عاملون تعبون في أعمالهم، وقوله: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي: تدخل نار قد أحميت مدداً طويلاً، فلا حر يعدل حرها. ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ من عين ماء قد انتهى حرها. وهذه الضمائر للوجوه المراد بها أصحابها. ثم قال: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ هو نبت ذو شوك لاطئ بالأرض تسميه قريش «الشبرق» ترعاه الإبل مادام رطباً، فإذا يبس سموه الضريع، فلا تقر به دابة ويكون فيه خبث وبشاعة، أي: إن طعامهم تتحاماه الإبل ولا تقربه لضره وعدم نفعه. ولما كان المقصود من الطعام دفع الألم الذي يحس به الإنسان، وهذا الألم ليس مقصوداً لذاته، بل هو لأجل حث الإنسان والحيوان على إدخال ما خسر من جسمه بالتحليل ليقوى الجسم بالأغذية فتتحول دماً فيتمثل الدم بجميع الأعضاء فيكون السمن؛ أردفه بقوله: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ وهما القاعدتان المترتبتان على تعاطي الطعام.

ولما أتم الكلام على الكافرين أعقبه بالكلام على المؤمنين ونعيمهم فقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ ذات بهجة متنعمة في لين العيش، ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ راضية بعملها وطاعتها. لأنها رأت النتائج الحسنة والكرامة والثواب ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ عالية المكان والمقدار، والمراد بالوجوه أصحابها كما تقدم.

ورد في الآثار: أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، كل درجة كما بين السماء والأرض، وهذه العظمة والملك قد ظهر ما هو كالدليل عليهما في علم الفلك، انظر ما نقلته عن «فلامريون» في سورة «آل عمران».

ثم قال: ﴿ لَّا تَسْمَعُ ﴾ الوجوه ﴿ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أي: لغواً، أو كلمة ذات لغو، أو ذاتاً تلغو، فإن كلام أهل الجنة كله يرجع الحكم والذكر والعلوم الجميلة. ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يجري ماؤها لا ينقطع، والتنكير للتعظيم، ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ فيها أسرّة مرفوعة المقدار ليرى المؤمن وهو جالس ما خوله الله من النعيم، ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ جمع كوب، وهو إناء لا عروة له، ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ على حافات الأنهار الجارية، كلما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة، وهكذا أهل المعارف في الدنيا ينالون فيها ما يشتهون، وهو زيادة الحكمة والعلم التي تلذ لهم في الدنيا أكثر من لذة الشراب، فإذن تكون معدة لهم طرقها ومسهلة لهم أكثر من سهولة تعاطي الأكواب المحضرة على حافات الأنهار، ولكل من أهل الجنة درجات مما عملوا، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أي: وسائد ومرافق، جمع نمرقة، قد صف بعضها إلى بعض، ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الزرابي: البسط العريضة والطنافس التي لها حمل، واحدتها زربية. ومعنى مبثوثة: مبسوطة، أو متفرقة في كل بقعة واحد منها. هذا هو المقصد الأول من السورة.

المقصد الثاني: عجائب الصنعة الإلهية

اعلم أن ما ذكر في الجنة وفي النار دل على نعم عظيمة ونقم هائلة، وعوالم شاسعات، بعضها للتعذيب وبعضها للتكريم. ولما كان وصفها لا تسعه العقول ولا تدركه الأبصار؛ أراد الله أن يذكر الناس بما حولهم من العجائب، فإنها ضيقة إذا لم يفكروا إلا فيما يأكلون ويشربون، بحيث لا يرى

الإنسان سعادة إلا فيما وصل إليه، ولا شقاوة إلا فيما أضر به، وقد غاب عقله عن هذه العوالم الشاسعة البديعة الأطراف الواسعة الأكناف.

واعلم أن الإنسان في نفس هذه الدنيا إذا حصر عقله في شهواته الخاصة سواء أكان من المتعلمين أم كان من الجهلاء فإنه يكون كالمحبوس المضنوك المقهور، وهذا أقرب إلى أهل النار، فأما إذا وجد من أفهمه أن في هذا العالم المحيط بنا جمالاً وحكماً ونعماً وبدائع تبتهج بها العقول؛ فإنه يدخل في نعيم عقلي لا يفهمه الذين حوله من الجهلاء، ولا من المتعلمين الناقصي التعليم، فهؤلاء جميعاً قد حبسوا نفوسهم فيما يسيء ويلذ حواسهم، وغفلوا عما أحاط بهم من أفلاك بديعة وأرض جميلة، وحيوانات شريفة لطيفة. ومن أدرك عجائب هذه الدنيا أحس بنعيم روحي في هذه الحياة، وسينقلب نعيماً روحياً وجسمياً بعد الموت ويوم القيامة، لذلك أعقب ما تقدم بذكر ما اعتاده نظر الأعرابي وهو راكب ناقته، فأول ما يخطر بباله ما هو راكب عليه، كما ترى ذلك في أشعارهم، وناهيك بالمعلقات السبع، فإنك ترى أحدهم يصف الناقة في نحو ٣٠ بيتاً وليس يخطر بباله بعد ناقته وهو راكب عليها إلا ما فوقه من زرقة السماء، ثم ما حوله من الجبال، ثم ما تحتها من الأرض، هذه نظرات الأعرابي وهو بين الجبال في سفره، فهذه تذكرة للأمم التي على الأرض ليدلهم على كمالهم الدنيوي والأخروي أنه لا يكون إلا بالحكمة والعلم. الأعرابي يسافر لجلب الزاد أو قتال الأعداء والله يقول: هل عميت الأبصار وزاغت البصائر عن حكمة الجمال وخلقها، والسماء ورفعها، والجبال ونصبها والأرض ودحوها؟ هل غاب عقل الإنسان عن هذه الدنيا وعلومها وحكمها؟ فإذا ذكر الله الأعرابي بالبادية فهل يذكره إلا بأنفس أمواله؟ لأنها:

(١) تنهض بحملها وقد كانت باركة وليس غيرها على هذا الوصف.

(٢) وتأكل النوى والقت وغيرهما.

(٣) ويكون منها اللبن.

(٤) وهي تلين للحمل الثقيل.

(٥) وتنقاد للقائد الضعيف حتى الطفل الصغير، فإنه يأخذ بزمامها حيث شاء.

(٦) وهي جمعت بين الزينة لصاحبها والركوب والحمل واللبن واللحم، وهذه الخصال لا توجد مجتمعة إلا في الإبل.

(٧) وهي ترعى كل نبات في البراري مما لا يرعاه غيرها من الحيوانات.

(٨) ومنها أنها تصبر على العطش عدة أيام.

(٩) وأيضاً أن مخيلة الإبل تحفظ الطريق الذي رأته مرة واحدة بحيث تسير فيه مهما طال ومهما تنوعت جباله ووهاده وطرقاته، كما ذكره العلامة الرازي في خبر البعير الذي أطلقه الجماعة الذين كانوا مسافرين معه في مفازة، فلما ضلوا الطريق كان ذلك البعير الذي قدموه يسير في الطرقات والتعاريج والوهاد والعقبات، وبين الجبال المتعاقبة ولا يخطئ، وهذه من الأعاجيب في الإبل وفي حيوانات أخرى كثيرة.

وليس ذكر هذه المخلوقات في القرآن للاقتصار عليها . كلا . فإنّما ذلك فتح باب العلوم والحكمة وإنّما ذكر هنا ما يناسب خيال البدوي في البادية ، وهذا في علم المعاني يسمى الجامع الخيالي ، وهو ما يكون مجموعاً عند طائفة من الناس في اعتيادهم ، كالمنشار والقادوم عند النجار ، والمسطرة والدواة عند التلميذ وما أشبه ذلك ، فلهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ نظر اعتبار ﴿ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالًّا على كمال القدرة ، ولا يعرف كمال الخالق إلا بمقدار ما يعرف الناس من كمال صنعه ، ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ بلا عمد وفيها من الكواكب ما أدهش عقول العالم الإنساني لا سيما في الوقت الحاضر ، إذ أصبح عدد النجوم لا يحصى فهو فوق مئات الملايين بما لا يقدر .

يقول الله : فلينظر الإنسان كيف رفعت هذه السماء ، وكيف يسير النور الذي يقطع ما بين الأرض والقمر في ثانية وثلث ، وما بينهما وبين الشمس في ثمان دقائق و١٨ ثانية . فهذا النور يسير من كواكب قد بعدت جداً ويصل إلى الأرض في مدة مليون ونصف مليون من السنين ، بل ما فوق ذلك ، كيف يكون هذا ، فليفكر الناس ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ سأسمعك مقالاً في الجبال وكيفية نصبها ، وكيف خرجت وظهرت فوق الأرض ، وكيف كان منها ما هو صخري ، ومنها ما هو منبت للنبات والأزهار والأثمار والعجائب ، ومنها ما هو متوج بتيجان الثلج المختلف الألوان البديع المناظر ، ومنها ما تعلوه النار المتقدة الخارجة من البراكين الطالعة من أسفل الأرضين من كرة النار المتقدة في بطن الأرض وكيف كان منها ما تعلوه الطيور والحيوانات البديعة الخلقة ، الحسنة الشكل ، البهية المنظر ، إلى غير ذلك مما ستراه في آخر تفسير هذه السورة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي : بسطت حتى صارت مهاداً ، فكانت أربعة أقسام كل قسم ربع من أرباعها ، وكل ربع من أرباعها أربعة أقسام :

(١) براري وقفار وخلوات .

(٢) وبحار وأنهار وغدران وآجام .

(٣) وجبال وتلال وأودية .

(٤) ومراع وقرى .

وهذه الأقسام الأربعة يرجع بعضها إلى بعض على حسب الحركات الفلكية ، فينقلب الجبل بحراً والبحر جبلاً . والقرى والبلدان تصير خراباً أو بحاراً وما أشبه ذلك ، وذلك الانقلاب في أزمان متطاولة ومئات الآلاف من السنين ، ومعلوم أن الأرض كرة نارية ، فهي دائماً في حركات وزلازل واضطرابات ، فإذا كانت الدول في كل يوم لها أخذ ورد ، وضرب وحرب ، ومدافع ضاربة ، وطيارات قاتلة ، وغازات خانقة . فالأرض زلازل وبراكين ، ومن الزلازل ما يعرفه أكثر الناس ، ومنها ما يخفى عليهم لبعده أو لشدة خفائه .

ولما كان هذا شأن الأرض وأنها أشبه بأحوال الذين يعيشون عليها من الأمم والدول ؛ تولد فيها على طول الزمان أحوال عظيمة نشأت منها تلك الانقلابات المذكورات . ولما كانت هذه الأمور الأربعة تشمل أكثر العلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم ، ولم يغفل عنها إلا أكثر أهل الشرق لا سيما أمتنا الإسلامية ؛ أعقبه بقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فهل عليك أن يتذكروا أو

ينظروا، كلا. إن عليك إلا البلاغ، فإذا كفر بك وبدينك قوم، وإذا جهل أتباعك مرامي الآيات فغفلوا وناموا ووقع عليهم الرجس؛ فقد بلغت وليس عليك غير ذلك: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بمتسلط ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أي: لكن من تولى وكفر بعد التذكير ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ في المحشر يوم القيامة. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة في عجائب الجبال

أوصاف الجبال

إن الجبال على اختلاف أشكالها، وتباين ضروبها، وتنوع أصنافها، وتفنن أحجارها، تنقسم إلى أربعة أقسام: صخرية لا تنبت شيئاً، وجبال ذات نبات، وجبال نارية، وجبال لطيفة الهواء. وهاك بيانها:

(١) فأما الجبال الصخرية مثل جبال تهامة، فما هي إلا صخور صلدة، وأحجار صلبة، لا ينبت عليها إلا يسير.

(٢) وأما الجبال ذات النبات، فهي صخور رخوة، وطين لين، وتراب ورمل، وحصيات ملس متلبدات، ساف فوق ساف، متماسك الأجزاء، كثيرة النبات والأشجار والحشائش، مثل جبال فلسطين وجبال لكام وطبرستان وما أشبهها.

(٣) وأما جبال النار، فإنه يرى في أعاليها ليلاً ونهاراً دخان معتكر ساطع في الهواء، مرتفع في الجو، وذلك من النار التي في باطن الأرض، وما الأرض إلا كرة نارية لها قشرة مثل قشرة البيضة بالنسبة للبيضة، وتقدم تحقيق هذا في «آل عمران» وفي غيرها فارجع إليه إن شئت.

(٤) وأما الجبال ذات الهواء اللطيف فهي قسمان: قسم تهب فيه الرياح اللينة في بعض الأوقات. وقسم تهب فيه تلك الرياح في جميع الأوقات. فأما الذي تهب فيه الريح اللينة في بعض الأوقات فمثل جبل الثلج الذي في بدمشق. والذي ببلاد «داور» من جبال «غور» وجبل «دماوند»، فهذه لما كان الثلج فوقها فإنه عند ذوبانه يتحلل إلى أجزاء بخارية لطيفة، فيرتفع في الجو ويلطف الهواء فتهب نسمات لطيفة تشرح الصدور، ويدفع ذلك البخار الهواء إلى الجهات الخمس. فتلك الرياح لا تكون إلا عند ذوبان الثلج، فإذا لم يكن ذلك كانت رياحها على حسب جوها ومناخها، فالرياح متقلبات ليست دائماً معتدلات. وأما القسم الذي تهب فيه الرياح اللينة في جميع الأوقات فمثل جبال «باميان» في بلاد الشرق، ولا حاجة إلى إطالة الأسباب في ذلك.

هذا ولأذكر لك آراء العلماء في هذا الزمان في أمر الجبال لينشرح صدرك وتقر عينك بمناظر الجمال ومحاسن الجبال، ولأجعل لك ذلك في خمسة فصول:

الأول: كيف كان تكوين الجبال.

الثاني: كيف يكون زوالها.

الثالث: وصف الجبال ذات الأشجار والثلج.

الرابع : وصف جبال النار .

الخامس : اعتبار العقلاء بعجائب الجبال . وهاك بيانها :

الفصل الأول:في تكوين الجبال عند علماء العصر الحاضر

يقولون : إن الأرض أشبه بتفاحة تجعدت قشرتها لتقارب أجزائها الداخلية ، والأرض لما كانت كرة متقدة الداخل ازدادت برودة قشرتها على توالي الأزمان ، وبتوالي البرودة تنزل القشرة فيحصل خسف وزلزلة وأهوال فيرتفع بعض الأماكن وتنخفض أماكن أخرى . ففي الجبال الآن ما هو في دور الطفولة ، ومنها ما بلغ أشده ، ومنها ما أصبح كشيخ ، ومنها ما أخذ في الفناء ، فالأول كجبال « الأنديس » بأوروبا ، فهي حديثة العهد ، فهي لا تزال ترتفع وتعلو كأنها جسم حيوان ، وهكذا جبال « الألب » . والثاني كجبال « البرنيس » بأوروبا . والثالث كجبل « المقطم » بمصر ، فهو الآن في دور الشيخوخة ، فقد دلت الآثار على أنه كان شامخ الذرى . فيه الحيوانات والنباتات التي بقيت آثارها متحجرة ، ثم هو الآن شيخ كبرت سنه ، ومثل جبال « الفوزجيش » . والرابع كجبال « وايلس » بأوروبا . فالجبال إذن كالحيوان وكالنبات تبرز وتكبر ثم يعروها البلا .

ثم إن من الجبال ما كان في قديم الزمان جزراً مرجانية بارزة في البحار ، ثم أخذ ينمو ، كما أن منها ما صار نسياً منسياً كما في سلسلة جبال كانت قبل جبال الألب الحديثة العهد . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني:كيف تزول الجبال

قد تبين لك السبب في زوال الجبال من هذا المقال ، ونزيد عليه أن الجبال إذا شمخت بأنوفها واستكبرت وأظهرت الخيلاء أخذت العوامل الطبيعية تخضد من شوكتها وتلين من حدتها ، والحوادث الظاهرية تحد من عظمتها . فالشمس تحرقها والصقيع والحر والبرد والماء والهواء والثلج والجليد ، وكل نبات نبت وكل دودة دبت ، وحيوان شب ، كل هذه عوامل متحدات على تحطيم أحجارها ، وتكسير صخورها ، وإذلال عظمتها . وما أعظم قوة الماء ، وما أشدها على الجبال ، فهي التي تذيب الثلوج ، وتحلها إلى سيول جارفات ناقشات للجبال نقش الصانع للحلي ، وناحتات الصخور كما ينحت الصانع التماثيل ، وأن جبال « وايلس » التي مر ذكرها وأمثالها قد أفنتها العوامل الطبيعية ، ولم يبق منها إلا أطلالها البالية ، وآثارها الضئيلة ، ولن تمضي عشرات الألوف من السنين حتى تصير جبال سويسرا إلى ما وصلت إليه جبال « وايلس » ، وذلك بسبب هذه العوامل على حسب ما يقوله اللورد « أفبري » . انتهى الفصل الثاني .

الفصل الثالث:وصف الجبال ذات النبات والأشجار والثلج

هاك وصفها من مقال اللورد « أفبري » ، إذ وصف جبال الألب بما معناه : إنها متدفقة الأنهار ، زاهية الثلوج ، يأتلف ذراها والسحاب ، ومن أجمل مناظرها بهجة ، وأحسنها شكلاً ، وأبهاها رونقاً ، وأبدعها حسناً وأشرحها للصدر ، وأجلاها للصدى ، وأكثرها تشويقاً للحكمة ، الجلد الأزرق واللاريس الأخضر والصخر الأغبر والأحمر ، والصنوبر المتعانق الأغصان ، وبهجة جمال الزان ، والأنهار الجارية

والمروج الزاهية، والأشجار الباسقة، والحيوانات السائحة، والأعشاب الكاسية، والأزهار الجميلة المختلفة الألوان، البديعة الأشكال، المدهشة الألباب، المرقية للأذهان، الناسجة للجبل ثوباً كوكبياً، وهناك البزاة والصخور فوق رؤوس الألب طائرات، والسنجاب الجبلي يجري حذراً خائفاً. ذلك بعض أوصاف جبال الألب.

وصف جبال سويسرا: إن حد ارتفاع الثلج في سويسرا على ارتفاع ٨٥٠ قدم أو ٩٠٠ قدم، ثم يجتمع الثلج فوق ذلك ويتراكم، فتراه في مبدأ أمره أنهاراً عظيمة هائلة تنحدر على الصخور من جوانب الجبال في كل ناحية، فما أسرع أن تجمد في أماكنها وتقف حيث هي إذا ضر بها البرد فخرت صريعة، وما أجملها للناظرين، وما أبدعها ذكرى للمفكرين، إن الناظر ليدهش إذ يراها ثابتة في أماكنها، جامدة في مجاريها فوق الصخور، وفي داخل الأخاديد، وعلى الروابي، وفي كل مكان. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في وصف جبال النار

البراكين تبلغ ما بين٢٢٣ جبلاً وثلاثمائة جبل، فمنها دائمة الثوران، وهذه قليلة، والتي تثور بين آونة وأخرى، والتي هي جامدة ساكنة دائماً، ومن شاهد فوهة جبال النار «البركان» المسمى «فيزوف» وهو ثائر فإنه يشاهد الحمم تسيل على جوانبه، والحجارة الضخمة تقذف في جوه، وهناك جبل نار يسمى «كوتوباكسي» فقد ثار عام ١٨٧٧، فكانت الحمم ترتفع تدريجياً وتتجمع في فوهته حتى إذا ملأتها سالت من جميع جوانبها، فكان الناظر لها يرى مشهداً رهيباً رائعاً مهولاً.

قالوا: وأكبر فوهة لبركان فوهة بركان «كيلويا»، فقطرها ميلان، ومحيطها نحو سبعة أميال، وهي على ارتفاع أربعة آلاف قدم، وفي داخلها بحيرة هائلة فيها حمم ومواد مصهورة كثيرة، وهذه البحيرة تكون على عمق ٨٠٠ قدم عن شفة الفوهة غالباً، وعمق البحيرة نحو ١٤٠٠ قدم، فإذا أظلم الليل انعكست تلك الأشعة المتطايرة من حمم تلك البحيرة العظيمة على الغيوم فكستها لوناً قرمزياً قانياً بديع الجمال، حسن الأشكال، قليل المثال، بعيد المنال، والحمم لا تزال تجتمع وترتفع في جوف الفوهة حتى تصل إلى الشفة. وهناك الهول المهول، فتفور تلك الحمم وتنحدر انحدار السيول الجارفات، أو تنفجر من الجوانب. فانظر كيف تنفجر الأنهار من الجبال. ولكن إذا كانت الجبال نارية كما هنا فإنها تتفجر من جوانبها أنهار نارية. وفي تلك الأنهار النارية تنحدر الحمم هناك من الفوهة بسرعة عظيمة. وذلك لأنها مواد مصهورة ذائبة، ثم بعد ذلك تجمد قليلاً قليلاً، فتتكون قشرة جامدة، والحمم الجديدة تجري من تحتها. وقد تنفجر القشرة ويسيل منها فروع مجار صغيرة. وأنهار الحمم قد تبلغ سبعين ميلاً. هذا وصف وجيز لجبال النار لتطلع به على عجائب هذه الدنيا وبهجتها، وكيف جعل الله قمم الجبال جامعة بين النار الحامية والحمم المتقدة والأنهار النارية المسرعة، وأن من أنهارها ما يجري تحت ما تجمد من الحمم كما ترى الماء في النهر يغطيه الثلج وهو لا يزال جارياً تحته، وكيف جرى من الجبال ماء ونار وعلت عليها الأعشاب والأشجار والطيور والحيوان، أو أصبحت جرداء لا تنبت ولا تزدهي.

هذا مبادئ لما يقصد الله في قوله: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية: ١٩]، ومن العار على الأمة الإسلامية ألا يكون فيها لكل علم من هذه العلوم جماعة يفيضون على الأمة من علومهم أحاديثه لأمر ربهم. انتهى الفصل الرابع.

الفصل الخامس: اعتبار العقلاء بالجبال

هذا بعض وصف الجبال في العالم الإنساني، نار وثلج وشجر وحيوان وهواء وماء ونعيم وعذاب وحمم مصهورات. وأنهار جاريات. وعجائب مدهشات. ذلك مظهر الجبال. وكم فيها من كنوز ذهبية ومواد معدنية وبدائع حكمية. تبهج الناظرين وتسر المفكرين.

هذه هي الجبال التي نصبها الله في الأرض مرقاة لعقولنا. وسلماً لأنظارنا. وعلماً لارتقائنا. فلعمري أيستوي الجاهل والحكيم. والذكي والبليد. وهل يستوي من وقف عقله في جمود. ونفسه في خمود. وذهنه في لحود. فأصبح لا يرى نور الجمال. ولا بهجة الجبال. ولا عظمة الله التي تجلت للناظرين، فإذا لم تتسع بعلوم الجبال وعجائبها. والأرض وغرائبها. فمن أين تتسع العقول. وكيف يعثر المسلمون على كنوز الأرض إن لم يدرسوها، أم كيف يقرؤونها وهم لم يروها؟ وكيف يكون للمسلمين بعد اليوم بقاء؟ والأرض وجبالها مسخرات بأيدي أمم الفرنجة. سخروها بالعلم. وأخضعوها بالفهم. فإذا بقي المسلمون في الجهالة العمياء مكتفين بالمسائل الفقهية فليودعوا العالم راحلين. وليشدوا الركائب إلى ساحة الفناء. ولكني أقول: قد اقترب الزمان وسيقوم في الأمة من يوقظونها ويذيعون العلوم.

أفليس من العجب أن يذكر الله الجبال ويوبخ الناس قائلاً: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية: ١٧-١٩]، فيا ليت شعري كيف يكتفي المسلمون بنظر الجهلاء؟ إذن أي فرق بين العالم والجاهل. وإذا كان النظر السطحي كافياً فحينئذ يكون نظر الخليل عليه السلام في النجم والقمر والشمس كنظر الجهلاء. فأين رفعته إذن، كلا. فالنظر في الجبال، والنظر في السماء، والنظر في الأرض، والنظر في الحيوان، نظر حكمة وعلم لأمرين: اتساع العقول حتى تعرف الخالق معرفة أتم، والانتفاع بتلك المخلوقات. وكلما قل العلم بهذه الأشياء قل الانتفاع بها وقل الشوق إلى خالقها. فالانتفاع تابع للعلم. وحب الله تابع للعلم، وعلم الجاهل وعلم البهائم سيان. نظر بالبصر وجهل أكبر. فليرفع المسلم عقله عن مقام الجاهلين. حتى يعرف كيف يحمد رب العالمين. ويصلح بالعمل بلاد المسلمين. ويحفظها من أي الأوروبيين.

نظرة في الجبال أيضاً

قال بعض العلماء في عصرنا: الأرض كانت في رأي العلماء قطعة متصلة بالشمس أو جزءاً منها. يدلك على ذلك أن جميع العناصر الموجودة بالشمس موجودة كلها بالأرض. وهذا يمكن إثباته بتحليل الطيف الشمسي لضوء الشمس. فإن أكثر مواد الشمس في حالة غازية، فإذا قطعنا هذا الضوء ـ أي: شعاعة منه ـ بمنشور من البلور تحلل الضوء إلى جملة ألوان، ولكل غاز طيف خاص، وقد أمكن بذلك أن نعرف المواد المؤلفة منها الشمس، ونتحقق من أنها نفس المواد المؤلفة منها الأرض،

والمتفق عليه أيضاً بين معظم العلماء أن الأرض كانت كتلة ملتهبة ثم بردت بالتدريج فصارت غازاتها سوائل ثم جمد بعضها. ومن المعقول في هذه الحالة أن تتجه أثقل المواد إلى المركز ويبقى أخفضها على السطح، وإذا كان بخار الماء قد برد حتى صار سائلاً وملأ محيطات العالم كما نراها الآن؛ فإنّما يكون قد حدث هذا بالتدريج، وكانت البحار في البدء عذبة لأنها تكونت من الأمطار، ولكن لما تقادم العهد وصارت الأمطار تقع على اليابسة ثم تنحدر منها أنهاراً إلى البحر أخذت هذه الأنهار تكتسح أملاح اليابسة وتنزل بها إلى البحار، ثم تعود مياه البحار إلى التبخر فيبقى الملح بها، وتزداد كميته بذلك عاماً وراء عام.

ومما يدل على ذلك أن البحيرات المنقطعة والتي يقل نزول المطر فيها مثل البحر الميت في فلسطين والبحر الأحمر أكثر ملوحة من المحيطات الكبيرة، فالماء يتبخر من هذين البحرين كثيراً لوقوعهما في منطقة دافئة، ويقل نزول المطر فيهما فتقل عذوبتهما، وليست أرضنا مستوية السطح، إذ فيها نتوءات نسميها جبالاً في بعض الأمكنة، وفيها غؤورات في أمكنة أخرى نسميها محيطات، ولكن الجبال والبحار إذا قسناهما إلى حجم الأرض لم تكونا إلا بمثابة خدوش بسيطة لا يحسب لها حساب.

وأهم عامل في انحدار المياه إلى المحيطات وسبب ملوحتها هو الجبال، فما هو أصل الجبال؟ في الأرض الآن عدة براكين خامدة تدل على أن حرارة باطن الأرض كانت في الزمن القديم أشد مما هي الآن، وبديهي أن مثل هذه الحرارة كانت كثيراً ما تحدث نتوءاً أو أغواراً في قشرة الأرض، ولكن السبب الأهم الذي يعزى إليه الآن ارتفاع الجبال وتكونها هو الأنهار، وهي أيضاً سبب العصور الجليدية التي تناوبت العالم جملة مرار، وكيفية ذلك أن الأمطار إذا وقعت على اليابسة حملت معها ما تذيبه من جوامد اليابسة، وشقت لها طريقاً فيها حتى تصل إلى البحر فتنصب فيه، فإذا توالى هذا جملة آلاف من السنين ثقل قعر البحر الذي انصبت فيه هذه المياه، فإذا لم يستطع قعر البحر أن يحمل ما عليه من تراكم هذه المواد التي حملتها إليه الأنهار غار إلى أسفل، وهو في غؤوره يدفع باطن اليابسة إلى النتوء على نحو ما يحدث إذا صنعنا كرة من العجين، إذا ضغطنا على جزء منها فغار نتأ جزء آخر يجاوره.

والجبال الحاضرة يدل بعضها على أنها كانت يوماً ما مغمورة بماء البحر، بدليل ما يوجد فيها من متحجرات الأصداف التي لا تعيش إلا في المياه الملحة، فالأنهار هي أصل الجبال، والجبال هي أصل العصور الجليدية واختلاف مناخ البلدان في الأزمنة القديمة، وكيفية ذلك أن الجبل إذا ارتفع بلغ طبقة رقيقة من الهواء فتتشعع منه حرارة الشمس، ولهذا نجد الحر في السهول، ونجد البرد بل الثلج أحياناً في الجبال، لأن الهواء إذا تكاثف في السهول صار بمثابة الغطاء واللحاف فيحفظ بذلك الحرارة. أما إذا رق على الجبال فليس هناك إذن ما يمسك الحرارة، فإذا امتلأت البحار بما تحمله إليها الأنهار غارت عقورها فتنتأت عندئذ الجبال، فإذا سقطت عليها الأمطار جمدت وصارت ثلجاً، ثم يأخذ الثلج في الانحدار على الجبال ويذهب أيضاً إلى البحر حاملاً معه شيئاً كثيراً من اليابسة، والجبال تتآكل وتتحات بانحدار الثلج حتى تذهب قممها فلا تجمد الأمطار عليها لأنها غير مرتفعة، وهنا تأخذ السيول في جرف الجبال فيزيد تحاتها ويسرع هذا في إثقال قعور البحار، وارتفاع الجبال وتحاتها كلاهما

يؤدي إلى تغير المناخ وإلى زيادة مياه البحر أو نقصها، فإذا كانت الجبال مرتفعة حدث ما يسمى عصراً جليدياً، فتشتد البرودة وتنقص مياه البحار، لأن المطر الذي تتكون سحبه من بخار مياه المحيطات يقع على هذه الجبال فيجمد ولا ينزل إلى البحر إلا ببطء، ففي العصر الجليدي الأخير مثلاً كانت مياه البحر المتوسط قليلة، حتى إن أوروبا كانت متصلة بأفريقيا في عدة أماكن، وكانت إنكلترا متصلة بأوروبا، وكانت آسيا متصلة بشمالي أمريكا، وكان مناخ مصر أبرد مما هو الآن، لأن عصر الجليد في أوروبا كان عصر الأمطار في مصر، وكان جبل المقطم وهو قاحل الآن حافلاً بالحيوان والنبات مما لا نزال نجد متحجراتهما للآن.

وقد انتاب العالم حسب تحقيق العلماء الآن خمسة عصور جليدية كانت سبباً في إبادة أنواع عديدة من الحيوان والنبات ونتوء أنواع أخرى.

ومن ذلك يتبين للقارئ أن جبالنا الراهنة لن تعيش إلى الأبد فإنها ستنحات من سيلان الماء عليها، ثم يثقل قعر البحر فيسيخ ويغور، وتظهر جبال جديدة في أماكن أخرى، وكذلك شكل قارات العالم لم يكن كما هو الآن وظاهر من غربي أوروبا وأفريقيا ومطابقته لشرقي أمريكا الشمالية والجنوبية، أن أمريكا كانت جزءاً متصلاً بأوروبا وأفريقيا. اهـ.

تذكرة في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

رباه، أحمدك على نعمة العلم، وأشكرك على جميل صنعك وإبداعك، وعلى رأفتك بنا ورحمتك، أنت تعلم أن تفسير هذه السورة آن زمان طبعه، فأوعزت إلى أحد رجال ألمانيا اسمه «ليون» وزوجته أن يدعوا ناشر هذا التفسير وأنا معه لسياحة في بعض جبال مصر يوم الأحد ١٠ شوال سنة ١٣٥١هـ، الموافق شهر يناير سنة ١٩٣٣م شرقي بلدة المعادي المصرية التي في طريق «حلوان»، فماذا ظهر؟ ظهر أن هذه السياحة لتحقيق تفسير هذه الآية، إن الله يقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية: ١٧-١٩]، لقد ظهر في الكشف الحديث أن الجبال إنّما تخلق أولاً في البحر، وكأن هذه الأرض امرأة والبحر رحمها، وهذا الرحم فيه مبدأ خلق كل شيء، فمنه مبدأ حياة هذه الأحياء الأرضية، ومنه مبدأ تكوين الجبال، ثم تكون هناك تغيرات عامة فيصبح البر بحراً والبحر براً. الله أكبر. هذا الذي كنا نقرؤه في الكتب، ونرى أنهم يقولون إنهم رأوا في الجبال قواقع ومحاراً ونحوها مما هو خاص بالبحار. رأيته أنا في ذلك اليوم رأي العين على شاطئ واد من أودية جبالنا المصرية البعيدة عن بلدة المعادي نحو ٧ كيلومترات، وهناك واديان أكبرهما يسمى وادي «التيه» الذي حلت فيه عساكر نابليون لما هجم على مصر فهلك كثير منهم، ولقد رأيت بعيني رأسي القواقع محجرة وأنواع المحار والصدف وعظام السمك، وأنواعاً من السمك المسمى «نجم السمك» الذي تقدم في هذا التفسير كثيراً وكلها محجرة، وهكذا رأيت قطعة من الخشب محجرة، فدل ذلك على أن هذه كلها كانت في بحر لجي عظيم فانقلب أودية وصحاري

وجبالاً، فالبر كان بحراً، والبحر كان براً، والذي أدهشني أن «ليون» الألماني وزوجته كانا يعرفان هذه الأودية وصفاتها وخواصها وهما يتوجهان للرياضة فيها ويقولان: لم نر أحداً من المصريين قط في هذه الأماكن وإنّما يؤمها الأوروبيون، وقد قالت زوجة ليون: إننا كثيراً ما نتوجه إلى الغابة المتحجرة ونمر في وادي التيه هذا الذي أمامنا الآن، ونسافر أربعين كيلومتراً من هذا المكان، ونرى هناك جذوع أشجار الواحد منها عرضه متر وطوله ٢٠ متراً وكلها متحجرة، ولكننا لا نقدر أن نتوجه اليوم لأن السيارة «الأتومبيل» إذا انكسرت لا نجد غيرها فنموت جوعاً، وقصت قصص شبان من الألمان جاؤوها وضلوا الطريق وأشرفوا على الهلاك لولا أن الطيارات أنقذتهم، وعاشوا بعد مرض طويل، فإذا كان هناك أتومبيل آخر فإن الإنسان إذ ذاك يكون عنده طمأنينة على حياته بحسب العادة، ولقد حملت معي من كل أنواع المواد المتحجرة، وهي الآن تحت يدي، وهي تشبه ما يرسمه العلماء في عصرنا الحاضر في كتبهم من المواد المحجرة المذكورة. اهـ.

أيها المسلمون، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية: ١٧-١٩]، هذا هو النظر إليها، فالنظر بالعين تساوى فيه الإنسان والحيوان، والجاهل والعالم، ولكن النظر هنا نظر الحكمة والعلم، فهذا هو النظر العلمي أيها المسلمون، فإذا وقف الإنسان على حقيقة خلق الأرض وخلق الجبال بحسب الطاقة البشرية فإنه يصبح ذا نفس قوية وثابة إلى المعالي تخترق الحجب وترفع الشعوب والنفوس إلى العلا.

إن الله يوبخ هذا النوع الإنساني على أنه ما كان ليفكر في حقائق هذه العجائب مشيراً إلى المستقبل القريب الذي سينبغ فيه المسلمون في كل علم، فيشرحون الحيوان، ومنها الإبل، ويدرسون نظام المجرات والسدم ـ جمع سديم ـ والشموس، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[الغاشية: ١٧-١٨]، ويدرسون علم طبقات الأرض تبياناً لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية: ٢٠].

دهشة والله وأي دهشة. أيها المسلمون، أليس مما يخجل وأنا مصري أجهل أن في بلادي على بعد ٢٠ كيلومتراً من منزلنا بشارع زين العابدين بالقاهرة أدلة تثبت برأي العين والمشاهدة أن الجبل كان بحراً، ولم يدلني عليها إلا رجل ألماني وزوجته.

اللهم إنك جعلت هذا الجهل العميم الذي أحاط بنا في مصر عبرة لمن بعدنا فلا يقعون فيما وقعنا فيه من الجهل والتقصير. وسيكون من قرأ أمثال هذا التفسير من يدرسون هذه العجائب بشغف عظيم ويفوقون الأوروبيين فيها ليوفوا لهم دينهم علينا ويعلموهم ما يجهلون كما يعلمونا نحن ما جهلنا، ودلونا بدون علم منهم على وجهة كتابنا المقدس في آية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾، والله هو الحكيم العليم.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «الغاشية»، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية.

تفسير سورة الفجر
هي مكية
آياتها ٣٠، نزلت بعد سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

هذه السورة تشتمل على مقصدين:

المقصد الأول: في إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾.

المقصد الثاني: إن كثرة النعم على العبد ليست دلالة على إكرام الله له، وأن كثرة البلاء ليست دلالة على إهانته، بل الإكرام في التوفيق للعمل. والإهانة في الخذلان ونحو ذلك، وذلك من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول: في إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ أقسم الله بالفجر في كل يوم لما يحصل فيه من انقضاء الليل وظهور النهار، وانتشار الناس، وسائر الحيوان في طلب الرزق، وذلك كنشر الموتى من قبورهم بالبعث. ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ يقال: إنها العشر من ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بالحج، لأن العمل فيها أحب إلى الله منه في غيرها، فالفجر أول مظهر من مظاهر الحياة والعمل، وعشر ذي الحجة أوقات اجتماع المسلمين من أقطار الإسلام للتشارك في الأعمال الشريفة واتحاد الأمة والتعليم، فأول الأعمال من الفجر في كل يوم وأشرفها ما به اجتماع المسلمين لمصالحهم السياسية والدينية الذي ينشأ عنه قواتهم، وبقوتهم يهزمون أعداءهم، وهزم الأعداء بالقوة لا يكون إلا بعمل واتحاد، وإذن يخذل المعارضون كما خذلت عاد وثمود وفرعون. ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ الشفع: هو الزوج، والوتر: هو الفرد، ولا جرم أن العلم المسمى «الارتماطيقي» الذي سأشرحه في تفسير هذه السورة قد عرفه القدماء من اليونان أيام «فيثاغورس» وغيره، وأيضاً علماء الرومان وعلماء أمتنا العربية والأمم الفرنجية، فكل هؤلاء يدرسون في أعلى مدارسهم هذا العلم، وهو علم كلي يندرج تحته علوم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وهذا العلم مبني على الواحد، ومن الواحد نشأ الاثنان، وبهذين كانت جميع الأعداد، لأنها إما زوج وإما فرد، فالواحد أصل الأعداد كلها أزواجها وأفرادها، وستعرف بإيضاح كيف كان هذا يشمل العلوم كلها، وسترى أن هذه الآية من أكبر معجزات القرآن، فلم يكن عند العرب إذ ذاك هذا الفن. وإنّما هو فن لا يدركه إلا الحكماء في الأمم العظيمة، ولذلك لا ترى لهذا الفن وجوداً في البلاد الإسلامية والشرقية الآن فيما نعلم لأن أكثرهم نائمون، وإنّما كان عند اليونان والروم وآبائنا أيام مجدهم.
وقوله: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي: والليل إذا سار وذهب، وإنّما حذف الياء للتخفيف، وجواب القسم محذوف، أي: ليعذبن، ودليل هذا المحذوف قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾، ثم قال معظماً لهذا القسم: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أي: هل فيما أقسمت به من الفجر مسفراً، والليل ذاهباً، والليالي العشر فيها أعمال الحج والزوج والفرد المشتملين على جميع العلوم الرياضية ويتبعها الطبيعية وغيرها، هل في هذه المذكورات قسم لذي عقل، وإنّما سمي العقل حجراً لأنه يحجر عما لا ينبغي، والمراد بالاستفهام التقرير، أي: فليقر العاقل بعظمة هذه الأشياء حتى صلحت للإقسام بها وكيف لا تعظم وفيها مبدأ الأعمال بذهاب الليل وانبلاج النهار، وكمال الأعمال باستتباب النظام العام واتحاد الأمة الإسلامية ـ الذي لا وجود له أيام تأليف هذا التفسير ـ وذلك بأعمال الحج وأمثالها، واجتماعهم حول الكعبة، ونظرهم في شؤونهم العامة في عرفات، وفيها أيضاً الزوج والفرد اللذان هما أس جميع العلوم، ولا يعرف ذلك إلا إذا بلغت الأمة شأواً بعيداً، فهذا القسم بفضل الأعمال بالفجر والليالي العشر، وبفضل العلوم كلها بالشفع والوتر، وسترى إيضاحه إيضاحاً كافياً، وأي قسم أعظم من هذا في العوالم كلها يعرفه العاقلون.

فانظر أيها الذكي كيف يقول الله: أليس في ذلك قسم لذي حجر، ولم يذكر هذه الجملة إلا هنا، ولم يذكر العقل في قسم إلا فيها، ولماذا هذه الجملة؟ فالحق أقول: إن هذه الجملة في هذا المقام لا يدركها الناس بعلم البلاغة، وإنّما يعرفونها بدراسة العلوم ونظم السياسات، وهذا هو السر في ذكر الحجر فتعجب!.

واعلم أن هذا الذي اخترته في تفسير: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ مذكور مع وجوه أخرى للقدماء وما مثل ما ذكره علماؤنا إلا كمثل مائدة وضعت بين أيدينا فنأخذ منها ما يلائم حالنا، أو كمثل أنواع من البذور حفظها لنا الآباء فبذرنا ما وجدناه صالحاً لنا، فهم أدوا الأمانة ونحن انتفعنا بها وزرعنا.

ثم قال تعالى دليلاً على جواب القسم الذي تقدم ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان كيف فعل ربك بعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، فهاهنا يقال عاد للقبيلة كما يقال لبني هاشم هاشم، وهؤلاء هم قوم هود عليه السلام، وقوله: ﴿ إِرَمَ ﴾ أي: سبط إرم. وقد قيل للأولين منهم عاد الأولى، وإرم أيضاً تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الآخرة، فـ«إرم» عطف بيان لـ«عاد» للإيذان بأنهم «عاد» الأولى القديمة، وقوله: ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ أي: ذات الرفعة والثبات، ومنه قول الخنساء:

** كثير الرماد رفيع العماد **

فرفعة العماد يراد بها الشرف والسؤدد والمجد، فهي كناية، فالعماد هنا كناية عن الثبات والشرف سواء أكانوا بدويين أهل عمد لخيامهم، أو كانوا حضريين، فالمعنى لا يختلف، لأن هذه الكلمة معروفة في اللغة بهذا المعنى ونحوه، فـ«ذات العماد» صفة لـ«عاد»، ويقول الكلبي: إرم هو الذي يجتمع فيه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة، وكان يقال عاد إرم وثمود إرم، فأهلك عاد وثمود وأبقى أهل السواد وأهل الجزيرة، وكانت تسكن من عمان إلى حضرموت، وهي بلاد الرمال والأحقاف، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع، فإذا هاج العود ويبس رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنات وزرع، ومنازلهم بوادي القرى. وقوله: ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ صفة لـ«عاد» أي: إن الله لم يخلق مثلهم في قوتهم وطول قامتهم، ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ ﴾ أي: قطعوه واتخذوه منازل، وذلك أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً. وقوله: ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ أي: وادي القرى، ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا.

ثم وصف المذكورين من عاد وثمود و فرعون فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أي: تجاوزوا الحد ﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ بالكفر والقتل والظلم ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب الدائم المؤلم، فالدوام يشعر به الصب، والإيلام من لوازم السوط، والسوط: الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوطاً طاقات بعضها ببعض. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ أي: ممر الناس، فالمرصد والمرصاد: الطريق. وإذا كان الله في طريقهم فهم لا يفرون منه. ويقال أيضاً: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد، وهذا على سبيل التمثيل للعباد، يعني يرى ويسمع كما يكون الراصد. فالله عالم بما يصدر منهم وحافظه فيجازيهم على الخير خيراً وعلى الشر شراً. انتهى المقصد الأول.

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فضلني بما أعطاني، أي: فأما الإنسان فقائل: ربي أكرمني بالجاه والمال وقت اختباره بالغنى واليسر، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: فضيق عليه وقتر وقد أعطاه ما يكفيه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أذلني بالفقر لقصور نظره وسوء فكره، فرب تقتير أدى إلى سعادة الدارين، ورب سعة تفضي إلى مشاكل ومهالك في الدنيا تلهيه عن كمال نفسه وسعادتها، وهذا المقام لا يتسنى معرفته حق العلم إلا بقراءة فروع الحكمة القديمة والحديثة، فلقد ألف فيه كل جيل من أجيال الحكماء، ألف فيه «قابس» اليوناني في رسالة لخصتها سورة «البقرة» تسمى «لغز قابس» ملخصها أن السعادة في الدنيا ليست بسعة الرزق، ولا كثرة العلم، ولا رفعة الصيت، ولا الشرف، وبرهن على ذلك بأن صاحب المال قد يكون في ذل بسببه أو بسبب من الخارج، وإن كثيراً من العلماء صغرت نفوسهم ولا صبر عندهم فهم أشقياء في الدنيا. وإن الصيت والذكر كالعلم وكالمال يكون فيه كما فيهما الخير والشر فكل هذه الخيرات من علم ومال وصيت وجمال أشبه بالليل والنهار تمر على الشقي في هذه الحياة وعلى السعيد فيها، ثم إنه ربط السعادة في هذه الحياة الدنيا نفسها بشيء غير هذا وهو أن تصل النفس لمنزلة الصابرين الذين هذبتهم رزايا الدهر، فأصبحوا لا يألمون لما يصيبهم، وذكر علم الشعر والأدب وأمثالها فسماها «الأدب المزوّر»، لأن أصحابها قد يكونون أشقياء في الدنيا بشهواتهم وسخافاتهم، ورأيت كتاباً أيضاً مترجماً من اللغة الفرنسية يسمى «الكوخ الهندي» ينحو نحو هذا المنحى، هذا هو العلم الذي يموج به بحر الطبقة العالية من النوع الإنساني، والله هنا صرح به في هذه الآيات وجعل أن رضاء الله ليس بإكثار المال، وغضبه ليس بإقلال المال، ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كذلك فأنا لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فالإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقلته، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، وإنّما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته، وقد يوسع على الإنسان بالمال لاختباره أيشكر أم يكفر، ويضيق عليه ليختبره أيصبر أم يضجر ويقلق.

واعلم أن هذا القول صالح لجميع نوع الإنسان، أما قصة الكفر والإيمان فإنّما هي سبيل لوصول العلم إلينا. وقد علمت من كلام حكماء الأمم أن سعادة الإنسان في الدنيا تبع لأخلاقه لا ماله ونحوه، فمن عاش راضياً صابراً فهو السعيد في الدنيا لأنه راض، ومتى رضي هو فإن الله راض عنه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[المائدة: ١١٩]، والراضي مطمئن في الحياة الدنيا، وفي الآخرة من باب أولى، وأما الذي لم يرض ولو كان عالماً أو غنياً فإن هناك شهوات ومصائب تنتابهما فتجدهما ناقصين فيذلان في الدنيا وفي الآخرة كل بحسبه. فالكافر مع كفره، والمؤمن يعذب بالذنوب القلبية التي هي أشد من الذنوب الظاهرة، ولكن لا يخلد في جهنم. ثم قال تعالى: إن هؤلاء فعلهم أسوأ من قولهم. فإذا قالوا: إن الله أكرمنا، وإن الله أهاننا ـ في مواطن لا تدل على ذلك ـ دلالة على جهلهم، فإن ما يفعلونه أسوأ من ذلك. أكرمهم الله بالغنى كما يعتقدون ومع

ذلك لا يؤدون ما يلزمهم من إكرام اليتيم بالمبرة، وذلك لشدة تهالكهم على المال، ولا يطعمون مسكيناً. ولا يحض بعضهم بعضاً على إطعامه، وهذا قوله تعالى: ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أي: ذا لمّ، وهو الجمع بين الحلال والحرام، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم، ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ كثيراً شديداً مع حرص وشهوة، ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم وإنكار لفعلهم. ثم أوعدهم فقال: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي: دكاً بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال، أو هباء منبثاً. ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ هذا تمثيل لظهور جبروته واقتداره، فإن حضور الملك بنفسه أكثر أثراً من حضور جنده وحده. فإذن المراد ظهور العظمة، ﴿ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ أي: ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس، ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ أي: برزت لأهلها. وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من ﴿ إِذَا دُكَّتِ ﴾ وهما متعلقان بقوله: ﴿ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ معاصيه ويتعظ لعلمه بقبحها فيندم ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي: أنى له منفعة الذكرى، أي: إنها لا تنفعه. ثم أبدل من قوله: ﴿ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قوله: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ أي: لحياتي هذه. أو قدمت في وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة. ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أي: لا يتولى عذاب الله ووثاقه بالسلاسل المذنب يوم القيامة سواه. فهو الذي يتولى العقاب ويتولى وثاقه لأن الأمر كله له. وإن رجع الضمير للإنسان يصير المعنى هكذا: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

ولما كان اعتقاد الناس بأن إكرام الله الناس بالمال وإهانتهم بالفقر وكانوا ذوي حرص على المال وكانت العاقبة الجزاء والعقاب لهم؛ أردفه بمن ليس كذلك، وهم الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله لعلمهم بأن الأسباب مهما تطاولت فمرجعها إليه فتستغني به عن غيره فلا تشكو لسواه. لا سيما إذا عرفت الحقائق واطمأنت إليها فأصبحت آمنة لا يستفزها خوف ولا حزن. لما كان كذلك خاطبهم سبحانه تشريفاً لهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ وقد عرفتها بالصفات الثلاث المتقدمة ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ إلى ما وعد ربك من الجزاء والثواب، وذلك عند خروجها من الدنيا، وهذا يدل على أن نفوسنا كانت في عالم القدس عند ربها فنزلت إلى الأجسام، فهاهي أخذت ترجع كرة أخرى. يقول: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ حال كونك ﴿ رَاضِيَةً ﴾ بما أوتيت ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ في جملة عبادي الصالحين ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ معهم أو في زمرة المقربين، وذلك لأن النفوس القدسية كالمرايا المتقابلة بعضها مشرق على الآخر، فيكونون في حال سعادة وحبور لا يعرفها أهل الأرض، وكأن النفوس الجميلة تربى في هذه الدنيا، وتهذب بالآلام، وتتزين بالعلوم، حتى إذا فارقت الأبدان جعلت في أماكن متقاربة. وبينهم الصفاء والحب والسؤدد والحكمة، وكأن كل نفس من نفوسهم كتاب حكمة للنفوس الباقية، لاطلاعهم على ما رسم فيها من أشكال الحكمة وأنواع الفضيلة. وهذه كلها صور جميلة تفرح صاحبها وتفرح من يشاكله وتسرهم وتلذهم، فتكون النفوس المؤتلفة كل واحدة مسرة للجميع، بعكس النفوس الشريرة، فإنها تكون شقاء لأخواتها، لأن النقص

قابض والكمال سار. ولا جرم أن مبدأ هذه الصفات في الدنيا. والناس يشعرون بجمال تلك الصفات وهم فيها، حتى إذا فارقوا الأبدان ظهر الجمال بكماله. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾.

(٢) وفي قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾.

(٣) وفي قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ۝١٥ ﴾ إلى آخر السورة.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام جاءني أحد العلماء، فاطلع على ما كتبته في معنى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر: ٣]، فقال: إن ما ذكرته عظيم وبديع، بل أقول فوق ذلك: إن هذه المعارف التي تقول إنها في هذه الآيات متى أيقن بها المسلمون فإنهم لا محالة يسبقون الأمم علماً وعملاً، وكيف لا يسبقون الأمم وهم شديدو الاعتقاد بدينهم، تركوا العلوم والصناعات والدنيا لما ظنوا أن هذا الترك طاعة يأمر بها الدين. فأما الآن وقد ظهر بهذا التفسير وأمثاله أن القرآن إنّما سره هذه العلوم، فثق بأن الأمة التي صبرت في سبيل اعتقادها على الذل والفقر وضرب المدافع ظناً منها أن الجهل والكسل عن الصناعات والعلوم مقتضى دينها، هذه الأمة نفسها متى أيقنت بما تذكره أنت في هذا التفسير فإنها ستصبر نفسها بالغداة والعشي على حوز العلوم والحكمة والصناعات اتباعاً لدينها، وإرضاء لربها، وتكون أرقى من كل الأمم، ذلك لأن اعتناق العلوم من حيث إنها دين غير اعتناقها من حيث إنها علوم دنيوية، فإذا أصبحت العلوم والصناعات من علوم الدين فهذا شيء عظيم يقلب العالم الإسلامي قلباً تاماً، هذا هو الذي أراه، ولكن لا طاقة لنا أن نصدق أن قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾. إشارة إلى علم قديم، وأن هذا العلم أصل العلوم كلها، وأنه غير علم الحساب، وأن علم الحساب وأمثاله فروع لذلك العلم. اللهم إنك إذا أثبت لي ذلك بكلام القدماء نصاً فإني أقول لك: إن هذا التفسير يقلب التعاليم الإسلامية هو وأمثاله قلباً، ويصبح المسلمون غير المسلمين، فقلت له: ورد في «إخوان الصفاء» ما نصه:

الرسالة الأولى في العدد وماهيته، وكميته، وكيفية خواصه

والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة، المؤثرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها، وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابقة لصور الموجودات في الهيولى، وهي أنموذج من العالم الأعلى، وبمعرفته يتدرج المرتاض إلى سائر الرياضات والطبيعيات، وأن علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف، وأسطقس المعاني. اهـ.

فلما سمع صاحبي ذلك قال لي: أنت الآن نقلت وصف كتاب «إخوان الصفاء» ففي أي زمان كانت هذه العلوم؟ فقلت: إخوان الصفاء كانوا في أواخر القرن الثالث، ثم جاء بعدهم جماعة

قلدوهم . فقال : الآن عرفت أن آباءنا كانوا يعرفون هذه العلوم ، ولكني لم أستفد من هذا القول إلا أن صورة العدد في أنفسنا مطابقة لكل شيء في الخارج ، وأن معرفة العدد ترقي العقول الإنسانية ، وأن هذا العلم مبدأ العلوم كلها وأصلها ، ولكني لم أعرف لماذا كان هذا العلم أصل العلوم ، ولم أعرف أين ذكر الشفع والوتر في هذا المقام ، فاثبت ذلك لي وإلا قال الناس : إن هذه الأشياء يراد تقريبها من الدين بلا حق ، والمسلمون الآن لا يقبلون إلا ما قام عليه الدليل . فقلت : قال في موضع آخر في رسالة العدد : إن أهم ما يفعله الإنسان النظر في جميع الأشياء ، ومعرفة كيفية حدوثها ، ونشوئها عن علة واحدة ، ومبدأ واحد من مبدع واحد مثال ما يفعله الفيثاغوريون ، وذكر أن هذا العلم شبه المدخل والمقدمات لطلب الحكمة كلها .

فقال صاحبي : إلى الآن لم تأت بالبرهان على أن هذا العلم يشير له القرآن . قلت : جاء في تلك الرسالة : إن نسبة البارئ جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، ونسبة العقل منها كنسبة الاثنين من العدد الخ . فقال : قد قاربت ولكن لم يتضح المقام . فقلت : إن البارئ جل ثناؤه اخترع من نور وحدانيته جوهراً بسيطاً يقال له العقل الفعال ، كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار الخ .

ثم قال أيضاً : إنك أيها العاقل إذا تأملت ما ذكرناه من تركيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية البارئ جل ثناؤه ، وكيفية اختراعه الأشياء وإبداعه لها ذلك أن الواحد قبل الاثنين . وإن كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه ؛ فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ ، كذلك الله عز وجل وإن كان هو الذي اخترع الأشياء من نور وحدانيته ، وأبدعها وأنشأها ، وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها ، فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وإبداعه .

ثم قال : فقد أنبأناك أن نسبة البارئ جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، وكما أن الواحد أصل العدد وأوله وآخره ومنشؤه ، كذلك الله عز وجل علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها ، وكما أن الواحد لا جزء له من حيث الوحدة ولا مثل له في العدد ، فكذلك الله جل جلاله لا مثل له في خلقه ولا شبه . وكما أن الواحد محيط بالعدد كله ويعده . كذلك الله جل جلاله عالم بالأشياء وماهياتها .

قال : أما الآن فإني عرفت أن هذا العلم منشؤه الواحد ، وأن الواحد ضرب مثلاً لله عز وجل ، ولكن لم تذكر ما يشفي الغليل عن عدد الاثنين . فقلت : قال بعد أن قسم العدد إلى صحيح وكسر : إن النوعين من العدد يذهبان في الكثرة إلى غير نهاية ، غير أن العدد الصحيح يبتدئ من أقل الكمية وهو الاثنان ، ويذهب في التزايد بلا نهاية ، وأما الكسور فتبتدئ من أكثر الكمية وهو النصف وتمر في التجزؤ بلا نهاية ، فكلاهما من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن حيث الانتهاء غير ذي نهاية .

بهذا عرفت أن الواحد أصل العدد ، وأن الاثنين مبدأ العدد ، وبضم الواحد إلى الاثنين كان أول عدد فرد ، لأن الواحد ليس من الأعداد لأنه أصل ، وهاهنا ابتدأ الشفع والوتر ، فالوتر الأول ليس من العدد والوتر الثاني من العدد وهو الثالث . والأعداد كلها لا تخرج عن الشفع والوتر . وهي راجعة إلى الواحد الذي هو منشؤها . فهل كفاك ذلك أن تعلم أن هذا العلم كله عند أصله يرجع للشفع والوتر

المذكورين في هذه السورة . قال : نعم . عرفت ذلك جلياً ، ولكني لا أزال أجهل أمرين : أجهل ماهية هذا العلم ، هل هو علم الحساب كما نسمع في مدارسنا إذ يقولون « أرثمتك » التي هي نفس الارتماطيقي . وإذا كان هو الحساب فالأمر ليس عظيماً . فقلت له : إن لفظ « أرثمتك » التي في المدارس قد صرفت هذا العلم عن أصله ، فإنهم قالوا : هو الحساب ولكن هذا خطأ ، إن الارتماطيقي هو فن خواص الأعداد ومنه تفرعت علوم كثيرة من الرياضيات . فقال : فأفدني بمسائل منه حتى أعرف ماهية هذا العلم . فقلت : معنى قولهم خواص الأعداد أشبه بقولنا علم التشريح ، فكما أن الإنسان إذا عرف التشريح وجد أن هذا الجسم الإنساني يستلزم علم النفس ، وعلم البيداجوجيا . وعلم الأخلاق . وعلم المنطق . وعلم الطب . وعلوماً كثيرة تجعل لأجل هذا الإنسان الساكن في هذا الجسم . فهكذا هذا العلم يحلل الأعداد ، وبه تعرف خواصها . فقال : اذكر لي عشرة منها . فقلت :

(١) خاصية الواحد أنه أصل العدد ومنشؤه ، وهو يعد العدد كله الأزواج والأفراد جميعاً ، والأعداد كلها تقسم عليه . وليس للواحد نظير في هذه المعاني كما أن المخ من خواصه القوة الفكرية ، وليس للرجل هذا الكمال ولا للعين . إن الواحد إذا رفعته من الوجود ارتفع العدد بارتفاعه وإذا رفعت العدد من الوجود لم يرتفع الواحد . فهذا سبب قولهم : إن الواحد منشأ العدد .

(٢) ومن خاصية الاثنين أنها أول العدد مطلقاً ، لأن العدد كثرة الآحاد وأول الكثرة اثنان .

(٣) إن الثلاثة أول الأفراد ، لأن أول العدد اثنان ، وهو الزوج ويليه الثلاثة وهي فرد وهي تعد ثلث العدد ، تارة الأفراد وتارة الأزواج ، وذلك أنها تتخطى العددين وتعد الثالث ، وذلك الثالث يكون تارة زوجاً وتارة فرداً .

(٤) إن الأربعة أول عدد مجذور ، ذلك أنها من ضرب اثنين في نفسه . وكل عدد إذا ضرب في نفسه يصير جذراً . والمجتمع من ذلك مجذور .

(٥) إن الخمسة أول عدد دائر . لأنها إذا ضربت في نفسها رجعت إلى ذاتها مهما كثر الضرب . وهذه صورتها ٥ ـ ٢٥ ـ ١٢٥ ـ ٦٢٥ , ٣٩٠ ، ألا ترى أننا ضربنا ٥ في نفسها . وضربنا ٦٢٥ في نفسها فكان الناتج حافظاً الآحاد والعشرات دائماً ، وهي ٢٥ ، ولو ضربت ٥ في ٢٥ لكان ١٢٥ وهكذا اضرب ما تشاء . فهذا العدد لا بد أن ينتهي بعدد (٢٥) ، وليس هناك عدد على هذه الحال .

(٦) إن الستة أول عدد تام . لأن كل عدد إذا جمعت أجزاؤه وكانت مساوية له فإنه يسمى تاماً . وهذا العدد التام قليل جداً ، فهو في الآحاد عدد ستة ، وفي العشرات ٢٨ ، وفي المئات ٤٩٦ ، وفي الألوف ٨١٢٨ ، فإذا جمعت النصف والثلث والسدس لعدد ستة . وهي ٣ و٢ و١ صار الجميع ٦ ، فهنا الأجزاء المستكنة في هذا العدد ساوته عند جمعها فسمي تاماً ، ولا يمكن أن يكون هذا في عدد قبله أو بعده إلا عدد ٢٨ المتقدم فإن أجزاءه مساوية له . وبقية الأعداد إما زائدة أجزاؤها عليها مثل ١٢ وإما ناقصة عنها مثل ٨ .

(٧) عدد السبعة يقال له أول عدد كامل ، لأنه جمع جميع معاني العدد ، فإن العدد زوج وفرد لا غير . والزوج منه أول وثان . وكذلك الأفراد . فالاثنان أول الأزواج ، والأربعة زوج ثان ، والأفراد

أولها الثلاثة. وثانيها الخمسة. فإذا جمعت الفرد الأول على الزوج الثاني، أي ٣ و٤ صارت ٧، وإذا جمعت الزوج الأول وهو ٢ على الفرد الثاني كان منها سبعة. وهذه الخاصة لا توجد لعدد قبل السبعة.

(٨) أما ثمانية فهو أول عدد مكعب، وذلك أنك عرفت من قبل أن كل عدد إذا ضرب في نفسه سمي جذراً، والمجتمع من الضرب مجذور، فهاهنا نقول: إذا ضرب المجذور في جذره الذي هو اثنان خرج من ذلك ثمانية، والثمانية أول عدد مكعب، كما أن الأربعة أول عدد مجذور، وهكذا هي أول عدد مجسم. ولا نطيل بشرحه في الهندسة.

(٩) إن التسعة أول فرد مجذور. ذلك لأن الثلاثة هي أول الأفراد، وضربها في نفسها يخرج تسعة، وليس من السبعة، ولا الخمسة، ولا الثلاثة، شيء مجذور. فإن التسعة أول عدد مجذور.

(١٠) إن العشرة أول مرتبة العشرات كما أن الواحد أول مرتبة الآحاد.

(١١) إن الأحد عشر أول عدد أصم. ذلك لأنه ليس له جزء ينطق به، بخلاف الأعداد السابقة فإنها كلها لها أجزاء ينطق بها، فيقال: نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر، ولا يقال في هذا إلا واحد من أحد عشر واثنان منه وهكذا. وهذا وأمثاله يسمى أصم ومثله ١٣ و ١٧ وهكذا.

فلأقف عند هذا لك أيها الأخ الذكي في معرفة هذا العلم، لأننا إذا تمادينا دخلنا في الأعداد المتحابة وفي زوج الزوج. وزوج الفرد ونحوها. وفي خواص الأعداد المجذورة والمكعبة وما نقلوه عن إقليدس في هذا المقام، وما أطنب فيه متأخرو الفرنجة في ذلك.

فقال صاحبي: لقد أشبعت الكلام هنا وعرفت أن هذا علم، وأنه كان عند الأمم وأنه مبني على الزوج والفرد لأن العدد مركب منهما، وهو لا نهاية له لا في الصحيح ولا في الكسور، كما أن العوالم لا نهاية لها، ولكن كيف كانت العلوم مفرعة من هذا العلم، وماذا قالوا في ذلك؟ قلت: يقولون قد تفرع من علم «الارتماطيقي» المذكور علم الحساب. وهو قواعد يعرف بها طريق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية المخصوصة، وذلك لضبط المعاملات وحفظ الأموال، فهذا العلم فرع علم «الارتماطيقي» المذكور، وهو أقسام:

(١) علم حساب الهواء: وهو علم يعرف به حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة، وهو ينفع في التجارة، ولأهل السوق، وللعوام، وللخواص إذا عجزوا عن إحضار آلات الكتابة.

(٢) علم حساب التخت والميل: ويقال له التخت والتراب، وهو العلم المشهور في مدارس العالم بالرقوم المخصوصة الدالة على الآحاد الخ.

(٣) علم الجبر والمقابلة: وبه يعرف استخراج المجهولات العددية من معلومات مخصوصة على وجه مخصوص.

(٤) علم حساب الخطأين: وهو علم أسهل من علم الجبر، ومنافعه أقل منه.

(٥) علم الدرهم والدينار: وهو علم يعرف به مسائل ما لا يحل بالمسائل الجبرية.

(٦) علم حساب الفرائض: وهو الذي يقرؤه الناس في علم الفقه.

(٧) علم حساب العقود: أي عقود الأصابع، وقد وضعوا كلًّا منها بإزاء عدد مخصوص، ثم رتبوا أوضاع الأصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً، وبالجملة فكما كانت الأرقام البسيطة التسعة تدل على جميع الأعداد بالتفنن فيها فهكذا أصابعنا العشرة فعل بها ذلك.

(٨) علم التعابي: وهو علم يتعرف به كيفية ترتيب الجيوش والعساكر في الحروب، وكيفية تسوية صفوفها، وهو علم عند علماء الجيوش كالفرائض عند علماء الفقه كلاهما علمه خاص به.

(٩) علم حساب النجوم: وبه تعرف الدرج والدقائق والثواني والثوالث بالضرب والقسمة، وهو خاص بالفلكيين.

فبهذا عرفت أيها الذكي علم خواص الأعداد وما تفرع عنه من الحساب والجبر والمقابلة، وبقية العلوم التسعة، وعرفت كيف كان الواحد في نفس العاقل قد نشأ منه الزوج والفرد والمتوالية العددية والمتوالية الهندسية التي شرحها علماء الحساب والهندسة والجمع والطرح والضرب والقسمة وخواص الأزواج وخواص الأفراد، كل ذلك منشؤه الزوج والفرد اللذان نشأا من الواحد، ولعلك بهذا أيقنت أن قوله تعالى هنا: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝﴾ هو هذا العلم الذي شمل الحساب كله.

فقال: نعم. عرفت ذلك معرفة جيدة، وأيقنت أنك أجبت إجابة تامة، وأن العلوم الحسابية مفرعة على هذا العلم المفرع على الزوج والفرد كما في الآية، ولكن أريد أن أعرف بقية العلوم، هل هي مشتقة أيضاً من الزوج والفرد وأنهما من الواحد، على شريطة أن تفهم بطريق يعرفها من لم يدرس العلوم؟.

فقلت: إن الهندسة يبحث فيها عن النقطة والخط والسطح والدائرة والمثلث وجميع الأشكال وأجزائها، وقد فعلوا فيها ما فعلوا في علم العدد لأنها أيضاً معدودة، ألا ترى أن الخط من النقطة، والسطح من الخط، والجسم من السطح؟ فالنقطة كالواحد والخط كالاثنين، والسطح كالثلاثة، والجسم كالأربعة. وقد قالوا: إن أصل الأشكال المضلعة المثلث والمثلثان مربع، وثلاث مثلثات مخمس، وهكذا بالغاً ما بلغ، فالعدد ملازم لها ١ ـ ٢ ـ ٣ وهكذا، وفيها الأزواج والأفراد وكل ما في الحساب، والزوج والفرد منهما جميع الأشكال سواء بسواء كما في الحساب. وأيضاً علم الفلك لم يخرج عن العلمين. وعلم الموسيقى ما هو إلا عدد النغمات كالحساب سواء بسواء، وهذه العلوم وفروعها قد بلغ عددها العشرات. ثم إن العلوم الطبيعية لا تعرف إلا بالعلوم الرياضية وقد عرفت إجمالها، وهناك علم ما وراء الطبيعة، وهو العلم الأعلى، وهو علم يشمل سائر العلوم. ومبدأ هذا العلم أن يقال: كل موجود إما واحد وإما كثير، فالوحدة ملازمة لكل موجود، فالعالم كله واحد، والنوع الإنساني واحد، ونوع الكواكب واحد، ومع هذه الوحدة تكون كثرة أقلها اثنان، فالإنسان وإن كان واحد فهو كثرة بالأفراد، وجسم الإنسان وإن كان واحد من جهة فهو كثير من جهة أجزائه، فالعالم فيه الوحدة والكثرة التي أقلها الاثنان. وهذا بعينه هو الشفع والوتر المذكوران في هذه السورة. اقرأ ما ذكرته هنا في الشفاء لابن سينا، وفي الإشارات وغيرها.

بهذا يعرف المسلمون سر ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾[الفجر:٣]، وبهذا فليعرف المسلمون سر القرآن، فلعمرك لم ينزل الله القرآن لقوم يقرؤونه ولا يفكرون فيه. وإذا فكروا لا يتعلمون وإذا تعلموا لا يعملون.

انظر أيها الذكي كيف كانت هذه السورة قد أقسم الله فيها بالفجر والليل إذا ذهب، أي: بمبدأ الحركات في الأعمال. ثم أقسم بكل علم أنزله على قلوب عباده في الشرق والغرب. عند اليونان وعند الرومان وعند العرب وعند أوروبا.

أقسم الله بالعلوم كلها. أقسم بالشفع والوتر اللذين هما أصل الأعداد. والأعداد ساريات في العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة. فهل أقسم الله بهذا في القرآن لنكتفي بحفظه، أو قراءته في الصلاة، أو التعبد به؟ كلا. والله لم يقف القرآن عند هذا الحد. القرآن نزل لأمم تعقل، ولما قرأه آباؤنا العرب أدرك بعضهم مغزاه وحض على العلوم، ولكنه انتقل إلى أمم مداركها لم تصل إليه. فاكتفوا بالنجاسة والطهارة والبيوع والفرائض، وعاشوا بعد ذلك في الجهالة والنوم العميق.

وإني أقول الآن: هانحن أولاء نكتب هذا إلى أمتنا العربية وإلى الأمم الإسلامية، وإني أنذر أمتنا الإسلامية إن لم يبحثوا في العلوم ولم يعمموا التعليم ولم يدرسوها؛ فإنهم يكونون طعمة الأمم وصرعى الأوروبيين الذين لا يرحمون، إن الله سبحانه لم يأذن لأمة أن تعيش فوق هذه الأرض إلا الأمم العليمة، ولقد خزن في القرآن تلك العلوم بالإشارات القدسية لتفتح بمفاتيح الفكر، وهاهو ذا الآن قد جاء أوان استيقاظ الأمم الإسلامية فليجدوا الله ناصرهم، وهو خير الناصرين.

تذكرة: ولما كانت مسألة الشفع والوتر بهذه الأهمية وأدخل في دائرتها جميع العلوم العلوية والسفلية كما رأيت وأن الشفع والوتر ومنهما جميع الأعداد وقد تفرع عنها تلك العلوم؛ توسعت في هذا البحث في كتابي «نظام العالم والأمم» الذي أثبت ملخصه المكتوب بمعرفة الجمعية الآسيوية الفرنسية في مجلتها، ويحسن أن أثبت هنا ما ذكرته الجمعية مختصاً بالوتر. قالت:

وقد أنشأ المؤلف نظرية في التوحيد «الوحدة العامة» عجيبة بفطنة وذكاء عجيب ومهارة فائقة ودراية تامة منطبقة تمام الانطباق على مبادئ القرآن، وملائمة كل الملاءمة لما شرحه العرب من دائرة الوجود والنظريات الإفرنجية، والدورة الفلكية، وسلسلة المواليد الثلاثة في الطبيعة، وهي نظرية الترقي من البسيط إلى المركب، ومن الجزء إلى الكل التي بنى عليها المؤلف طريقة الوحدة العامة، إلى آخر ما قالته الجمعية المذكورة، وكتبناه في سورة «النور» فراجعه هناك إن شئت.

وبهذا تعلم أن العالم الأوروبي اليوم قد عرف هذه الحقيقة مما كتبناه. وإذا قرأت التقريظ كله المذكور في سورة «النور» عجبت كيف كان العالم الغربي يقظاً مفكراً، وكيف يقولون: إن هذه المباحث التي نقولها أسباب جلية لارتقاء الإسلام، وكيف يؤيدون مسألة الوتر المذكورة في هذه السورة، ويعرفون أن هذه الآراء كافلة برقي الشرق.

اللهم إني أحمدك أن أيدت هذا التفسير قبل تأليفه، وأحمدك أن جعلت فلاسفة أوروبا يشهدون بأن دين الإسلام كافل لجميع العلوم كما في التقريظ المذكور.

اللهم إني قد أفرغت جهدي. اللهم إن المسلمين ليس لهم عذر بعد هذا، فلتقم أيها الذكي بنشر ما كتبناه وإذاعته بما تراه، واحذر أن تعطي العلم غير من هو أهل له، واعلم أن الإسلام سيأخذ دوره، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

فكاهتان حسابيتان في الأرقام البسيطة وما يقرب منها

الفكاهة الأولى

حكي أن يهودياً جاء إلى سيدنا علي كرم الله وجهه فقال: إذا عرفتني العدد الذي يقسم على ٢ و٣ و٤ وهكذا إلى عشرة فإني أسلم، فقال علي كرم الله وجهه كما حكي: اضرب أسبوعك في شهرك فما تحصل فاضربه في عدد شهور سنتك، وذلك ٢٥٢٠، وذلك ٧ × ٣٠ × ١٢. ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير وقال لي: هذا حسن، ولكني أريد أن أعرف كيف يؤتى بهذا العدد من طريق الحساب المتعارف. فقلت: هذه المسألة من مسائل المضاعف البسيط، فهاهنا عدد ٢ وعدد ٤ داخلان في ٨، وعددا ٣ و٦ داخلان في ٩، ونزيد عليهما ٥ و٧، فتكون الأعداد هكذا ٥ × ٧ × ٨ × ٩ = ٢٥٢٠. ويصح أن يؤتى بعدد ١٠ ويحذف ٥، ويؤتى بعدد ٤ بدل ٨ فيكون هكذا ٤ × ٧ × ٩ × ١٠ وهذا يقال له أربع عينات، لأن كل واحد فيه حرف «ع». انتهت الفكاهة الأولى.

الفكاهة الثانية

يحكى أن قروية مصرية من بلدة «برما» من الوجه البحري، صناعة أهلها اصطناع الفراريج وتفريخها والقيام عليها بدل الدجاج، كانت تحمل سلة فيها بيض، فزاحمها إنسان فسقطت السلة وتكسر البيض. فقيل لها: ما عدد البيض حتى ننقدك ثمنه؟ فقالت أنا لا أعرف عدده، ولكن إذا قسمناه على ٢ أو ٣ أو ٤ أو ٥ أو ٦ فإن الباقي يكون واحداً، وإن قسمناه على ٧ لا يكون له باق. فقال صاحبي: وكيف تحل هذه المسألة العسيرة؟ فقلت: تحل بنفس المضاعف البسيط مع زيادة تفكر. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: عدد ٢ داخل في عدد ٤، فيؤخذ ٤ ويضم إليه ٥، وهكذا عدد ثلاثة ويلغى عدد ٢ المضروب في ثلاثة للحصول على عدد ٦، فالعوامل هي ٣ و٤ و٥، وبضربها في بعضها يحصل ٦٠، وهذا العدد يقبل القسمة على الأعداد ٢ و٣ و٤ و٥ و٦، ولكنه لا يقبل القسمة على ٧ فلنضربه في ٢ فلا يقبل، فلنضربه في ٣ فيكون كذلك، وهكذا في ٤، ولكنا إذا ضربناه في عدد ٥ كان الحاصل ٣٠٠ وبزيادة واحد يكون ٣٠١، إذن هذا العدد يقبل القسمة على ٧، وبحذف ١ يقبل القسمة على الأعداد من ٢ إلى ٦ وهو المطلوب. انتهت الفكاهة الثانية. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر: ٣]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾

يقال: إن الجنس السامي الذي كان منبته بين النهرين أو جزيرة العرب وجدوا قبل الميلاد بأربعة آلاف أو بخمسة آلاف سنة في بوادي الشام والعراق وسينا ومصر، وسكن المدن بعضهم، والبعض الآخر ظل بدوياً حتى استولوا على العراق قبل الميلاد بنحو ٢٥ قرناً، ثم مصر قبل الميلاد ٢٣ قرناً،

وهؤلاء هم العمالقة الذين أدخلوا الخيل في مصر، ولكنهم أذلوا أهلها وقد خرجوا من مصر بعد خمسمائة سنة، وقد حكم الذين دخلوا ما بين النهرين من سنة ٢٤٦٠ إلى سنة ٢٨١. وهذه تسمى الدولة البابلية الأولى. وآثارهم موجودة إلى الآن. ثم إن هؤلاء العمالقة لما خرجوا من بين النهرين وخرج إخوانهم من مصر تفرقوا في جزيرة العرب فصاروا قبائل وعشائر وبطوناً وأفخاذاً. وكونوا دولاً في اليمن والحجاز وغيرهما. ومن هؤلاء العرب البائدة كطسم وجديس وعاد وثمود. ويقال: إن القحطانيين تغلبوا على قوم عاد وحلوا محلهم بعد ما نزلت بهم الجائحة السماوية، إذ كذبوا نبيهم هوداً صلى الله عليه وسلم. والقحطانيون قد تقدم ذكرهم في سورة «سبأ»، فهؤلاء هم الذين حلوا محل قوم عاد وقد نزحوا إليهم من جهة بابل.

ثم اعلم أن الكشف في بلاد العرب لم يتم إلى الآن كما تقدم في سورة «سبأ»، ولقد وجدوا هناك أمماً لم تكن معروفة عند أسلافنا كقوم يقال لهم «معين». ثم اعلم أن العرب ما رأوا أثراً قديماً إلا سموه «عادياً»، وجاء في معجم ياقوت في مادة «جش»: قوله: جش إرم جبل عند أجا أحد جبلي طيئ أملس الأعلى سهل ترعاه الإبل والحمير كثير الكلأ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم فيه صور منحوتة في الصخر. وقال في مادة «صير»: والصير جبل بأجا في ديار طيئ يكون شبه البيوت.

ثمود: أما ثمود فقد ذكرت في البلاد التي غلبها «سرجون» الآشوري سنة ٧١٥ قبل الميلاد في الحجاز، ويؤخذ من سياق القصة أنها كانت بجوار مكة أي جنوبي الحجر، وقد ذكرت في تاريخ اليونان نحو تاريخ الميلاد وبعده. وعينوا مكانها في الحجر كما في القرآن تماماً. وهم يسمونها «ثمودنى» وبجانب الحجر مكان يسمى «فج الناقة». ومدائن صالح التي هي الحجر قد وجد فيها نقوش على الصخر، وأهم تلك الأطلال ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج. وقرؤوا عليها تبركات ونقوشاً، وهذا نص بعضها: هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه، ثم تبع ذلك هناك لعنات تصب على من يبيع أو يرهن أو يشتري هذا القبر، إلى آخره فلا حاجة لذكرها.

والمشهور أن ثموداً كان مقامها في الحجر المعروفة بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحاج الشامي إلى مكة. ويقال إن ثمود كانت في اليمن قديماً. فلما ملكت حمير أخرجوها إلى الحجاز. اهـ.

واعلم أن الكشف الحديث كله يخدم القرآن، ثم تعجب من اتساع العلم في كل شيء، في العلوم العقلية، والرياضية والطبيعية والأثرية. ألا ترى كيف نقل لنا التاريخ عن الفيلسوف ابن رشد أنه كان يتحادث مع أحد العلماء فخرجت من فيه كلمة جعلتهم يعتقدون فيه الكفر، وهو أنه قال: وهل عاد وثمود موجودتان حتى يتكلم في هلاكهما؟. فانظر كيف جاء الكشف الحديث ورأينا ثمود في كتب اليونان، وهناك ما يدل على مكانها وإن كان هذا كله لا يزال في احتياج إلى المزيد. وانظر كيف جاء في معجم ياقوت أن هناك صوراً منحوتة في الصخر لعاد، نعم. إن هذه الصور إلى الآن لم يقرأها أحد. ولكن العلم اليوم مسرع خطاه إلى البيان كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[القيامة: ١٩]، وكما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣].

تذكرة: قد كان المرحوم كمال بك العلامة الأثري الكبير ألقى محاضرة بدار المعارف المصرية، وكنت ممن حضر ذلك الدرس، وكان قد أحضر أمامه نحو ١٣ مجلداً، قال: إن هذه المجلدات هي اللغة الهيروغليفية المشروحة باللغة الفرنسية. وقال: إن هذه اللغة هي أصل اللغة العربية. وشرح ذلك شرحاً وافياً. غاية الأمر أن هناك بعض الإبدال والقلب مما يجعل الناس يظنون أنها غير العربية، وذكر لنا للخبز عند قدماء المصريين ٤٢ كلمة، مثل: «عيش» و«بتاو» و«خبز الملة» وهكذا. وهذا الكتاب قد تم تأليفه، وهو قاموس اللغة المذكورة باللغة العربية.

ثم قال: لقد وجدت مكتوباً في الدير البحري بالوجه القبلي أن الأمة المصرية في الأسرة الثامنة عشرة كثر عددها فهاجر منها طائفتان: طائفة إلى جهة شمال أفريقية كطرابلس وتونس الخ. وطائفة إلى جزيرة العرب، ولعل منهم عاداً وثمود، وكان هناك المرحوم حفني ناصف بك وبعض إخواني. فقال أحد دكاترة المقتطف وهو الدكتور صروف: هل تقرون على ذلك أيها الشيوخ؟ فقلنا: إن ديننا وراء الدليل. إذا تم الدليل فالدين لا يمنع شيئاً. وهل جاء في القرآن أن عاداً وثمود من جهة خاصة. انتهى الكلام في عاد وثمود وهي اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ (١٥) ﴾

لقد اطلعت على ما ذكرته لك في هذا المقام عند التفسير اللفظي، وعرفت كيف كان علم الحكمة قديماً وحديثاً لا يجعل السعادة لأحد في الدنيا إلا براحة الضمير، إن راحة الضمير لا ينفعها مال ولا جمال ولا صيت ولا ملك، وإنّما الذي يرفع المرء أن تطمئن نفسه، ولا يمكن أن تطمئن إلى ما يصيبها إلا إذا هذبها الدهر بمصائبه فصقلها.

هذا ملخص كلام كبار الفلاسفة، ولكن انظر إلى الآية هنا فإنه فيها جعل المال ونحوه لا ينفع يوم القيامة. وختم الرسالة بمسألة الرضا. وخاطب النفس المطمئنة الراضية المرضية. وهذه المطمئنة يدخل فيها ما ذكره الفلاسفة إذا كانت مؤمنة، ويدخل فيها ما استقر بقلبها أن كل ما أصاب فإنّما هو من عند الله، فمن اطمأنت نفسه لذلك اطمئناناً تاماً فهو أهدأ بالاً ممن ذكرهم حكماء الأمم، لأنه لا يحتاج إلى مصائب تهذبه ولا شدائد تنغصه، بل العقيدة تكفيه، إنّما هذه العقيدة تنفع وتضر. تنفع الفطن وتضر الغبي، فإن الفطن يجهد في كل شيء إلى النهاية، ولا يدع مجالاً للتهاون في مطالبه. وأما الغبي فإنه يترك الأمور سبهللاً ظاناً أن هذا من الدين. وما علم أنه مغرور جاهل، فإن هذه العقيدة نفعها أنها تكون سلوة للمحزونين لا أنها باب لكسل العاملين، ونوم الغافلين، وتكأة العاجزين، وفراش الخائبين، وحجة المفلسين.

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾[الفجر: ١٥] إلى آخر السورة.

وبهذا تم تفسير سورة «الفجر»، وذلك في شهر محرم سنة ١٣٤٥ هجرية، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البلد
هي مكية
آياتها ٢٠، نزلت بعد سور ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

هذه السورة فيها مقصدان:

المقصد الأول في أمرين: الأول: فيما يبتلى به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب والكد، وأنه حكم عليه بذلك ليكون ترقية لروحه، وتنمية لأخلاقه، وتهذيباً لنفسه.

الثاني: في كيفية خلقه. وأنه إنّما ابتلي هذا البلاء لما أنعم عليه بأعضاء الحس، وأعضاء الحركة. وأعضاء الجمال. وأعضاء النطق. فبالحس يعرف ما حوله، وبالحركة يفعل ما يقتضيه العقل، وبالجمال يسر جليسه فيتعاون مع أبناء جنسه، وبالكلام يفهمون ما عنده من المقاصد، فهو إذن كثير الشؤون، علم بما في العالم، وعمل لإصلاح شأنه وشأن غيره وهيئة يزدان بها، ومشاركة لغيره في الرأي، فكما عمل بأمر العقل والحواس بأن سخر أعضاءه؛ هكذا نشر فكرته بلسانه بين عشيرته، فهو ملزم بالعمل ملزم بالتفهيم كي تحصل المشاركة والمساعدة، ولا جرم أن هذه أعمال واسعة النطاق عظيمة المقاصد، لا تحصر أنواعها، ولا تعرف نهاياتها فهو لهذا مخلوق، وإن قصر فهو معذب منبوذ، فإذا لم يفكر فيما رأته الحواس؛ أو لم يعمل ما تطلبه النفس من الأعمال على الوجه المرضي؛ أو إذا لم يكن حسن الأداء في القول؛ أو لم يكن حسن الهيئة مقبول الطلعة عند من هم حوله؛ حاق به الذم والذل، هذا كله في الدنيا.

فأما في الآخرة فهناك أشأم العذاب، فإذن هذه الأعضاء، وهذه الحواس، وهذه الأعمال لها ثمرات على مقتضاها، وهذا هو **المقصد الثاني**، وهو أنه قد قدر عليه أن يكون في نصب، وأي فائدة يجنيها بعد هذه الحياة من حواسه المنظومة، وأعضائه المقومة وهيئته المكرمة، فذكر أن فائدة الإنسان أن يقتحم أشق الأعمال كأنّما هو في طريق في الجبل. فكما يقاسي من يسير في طريق الجبال مشاق خاصة ليست كمشاق الناس، فهم في الأودية يهيمون، وفي المزارع يسقون، وفي البيوت نائمون. أما هذا فليكن أعلى مطلباً، وأرقى مأرباً، وأصفى مشرباً، وأهنأ عيشاً، و ذلك لا يكون إلا بالصبر على مشاق الأمور. وما لا يتيسر للجمهور وهو ضبط النفس وحبس هواها. وذلك بأمور ستة: ثلاثة منها عملية، وثلاثة منها عقلية نفسية. فالثلاثة العملية أن يكون رؤوفاً بنوع الإنسان كله، سواء أكان من أهل وطنه ومملكته أو غيرهم، وسواء أكان الوطني معه بعيداً أو قريباً. فإذا كان الله عام الجود والإحسان يرسل ضوء الشمس على الناس جميعاً والحيوان؛ فهكذا فلتكن الطبقة العليا من الناس يكون إحسانهم عاماً لا يختص بأمتهم، فيحسنون إلى من ليس من قبيلتهم، وإلى من هو قريب ومن هو بعيد من قبيلتهم. فالإحسان لمن ليس من القبيلة أو الوطن فهو عتق الرقبة بإبطال الرق والعبودية بقدر الإمكان، والإحسان إلى المسكين الذي لصق بالتراب من فقره، وإلى اليتيم الذي هو قريب من المحسن، يرجعان إلى من هم من قومك القريب والبعيد، وإنّما قلنا: إن الرقيق من غير القبيلة والوطن، لأن الرقيق عادة إنّما يكون من قوم محاربين، فأصبحت العقبة ومشاقها راجعة إلى خدمة النوع الإنساني كله بقدر الإمكان مع الحكمة التامة. وأما الثلاثة النفسية العقلية فأن يكون مفعم القلب بالإيمان. ويتبع ذلك أن يكون حكيماً مدركاً أشرف الأمور، وأن يكون رحيم القلب صابراً على بذل الأموال، وعلى مصائب الأيام، وعلى إيذاء الناس، وأن يكون كل واحد من هذه الطائفة موصياً أخاه بهما فيقول: لا تظلم الناس وأحسن إليهم واصبر على أذاهم. فهذه هي العقبة. فالمال مبذول، والقلب مطمئن بالإيمان، مهذب بالصبر، مملوء بالرحمة، واللسان منطلق بالتوصية بذلك، فهؤلاء هم أصحاب اليمن وضدهم أصحاب الشؤم، هذا ملخص السورة وتقسيمها. ولنشرع بالتفسير اللفظي للسورة، فنقول ومن الله التوفيق:

المقصد الأول
التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ فـ« لا » مزيدة كما في نظائرها، وتقدم الكلام على تلك الزيادة. وقوله: « البلد »، مكة، وقوله: « حل » أي: يستحلون إيذاءك وقتلك وإخراجك. أقسم الله بالبلد الحرام وبآدم وذريته على أن الإنسان خلق في المشاق ومكابدتها، ولا جرم أن من المشاق العظيمة أن مثلك مع عظيم مقامه يستحل بهذا البلد فيؤذونك، أو يهمون بقتلك، أو يستحلون إخراجك مع أن صيد الحيوان لا يحل فيه. وقوله: ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ عطف على « هذا البلد » وهو آدم، ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ هي ذريته، أقسم الله بأشرف الأمكنة وبجميع السكان لجميع الأمكنة من بني

آدم أن الإنسان مغمور في الشقاء . فهو وإن كان ملزماً أن يعيش مع أبناء وطنه ويحفظ حقوقهم تعتريه منهم النوائب ، وتحل به منهم المصائب . فالشر من الخير مولود ، والشقاء من النعيم موجود ، فالبلاد تجمع الناس لحياتهم ، ولكنها جمعت إلى نعمة الحياة شقاء الحسد والعداوة والبغض والمكابرة والتنافر والتباغض ، كأن الله يقول : إن بني آدم مصابون في أماكنهم ، معذبون في بيوتهم ، أذلاء في قصورهم ، وأكبر من أصيب بوطنه وعذب من جهة أهله هو أنت يا محمد ، إذ حللت بينهم ونصحتهم فكانوا عليك حرباً وأصلوك نار الأذى ، ولم يذكر الله مكة وحدها إلا ليعرفنا مقدار ما أصيب به صاحب الرسالة ، وإلا فكل امرئ وعالم يقاسي الأمرين من أهل بلده . كلما علت منزلته ازداد أذاه . هذه هي الحكمة في ذكر البلد مع الوالد والولد . فإن بني آدم يتوالدون في البلدان ويكون بينهم الخصام والشقاق والشنآن وتكثر العداوات . وهل بعد نبي جاء فأخرج العرب من ذلهم وقد كانوا تحت رحمة الفرس من ناحية والروم من ناحية أخرى لكل منهم نفوذ من جهة ، فجمعهم وضرب بهم الفرس والروم . فهل بعد إنعامه إنعام؟ وهل بعد إساءته من إساءة؟ ولا جرم أن ذلك يدعو قارئ هذا التفسير أن يعلم الناس أننا إنّما خلقنا لنعمل للفضيلة ونشر الحكمة . وأن علينا أن نتحمل ما يصيبنا في سبيل ذلك . فليس للمرء أن يعمل إلا لله تعالى ، وهو سيرفعه في الآخرة وينصره في الدنيا ، كما تحمل صلى الله عليه وسلم أذى قريش ثم نصر بعد ذلك في مقابلة أذاهم . ووصاه ووصانا ووصى كل مسلم أن يكون صابراً ، وأن يكون رؤوفاً ، وأن يكون محسناً . فانظر كيف أقسم بالوالد والولد وبالبلد أن الإنسان هكذا مخلوق . فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك حيلة إلا صرف الجهد مع نفع الناس والصبر على أذاهم ورحمتهم . وهذه هي الأخلاق الإلهية لأن الله ينشر رحمته على البر والفاجر ، والعاصي والطائع ، فليكن المسلم كنبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . وليكن مسلمو هذا العصر ومن بعده نوراً يضيء . فقلوبهم بالحكمة مشرقة ، وعلومهم جامعة لأشتات علوم هذه الدنيا ، وهم خلفاء الله في الأرض بعد أن يصيروا علماء عاملين بما ذكرنا في هذا التفسير من الحكم القرآنية . فقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ نصب ومشقة ، يقال : كبد الرجل كبداً ، إذا وجعت كبده ، ومنه المكابدة ، ولا ريب أن الإنسان لا يزال في الشدائد من يوم أن كان في ظلمة الرحم ، إلى الولادة ، إلى قطع السرة ، إلى الأمراض أيام الرضاعة ، إلى إيذاء التأديب ، إلى عداوة الناس ، إلى العوارض الجوية والقومية وما أشبه ذلك ، إلى الموت . ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ الإنسان ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ فينتقم منه ، وهل يظن لشدته في نفسه أنه لا يقدر عليه الله ، ﴿ يَقُولُ ﴾ هذا الإنسان ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي : كثيراً ، جمع لبدة ، وهو ما تلبد ، أي : كثر واجتمع ، أي : أنفقت كثيراً في مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أولم يعلم أن الله عالم أنه لم ينفق أصلاً ، أو أنفق قليلاً لا مالاً لبداً ، أو أنفق للرياء والسمعة ، وهذا القول منطبق على معظم هذا النوع الإنساني ، يغتر بقوته فلا يفكر في قوة فوقها . ويرائي ويتباهى بما ليس من فعله ، فأهل الأرض غالباً ملوثون بهذه الأخلاق ، يقولون ما لا يفعلون ، ويغترون وهم مخلوقون ، ولا يظنون أن الله يسألهم يوم القيامة عن قواهم ، وعن نياتهم ، وعن مالهم ، فيقول لأحدهم : من أين اكتسبت المال ، وفيم أنفقت ، وماذا عملت فيما علمت؟ وهكذا .

وهذا القول عام يشمل أبا الأشد بن كلدة، فإنه كان يبسط تحت قدمه أديم عكاظي ويجذبه عشرة فينقطع ولا تزال قدماه، ويشمل الوليد بن المغيرة وغيرهما مما ورد في الأخبار التي ذكرها المفسرون.

ثم أخذ يشرح خطأ نظرية الإنسان في اعتقاده أنه لن يقدر عليه أحد، ويبين أنه مخلوق وأن قدرته من خالقه لا منه، وأنه أعطي نعماً فهو محاسب عليها، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما، ولكل عين سبع طبقات وثلاث رطوبات موضوعات بدقة، بحيث لو اختلت طبقة عن مكانها، أو وضعت رطوبة في غير محلها لم ترسم صور المرئيات على الشبكية التي وضعت في مكان بحساب دقيق لا يدركه إلا من درسوا علوم الضوء، وأهل الحكمة والنظر. ﴿ وَلِسَانًا ﴾ يعبر به عما في ضميره ويذوق به الطعام فيعرف ما يلائم وما لا يلائم، ويحرك الطعام في اللسان ليتم طحنه بالطواحن من الأسنان. ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما فاه، ويستعين بهما على تقطيع الحروف الهجائية تكميلاً لعمل اللسان في إفهام الغير، وينتفع بهما في الأكل والشرب، وهما كمصراعي الباب، وهكذا ما تحتهما من الأسنان، فهما بابان يقفلهما الإنسان على هذا اللسان فلا ينطق إلا عند الحاجة إليه، وليحفظ من الغوائل للطفه، ولتبقى الرطوبات في الفم فلا تجف بتعرضها للهواء دائماً فيفوت الغرض من ترطيب الفم. واعلم أن عجائب جسم الإنسان مذكورة في سور كثيرة أذكر منها سورة «آل عمران»، ففيها عجائب العين والأذن بغاية الإسهاب، وعجائب أخرى جسمية، وأقرب سورة فيها ذلك سورة «عبس». ثم قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ طريقي الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلالة، والنجد: المكان المرتفع، ضد تهامة، وهو: المنخفض. يقول الله: أنا لم أقتصر على النعم الظاهرة، بل أودعت في نفسه هداية يفرق بها بين الخير والشر في سائر الأمور، ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ «فلا»، أي: فهلا، والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة، والعقبة: الشدة، فالأعمال الصالحة عقبة، أي: طريق في الجبل، وعملها اقتحامها، لأن فيها مجاهدة النفس ومعاناة المشقة، فلا يكفي أن يقول: أهلكت مالاً كثيراً، رياء وسمعة. كلا. بل لا بد من الإنفاق فعلاً مع خلوص النية، وهذه مشقة شديدة وإنكار للنفس وشهواتها وهواها.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة، إنّما اقتحامها ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أفلا يتجاوز تلك العقبة بعتق النسمة، ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ أي: ذي مجاعة وشدة، ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ ذا قرابة ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قد لصق بالتراب من فقره، وعطف على قوله: «اقتحم» ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ أوصى بعضهم بعضاً ﴿ بِٱلصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ بالرحمة على عباده، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ اليمن أو اليمين. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب أو حجة أو مصنوعات عجيبة ﴿ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ الشمال أو الشوم ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ مطبقة، يقال: أوصدت الباب، إذا أطبقته وأغلقته. ويقال: أوصد الباب وآصده، فعلى الأول قرئ «موصدة»، وعلى الثاني قرئ «مؤصدة» بالهمز.

انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة لطيفتان:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾

اعلم أن هذه قاعدة عامة، فالله وضع قاعدة عامة لا يسلم منها أحد، وهي أن من على ظهر هذه الأرض معرض لما يؤلمه سواء في ذلك الفقراء والأغنياء، والمرضى والأصحاء، والجهال والعلماء، والسوقة والملوك، والأمم والأنبياء. فالله سوّى بينهم في القاعدة العامة، ولكنه فرق بينهم في الجزئيات فهاك مثالاً منها واحداً لتقيس عليه ما عداه، أذكره كفاكهة غريبة تشرح الصدور وتسر الجمهور، ذلك أني قرأت شعراً في هذا المعنى لبعض علماء الإنجليز، فطلب مني تلاميذ المدرسة نظمه بالعربية فأجبتهم ولألخص المعنى ليكون أسهل في حصر معناه.

وصف حال الأغنياء والفقراء

فقال: هناك فريقان: فريق عاش تحت سماء بهجة المناظر، مشرقة الأنوار، صافية الأديم، لا يخالط صفاءها كدر، حتى إذا ما لمحوا نقطة سوداء في جو السماء زلزلت أقدامهم وحيل بينهم وبين نفوسهم، فأصبحوا على سمائهم ساخطين، ومن السعادة يائسين، وآخرون عبس الدهر لهم وكشر عن نابه، فسماؤهم مسودة الأديم مكفهرة الوجه مغبرة الأرجاء، فلا ضياء يلمحون، ولا نور ينظرون. فإذا ظهر من البرق سناه؛ والرعد قاصف، والنوء مجحف، والسحاب مظلم؛ طاروا فرحاً بهذا النعيم وأضحوا في هناء مقيم. فالأول مثل الأغنياء المترفين. أزهرت لهم الدنيا وسكنوا القصور، وبنوا الدور وعانقوا الحور، وهم بغناهم وثروتهم فرحون. فهؤلاء إذا شاكتهم شوكة يألمون. والثاني مثل الفقراء يسكنون الأكواخ، ويتعرضون للحر والقر. ويلبسون الخشن ويأكلون ما يحقره المترفون، يعيشون في شظف من العيش وضيق، فهؤلاء إذا بسم لهم الدهر ابتسامة بأن أعطوا قليلاً من النقود أو غيرها طاروا فرحاً كأنهم ملكوا ملك سليمان. فكأن الله لما أعطى الأغنياء مالاً أعطى الفقراء في مقابلة ذلك سروراً بالقليل، وعلمهم الصبر. فأما الأغنياء فهم كل يوم في حزن لكثرة ما يضطربون لما لم يعتادوا من مشاق الحياة، وهاك نص ترجمة النظم المذكور:

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء

من شعر ترنش الشاعر الإنجليزي

قوم صفت لهم الدنيا ... وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر ... لم تحجبهم عنها حجب
فإذا ما اغبر بأفقهم ... مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم ... ليل فيه السود النوب
فإذا لمحوا من بارقة ... فرحوا جذلاً وبهم طرب
هذا مثل فيه عظة ... لذوي التوفيق إذا ضربوا

فانظر زمراً سكنوا مصراً ... وبنوا قصراً ولهم ذهب
ولهم نعم فيها نعم ... فإذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا ... إن شاكهم وبر صخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا ... مما من عليهم حرب
وكأن المال جهنمهم ... وثراء المال لهم عطب
وترى رهطاً سكنوا الأكوا ... خ فذا شعر هذا قصب
وحياتهم في مخمصة ... ومعيشتهم أبداً وصب
حمدوا الرحمن على نعم ... وبه فرحوا وله انتسبوا
فكأنهم لما سلبوا ... ما أعطاهم منه كسبوا
فالحب كساهم من حلل ... وبكأس سعادته شربوا

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾

اعلم أن الناس في سلوكهم الجبال واقتحامهم طرقها؛ يمثلون أحوال الناس في أعمالهم، فهم درجات في ذلك الاقتحام. وهكذا الناس فهم في فعل المكارم والإيمان درجات. تكون تلك الدرجات ظاهرة لهم يوم القيامة. فقد ورد أنهم على الصراط المضروب فوق متن جهنم الذي يقدر بمسيرة ثلاثة آلاف سنة. وحوله كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان. فهم على هذا الصراط منهم الناجي نجاة تامة، ومنهم المخدوش، ومنهم المكدوش في النار، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمر كالفارس، ومنهم من يمر كالراجل يعدو، ومنهم من يمر كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم الزالون، ومنهم من يكردس في النار.

فهذه الدرجات الثمانية في السير على الصراط تشمل آلاف الدرجات. ومبادئها ما نحن عليه الآن في هذه الحياة من علم وعمل. ونحن الآن نجاهد في اقتحام العقبة. وكل منا له مقام معلوم. وكل امرئ يعرف من نفسه ما تكن من حب العلم أو بغضه، وحب الناس أو بغضهم، وهل هو مجد لمصالحهم، وهل هو قائم بشكر مواهبه كلها. قال بعض أدباء أهل العصر تحت العنوان التالي ما نصه:

بين الحياة والنية

ما رأينا فيما رأينا أشقى من هذا الذي كانت حياته مناقضة لضميره. قال «تولستوي» في هذا المعنى: إنه بالرغم مما نبرر به خيانتنا للإنسانية فإن تلفيقاتنا تذهب سدى أمام الحقيقة الراهنة، يموت الفقراء كداً ونحن نسرف في الغذاء والثياب، وإكراه الآخرين على ما لا فائدة منه، نتلهى به من الشقاء المعنوي الذي يقلق ضميرنا مهما يكن صوت ذلك الضمير ضعيفاً. هذا ما يجعل الحياة التي يقدمها إلينا إخواننا وهم يتألمون حياة مسمومة.

ثم قال: ليس الغني هو الذي تناقض حياته العملية ضميره وحده، بل هم جماعة القادرين في كل نوع وفن يسمعون أصوات ضمائرهم تطالبهم بالوفاء لمن هم دونهم بحقوقهم الإنسانية والوطنية ولا يجيبون نداءها، يسمع العالم مثلاً صوت ضميره يقول له: انشر ما حصلت من علم بين إخوانك،

فلا يفعل إلا مأجوراً، ولا يعطي إلا عن بخل، فيأتي عمله مناقضاً لضميره. وكذلك يسمع الطبيب ذلك الصوت يطالبه بخدمة المرضى من إخوانه فلا يؤدي ذلك إلا بأجر لا يبالي بشقاء الفقراء، فينقض بعمله وحي ضميره.

ومن البلية أن هذا الداء يتخطى المعلمين والأطباء والأغنياء إلى من يقولون إنهم ساسة للشعوب وزعماء وقادة للرأي العام، يسمع ذلك المترئس صوت ضميره يقول له: اجعل حياتك فداء لحياة مواطنيك، فيضحي بحياة هؤلاء في سبيل شهرة ينالها، أو كلمة إطراء لئيم تطرب لها آذانه، فيأتي عمله منافياً لصوت ضميره كل المنافاة، وهذا هو الشقاء لو تعلمون.

قد يدهش البعض لقولنا: إن الغني والسياسي والعالم والطبيب أشقياء، وهم يراهم ينعمون بجميع مظاهر الهناء، ممتعين برغباتهم الشخصية، تبدو على وجوههم سمات الارتياح النفسي، نعم. هذه حالهم، ولكن في نظر الإنسان العادي. أما الذي يحدق فيهم فإنه على الفور يرى أنهم يخفون تحتها نفوساً رعناء مضطربة متألمة.

قال شوبنهور: إن أعداء الإنسانية اثنان: الملل والألم، لا يقل أحدهما عن الآخر إيلاماً للنفوس الحية، يظهر ذلك مما يتقلب عليه السراة من أشواك الملل، يذهب بهم تارة إلى هنا وطوراً إلى هناك، لا يلتزمون ضرباً من الملاذ حتى يسأموه، فينتقلون منه إلى سواه. لا يجرعون من كأسه جرعات حتى تعافه أذواقهم، إن من يعرف هذه الحال يدرك أن ليس الشقاء في الألم فحسب، بل هو في الملل أيضاً، وما هو في عرفنا إلا وخزات الضمير.

يقولون: إنه لا يهم طالب المال سوى الحصول عليه، ولا يهم المتصدر للسياسة إلا بلوغ الرئاسة أو الزعامة من قومه، ولا يبالي المعلم والطبيب إلا بتحصيل أجرهما، وما ذلك الملل الذي يبدو عليهم أحياناً إلا محاولة قتل الضمير، ومتى ماتوا استراحوا من الألم، ولو صح القول بموت الضمير يكون لموته معنى سوى موت الشعور، وكيف يسعد من لا شعور له؟ ما قيمة المال عند من لا يشعر بفوائده. وما قيمة الرئاسة عند من مات ضميره، إذا كان الشقاء في عرف النفوس الحية هو مناقضة الأعمال للضمير؛ فإن السعادة لا تكون بحق إلا في المطابقة بينهما. فإذا عمد الإنسان إلى قتل ضميره ماتت أعماله لصدورها عن نفس لا تحركها عوامل الحياة، وعليه يكون من العدل أن نقول الميت هو من مات ضميره، وبما أننا نتكلم عن الأحياء فلا دخل لهؤلاء الموتى من أغنياء وسياسيين في حديثنا هذا. انتهى تفسير سورة «البلد»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الشمس
هي مكية
آياتها ١٥، نزلت بعد سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥ ﴾

هذه السورة فيها مقصدان:

المقصد الأول: الإقسام بالمخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه وأصلحها بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز، وأن من أغوى نفسه ونقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق في هذه المادة الميتة فقد خاب، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

المقصد الثاني: ذكر مثال لمن دساها وهي ثمود فأهلكهم الله، وذلك من قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول
التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ الضحوة ارتفاع النهار. والضحى فوق ذلك. والضحاء بالمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف. ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ تبعها في الضياء والنور، أي: لأن نوره من نورها، فهو تابع لها في النور، إن قرب منها قل النور، وإن بعد عنها اتسع عند المقابلة في أنصاف الشهور. ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أي: جلى الشمس وأظهرها للرائين، وذلك عند انبساط النهار فإنها تتجلى في ذلك الوقت تجلياً تاماً، أو جلى الأرض لأنها معلومة وإن لم يجر لها ذكر. ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ أي: يستر الشمس فتظلم الآفاق.

فالشمس بها يكون الضحى والنهار كله، وبها نور القمر والأرض حينما تجعل بدورانها الناس والحيوان في الجهة المقابلة للشمس يكون الإظلام. فالأرض تغشى الشمس وتحجبها. وهذا فيه مجاز عقلي، لأن الذي يغشى إنّما هي الأرض، فأسند ذلك لليل الذي هو من آثار ذلك. ففي هذا بيانان: بيان أن ضوء القمر من الشمس، وأن الليل لم يحدث من الشمس لأنها دائماً مشرقة، وإنّما حدث من دوران الأرض، فانظر كيف جعل القمر تالياً والأرض سائرة حتى حدث الليل. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومن بناها، وأي بانٍ هو؟ إنه لا يضاهيه بناء فيما يعلم الناس، فأي بنّاء ـ بتشديد النون ـ يستطيع أن يبني قبة زرقاء.

(١) مرصعة بمصابيح.

(٢) تلك المصابيح تجري.

(٣) وهي لا تتصادم إلا في أوقات نادرة.

(٤)وإذا تصادمت أصلحت وهي في نفس السقف وعادت جديدة.

(٥) ثم كيف يتسنى له جمع أجسام عظيمة في بنائه ما بين نارية. وأخرى صلبة. وأخرى لطيفة لطفاً أرق من الهواء ومن الضياء وهو الأثير.

(٦) وكيف يراها الإنسان والحيوان سقفاً سكناً هادئاً لا حركة فيه. فالشمس ساكنة والقمر ساكن والنجوم ساكنة لا حركة فيها، ويرى هذه العوالم كلها في الليالي المظلمة كأنها تتغنى وكأنها عروس حليت في حبر، والكون كله سكون في سكون، مع أنه لا شيء مما يراه ساكن، فالهواء متحرك والأثير متحرك، والكواكب كلها متحركات، والشمس والقمر والنجوم والسيارات كلها في حركات لو اطلع عليها لخر صعقاً ولدهش منها. هذا فضلاً عما في تلك العوالم من المزعجات والمهلكات التي تكون فيها على الدوام.

فيا ليت شعري أي بانٍ يقدر على ذلك، فيرى السكان أن المتحركات سواكن، وأن المخاوف أمان وأن هذا كله إنّما هو ليكون سقفاً له يحميه، ونعماً عليه ترضيه، وكأنها ليست مقصودة إلا له. ولا هي مبنية إلا لأجله. فاعجب أيها القارئ لهذا التفسير لمتحرك ساكن، وعظيم صغير، وقريب بعيد، إن العجب ليأخذنا كل مأخذ، ويدهشنا أن نكون في عالم بديع الإتقان، عجيب البنيان، حسن الهندام. والحق أحق أن هذه الدنيا بديعة الحسن، ظريفة الصنع، بهجة المنظر، سارة للمفكرين، كما أنها سجن الغافلين، كيف تجعل الكواكب التي عدت بمئات الملايين كأنها درر مرصعة في سقفنا. أليس من العجب أن تكون تلك الكواكب لمآرب في تلك السباسب، ولبديع الصنع وحسن الإتقان وجمال الوضع تتراءى لنا أنها إنّما صنعت لأجلنا وليزين بها سقفنا. وكيف دبرت هذه الحكمة، وكيف لوحظ في وضع هذه الكواكب جميعها أن تكون ذات منافع بعيدة المدى، فالشمس من تلك الشموس تشرق على سياراتها وعلى أراضيها. ثم هي من جهة تجعل زينة في سماء كل شمس وكل أرض وكل سيار، ويكون قدرها في تلك الزينة مختلفاً باختلاف الآفاق التي تتراءى لها، وكما أن الكواكب مرصعة في سمائنا فإن شمسنا مرصعة في ملايين الآفاق المحيطة بالكرات: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠].

بهذا وأمثاله فليفهم اللطف والحكمة ومعنى قوله: ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ أي: بسطها وسطحها ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ النفس هي النفس الإنسانية، و« ما سواها » أي: والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أي: عرفها حال الفجور والتقوى، ومكنها من الإتيان بهما، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ أي: أنماها بالعلم والعمل، وهذا جواب القسم حذف منه « اللام » لطول الكلام، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ نقصها وأخفاها. وأصل دسى دسس، انتهى المقصد الأول.

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ بسبب طغيانها، فإن النفوس الإنسانية إذا أهملت ترعى في مرعاها فإن المعاصي تتراكم عليها فتغطيها وتدسيها وتخفيها، فلا ترى طريق الحق والصواب فتكذب به، فشأن المعاصي والطغيان أن تحجب النفس عن الحقائق، فثمود كانت على هذا النمط، طغت فأخفت نفوسها فكذبت ﴿ إِذِ ﴾ حين ﴿ ٱنۢبَعَثَ ﴾ أي: قام بعقر الناقة ﴿ أَشْقَىٰهَا ﴾ أي: أشقى ثمود، وهو قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً، ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ صالح عليه السلام ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: احذروا عقرها ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ فلا تذودوها عنها، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾ أي: فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم هلاك استئصال ﴿ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ أي: بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة، ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي: فسوى الدمدمة عليهم ولم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم، ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ أي: ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة. فهو يفعل ذلك غير خائف من أحد، لأنه إنّما يفعل في ملكه وهو عدل. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في عموم هذه السورة

(١) انظر ماذا ترى: ألست ترى أنه أقسم بالعالم كله بالسماوات والأرض والقمر والشمس وعجائبها، فكل ذلك جعله قسماً، على ماذا أقسم؟ على أن النفوس تفلح وتخيب بالتزكية والتدسية والمقصود أن هذه العوالم كلها لم تخلق عبثاً: شمس تضيء، وقمر ينير، وكواكب تشرق، وأرض تبسط. فما المقصود من هذه كلها؟ مقصودها ترقية النفوس الإنسانية، فليس للناس من هذا الوجود إلا نفوسهم، فإن أصلحوها فبها، وإلا فنفوسهم ستصبح في غطاء عن الكمال.

(٢) ثم انظر نظرة أخرى من حيث نظم الكلام والعلوم التي تجلى الله بها على الناس، انظر فيما يأتي في سورة « العصر » الموازنة بين أقسام القرآن وأقسام العرب، وكيف يميز الذكي بينهما حتى يذوق بلاغة القرآن، ويوازن بينها وبين كلام العرب حتى يوقن بأنه معجز بعقله لا بالتقليد.

(٣) ثم انظر هنا في نظم هذه السورة من الحكم العلمية التي لا تخطر ببال البليغ، لأن البلاغة لا تتعدى حد الألفاظ، ولا تتخطى إلى الحكمة والفلسفة. فانظر بدائع القرآن وكيف تجلى في هذا الزمان وظهر ووضح معنى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٩]. فهأنا ذا ألقي عليك حكمة بالغة،

وآية باهرة، ودرة ناضرة وبديعة نادرة. ذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ ﴾؛ هذه الثلاثة شؤون سماوية، وقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ ﴾ قد قدمنا أن هذا من فعل الأرض لأنها بدورانها وحجبها ضوء الشمس عن أحد نصفيها يكون الليل فينام الناس والحيوان، فانظر كيف أعاد الكرة على هذين القسمين فقال: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ ﴾ راجع للقسم الأول، وهي الثلاثة الأول، وقال: ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝ ﴾ راجع للقسم الثاني، فكأنه يقول: ما أجمل بناء السماء بإشراق الشمس وضحاها، ويكون القمر يتلوها، وما أبدع الأرض حين تغشى وجه الشمس فيكون الليل فيستريح الحيوان والإنسان وكل ما على الأرض، وهذه النكتة لم تظهر إلا بظهور العلوم التي ملأت الأقطار.

(٤) ثم انظر نظرة أتم وأعم وفكر في أمر هذه الأمة الإسلامية. أفلا يفكرون في هذا القرآن؟ وكيف يذكر الله الشمس والقمر والضحى والليل، وكيف يقسم بها. ولمَ هذه العناية كلها. يا معشر الأمة الإسلامية، أليس هذا كلام ربكم، أتظنون أنه يطلق الكلام إطلاقاً، أظنكم تفرحون بما سيذكر في سورة « العصر » بعلو هذه الأقسام على كلام العرب، أو تسرون بأن القرآن قد أشار إلى دوران الأرض كما ذكرناه، إن هذه مقدمات وليست مقصودات.

أيها المسلمون، إن الله لم يذكر ذلك إلا لترفعوا رؤوسكم لدراسة هذه الأكوان، هل ترك الله شيئاً في هذه السورة من الدنيا. كلا. لم يذر علماً إلا أدخله في هذه الأقسام، هل أنزل ذلك لمجرد التلاوات. كلا. والله ثم كلا. والله إن الله ما أنزله إلا لعلمه أن العالم الإنساني سيأخذ حظه في العلم، ولأمم ستأخذ نصيبها من الرقي، فحرك الهمم بهذه الأقسام. فقام المسلمون في القرون الأولى بنصيب من العلم ثم خمدوا، وقامت أوروبا تسوم المسلمين الخسف وتذيقهم العذاب الشديد، إذ تركوا أرض الله وسماواته فلم يفكروا فيهما، واكتفوا بما ترضى به الأنعام من المآكل والمشارب ونظام الحياة القضائية بعلم الفقه، أفليس من العار الفاحش والذلة والمهانة أن آباءنا يجعلون للطهارة كتاباً يسمونه « باب الطهارة » ليكون الإنسان طاهراً من الأقذار، ويوضحون الأمور، ويسهلون السبل، وما ذلك إلا لما ذكره الله من إيجاب الوضوء والاستحمام والتيمم في آيات قليلة جداً، يفعلون ذلك ويكررونه في كتب لا تحصى في المذاهب الكثيرة الإسلامية كالحنفية والشافعية والزيدية والحنبلية والشيعية والإباضية وغيرهم، بحيث لو جمع ما كتب في الطهارة التي هي إحدى شروط الصلاة لملأ مكتبة كبيرة بتمامها.

أقول: أليس من العار أن يقوم آباؤنا بهذا ولهم الفضل وينام علماء العصر الحاضر فلا يقومون بمثل ما قام به آباؤنا والأئمة الأعلام، فيؤلفون كتباً بديعة جميلة مختصرة ومطولة في عجائب النجوم والقمر والشمس والأرض والنبات والحيوان.

هل ظنوا أن هذه نزلت في القرآن لمجرد التلاوة؟ أوَلا يعلمون أن عناية الله بهذه العجائب أشد ألف مرة من عنايته بالطهارة والبيوع، كيف يقطع المسلمون سلسلة العلوم؟ جد الأئمة رضوان الله عليهم في علم المعاملات، فلماذا لا يؤلف علماء العصر الحاضر كتباً كثيرة في عجائب هذه العوالم. إني أكتب هذا وأرى أن النهضة آتية لا شك فيها، وأرى نفساً ضئيلة تهز رأسها استهزاء وكبراً، فليعلم

المتكبرون والغافلون أن هذا القول سيتم، وأن هذه البشرى ستسري في الأمم الإسلامية، وستعرف هذه العلوم، وسيقوم بنصر هذه الأمة المفكرون.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ ﴾

لقد تقدم في سورة «الذاريات» في المجلد الثالث والعشرين عند آية: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ ﴾ موضوع يرجع إلى أمر النفس، وأن الأمم التي قبلنا والمعاصرة لنا كلها جعلت هذه النفس مدار أبحاثها، بينما نرى علماء اليونان ويعدهم أسلافنا رحمهم الله يدرسون عوارض المادة من معرفة أعدادها، ومقاييس أشكالها ومساحاتها، وتعداد حركات أصواتها، وحركات أفلاكها، وذلك في علم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، ويقولون: هذه علوم رياضية، ثم نراهم يدرسون المادة والصورة والزمان والمكان ويقولون: هي في علم سماع الكيان، ويدرسون إجمال العالم العلوي والسفلي في علم السماء والعوالم، وهكذا علم وراء علم حتى يتمون العلوم الطبيعية التي جعلوها ثمانية آخرها علم الإنسان بعد النبات والحيوان، وقد درسوا المنطق بين العلوم الرياضية والطبيعية، ثم هم أخذوا يدرسون العلم الأعلى، أي: الذي لا يختص برياضي ولا طبيعي، كالوحدة والكثرة وتقسيم العلوم والمقولات ومعرفة الله وتفرده إلى آخره. ثم هم يدرسون علوم تهذيب الأخلاق ومعاشرة الأسرة في تدبير المنزل ثم تدبير المدينة، فهذه عدوها ٢٠ علماً، ولها فروع كثيرة بلغت مئات، كل هذا تقدم، وقد قلنا هناك: إن أهل أوروبا حوروا هذا الترتيب، والذي حوله «بيكون» الإنجليزي، فجعل التقسيم يحوم حول القوى التي في الدماغ من المخيلة والمفكرة والذاكرة، وهذه الثلاث لها مناطق في المقدم والوسط والآخر في الدماغ، وهذه المناطق كشفت حديثاً بطريقة أوسع، وقد تقدم هذا واضحاً فارجع إليه أيها الذكي إذا لم يكفك ما بيناه هنا.

و«بيكون» المذكور قد جعل العلوم الثلاث عشرة تواريخ كما شرحناه هناك ولم يسمها فلسفة، وخص اسم الفلسفة بمعرفة الله ونظام الطبيعة ونفس الإنسان، ونظام الطبيعة في هذا المقام يرجع إلى العلم الأعلى عند المتقدمين. فأما علم المنطق فقد جعله تابعاً لعلم النفس، فإنها به تفكر في استخراج تهذيبها وتدبير المنزل وتدبير السياسة العامة.

ثم ذكرت هناك آراء إخوان الصفاء في القوى التي في الدماغ، وآراء أفلاطون في جمهوريته، وكيف جعل النفس الإنسانية مقيسة على نظام الأمة، ثم كيف جاء العلم الحديث في التربية، وقد وازناه هناك بالقديم فيها أيضاً، فدهشنا هناك من كون الأمم كلها تسعى سعياً حثيثاً إلى المعالي، فبينما نجد القدماء عرفوا مناطق ثلاثة في المخ، وقد زادوا مناطق أخرى كثيرة جداً وشرحوها ورسموها، هي مرسومة هناك أيضاً؛ نجدهم نظروا إلى الغرائز في الإنسان فهذبوها وأخذوا يداوون النقيصة بما يضادها. فإن كان ممسكاً أمروه بالبذل، أو مسرفاً أمروه بالاعتدال. أو كثير الكلام أمروه بالسكوت، وهم في ذلك يشاكلون الأطباء، إذ يجعلون الحار دواء للبرودة والعكس بالعكس، وزاد المتأخرون وشرحوا وبينوا، ونفعوا الإنسانية نفعاً عظيماً، فأخذوا يفعلون ما فعله المتقدمون، وما يفعله البستاني

إذ يقطع الحشائش الضارة ويشذب الأطراف التي تعطل الشجر، فهؤلاء كذلك يصرفون وجهة الغرائز من الضار إلى النافع، فيوجهون وجهة القتال والنضال إلى الحماسة في حماية الضعفاء، واقتناء المعالي، وأشرف الأمور، وسعادة العموم، ثم طبقنا هذا كله على نفس هذه السورة، فإن ترتيبها على وزان ترتيب أمم الصين واليونان والعرب وأوروبا في وضع العلوم، فالرياضيات في الآيات الخمس الأولى، والطبيعيات في السادسة، والنفس في السابعة، وعلم السياسة وتدبير المنزل وتهذيب النفس فيما بعدها بذكر الفجور والتقوى، ونقول هنا: ثم ختم السورة بقصة ثمود تطبيقاً على علم النفس. لأضف إلى ما ذكرت في سورة «الذاريات» من علم النفس موضوعاً له شأن كبير في رقي الأمم، وهاهو ذا:

الشوق

الشوق ميل النفس وحنينها إلى الاهتمام ببعض أمور دون أخرى والعناية بها. لأنها تقضي حاجة من حاجاتها الدائمة أو الوقتية. اجتماعية كانت أو نفسية. ولأن المرء يحس فيها بشيء من السرور أو الألم يدفعه إلى هذا الاهتمام وتلك العناية. فالرضيع وهو يحدق بنظره إلى الضوء، أو يدير وجهه نحو مصدر الصوت، والطفل وهو منكب على لعبة من ألاعيبه يحلها ويركبها، أو وهو غارق في اللعب مع أنداده وأقرانه. أو هو مصغ تمام الإصغاء إلى قصة خلابة ترويها له، أو انشغاله بقطعة من الخشب يصوغها وينجرها بما لديه من الآلات. والشاب وهو مهتم بالرسم والنقش أو الرياضة أو الموسيقى. أو تكلم لغة أجنبية، أو حل مشكلة تمسه من ناحية ما أو بالتحمس لمذهب أو عقيدة ملكت عليه نفسه، كل هؤلاء يفعلون ذلك مدفوعين إليه بميل خاص، يشعرون فيه بالسرور والارتياح، ولقد تمر الساعة بعد الساعة والفتى منهمك في لعبة أو ممسك كتابه الحبيب إليه متمادياً في القراءة أو اللعب على الرغم مما قد يلحقه من التعب. وعلى الرغم مما لديه من الأعمال الأخرى الكثيرة. ومن جهة ثانية تأمل التلميذ وهو يستظهر جدول الضرب، أو قطعة من المحفوظات لم يفهمها أو جداول من الرؤوس والخلجان، أو عندما يحاول حل بعض مسائل غريبة عنه كل الغرابة كلف بها وهو لا يدري لها معنى. أو كتابة موضوع إنشائي بينه وبين معيشته التي يألفها بون كبير، فهو في كل هذا يشعر بانقباض وكراهية. وأقل شيء يشغله عن الانتباه إلى ما في يده. بل تأمل تلاميذ بعض المدارس عند دخولهم إياها في الصباح وعند خروجهم منها آخر اليوم المدرسي تراهم يدخلونها عادة واجمين منقبضين. ويغادرونها مهطعين فرحين إلى حيث يوجد ما يشوقهم ويتفق وميولهم الخاصة، فكل عمل يسد حاجة في النفس أو الجسم ويقضي رغبة من رغباتها الفطرية أو المكتسبة يهتم به المرء ويندفع إلى القيام به من تلقاء نفسه واجداً في ذلك نوعاً من المسرة. وكل عمل لا يحدث ذلك لا يشوق المرء ولا يجذبه إلى الاهتمام به. على أن الشوق ليس مقصوراً على السرور وحده. فإن الألم أيضاً كثيراً ما يكون مدعاة إلى الاهتمام ودافعاً إليه. فالطفل يهتم بالعصا التي في يد المدرس. أو بورقة العقاب التي أمامه. أو بنتائج غضب والده عليه. أو بالألم الناشئ من جرح في يده، وإنك لتهتم كل الاهتمام بقراءة قصة محزنة تثير آلامك وتبكيك، أو بسماع أخبار حرب ضروس بما فيها من فتك

وقتل، أو برؤية رواية محزنة تمثل في معرض الصور المتحركة. كما أنك لا تستطيع أن تهتم كل الاهتمام بألم موجع تحسه في جزء من أجزاء جسمك. فعند تعلم شيء شائق والاشتغال به نجد سهولة وارتياحاً إلى الاهتمام به، فيستغرق العقل فيه ويعمل بقوة ونشاط، ولا نشعر بالجهد الذي نبذله في مثل ذلك العمل. ولا يسارع إلينا التعب أو الملل من طول القيام به. كل ذلك لأن هذا العمل الشائق تعبير عن حاجة نفسية صحيحة سواء أكان المرء شاعراً بها أم غير شاعر. وهنا يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد شيء شائق أو جذاب يثير بقوته الذاتية الاهتمام في كل مرة يعرض لنا. وإنّما الشيء يكون شائقاً إذا اتصل بميل غريزي أو كسبي. أو مس حاجة من حاجات الإنسان وميوله. فالشيء يكتسب ما به من جاذبية وروعة من جراء اتصاله بجزء من أنفسنا وتعلقه بناحية من حياتنا الشخصية. أما هو في نفسه فليس بشائق ولا بجذاب. ولذا فإن الشيء الذي يشوقك اليوم قد لا يشوقك غداً، وما يثير اهتمامك الآن لا يثير اهتمام غيرك. وما يشوق الطفل في سنته الثامنة لا يشوقه في سنته الثانية عشرة.

فالشوق والاهتمام يدل على علاقة خاصة بين نفس الإنسان وبين المؤثر الخارجي. وهذه العلاقة هي التي تجعل لذلك المؤثر معنى أو قيمة شخصية في نظر الفرد. ولذلك فهو دائماً يتأثر به ويندفع إلى تلبيته بالفعل والعمل.

من هذا نرى أن الرابطة بين الشوق والانتباه كبيرة. حتى إن من العلماء من يعدهما شيئاً واحداً. أو مظهرين لشيء واحد، فكل شيء شائق ينتبه إليه الإنسان من تلقاء نفسه ويهتم به، فالشوق هو الشطر الوجداني للانتباه. ولكن الانتباه ليس مقصوراً على الأشياء الشائقة. فإن الإنسان ليجبر نفسه على الانتباه إلى ما فيه مصلحته المستقبلة. أو غاية من غاياته وإن كانت غير شائقة أو جذابة. فالشوق إذن يمكن أن ننظر إليه من جهتين:

(١) من حيث هو حالة وجدانية يحس فيها الإنسان لذة أو ألماً.

(٢) ومن حيث هو ميل يدفع الإنسان إلى الانتباه إلى أمور معينة والاهتمام بها والانهماك فيها.

وتلك الحالة الوجدانية وهذا الميل الدافع متصلان بعضهما ببعض اتصالاً وثيقاً. وليس من السهل فصلهما لأن كل شيء يميل إليه الإنسان أو ينفر منه يحدث فيه مسرة أو ألماً.

الشوق معيار شخصي لتقدير قيم الأشياء

إن شوق الإنسان وميوله هي التي تجعل لبعض الأشياء والمؤثرات في نظره قيمة ومعنى أكثر مما لغيرها. ولذلك فإن قيمة الشيء الواحد تختلف باختلاف الأفراد. فكلنا يقدر قيمة الشيء حسبما له من العلاقة والأثر في نفسه، فإذا كنت في هذه اللحظة تفضل الاهتمام بحال صحة أخيك الصغير على الانتباه إلى موضوع الشوق؛ فذلك لأن صحة أخيك أكبر قيمة لديك من علم النفس. وإذا كان التلميذ يفضل اللعب على الجلوس مكتوف اليدين في الفصل محاولاً الانتباه إلى ما يسرده عليه المدرس من أسباب كروية الأرض، فذلك لأن اللعب في هذه المرحلة وفي هذا الوقت أكبر قيمة في نظر التلميذ من معرفة أسباب كروية الأرض. فهو يحس بحاجة إلى الأولى وليس إلى الثانية. فاهتمام المرء بشيء ما دليل على ميله إليه وعظم قيمته في نظره. ولذلك فإن كل ما يتعلق بذلك الشيء ويتصل به

من بعيد أو قريب يجذب المرء ويستميله إليه. فإذا كنت مهتماً بعلم من العلوم لفت نظرك كل ما له علاقة بهذا العلم، فللزهرة النادرة، ولقطعة الجرانيت الملقاة في الشارع، وللرأي الجديد في التربية، وللزي الحديث في الملابس، ولارتفاع ثمن القطن أو انخفاضه، قيمة كبيرة للنباتي أو الجيولوجي أو المربي أو المرأة أو المضارب في المصافق أو للمزارع نفسه.

وإذا كنت لم تكتسب ميلاً إلى التاريخ أو الشعر أو الموسيقى أو جمع طوابع البريد أو اللغة المصرية القديمة؛ فكل ما يتصل بهذه الأمور لا يثير اهتمامك ولا يبتعث شوقك إليها. ولذلك لا تجد لها قيمة أو طعماً، بل إنك لتعجب من سخف الناس ومغالاتهم في الاهتمام بها.

إن تقدير الشوق لقيمة الأشياء ومعانيها ليس تقديراً نفعياً أساسه المنفعة المادية بمعناها الضيق المعروف، إنّما هو تقدير لكل ما يمكن أن يكون له قيمة ما من أي وجه من الوجوه مادية كانت أو اجتماعية خلقية أو جمالية علمية.

الشوق والاختيار

إن الشوق والميول هي التي تتحكم إلى حد كبير في اختيار المرء واحداً أو أكثر من آلاف المؤثرات المختلفة التي تحيط بالإنسان، سواء كان ذلك من الأمور المادية أو العقلية، وما ذلك إلا لأن للشيء المختار قيمة خاصة ومعنى لا يدركه سواه من حيث إنه يسد حاجة في نفسه. فالشعور يجري بآلاف الخواطر، والشوق هو الذي يحمل الانتباه على اختيار واحد منها للاشتغال به وحصر الفكر فيه، وفي غالب الأحوال يكون الشوق هو السبب في اختيار المرء فعلاً ما والمثابرة عليه وتكريره حتى يصبح عادة فيه.

فالشوق هو الذي يعين رد الفعل أو التلبية التي يقوم بها الفرد في ظرف خاص، فإذا تكرر رد الفعل هذا لما صادفه من النجاح، أو لما أثاره من السرور، ثبت في النفس وأصبح مفضلاً على غيره، ولهذا أثره الكبير في الأخلاق والسلوك وفي عملية التعلم نفسها، فإذا أثرت اهتمام الطفل وشوقه إلى فعل ما كنت واثقاً كل الوثوق أن الطفل سيفضل هذا الفعل على غيره من الأعمال الأخرى.

الشوق محرك دافع

إذا استثار شيء ما شوق إنسان واهتمامه فإن هذا الشوق لا يلبث حتى يفيض على النفس قوة تحركها إلى العمل والتفكر فيه. وإذا اشتد الميل وأصبح تحمساً قصر المرء الجزء الأكبر من وقته وفكره على العناية بما يشوقه جاداً وراء الحصول عليه، شاعراً في وسط العمل الشاق والكد المتواصل بلذة ومسرة، فتصبح حياته حافلة مليئة ذات قيمة ومعنى، يمر به الزمن سهلاً ليناً لا يحس فيه بذلك العبء الثقيل الذي يشعر به من ليس له في حياته شيء يهتم له اهتماماً حقيقياً، فلولا ذلك التحمس لم ينبغ نابغة، ولم ينجز عمل كبير.

فالبحاثة الذي يقضي أوقاته في التنقيب في ناحية من نواحي الفكر والعمل الإنساني؛ لم يفعل ذلك إلا لأنه يشعر أثناء قيامه بالعمل أنه يتقدم تقدماً نفسياً مطرداً. وإنه سائر في الطريق الذي هدته إليه طبيعة نفسه.

الشوق والعادة

لقد رأيت أن الشوق أساسي في اختيار عادة ما، وفي تكوينها وغرسها في النفس، وهذا الاختيار له قيمته الكبرى في الترقي العقلي والخلقي، وكل من الشوق والعادة ضروري لترقي الإنسان، فالشوق يدفعه إلى الانتباه والعناية الكبيرة بكل ما يمس نفسه، أو يسد حاجة من حاجاتها، وبالتكرار يتحول العمل المنتبه إليه إلى عادة، فالعادة تجعل جزءاً كبيراً من أعماله آلياً، فيوجه المرء انتباهه إلى غيره حتى يتقنه وهكذا. ومن جهة أخرى: إن الشوق والعادة ضدان، فالشوق يتبع كل شيء جديد في النفس بما فيه من الروعة والاهتمام والجدة. أما العادة فلا تتعلق إلا بالقديم المألوف، وتنفر من الجديد المستحدث والشوق دائماً يثير انتباه المرء والتفاته، في حين أن الانتباه يقل في العادة قلة كبيرة حتى يقرب من درجة العدم، فالعادة هي العنصر المحافظ في الفرد وفي الجماعة، في حين أن الشوق هو العنصر الدافع إلى التقدم والتجديد.

أقسام الشوق

ينقسم الشوق إلى أقسام مختلفة حسب وجهة النظر التي ننظر إليه منها، فهو من جهة ينقسم إلى: (١) شوق مباشر. و(٢) شوق غير مباشر.

فالشوق المباشر هو ما كان متعلقاً بما يستثيره مباشرة، أي: بالمؤثر أو العمل نفسه من حيث هو. وغير المباشر ما تعلق بعمل ما، لأنه وسيلة إلى غاية خاصة. لا لأنه هو المقصود بذاته، فكأنه اكتسب جاذبيته من تعلقه بتلك الغاية الخاصة، ومن جهة أخرى ينقسم الشوق إلى:

(١) طبيعي أو ذاتي يصدر من تلقاء نفسه، نابعاً من صميم الإنسان وباطنه.

(٢) اصطناعي، وهو ما كلف به الإنسان تكليفاً وصدر إليه من مصدر خارجي عنه، فالعقاب والثواب وما يتصل بهما يشوقان الإنسان إلى العمل على كره منه، فاهتمام الإنسان بهما اهتمام خارجي اصطناعي. أما اللعب مثلاً فالطفل يهتم به اهتماماً طبيعياً مباشراً، والبخيل يعشق الذهب من أجل الذهب نفسه، في حين أن جمهرة الناس تحبه لأنه وسيلة إلى غاية، والشاعر يحب أريج الزهور ولونه، ولكن البستاني يحبهما لغرض آخر، ورغبة التلميذ في المكافأة أو اجتياز امتحان أو خوفه من العقاب تجعله يهتم بدروسه ويعنى بها، ولكنها عناية غير طبيعية وغير مباشرة، فالتلميذ الصغير يقلد حباً في التقليد، ويلعب حباً في اللعب، ولكنه لا يستظهر جداول محطات السكك الحديدية أو قواعد النحو حباً فيهما.

وكذلك ينقسم الشوق إلى: (١) فطري. (٢) وكسبي، فيكون الشوق غريزياً عندما نعنى بأمر ما ونحبه بفطرتنا من غير تعلم سابق، ويكون كسبياً عندما نهتم بأمر نتعلمه ثم نميل إليه، فالمرء ينتبه بفطرته إلى كل صوت عال وكل شيء متحرك أو لون زاه أو ضوء شديد، وإلى كل ما يتصل بغرائزه وما له علاقة بها، ولكن الاهتمام بالتاريخ أو الهندسة أو الفلك كسبي، وإن كان مرتكزاً على عناصر غريزية في كثير من الأحوال، ولهذا تستخدم الميول والنزعات الفطرية أساساً. لإيجاد ميول كسبية جديدة في نفوس الأطفال.

ومن جهة رابعة ينقسم الشوق إلى : (١) ميول عملية . (٢) عقلية . (٣) وجدانية : ففي الميول العملية يكاد يقتصر اهتمام الإنسان على كل شيء ذي قيمة عملية مادية ، أو على علاقة الناس بشخصه ومصالحه ، وهذا الميل يؤدي إلى الابتكار والاختراع فيما ينفع ويفيد ، كما يؤدي إلى النجاح في ميادين التجارة والصناعة والأعمال الإدارية المختلفة ، ويقتصر اهتمام ذي الميول العقلية على تفهم الظواهر الاجتماعية والطبيعية لمعرفة النواميس التي تسيرها ، فهو شوق يفضي إلى زيادة العلم ، وإلى البحث والتنقيب فيه ، وإلى إدراك علاقات الناس بعضهم ببعض والأواصر التي تربطهم ، فيهتم المرء مثلاً بعاداتهم وقوانينهم وكل مظاهر حياتهم الاجتماعية المختلفة .

هربارت والشوق

قسم « هربارت » الشوق الذي هو في نظره أساس التربية وقوامها ، بل غايتها التي ترمي إليها ، إلى قسمين كبيرين : قسم يتعلق بالأمور الكونية يدفع الإنسان إلى الاهتمام بكل ما يقع في خبرته ويكسب المعرفة ، وقسم آخر يتعلق بالأمور الاجتماعية ، فيجعله يهتم بكل ما له علاقة بالإنسان وبالوطن وبالخالق . ثم قسم كل قسم منها إلى ثلاث مجموعات ، فما يتعلق بالأمور الكونية يثير في الإنسان ثلاثة ميول :

(١) الميل إلى الاهتمام بكل ما هو حسي ، فيروق الإنسان مشاهدة المناظر الطبيعية ، وكل ما يراه أو يحس به من الأشياء ، وهذا الميل يتوقف على ما في هذه المظاهر من جدة وتغير ، ويتجلى في الصغر عندما ينطلق الطفل في سنواته الأول باحثاً منقباً مستطلعاً طلع كل شيء في بيته ، كما يتجلى في ميل الأطفال إلى القصص والأساطير .

(٢) والاهتمام بما هو فكري . فيهتم الإنسان بمعرفة أسباب الأشياء ونتائجها وعلاقاتها بعضها ببعض ، ويتجلى في كثرة أسئلة الأطفال .

(٣) وبما هو جميل ، فيهتم المرء بالتأمل فيما في الطبيعة والفن من تناسق وجمال .

وقسم ما يتعلق بالأمور الاجتماعية إلى ثلاث مجموعات كذلك :

(١) الميول التي تدفع الفرد إلى الاهتمام بعلاقة الإنسان بالناس ، فتعني بتقدير ما يحركهم من البواعث المختلفة ويسوقهم من دوافع وضيعة أو سامية .

(٢) علاقته بالمجتمع وطوائفه المختلفة ، وهذا الميل يدفعه إلى الاهتمام بالأمور الاجتماعية والحركات الكبرى في التاريخ وبالوطن وحاجاته .

(٣) علاقته بالخالق .

تعدد الميول

بعد أن قسم « هربارت » وأتباعه شوق الإنسان وميوله ؛ عادوا وقسموا العلوم والمواد الدراسية على هذا الأساس أيضاً ، وحتموا على المعلمين العناية بتغذية كل ميل من هذه الميول الستة بالمواد التي تناسبه ، وذلك بقصد أن يتشعب شوق الطفل إلى شعب كثيرة ، وتتجه ميوله ومواضع اهتمامه في كل ناحية ، وبذلك يكون عقله فيما بعد واسعاً ينفسح لكل شيء ، فيلاحظ كل ما يدور حواليه في هذا

العالم، ويهتم به بدلاً من أن يكون ضيقاً من جراء اقتصاره على نوع واحد من المواد التي يميل إليها أو يجبر عليها إجباراً. وعندئذ لا يستطيع أن يقدر أعمال سواه، أو يدرك ميولهم الإنسانية ويشاطرهم عواطفهم المختلفة، أو يتمتع بحياته التمتع الصحيح، فهربارت يكره الإخصاء والاقتصار على أنواع قليلة من العلوم والفنون.

ليس من شك أن تعدد الميول وتشعبها له هذه الفوائد السابقة، ولكنه من جهة أخرى يشتت جهود المرء ويوزع انتباهه في نواح كثيرة. فلا يستطيع أن يتقن شيئاً ما الإتقان الصحيح، بل تبقى حياته متنازعة بين أمور مختلفة لا يستطيع أن يحسن أحدها ويجيده الإجادة المطلوبة، والحياة قصيرة، وأقصر منها الحياة المدرسية، والعلوم واسعة متنوعة، فمن المحال أن يتوفر عليها كل امرئ ويحصل من كل منها على قسط عظيم، بل لا بد من أن يختار وينتقي له دائرة خاصة ووجهة معينة يهتم بها ويقتصر ميوله عليها من غير أن يهمل الميول الأخرى كل الإهمال، فمن السهل أن يقصر الإنسان جهوده على شيء واحد أو أكثر، وفي الوقت نفسه يغذي ميوله المختلفة الأخرى ويهتم بجوانب الحياة الإنسانية كلها اهتماماً يجعله يتمتع بحياته العقلية والاجتماعية ويشارك الناس ويفهمهم، وبذلك لا يكون عقله ضيقاً ذلك الضيق المعيب الناشئ من الاختصاص الضيق الضار.

قيمة الشوق غير المباشر

الإنسان مضطر إلى القيام بكثير من الأعمال غير الشائقة التي لا يميل إليها بطبعه تضطره إليها ظروف الحياة، وفي العمل الشائق نفسه عناصر جافة كثيرة غير جذابة يندر أن تثير في الإنسان شوقاً إليها، ولكنها مع ذلك ضرورية ولا مندوحة له عنها، فلو أهملها الإنسان لم يقطع في سبيل التقدم مرحلة تذكر، ولكن هذه العناصر الجافة تكتسب قوة خلابة من اقترانها وارتباطها بالغاية التي يرمي إليها الفرد ويهتم بها، أي: إذا ارتبطت ربطاً غير مباشر بجزء من طبيعة الإنسان ونفسه وأصبحت وسيلة إلى تحقيق غاية أو حاجة نفسية، أو خطوة في سبيل ذلك التحقيق، فليس أبعث على الضجر والسأم من قراءة إعلانات الصحف، أو مطالعة جداول السكك الحديدية، أو الجداول الإحصائية في علم ما، ومع ذلك فعند الحاجة الماسة تصبح هذه كلها شائقة رائعة وإن كانت روعتها وقتية ليس إلا، والكد والتعب اللذان يصادفهما المرء في التغلب على كثير من المصاعب التي يقابلها في طريق مهنته يهونهما عليه ما لهما من العلاقة بأمله في النجاح في حياته. أو كسب قوت أولاده، أو طمعه في حسن الأحدوثة وبعد الصيت، ولولا ذلك ما أطاق امرؤ مهنة لا تتفق وميوله التي ركبت فيه. فقليل من الناس الموفق إلى العمل الذي يتفق وميوله ورغائبه. ومعلوم أن الإنسان في بداية تعلمه علماً أو مزاولته عملاً من الأعمال قد لا يقبل عليه الإقبال عليه كله، ولكن المرانة عليه وطول العهد به قد تكون لديه ميلاً خاصاً إلى هذا العمل فينصرف إليه ويهتم به، ولولا هذا لما تيسر لامرئ النجاح في عمل ما. فالمدرس الذي لم يكسبه التدريس ميلاً إلى هذه المهنة ولا يرى فيها إلا وسيلة شاقة قضت عليه بها الظروف لكسب عيشه، ولا يرى في حياة المعلم إلا شقاء وبؤساً، لا يمكن أن ينجح في عمله، في حين أن من مال إلى التعليم في جملته أو إلى مادة ما، لابد ناجح في عمله هذا نجاحاً كبيراً، ويشعر

فيه بشيء من السعادة واللذة. ففي حين أن التلاميذ تشقى بالأول ويشقى هو بهم، يسعدون بالثاني كما يسعد هو بالعمل ويسمو به، فهو يرى فيه كل يوم شيئاً جديداً يرقى به. فالغاية والوسيلة مرتبطان بعضهما ببعض في نفسه، في حين أنهما متباعدتان كل التباعد في نفس الأول. انتهى ما أردته من كتاب «أصول علم النفس» للأستاذ أمين مرسي قنديل أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا، والحمد لله رب العالمين.

تشعب علم النفس وازدياد علومه

أدهشنا صنعك يا الله في نفوسنا، أنت ألهمتنا فجورنا وتقوانا. ومدحت من زكى نفسه منا. وذممت من ترك حبلها على غاربها. ولكنك في الوقت نفسه جعلت الأمة كلها كأنها فرد واحد أعضاؤه متعاونة، لهذا ألهمت أناساً في أرضنا. وأنرت أبصارهم. فأخذوا يبحثون في هذه النفوس عسى أن يجدوا ضالتهم المفقودة وهي معرفة مداواة الفجور ومقداره. ومعرفة هذه النفوس وأنواعها. وكيف يمكن استثمارها لمنفعة جميع الناس. فاستعملوا ما سموه «مقياس الذكاء»، وهو كتاب ألفه الدكتور حسن عمر طبيب امتياز بمستشفى سانت لويس ونائب سناتور يوم مدينة سانت لويس بأمريكا، ومساعد طبيب مستشفى مندوتا. وطبيب بمعمل الأبحاث العقلية لمقاطعة وسكونسن. فقد جاء فيه في صفحة ٣٥ وما بعدها تحت العنوان الآتي ما نصه:

مقاييس الذكاء والتعليم المدرسي

دلت الإحصاءات المختلفة على أن بين الأطفال في المدارس الأولية والابتدائية عدداً كبيراً لوحظ عليه ضعف العقل. ودلت التقارير المختلفة على أن ثلث تلاميذ هذه المدارس في الولايات المتحدة الأمريكية لا يستطيع الاستمرار في الدراسة على حسب سنهم الدراسية، كما أن عدداً من هؤلاء يتراوح بين ٥ في المائة و٨ في المائة يتأخرون في دراستهم ثلاث سنوات على الأقل. وتبعاً لهذه الأحوال وجدوا أن ١٠ في المائة من ميزانية التعليم في الولايات المتحدة التي تبلغ نحو ٤٠٠ مليون ريال تصرف على تلاميذ يعيدون دروس فرقهم لرسوبهم في امتحانات النقل. وكان الأجدر أن يصرف هذا القدر على تلاميذ جدد. على أن الحكومة الأمريكية منذ وجدت هذه النسب المختلفة لا تزال تعمل على إيجاد علاج لتحسين هذه الحالة السيئة، فوصلت أخيراً إلى:

(١) إعطاء دروس إضافية لهؤلاء التلاميذ.

(٢) العناية بصحة التلاميذ.

(٣) استنباط طرق جديدة لنقل التلاميذ من فرقة إلى أخرى.

(٤) حث الوالدين على العناية بأبنائهم خارج المدرسة.

(٥) وضع طرق حديثة في التربية والتعليم.

بيد أن هذه الجهود القيمة لم تأت بالفائدة المرجوة، لأن تلك الحالات السيئة لم تكن نتيجة لسوء التربية المنزلية وفسادها، أو عدم العناية بالصحة وغير ذلك، وإنّما كانت نتيجة لوقوف نمو عقول هؤلاء التلاميذ في سن يجب أن لا يقف نمو المخ فيها، وقد أدى هذا إلى أن يزعم بعض الناس أن نسبة

نجاح الأولاد يجب أن تكون واحدة، ما داموا يعيشون عيشة واحدة، ويدرسون دراسة واحدة، ويتمتعون جميعاً بصحة جيدة. على أن ما ذهبوا إليه خطأ بيّن يؤكده فحص الأطفال بميزان عقلي خاص لتقدير ذكائهم الذي يقوم عليه نجاحهم، والذي يوضح لنا عقلية الطفل ومرتبتها بالنسبة لغيره من الأطفال، إذ العقول مراتب متفاوته تبتدئ بالبله وتنتهي بالذكاء المفرط، ولا غرو فقد لوحظ هذا التفاوت بين طبقة سليمي العقل، فمن باب أولى أن يلحظ بين سليمي العقل وضعيفها. والمدرس مسؤول عن ملاحظة ما بين تلاميذه من تفاوت عقلي حتى لا يذهب مجهوده سدى حين يحاول جعل ضعيف العقل وسليمه في مستوى واحد. إذ من الصعب جعل قوى التلاميذ العلمية متكافئة متماثلة، ولهذا ليس في مقدور أحد مهما كلف نفسه من العناء أن يحول بين بعض التلاميذ ورسوبهم في الامتحان.

ولتجنب إخفاق التلاميذ الذين ظهرت عليهم علامات الضعف في دراستهم ينبغي أن نختبر ذكاءهم لنقف على ما بدا لنا من ضعفهم، لنصلحه إذا كان ناشئاً عن إهمال أو رداءة صحة أو سوء تعليم أو غير ذلك مما يدعو إلى إخفاق التلاميذ ورسوبهم، أما إذا تبين لنا أن إخفاق التلاميذ لم يكن ناشئاً عن إحدى تلك الحالات؛ فإننا نعلم حينئذ أن هذا قد جاء من ناحية العقل نفسه. وإذن وجب علينا أن نزن ذكاءهم. وأن نقارن بين سنهم الحقيقية ومقدار ذكائهم. فإذا تكافأا تحققت الحالة الأولى. وإذا لم يتكافأا بأن كانت السن الجسمانية أرجح تأكدنا من ضعف عقولهم، ووجب علينا إذن أن ننتحي بهم ناحية أخرى من التعليم تلائم هذا الضعف في عقولهم، كأن ندربهم على صنعه، أو نمرنهم على حرفة من الحرف التي لا تستدعي مجهوداً عقلياً معتاداً، ويكون مثلنا مثل المهندس البارع الذي أراد أن يبني جسراً، فأحضر أجزاءه وأخذ يفحصها جزءاً فجزءاً قبل إعداده والشروع في بنائه ليتأكد من صلاحية تلك الأجزاء وسلامتها، فلا يضع قطعة من القطع يشك في صلابتها ارتكاناً على أن يرمها عند فسادها في المستقبل.

مقياس الذكاء كقاعدة عامة لالتحاق الطلبة بالمدارس

كتب الأستاذ «بينيه» على أن هذا الاختبار يجوز استعماله بدل امتحان الدخول بالمدارس، فإنه يظهر قوة التلميذ العقلية، وبهذا يمكن أن يلحق بالفرقة التي تناسبه، وكذلك تتبع هذه الطريقة في نقل تلميذ من مدرسة إلى أخرى حتى لا يضيع عليه وقت كبير، لأن من عادة المدرسين أن يعتبروا درجة الطالب المستجد أقل من درجة تلاميذهم، أو أن طريقة التعليم أقل من طرقهم في نظرهم. وإن كثيراً من المعلمين يوجسون خيفة من طرق التعليم الأخرى المخالفة لطرقهم، فإذا ما وجدنا مقياس الذكاء في كل المدارس فإننا نذلل هذه العقبة الكؤود أمام الطالب حين نقله من مدرسة إلى أخرى، ويمكنه الاستمرار مع الفرقة اللائقة به، وزاد «بينيه» بقوله: إنه قد يصح أن يكتفي بفحص عقل التلميذ، فإذا كان ينمو نمواً طبيعياً فلا ضرر على جسمه وعقله إذا التحق بفرقة أعلى، ولكن مع الأسف لا يمكننا أن نؤيد في هذه الفكرة، لأنه ليس المراد من التربية نمو القدر العقلية والجسمانية فقط بل تحصيل العلم أيضاً، ولذا لم يعمل بهذه الفكرة في أي مملكة، ولن يعمل بها لعدم لياقتها للعلم والتعليم.

المقياس ونموه في أمريكا وإنجلترا

انتشر هذا المقياس مدة الحرب الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد استعمل بكثرة في الجيش الأمريكي، ودل فحص نحو مليوني عسكري على أن متوسط الذكاء الفطري فيهم يعادل ذكاء ولد عمره أربعة عشر عاماً. أما في المدارس فقد أصبح هذا المقياس ذا أهمية عظيمة، حتى إن خمسين في المائة من جميع طلبة مدارس مدينة شيكاغو فحصوا بهذا المقياس، وقد أمرت الحكومة بعض الأخصائيين عام ١٩٢٤م بفحص الأطفال في مدينة واشنجتون وتقسيمهم حسب نمو عقلهم. هذا وإن الحكومة الأمريكية تفحص ذكاء كل المهاجرين إلى بلادها في جزيرة «إليس» قبل دخولهم البلاد.

أما في إنجلترا فقد بدأ المقياس في الانتشار، ففي سنة ١٩١٩م عملت تجارب في بعض مدارس ليفربول الأولية، ويظهر أن الثقة بهذا المقياس قد زادت، حتى إنه في سنة ١٩٢٢م قد أمر عميد مدرسة المعلمين النهارية بلندرة أن تفحص الطلبة الجدد بهذا المقياس قبل قبولهم بالمدرسة، وأن يفضل في الانتخاب من أحسن الإجابة، وقد جرت على هذه الطريقة كلية بدفور في إنجلترا، وجعلت مقياس الذكاء أساساً لاختبار طلابها الجدد. أما في الكلية الجامعة بإنجلترا فقد طلب قسم التربية العملية من طلابها الجدد أن يتقدم من يشاء منهم للفحص، وأن يعمل تقرير عنهم للعميد. وفي سنة ١٩٢٠ أمرت الحكومة بفحص كل طالب أو طالبة من طالبي التوظف في الأعمال الكتابية في دواوين الحكومة الإنجليزية، وقد فحص نحو أربعين ألف شخص.

المقياس دليل لمعرفة أحسن مهنة للولد

ربما قرب الوقت الذي يكون فيه هذا الاختبار بمثابة دليل لمعرفة ميل الولد ونجاحه في مهنة من المهن، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الاختبار يبين أي مهنة من آلاف المهن يمكن الولد أن يتعلمها، وإنما تدل تجارب «بينيه» العدة على أن عقلية الولد يمكنها أن تعمل كيت وكيت، أو تزاول مهنة كيت وكيت، وهو وأتباعه قد تتبعوا كثيرين من آلاف الشبان في حياتهم العملية، ولاحظوا نجاحهم وإخفاقهم في المهن، وبهذه التجربة العملية تحققوا أن لكل مهنة سناً معيناً لنجاح العامل فيها. فعلى هذه القاعدة نرى أن كثيراً من عمال المصانع والمحال التجارية والشركات ليس عنده المقدرة الكافية للقيام بالعمل، ولذا تخسر من جراء هذا خسارة مالية كبرى، ويضيع وقتها من غير فائدة، فيظهر من هذا أن اختبار هؤلاء الموظفين يعود بالمنفعة على مثل هذه المحال، وقد فحص المستر «كنولن» ١٥٠ شحاذاً، فكان نحو ٣٠ في المائة منهم ضعيفي العقل، والباقون عاديين في ذكائهم. أما ضعيف العقل منهم فكان متوسط ذكائه بالاختبار بين ٧ و ١٠ سنوات، وقد سئل هؤلاء فأجابوا بأنه ليست لهم دراية بفن ما، ولم تتجه رغباتهم إلى العمل، ولذلك كانوا يطردون من أعمالهم، أضف هذا إلى حرمانهم كلمات التشجيع، حتى دعاهم ذلك إلى اليأس وصاروا يجوبون الطرق.

الفائدة العملية من مقياس الذكاء

لقد أصبح للاختبار ميزة زائدة على ميزاته العدة، وظهرت منفعته في الأعمال الحيوية، إذ قد قيل إنه يمكن بالاختبار:

(١) أن نعرف أحسن مهنة يستفيد منها الولد.

(٢) وأن نختار لكل فتى المهنة التي تناسبه.

قد أجهد نفسه الأستاذ « بارسون بيوستن » في هذا العمل، فكان يجمع البنين والبنات الذين أتموا الدراسة الابتدائية، ويسألهم أسئلة خاصة عن حالهم ومعيشتهم وبيئتهم، ثم يطلب من كل أن يعين أحسن مهنة يريد أن يزاولها، وصار يتبع الأولاد في عملهم، واستنتج نتائجه، وتمكن بعدئذ من نصح الأولاد بعد فحص ذكائهم عن أحسن المهن التي يشتغل فيها كل منهم. فزادت شهرته بنجاحه العظيم، وفي سنة ١٩١٨ فتح مكتباً خاصاً لإرشاد الأولاد إلى أحسن مهنة لهم، وكانت تؤمه كل فتيات الجهة وفتيانها، ويطلبون منه أن يدلهم إلى أحسن مهنة يقومون بها، فنجاحه هذا كان سبباً في أن معظم مدارس الولايات المتحدة الأمريكية الثانوية عينت مستشاراً فنياً لفحص التلاميذ وإرشادهم إلى أحسن مهنة لهم متى أرادوا مزاولة الحياة العملية، وحذا هذا الحذو مهندس شاب اسمه « تيلر » في أحد مصانع الدراجات، واختبر كل العمال الذين كانوا يشتغلون في المصنع، فوقع اختياره بعد الفحص على ٣٥ عاملاً، ولما اشتغلوا يوماً قاموا بعمل المائة والعشرين عاملاً الذين كانوا يشتغلون بالمصنع. وعمل أستاذ التربية العملية بجامعة « هارفرد » بعض آلات صغيرة لاختبار الذكاء في عمال المسرة الذي يعطي النِّمَر. وعمال الترام وضباط البحرية. أما عمال المسرة فقد وضع لهم ثمانية أسئلة يستنتج منها: (١) سرعة الذاكرة. (٢) سرعة الحركة. (٣) إتقان الحركة. (٤) سداد الحكم.

أما عمال الكهربائيات فعمل لهم آلة صغيرة عليها إشارات مختلفة وخط ترام صغير، وكل إشارة لها مغزى، فإذا ما سار القطار طلب منه أن ينفذ ما يلقى عليه من الأوامر. هذا وقد اهتم أولو الأمر في إنجلترا في العامين السابقين بأن جعلوا مكاتب لإرشاد الأولاد إلى أحسن المهن التي تليق بهم، وذلك بالنسبة لعمل الطفل وأخلاقه، وما شهد له به مدرسوه، وتقرير المدرسة مدة دراسته بها، واختبار ذكائه وميوله.

هل مقياس الذكاء عديم الفائدة

قال « بينيه »: إنه قاوم كل فرد انتقد المقياس وأفحمه بالبرهان، وأقام الدليل على أن هذا الاختبار بني على أساس علمي متين، وأشار على كل منتقد أن يدرس الاختبار ويعمل به ثم يقرر أكان مفيداً أو غير مفيد. ولكن الانتقاد كان مراً خصوصاً من المدرسين، فقد قال بعضهم: إن المدرس الحقيقي أو والد التلميذ يمكنه معرفة ذكاء الطفل بالضبط.

وقال آخر: إنه لمدرس أبله ذلك الذي يحتاج إلى مساعدة أستاذ في علم النفس لإخباره بالطلبة الأغبياء والأذكياء في فصوله.

وكل هذه الانتقادات لم تزعزع عقيدة « بينيه » في مقياسه، وهذا طبيعي لأن كل من يجهل علم النفس يظن عدم صلاحية الميزان، فإذا أخبرنا الفلكي مثلاً بأن بيننا وبين المريخ كذا ميلاً فلا بد أن نصدقه، أو نبرهن على خطئه في التقدير. إن كثيراً من المدرسين أمكنهم تمييز بعض الطلبة الأغبياء والأذكياء، ولكن لا تكون معرفتهم بذلك دقيقة. أما هذا الميزان فيظهر بالضبط مقدار الذكاء.

إننا نود أن نعرف بالدقة ذكاء المرء ولا نقتصر على التمييز بين الذكي والغبي، وكما يشخص الطبيب المرض بالدقة قبل أن يصف الدواء؛ كذلك يجب معرفة الضعف العقلي ومقداره حتى يمكننا أن نعرف ما إذا كان ناجماً عن سوء صحة الولد، أو بيئته، أو عدم الانتباه للمدرس، أو عدم مهارته.

لقد أصبح الطبيب علاوة على الفحص الطبي يجهد نفسه لمعرفة التشخيص الحقيقي بتحليل الإفرازات والدم تحليلاً كيميائياً حتى يكون على بينة تامة من عمله، كذلك لا تكفي مجرد النظرات للحكم على عقلية الأطفال، فكثيراً ما تكون نتيجتها خاطئة. فلا بد من شيء عملي مبني على أساس علمي يباعد بيننا وبين الخطأ، وهذا هو الميزان.

كيف استنبط المقياس؟

رتب «بينيه» أسئلة حسب صعوبتها لمختلف الأعمال مبتدئاً لسن ثلاث ومنتهياً لسن ثماني عشرة، وذلك بعد فحص مائتي طالب تتراوح أعمارهم بين الثالثة والثامنة عشرة، وكانوا جميعاً معدودين من ذوي الذكاء العادي، خالين من النابغين والأغبياء، وقد اختيروا من عدد غير قليل، وكانوا يسألون أسئلة عامة، فعلم أن ذكاءهم عادي، وعلى ذلك رتبت الأسئلة بالنسبة لإجابة هؤلاء الأطفال، فكان السؤال يلقى أولاً على أطفال في نهاية السنة الثالثة، فإذا أجابوا عليه بسهولة وضع هذا الفحص لسن الثالثة، وإذا لم يجيبوا أو أجاب بعضهم فقط فإنه يسأل عنه ذوي الرابعة وهكذا، ويعد السؤال موافقاً لسن ما إذا أجاب عنه عدد يتراوح بين ٦٠ و٧٥ في المائة من الأولاد الذين في هذه السن فيوضع مع أسئلة هذه السن.

وبعد أن جربت هذه الأسئلة كثيراً ورتبت حسب التجربة لكل سن خمس أسئلة من سن الثالثة إلى سن العاشرة، إلا الرابعة فوضع لها أربعة أسئلة فقط، وكذلك خمسة أسئلة لسن ١٢ و١٤ و١٦ و١٨ فيكون مجموع الأسئلة ٥٤ سؤالاً.

كيف تعرف نسبة الذكاء؟

يمكننا بواسطة مقياس «بينيه» اختبار ذكاء أي فرد مهما بلغت سنه، وطريقة عمل الفحص هي أن توجه إليه الأسئلة المذكورة في سنه الحقيقية، حتى إذا ما أجاد الإجابة عليها جميعها انتقلنا منها إلى السن العليا، وهكذا حتى لا يستطيع الإجابة، ثم نعرف السن الأخيرة التي أجاد فيها قبل إخفاقه، فيكون هذا هو مقياس ذكاء المرء، أي: ذكاؤه يعادل ذكاء طفل سنه كذا، ونستنتج من هذا إما أنه متقدم في الذكاء أو متأخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: إذا كان طالب عمره ٩ سنين ولما فحص أجاد الإجابة حتى سن ٩ سنين، فنقول: هذا الطالب ذكاؤه عادي، أي ذكاؤه ذكاء ولد عمره ٩ سنين، ويعبر عن ذلك بالسن العقلية، وإذا فرضنا أنه أجاد الإجابة لسن ٨ سنوات فنقول إن ذكاءه كطفل عمره ٨ سنوات، أي سنة العقلية ٨ سنوات، ويعد إذن الطفل ذكياً إذا كانت سنه العقلية أكبر من سنه الجسمانية، والعكس بالعكس.

وقد يعبر عن نسبة الذكاء العادي بواحد، فإذا كانت السن العقلية تعادل السن الجسمانية:

أي $\frac{\text{السن العقلية ٩ سنوات}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}} = ١$

فالواحد هذا يعرف عنه بنسبة الذكاء، فالولد إذن عادي الذكاء إذا كانت نسبة ذكائه واحداً.

أما إذا كان ضعيف العقل فتكون نسبة ذكائه أقل من واحد:

أي $\frac{\text{السن العقلية ٨سنوات}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}}$ $\frac{٨}{٩}$ أي أقل من واحد.

أما إذا كان نابغة فتكون نسبة ذكائه أكثر من واحد:

أي $\frac{\text{السن العقلية ١٢ سنة}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}} = \frac{١٢}{٩}$ أي أكثر من واحد.

وهكذا تستنتج نسبة ذكاء كل فرد.

كشف الأسئلة المختصرة

التي وضعها بينيه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٩١١م

ثلاث سنوات

(١) أشر إلى الأنف والعين والفم.

(٢) انطق بعددين بعد نطق الممتحن.

(٣) اذكر أشياء موجودة في صورة.

(٤) ما اسم العائلة؟.

(٥) إعادة جملة من ست كلمات.

أربع سنوات

(١) اذكر النوع.

(٢) تسمية مفتاح، مطوة، فرشة.

(٣) إعادة ثلاثة أعداد بعد سماعها.

(٤) مقارنة خطين في الطول.

خمس سنوات

(١) مقارنة وزنين.

(٢) يرسم مربع من نموذج.

(٣) إعادة جملة من عشر كلمات.

(٤) عد أربعة قروش.

(٥) إرجاع مستطيل إلى أصله بعد قطعه إلى نصفين.

ست سنوات

(١) التمييز بين الصباح وبعد الظهر.

(٢) تفسير بعض كلمات.

(٣) يرسم شكل مسدس من نموذج.

(٤) يعد ١٣ قرشاً.

(٥) التمييز بين الوجه الحسن والوجه القبيح من صورة.

سبع سنوات

(١) طلب الإشارة إلى اليد اليمنى والأذن اليسرى.

(٢) وصف صورة.

(٣) يؤمر بعمل ثلاثة أشياء.

(٤) يبين قيمة ستة قطع من العملة.

(٥) يذكر أربعة ألوان أصلية.

ثماني سنوات

(١) يقابل بين شيئين من الذاكرة.

(٢) يعد تنازلياً من ٢٠ إلى ١.

(٣) يذكر الأشياء الناقصة من الصورة.

(٤) يذكر اليوم وتاريخه.

(٥) ينطق بعدة أرقام بعد سماعها.

تسع سنوات

(١) يصرف ريالاً إلى قطع من العملة .
(٢) يعرف بعض كلمات تعريفاً حسناً .
(٣) يذكر كل قطع العملة .
(٤) يقول الأشهر بالترتيب .
(٥) يجيب جيداً على أسئلة .

عشر سنوات

(١) ترتيب عشر قطع خشبية حسب وزنها .
(٢) يرسم شكلاً من الذاكرة بعد أن يراه .
(٣) يصحح خطأ بعض الجمل .
(٤) يجيب جيداً على أسئلة معينة .
(٥) يركب جملة فيها ثلاث كلمات معينة .

اثنا عشرة سنة

(١) اقتراحات .
(٢) يركب جملة فيها ثلاث كلمات معينة .
(٣) يذكر ستين كلمة في ثلاث دقائق .
(٤) يعرف بعض كلمات .
(٥) يعمل انقلاب بين ألفاظ جملة ويطلب منه ترتيبها حتى تصير ذات معنى .

أربعة عشرة سنة

(١) يكرر سبعة أرقام بعد سماعها .
(٢) يذكر ثلاث كلمات موافقة في الوزن لكل من : قل ، حبر ، جبل .
(٣) يكرر جملة بها ١٤ كلمة .
(٤) يفسر مغزى صورة معينة .
(٥) يفسر معنى عشرة أمثال عامة .

ستة عشر سنة فما فوق

(١) تطوى ورقة عدداً معيناً من الطيات ثم تثقب ويطلب منه تعيين عدد ثقوبها إذا نشرت .
(٢) إرجاع مثلث إلى أصله بعد قطعه إلى جزئين .
(٣) التفريق بين أسماء .
(٤) ذكر الفرق بين الملك ورئيس الجمهورية .
(٥) قراءة قطعة من كتاب ، وذكر ما فهمه من معناها .

تلك صورة مختصرة عن المقياس تظهر قليلاً من مزاياه حتى يكون عند القارئ فكرة مجملة عن حقيقته ، ولأجل أن يكون ذا فائدة حقيقية ويأتي بالغرض المقصود ؛ يجب على الممتحن أن يتعود هذا المقياس ويفهم الغرض منه ، ويعرف الأسئلة والأجوبة وصحتها وتفسيرها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن « بينيه » لم ينقح مقياسه فتركه على هذا الشكل .

وقد ظهر أن بعض الأسئلة لا تتناسب مع بعض الأعمار ، فقام بتنقيحه الأستاذ « سيمون » مساعده تنقيحاً جعله كاملاً شاملاً وافياً . اهـ .

أوصاف النابغة

النابغون عادة هم قادة الأمم ومديرو دفة أعمالها ، تظهر مواهبهم في أعمالهم فيرسمون الخطط ويملون ما يرونه صالحاً للآخرين ، وقد ذكروا من أوصاف النابغة ما يأتي : (١) أنه إذا فكر في شيء ما فكر فيه ملياً . (٢) وأنه عصبي المزاج . (٣) ونحيف الجسم . (٤) وقد يكون ميله إلى الفضيلة ضعيفاً . (٥) وقد يكون غريباً في أطواره .

هذا وقد فحص « بينيه » ومساعدوه ٣١ تلميذاً، وكان ذكاء الجميع فوق المتوسط، أي يزيد نحواً من ٢٥ في المائة على الذكاء المتوسط لمن كان في سنهم من الأطفال، وهذه هي النتيجة التي وصلوا إليها. انظر الجدول الآتي:

الموضوع	النتيجة
(١) المعلومات الخاصة والعامة.	٢١ من ٣١ معلوماتهم العامة غزيرة.
(٢) الصحة.	١٠ من ٣١ صحتهم جيدة.
(٣) المذاكرة.	١٥ من ٣١ يذاكرون كثيراً.
(٤) العمل.	١٩ من ٣١ يندر وقوع الفرد منهم في الخطأ الفاحش.
(٥) المجتمع الإنساني.	٢٥ من ٣١ بارزو الشخصية في المجتمعات.
(٦) الاختلاط.	٢٦ من ٣١ تميل الناس للائتناس بهم.
(٧) الزعامة.	١٤ من ٣١ يتصدرون دائماً لقيادة أمثالهم.
(٨) الادعاء.	٢ من ٣١ غير مغرورين ولا مدعين.

فيظهر من هذا الإحصاء أن النابغين في صحة غير جيدة، وأن معلوماتهم العامة أكثر من الخاصة، ولهم ولع بالمذاكرة، ولهم ميل لإنجاز أعمالهم بدقة، وأغلاطهم قليلة، ولهم صفة في المجتمع تجعل أصدقاءهم يبحثون عنهم للمسامرة والمجالسة، ونفوسهم ميالة للزعامة والقيادة، وقلما تجد منهم من لا يستولي عليه الغرور.

مقياس الذكاء والإجرام

لا يستطيع أي فرد أن يؤدي عملاً من الأعمال أداء تاماً محكماً إلا إذا توافر فيه شرطان أساسيان:

(١) مقدرته على التفكير، والنظر في عواقب الأمور، لكي يستطيع تقدير النتائج التي تنتج من عمله فتعود عليه وعلى غيره بالخير إذا هو سار في طريق حسن، أو بالشر إذا هو سار في طريق سيئ.

(٢) الرغبة الصادقة في كبح جماح النفس والمقدرة على إلزامها جانب الحق والصواب.

وهذان الشرطان لا يوجدان إلا عند كل شخص كمل عقله، وتهذبت نفسه، وتجملت أخلاقه وليس من عمل مجيد تقوم به أفراد أمة إلا ذلك الذي ينبعث عن أناس مخلصين قد تربوا تربية صالحة جعلتهم يؤثرون الصالح العام على صالح أنفسهم، ويقدمون نفع الجمهور على نفعهم، فلا يسيرون مع نفوسهم حيث شاءت. ولا مع أهوائهم حيث مالت بهم، بل مدفوعين بعامل الإخلاص الذي قادتهم إليه عقولهم الزكية وأذهانهم الناضجة، ولسنا نرى هذه الأعمال الجيدة تبعث من هؤلاء ممن رزؤوا ضعف العقل، لأنهم لا يقدرون على التفكير، ولا على النظر في عواقب الأمور، ولا على القدرة في وقف تيار هوى النفس، لأنهم مجردون عن الفضيلة، والأخلاق الكريمة، والتهذيب الصحيح، والتربية القويمة التي هي أساس النجاح ودعامة الفلاح، والفضيلة كما تعلم لا تزهو ولا تنمو ما دام الذكاء في درجة الانحطاط.

الذكاء ليس أصل الفضيلة

على أن هناك بعض المجرمين لوحظ عليهم علامات الذكاء مما يجعلنا في ريب من الجزم بضمهم إلى طائفة ضعيفي العقول، وما ذلك إلا لأنهم قد توفر فيهم شرط من الشرطين السابقين وهو: القدرة على التفكير والنظر في عواقب الأمور. أما الشرط الثاني فقد انعدم فيهم، فتركوا لأنفسهم الحبل على غاربه، فما استطاعوا كبح جماحها، ولا الوقوف في سبيل هواها، ومن هذا يتبين أن ليس من الضروري أن يكون كل مجرم ضعيف العقل، وإنّما الثابت أن ضعاف العقول أكثرهم مجرمون، كما أن ضعيفات العقول أكثرهن عاهرات أو صائرات إلى الفجور، ولقد عودنا مقياس الذكاء أن نفكر في المجرمين كلما ذكرنا ضعف العقل، لأن الرابطة بين الإجرام وضعف العقل ثابتة، وقد برهن على وجود هذا الاتصال أخصائيون مهرة في علم الجرائم. فـ« لمبروزو » وأتباعه مثلاً كانوا يلاحظون العاهات الخلقية عند فحصهم المجرمين، ويعولون عليها كثيراً، ويجزمون بأنها أهم العلامات التي تدل على الإجرام، ومن العاهات الخلقية كبر حجم الرأس أو صغره، وعدم تساوي نصفيه، والأشكال غير العادية فيه، وعدم التماثل في الأذنين والعينين وسقف الحلق حين يكون على شكل ٨ والأسنان والأصابع والأظافر والشعر وطول الأذرع والنسبة بين النصف الأعلى والأسفل من الجسم. وفي الحق كان عمل « لمبروزو » عملاً مجيداً في ذاته ومفيداً، إذ قد نبه المشتغلين بعلم الجرائم وشوقهم إلى البحث العملي في هذا الفن، وأوقد فيهم حب الاستزادة منه بالبحث العملي العلمي، على أن عملهم قد وقف نوعاً ما عند ظهور مقياس الذكاء الذي دل أن نحواً من ٢٥ في المائة من المجرمين ضعاف العقول. أما العاهات الخلقية التي بنى عليها « لمبروزو » وأنصاره علم الإجرام وشوهدت بكثرة في المجرمين، فقد تجلى أنها لم تكن علامات خاصة بالإجرام لكنها أشبه بخواص جسمانية كثيراً ما تلازم ضعيفي العقول، ومن ثم صارت هذه العاهات الخلقية مميزاً ضعيفاً للمجرمين، لكنها دليل قوي على ضعف العقول، ومع هذا دلت الاختبارات على أن هناك صلة متينة بين الإجرام وضعة النفوس من جهة، وضعف العقول من جهة أخرى، يضاف إلى هذا ما قد ينغمس فيه هؤلاء المجرمون من الرذائل كالفحشاء وغيرها نتيجة ضعف عقولهم. هذا ما أردت ذكره من علم النفس في وقتنا الحاضر أريد بذلك استيقاظ أمة الإسلام من سباتها العميق، وقد استيقظت وستزيد، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة أربع لطائف:

اللطيفة الأولى: في جمال الإبداع ومحاسن المخلوقات التي تشير إليها هذه الآيات من أسرار الشمس وضحاها

تبدي لي في عالم الخيال شبح نوري جميل الطلعة، باهر الجمال، حسن القوام والهندام، تفيض بالحكمة من قلبه ويلقيها بفصيح لسانه، وكأنني وإياه في حدائق غناء، والهواء سجسج، والشمس في ضحاها، والجداول تجري من تحتنا، والآلات البخارية ماثلات في المزارع، والحدائق المحيطات بنا من كل جانب تسقي الزرع وتطحن الحب، فرأيته قد أخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال، وهو يترنح كالولهان، فأخذ يخاطب الهواء قائلاً:

أيها الهواء، ما ألطف قوامك، وأسمى مقامك، وأرفع شأنك، لقد أتحفتنا بتحف تخفى على الناس إلا أولي الألباب: منها هبوب نسماتك المنعشات، وإزالة ما حولنا من الضباب والرطوبات، وما يمرضنا من العفونات، أنت من آيات الله، إذ تيسر المنشآت في البحر كالأعلام، وتدير طواحين الهواء لإصلاح الطعام بهمتك الشريفة، وتسقي الزرع والإنسان والأنعام، من أين أقبلت؟ فأجابه الهواء:

أيها السائل عني، إن الشمس هي التي دفعتني إلى هذا السفر الطويل، فبحق أقول: مكره أخاك لا بطل، لقد أضاءت علي الصحاري والقفار، فدفعتني إلى الأقطار في المدارين، فاشتدت الحرارة هناك أي اشتداد، وقامت على قدم وساق، فارتفع الهواء الحار إلى أعلى، وأخذ مكانه الهواء البارد وملأ المكان، إذ لا معطل في الوجود، ولا فراغ فيه معقول، فهذا الهواء المتحرك هو الذي تسمونه الرياح.

ثم التفت إلى النهر الجاري في الحديقة وقال: أيها النهر الجاري، لقد عظم شأنك، وعم نفعك لقد رويت حقولنا اليابسة بمائك العذب الفرات، وحملت سفننا فسهلت السبل للمواصلات، وسقيت الطائر والحيوان والإنسان بمائك المترقرق العذب الفرات، فما الذي ساقك إلينا؟ تصنع معنا كل جميل وتحمل ما لدينا من كل خفيف وثقيل.

إجابة النهر

أيها السائل عني، لقد كنت في أول أمري في البحر الملح ذرات صغيرات دقيقات سابحات في الأمواج وفي طبقات البحار، أستنشق النسمات، وأشاهد نور المشرقات من اللامعات منذ دهور ودهور لا أفارق الأوطان، ولا أخرج من ذلك المكان، فكنت هناك أمرح وألعب، حتى إذا لفحتني الشمس بالحرارة التي تزجيها، فأخرجتني من قراري المكين، وحولتني إلى بخار يرتفع في جو السماء، ثم صرت سحاباً، ثم أرسلت الرياح فدفعت هذا السحاب يجري فوق البحار واليابسة فالجبال، وهناك تحول إلى مطر، فسقطنا على الأرض وأصبحنا عبارة عن مجاري متجاورات ومتباعدات، ثم إن هذه المجاري اجتمعت فكونت نهراً، وهانحن الآن سائرات فيه إلى أوطاننا وهي البحار. اقرأ قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[الأعراف: ٢٩]. فهاأنا ذا سعيد برجوعي إلى الأهل والإخوان في البحار، كما يسعد الحكماء والأنبياء إذا غادروا حياة الأجسام إلى حياة الأرواح، فلئن شكرت أحداً فلا أشكر إلا الشمس فإنها هي التي منحتني هذه النعم العظام.

فالتفت إلى الحدائق والحقول وقال: أيتها الحقول البهجات، والزروع الناضرات، والأشجار المثمرات، هانحن أولاء نأكل الحبوب بفضل اجتهادكن، وتنال مواشينا أقواتها من الكلأ والبرسيم بعظيم همتكن، فماذا أنتن بارك الله فيكن، ولولاكن لم يقم إنسان؟.

إجابة النبات والحقول

فقالت الحقول: إننا لا قوام لنا إلا بحرارة مناسبة، وأرض مخصبة، ومياه جارية، وهذه الثلاث ليست شيئاً مذكوراً إذا قيست بنور الشمس، ألا ترى أنك لو وضعت نباتاً منا في مكان مظلم خارت قواه ثم فارق الحياة، ولو أنزلت عليه الماء وأعنته بالحرارة، فذلك لا يجديه نفعاً ولا يصلح للمرعى، فالشمس قوام حياتنا معاشر أمم النبات.

فالتفت إلى الفحم وقال له: أيها الفحم، إن اسوداد لونك صحبته السيادة، بيضت صحيفة أعمالك بإثارتك حرارتك، فمن فضائلك النار التي جعلها الله تعالى متاعاً للمقوين، ونوراً للسارين والصادرين والواردين، لقد أثرت البخار من الماء بقوتك الكامنة فيك، فأدرت آلاتنا البخارية به فعم نفعها البرية.

إجابة الفحم

فقال: قد كنت أشجاراً باسقة في غابات عظيمة، ثم طرأت طوارئ طبيعية، وحوادث فلكية، فخسفت بنا الأرض، وصرنا أسفل سافلين تحت البحار الملحة في غياباتها، فبعد أن كنا في اليابسة نرى الشمس والنجوم أصبحنا في ظلمات مدلهمات، فأخذت الأقدار تجللنا بالطين وبالرمل، وعلى طول الزمان رأينا الطين والرمل انقلبا إلى صخور، ونحن معاشر الأشجار أصبحنا فحماً نحمل فوقنا أثقالاً وأثقالاً، ونقاسي من الحرارة والنصب ألواناً، فهاأنتم أولاء تحرقوننا معاشر أنواع الفحم فتستخرجون ما كمن فينا من حرارة ونور خزنتهما الشمس فينا في أقدم العصور والدهور، فلئن أبهجتكم أنوارنا ونفعتكم حرارتنا فاستنارت الطرق وجرت السفن والقطرات؛ فما ذلك كله إلا من الشمس، فاشكروها.

فالتفت إلى الشمس وقال: أشكرك على جميل صنعك، وعظيم فضلك، فحياك الله وبياك، ما أبهج عملك، وأعظم منحك، بحرارتك كانت الرياح والأمطار والأنهار، وبفضلك كان الفحم والنبات، فلولاك أيتها الشمس لم يتهيأ لنا طعام ولا شراب ولا عمل ولا حياة، فعجباً لك وشكراً على هذه الفضائل العميمة.

قالت الشمس: لا تشكرني وما أنا إلا خادمة، اشكر الله ربك وسيدك، وما أنا إلا مسخرة لمنفعتك، ألم تقرأ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٣-٣٤]، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[مريم: ٩٣]، فهو المفيض لجميع الخيرات.

وإذا سمعت الله أقسم بي فقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾[الشمس: ١]؛ فذلك القسم لعظيم منحه التي سخرني لإظهارها، وشرفني بإفاضتها، وله الحمد في الآخرة والأولى. كتب في فجر يوم السبت ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٦ بشارع زين العابدين بقسم السيدة زينب، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين الهادي إلى سواء السبيل.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

مذكرات عن خواطري يوم الأحد ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢م

بعد أن صليت الصبح أخذت أقول مخاطباً صانع هذا العالم العظيم وأنا بجوار مزرعتنا في ناحية بلدة البركة القريبة من القاهرة: يا الله، أريتنا جمالك ورحمتك يا قدوس يا سلام، أريتنا كيف شملت رحمتك المخلوقات صغار الحيوانات، ولم نر عندك فارقاً بين الأجنة في بطون أمهاتها من حيث

شمولها بالرحمة واللطف وصغار السمك والحشرات، فمنحت كلًّا ما يحفظ عليه حياته ويسعده في مستقره ومستودعه بلطف خفي وتدبير قوي ورحمة واسعة عامة للفيض على المخلوقات، وبين الشموس السريع حركاتها في المجرة، إذ يقول علماء الفلك في عصرنا: إن شمسنا معها شموس أخرى وكلهن جاريات حول شمس الشموس التي يبلغ حجمها مقدار حجم شمسنا نحو مليونين ونصف مليون كما تقدم في الجزء الثالث والعشرين من هذا التفسير، وهذه الشموس تقطع في اليوم نحو مليون ميل في سيرهن حول تلك الشمس الكبرى، وهي «العيوق».

فيا عجباً يا ربنا، نراك نظرت لهذه الحشرات نظرك لهذه الشموس، لا فارق عندك في الرحمة بين ما دق وما عظم، وما قل وما كثر، كل عندك في الرحمة والرأفة سواء، تسير الشموس حول أمهن سيراً منظماً لا خطأ فيه ولا خلل، تلك الشموس التي نرى أرضنا بالنسبة لها كحصاة بالنسبة لجبل عظيم، أنت ترعاهن في مداراتهن كما ترعى عيون النملة والنحلة والذبابة وسائر الحشرات، أنت ترعى تلك العيون كما ترعى تلك الشموس، ترعاهن بلطفك ورحمتك وعنايتك، فإحدى عيون الذبابة البالغات نحو أربعة آلاف عين؛ وإحدى عيون النملة البالغات أربعمائة عين؛ مستقلة استقلالاً حقيقياً ـ كما هو محقق في سورة «النمل» في رسالة سميتها عين النملة ـ عندك كإحدى الشموس الجاريات حول شمس الشموس، إذن عيون الحشرة اللاتي هن شموسها التي بها تستضيء؛ كشموس المجرة الجاريات حول شمس الشموس. رباه حار فكري ودهشت لرحمتك وحنانك وعطفك العظيم.

فلما كان ضحى ذلك اليوم قفلت راجعاً إلى القاهرة، وبينما أنا سائر إذ خطرت لي خواطر في نفسي، ذلك أني أخذت أتذكر أن أناساً ممن لي بهن علاقة في القاهرة يخيل لي أنهم يسيئون إلي، وما كاد هذا الخاطر يرد على نفسي حتى رجعت إليها وقلت لها: أيتها النفس، ما لي أراك تسارعين إلى الشر، ألم تذكري أن بعض علماء النفس في زماننا يقولون: إن الإنسان بتذكره للشر تتفجر من نفسه ينابيع العداوة، وتنساب حتى تصل إلى القلوب الأخرى، فتكون نفسه منشأ تلك العداوات.

أيتها النفس، ألا تعلمين أن النفوس الشريرة كالعيون المريضة؟ فتحوم الشياطين حول الأولى كما يحوم الذباب حول الثانية مغرماً بما أصابها من الرطوبات والأقذار، وإذا كنت أيتها النفس لا ترجعين عن هذه الذكريات فإني أرجع إلى صانعك وأسأله أن يصرفك إلى ذكرى الخير، لأني اجتهدت في إصلاحك بقدر طاقتي، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، أنا أرجع إلى الله في تهذيبك وتخليصك من الشوائب والعيوب، فماذا أصنع بك إذن أيتها النفس؟ لم أذر باباً من أبواب تهذيبك إلا ولجته، ولا ضرباً من ضروب التثقيف إلا طرقته، فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى زال ذلك الخاطر، ونوديت في نفسي: إن هذه الخواطر لم توضع فيكم لإبعادكم ولا إزعاجكم، بل لتقريبكم وإسعادكم، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥]، ولو أننا منحناكم خواطر الخير فكنتم دائمي الولوع والغرام بالناس أجمعين، أو خواطر الشر فكنتم متخاصمين أبداً، لكان ذلك نقصاً فيكم أمد الحياة، ولكنا أعطيناكم الخصلتين، وهديناكم النجدين، ليكون ارتقاؤكم باختياركم، واجتهادكم لا بغرائزكم وحدها، بل بجدكم أنتم، فالسعادة لا تكون إلا مع الجهاد، أما أولئك

الكسالى الذين يعيشون على ما منحوا من عطاء وما أوتوا من غرائز، فأولئك لا حياة لهم إلا كحياة العصافير والطيور والحشرات، ونحن نربأ بكم أن ترجعوا لعالم الحيوان فتكونوا كالذؤبان والأسود والنمور عند غلبة القوة الغضبية، أو كالظباء والحمير الوحشية عند غلبة القوة الشهوية، بل أنتم أعطيتم قوة العقل والحرية، وذلك خير وأحسن تأويلاً، من شغله الحب وحده كان له عبداً، ومن استعبدته العداوات كان عبداً لها، فكن أنت منظم الأمرين حراً في تصريفك سائر الأعمال.

تذكرة

إن نفسي إذ خطرت لها خواطر العداوات كانت أمارة بالسوء، فلما عاتبتها كانت لوامة، فلما توجهت إلى الله وصرف عنها السوء كانت مطمئنة، هذا ضرب مثل الأحوال الثلاثة: الأمارة واللوامة والمطمئنة. هذه الخواطر كانت أنساً لي وأنا سائر في طريقي إلى بلدة المرج، وقد قدمت في هذا التفسير مراراً أني اعتدت أن أمشي في وسط تلك المزارع ترويضاً للنفس وتقوية للبدن. ولما قربت من بلدة المرج رأيت خليجاً في طريقي يجري فيه ماء النيل ترفعه الآلة البخارية من النهر، فأعجبني جري الماء وانسيابه العجيب، ووقفت إزاءه أفكر وأقول: إن الناس في هذه الأرض لا عمل لهم إلا مجرد التنظيم فهم يظنون أنهم يزرعون وما هم بزارعين، وإلا فكيف نراهم لا عمل لهم إلا بذر الحب في الأرض وسقيها، ثم نرى الحب ينبت وينمو، ولا عمل لهم في الإنبات ولا في النماء، هذا الماء يجري وجريه تابع لما يسمى بالجاذبية، يجري من الأرض العليا إلى الأرض السفلى بمقتضى ذلك الناموس، إذن جري الماء لم يكن للإنسان فيه عمل، رفعته الآلة من البحر ولكنه ينساب عليها بغير آلة تدفعه إلى الأمام، كل ذلك والناس غافلون ساهون لاهون كأنهم لا يعلمون، وكل ما جاء إليهم بلا عمل لا يفكرون فيه، ولا يذكرون أنه نعمة، فهم يحملون النباتات والحبوب على دوابهم من حقولهم إلى منازلهم، ولكنهم قط لا يفكرون في أن الماء ليس في حاجة إلى حمله لسقي أرضهم، وأن هناك قوة عالية تدفعه إلى الجري لسقي ما يزرعون.

تطبيق الأخلاق الإنسانية على القوى الطبيعية
وبيان أن ذلك تكملة لخواطري النفسية قبيل ذلك

رباه، عجباً لما رأيته اليوم، نفوسنا مستعدة لخطتي الخير والشر، ونحن بجدنا ندفعها إلى الكمال.
رباه، الماء ينساب بما نسميه الجاذبية، ونحن لا زرع لنا إلا إذا حفظنا هذا الماء وحكمناه فسقى أرضنا، ولولا حكمنا له وتسخيره لطاعتنا في زرع أرضنا لم تكن لنا زروع.

هكذا نفوسنا مجبولة على خصال كما جبل الماء على الانحدار، وحكمنا أنفسنا وحفظنا لها أشبه بما نصنعه في الماء من حفظه وسقيه لحقولنا بحكم العقل، وبالجد سقينا حقولنا وهذبنا نفوسنا، نحن في علاج أنفسنا وتهذيبها نعاني ما نعانيه في سقي أرضنا وإنماء زرعنا، النفس أخت الطبيعة، والله صانع الجميع: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، اتحد المصدر والنظام واختلفت المظاهر والأحوال. كتب صباح يوم الاثنين ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٢م.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى في سورة الشمس أيضاً:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ ﴾ الخ

وفي قوله تعالى في سورة النازعات:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة وبدائع الجمال، وضعت الميزان ونظمت السماء وزينتها بالأنوار، وزينت القلوب بالحكمة، في السماء شموس وأقمار، ونجوم سيارات وأخرى ثوابت، وفيها نيازك ونجوك ذوات ذيول بهجة للناظرين، وعبرة للمفكرين، وفي الأرض بحار وأنهار وجبال، وثلوج في القطبين وما والاهما، وفي الجو سعادة للمفكرين، وحكمة للمستبصرين، وفيها من الأحجار الثمينة، والمعادن الظريفة، والنقوش البديعة، والأزهار المونقة، والأثمار الشهية، والآيات المنيفة، والحدائق الغناء، والحقول الواسعة، والأمم والممالك والدول، ما لا يحصره العادون، ولا يصل إلى غاية كنهه المفكرون.

هذه نظرة عامة في عالم المادة البديع الكبير، وهانحن أولاء نبحث في عالم أرواحنا وعجائب تكوينها، وجمال وضعها، وحسن صنعها، فهاهي ذه أمام بصائرنا أبعد مدى، وأقوى أثراً، وأغزر بدائع وأجمل وقائع، موشاة بأجمل الزينة، مرقشة مزخرفة مزينة بكل ما هو جميل وبديع وبهي وبهيج.

أنبياء أرسلتهم، وحكماء أبدعتهم، وعقلاء اصطفيتهم، وصورت في عقولهم صور الجمال، ولم تذر أمة من الأمم، ولا جيلاً ولا قرناً إلا نقشت في قلوب أصفيائهم من الحكمة أسراراً، ومن العلم آثاراً، ومن نورك قبساً، ومن آياتك عجباً! لطائف العقول موزعات على الأمم، منيرات للسبل، مسعدات للمستعدين، مشرقات إشراق المشرقات في مداراتها، والأزهار في جناتها، وفي العوالم المادية مصابيح، وفي العوالم الروحية قناديل، عالمان مستمدان منك، فأنت نور السماوات والأرض.

ومن أبدع أنوارك، وأعجب أسرارك، وأحاسن إبداعك، أن نرى ونحن في القرن العشرين ـ وأنا اليوم أكتب صباح يوم الأحد ١٦ من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٢م ـ إن أفلاطون يكتب قبل اليوم بنحو ٢٤ قرناً في الأخلاق ما يكون أشبه بضرب الأمثال لما جاء به دين الإسلام، وبين تلك الفلسفة وذلك الدين نحو عشرة قرون، ذم الإسلام التمادي في الشهوات، والإكباب على ما أغرمت به العجماوات وقال الله في القرآن: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣]، ووبخ وزجر وحذر وأنذر ووعد بالعذاب الشديد كل فرد وكل أمة أطاعت هواها في القوة الغضبية أو في القوة الشهوية، القرآن قرر هذا كثيراً، وجاءت السنة فأكدت، وجاء في القرآن وفي الحديث: أن من الناس من يحشرون على وجوههم إلى جهنم. ولما سئل صلى الله عليه وسلم في ذلك أفاد أن القدرة لا حد لمداها، والله لا يعجزه شيء، فهو القادر على الأمرين. هذا كله معلوم في ديننا الإسلامي، أليس من المدهش أن نرى أفلاطون الذي لم يسمع بالإسلام لأنه قبله بعشرة قرون يقرر نفس هذه الحقيقة

على طريق ضرب الأمثال، ويأتي في علم الأخلاق بالعجب العجاب، وهذا على السنن العام في هذه العوالم البديعة، فكما أننا نرى في السماء مشرقات وفي الأرض أزهاراً وأنواراً متلألئات على منوالها، هكذا نرى أنبياء يوحى إليهم كالمشرقات السماوية الغزيرة الأنوار، وحكماء وعقلاء يقومون بتفكيرهم مقام الأزهار والمصابيح اللواتي أشرقن في الأرض بصنع الإنسان، اجتمع العقل والوحي على سنن واحد، وهو ذم الترف والنعيم واتباع الشهوات، أوحى الله إلى الأنبياء ذلك وألهم عقول أكابر الحكماء في الأرض نحوه، ذلك لأن الحقيقة واحدة والمصدر واحد، أنوار السماء والأرض من واد واحد، وحي الأنبياء وتفكير أكابر الحكماء يؤلفان وحدة، تلك وحدة برزت من حكيم عليم.

ماذا يقول أفلاطون

إنه أولاً كان على مشرب أستاذه سقراط، ذلك الحكيم الذي كان ينفر من الطبيعيات، فكان مقلداً له في أول أمره، فلما أدبر شبابه وأقبل مشيبه أبدع محاورة جعل قوامها «طيماوس الفيثاغوري» تارة، وأخرى جعل قوامها «فيدون»، وقد قص بلسان سقراط أستاذه ما نصه: وسمعت ذات يوم قراءة في كتاب لأنكساغورس، فإذا فيه هذا الكلام: هو العقل الذي رتب كل شيء وهو علة الأشياء كلها. ولكنه ما كاد يفرح بهذا القول حتى اصطدم بعثرات في كلام أنكساغورس، فقد جعل علل التكوين كلها راجعات إلى المادة وتفاعلها لا إلى الصانع الحكيم المرتب للأشياء، كل ذلك قاله أفلاطون على لسان سقراط الذي أخذ يهزأ بمن يعتبرون العلل الثانوية عللاً رئيسية، فلا علل إلا ما كان من العقل، وما المادة إلا تابعة له ـ وذلك بلسان الشرع علم الله القديم ـ وقد جعل الحركات على قسمين: حركات قسرية خاصة بالمادة، وحركات ذاتية خاصة بالعقل، والأولى صادرة عن الثانية دائماً. ثم أثبت أن العالم حادث، لأنه جسم مرئي ملموس، وكل ملموس متغير، وهو في غاية الجمال. هذا المقال كله ذكر بأوضح من هذا في غير هذا المقام.

العالم خلق على أبدع مثال

(١) يقول: إن العاقل أجمل من غير العاقل.

(٢) العقل لا يكون إلا في النفس.

(٣) لذلك وضع الله العقل في النفس، وجعل النفس في الجسم، وجعل العالم كله كائناً حياً عاقلاً. «هذا رأيه الخاص». وكما أن الله يعلم كل ما هو جميل في علمه، وهي التي سماها المثل ـ بضم الميم والثاء ـ هكذا لما خلق العالم جعله يحوي جميع الأحياء التي من نوعه، فالعالم واحد لأن صانعه واحد، ونموذجه واحد، وهو كروي متجانس يدور على نفسه، والنفس المدبرة لهذا العالم سابقة على الجسم صنعها الله عز وجل بالأمر الإلهي البسيط والجوهري الطبيعي المنقسم، وهاهنا أخذ يشرح أولاً النفس الكلية المذكورة التي بها نظام هذا العالم، وهي هذه، فجعلها ذات وجهين كما عرفت، وقال: إنها تدرك الله الذي لا يعتريه الانقسام، وتدرك العالم الذي طبعه الانقسام والحدوث، وهذه النفس تشعر بالحزن والسرور، والخوف والرجاء، والمحبة والبغض، وقد تخالف قانون العقل فتكون حمقاء، فتضطرب حركاتها وتحدث النكبات بالعالم.

وهاهنا أخذ يشرح جسم هذا العالم بعد أن شرح عقله العام على مقتضى ما خطر له وعلى مقدار طاقته، فشرح العناصر الأربعة على طريقة القدماء، وذكر أنها ينقلب بعضها إلى بعض، فإذن يكون العالم في الأصل مادة غير معينة بالمرة، عسرة الفهم غامضة، كل ما نعقله عنها أنها موضوع التغير، أو هي مكان للصور الكثيرة، وجعل النار مؤلفة من ذرات هرمية ذات أربعة أوجه تشبه سن السهم، والهواء مؤلف في نظره من ذرات ذات ثمانية أوجه، أي: من هرمين، والماء مؤلف من ذرات ذوات عشرين وجهاً، والتراب من ذرات مكعبات، وهذه العناصر في ذواتها مضطربات، ولم يكن لها نظام إلا من جهة مبدعها الحكيم، فهو الذي شملها بالنظام، وخلق المشرقات مقياساً للنظام، فالزمان حادث عنده لا قديم، بعكس ما هو شائع في أمم الإسلام الذين ينقلون ذلك ويعلقون عليه، ويثبتون ويلفون مما تصدعت به الأفئدة وحارت فيه الأفهام. ويقول: إن النفس المذكورة التي تدبر العالم خالدة، ولكن خلودها من جهة صانعها لا من طبيعتها.

الكلام على النفوس الثانوية السماوية والنفوس الجزئية في الأرض وعلى أخلاق هذه النفوس الإنسانية وعقابها ونعيمها على سبيل ضرب الأمثال

الذي هو المقصود من هذا المقال

معلوم في ديننا الإسلامي أن الله عز وجل ملائكة، وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بهذا العالم ويفعلون ما يؤمرون، ومنكر ذلك في ديننا كافر، فالإيمان بالملائكة محتم، فانظر كيف احتال هؤلاء على ذلك الإيمان بدون أن يخبرهم نبي بذلك، فماذا فكر؟ فكر في أن النفس الكلية المدبرة لهذا العالم قد صنع الله عز وجل من بقاياها نفوساً أصغر منها وأقل منها شأناً، تدبر الكواكب، فلكل كوكب نفس ـ ولعله قاس ذلك على ما نرى أن لكل جسم من أجسامنا نفساً مدبرة ـ وهذه النفوس الثانوية أقل دقة من النفس الأولى، ولكنها خالدة، وخلودها إنّما جاء لها من قبل صانعها، لا من قبيل ذاتها، وذلك أن النفس أحسن ما صنع الصانع الحكيم، فهو يأبى أن يعدم أحسن ما صنع، وهذه النفوس الكوكبية على ما يرى هو قد أمرها الله عز وجل فقال لها: أيتها النفوس، أنا جعلتك مسيطرة على كواكبي، وحكمتي قضت أن أخلق جميع المراتب أرفعها وأدناها، فهاأنا ذا أخذت ما تخلف من جوهر النفس الأولى الكلية وما تخلف من جواهر نفوسكم الثانية ـ كل هذا ضرب أمثال ـ وصنعت منه مزاجاً جديداً وقسمته على كواكبكم، وأمرت كل نفس منكم مدبرة لكوكبها أن تأخذ هذه النفوس الصغيرة التي منزلتها أصغر من منزلتكم، وتضعها في أجسام مهيأة لقبولها، وأن تضم إلى هذه النفس الشريفة نفسين مائتتين انفعاليتين.

فأما أولاهما فهي الغضبية التي تشبه غضب النمور والأسود والفهود وجميع الكواسر، وبها الإقدام والجبن واليأس والرجاء. ثم قال: ضعوا هذه النفس في أعلى الصدر بين العنق وبين الحجاب الحاجز لكي لا تدنس النفس الخالدة المستقرة في الرأس.

وأما الثانية فهي الشهوية التي بها طلب الغذاء، فهذه يجب عليكم وضعها في أسفل الحجاب الحاجز، فإذا ما انحل هذا المركب عاد الجزء الخالد إلى الكوكب الذي هبط منه، إن كان صالحاً قضى

هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة ذلك الكوكب، وإن لم يكن فإنه يولد ثانية امرأة، فإذا أصر على شقاوته ولد ثالثة حيواناً شبيهاً بخطيئته، وهكذا بحيث لا يخلص من آلامه، ولا يعود إلى حالته الأولى حتى يغلب العقل الشهوة ويصعد السلم فيرجع رجلاً صالحاً، ودرجات هذا السلم الأنواع الحيوانية التي أوجدتها الخطيئة والجهالة.

ملخص هذا المقام

إن الله صنع ذلك ليستوعب جميع المراتب، فهو الكامل المطلق، والعقل العام أقل منه، والعقول المنظمة للكواكب أقل، ونفوس أمثال بني آدم أقل مرتبة، وهي لا تعيش إلا مع نفوس مائتة شهوية محلها أدنى من الحجاب الحاجز، أي: في المعدة والأمعاء والكبد والطحال وهكذا، ونفوس غضبية محلها القلب الذي في الصدر في مرتبة أعلى من مرتبة النفس الشهوية. وأما هذه النفس الإنسانية فإن مقرها الدماغ، ومتى انحل الجسم رجعت إلى كوكبها، وإن كانت قد تدنست رجعت إلى هيئة أدنى، فكانت ـ كما يزعم ـ امرأة، فإذا أصرت النفس على جهالتها ولدت على هيئة أدنى وأدنى إلى آخر المراتب الدنيا، فمثلاً ـ كما يزعم ـ أن الطيور كانوا رجالاً مغرمين بعلم الفلك، ولكن كان بحثهم لا يتعدى الظواهر ولا يعرفون الحقائق، فلم يفكروا في النفس العاقلة، وصنعت الدبابات من الرجال الذين لم يعنوا قط بالفلسفة، ولم ينظروا إلى الأجرام السماوية، فكانوا منصرفين عن توجهات النفس العاقلة، منقادين للنفس التي في الصدر، فانحنت أعضاؤهم الأمامية ورؤوسهم إلى الأرض مجذوبين بما بينهم وبينها من المشابهة، واستطالت جماجمهم وتشكلت أشكالاً عديدة بحسب الكيفية التي جعلت كلًّا منهم يكبت حركات النفس بالكسل، وهذا هو السبب في أنها تولد بأربع أرجل أو أكثر.

ولما كانت الزحافات والديدان أغبى الأحياء؛ زادت الملائكة في عدد قوائمها لشدة انجذابها نحو الأرض، وبسط أغبى هؤلاء جسمهم كله على الأرض، فحرمهم الملائكة الأرجل فزحفن زحفاً. أما الحيوانات المائية فقد نشأت من أشد الرجال غباوة وجهلاً، ووضعت في أوطأ المنازل. ثم قال: إن الأحياء يتحول بعضها إلى بعض بحسب ما يكسبون أو يخسرون.

ثم إن الحكمة اقتضت إيجاد نفوس أخرى غذائية، وهي الأشجار وجميع النباتات، والبذور لا عقل لها، ولكنها تحس باللذة والألم والشهوة، وهي منفعلة أبداً لا حركة لها من ذاتها، فكانت حياً مثبتاً في الأرض. اهـ.

يا سبحان الله! نعم إن هذا ليس عليه دليل، وهو مجرد تمثيل، ولو لم يكن مجرد تمثيل لخر عليه السقف من فوقه، أو ذهب أدراج الرياح، كيف لا. ألم يقل: إن الرجال الناقصين يولدون نساء أو طيوراً أو دبابات أو حيوانات بحرية، فهل كان هؤلاء الرجال بلا نساء، وأين ذهبت نساؤهم؟. ثم إن بني آدم عدد قليل جداً، فإذا عصوا جميعاً، فهل أرواحهم مع قلتها إذا عصت تصبح ناموساً وذباباً وغيرهما؟ وهذه عوالم نسبتها إلى الإنسان مئات الملايين إلى الواحد، فكيف يمكن هذا؟ إذن هو مجرد تمثيل لا غير، وهو تمثيل مدهش عجيب! فكيف ينطبق ما يقوله من تدبير النفوس الكوكبية

للعوالم السفلية على ما في الكتب السماوية؟ وكيف يجعل الذين لا يفكرون في مراتب تحت المفكرين؟ وكيف يقول: إن النفس الناقصة تتجه وجوهها إلى الأرض وتنجذب نحوها وتمشي عليها بأرجل كثيرة بدل رجلين وتلصق أفواهنا بالأرض، ومنها ما تزحف بجسمها كله بغير أرجل، كل ذلك تابع لما تحبه وما تشتهيه من هذه المادة، وقد حرمت من الجمال الإلهي في السماوات، بل إن النفوس التي أغرمت بعالم السماوات وهامت به ونسيت صانع العالم؛ تنزل درجتها عن الإنسانية، فتصير طيوراً مرتفعة ظواهرها منخفضة بواطنها.

بل هذا أعجب تمثيل، لم يرسل لأفلاطون نبي يخبره فاخترع عقله هذا المثل، وهذا المثل من حيث نتائجه ملخص تفسير آية: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٩-١٠]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[الواقعة: ٤٥]. إن الترف والنعيم والكسل مهلكات للأمم مضيعات للجماعات، ثم كيف ينطبق هذا المثل على الأحاديث الواردة في الحشر، وفي مراتبها من يمشون زحفاً وإن اختلف الوضع، فأحاديث الحشر واردة في عالم الآخرة، وهذا يقول: إن ذلك بالنتائج في عالم الدنيا، وهذا ما وصل إليه عقله ولم يجد له نبياً يعلمه، ولكن الطريق واحدة، وهي أن النفس المنجذبة إلى المادة هالكة والأخرى سعيدة، ويجمع هذا كله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات: ٣٧-٤١]. انتهى ضحى يوم الأحد ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢م.

اللطيفة الرابعة

في خواطري ليلة السبت ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥١ هجرية لمناسبة سورة: والشمس وضحاها

(١) كنت قبيل السحر أتعاطى الطعام معتزماً صوم ذلك اليوم، وقد خيل لي أن السماء مشرقة أنوار نجومها حولي وكأني أطالعها، وهذا الخيال هو الغالب على نفسي حين إشراقها، إن علامة مسرتي أن أحس في نفسي بإشراق النجوم وبهجة الجمال والبهاء في خيالي، وبينما أنا في هذه المسرة والبهجة إذ خطر لي أن الأضراس الماضغات الطعام ـ وإن كان ظاهراً فعلها أنه منفعة لسائر أعضاء الجسم ـ أحسنت لنفسها أيضاً. إن الطعام المهضوم الذي أصبح كيلوساً وكيموساً ودماً منه استمد كل عضو ما يغذيه، ومن الأعضاء نفس الأسنان، إذن هي تخدم العموم وتخدم نفسها، بل لولا أن الطعام يدور دورته المعروفة ما صلح لتغذية الأسنان.

(٢) لما خطر لي هذا الخاطر عجبت كل العجب من أن هذا المثال هو عينه مثال نظام الفرد مع أمته، بل نظام الأمة الواحدة مع الأمم، إن الإنسان يسعى ويحصل الرزق، فهو أشبه بضرس يمضغ الطعام، فهو إن نفع الأمة أو القرية أو الأسرة بسعيه فإن منفعته بكسبه لا تتم إلا بمن معه من أسرته أو أمته أو الأمم، إذن الأضراس التي تمضغ الطعام صارت مثلاً للفرد مع أسرته ودولته وللأمة مع سائر الأمم.

(٣) من عادة أمثال هذه الخواطر أن تكون مناسبة لما يطبع من التفسير، والذي اقترب طبعه من التفسير الآن سورة «الشمس»، فلم أعرف المناسبة بين هذا الخاطر وهذه السورة.

(٤) وما أشرقت الشمس واستبان ضحاها حتى توجهت إلى المزارع حول «كفر الشرفاء» بالقرب من بلدة المرج، وكان الجو جميلاً والمناظر بهجة، والنسمات تلعب بالمزارع البهجات، والطيور تصدع، والأغصان تتمايل ذات اليمين وذات الشمال. ولقد راقني حقول القمح وهن بهجات المناظر، وسنابلها المبيض سناها المجدولة ذوائبها تترنح فوق أعوادها الفضية ذات اليمين وذات الشمال، وتتخللها حشائش زبرجدية الأوراق، ياقوتية الأزهار، منظر جمع الشبان والشيب، والقديم والحديث والزبرجد والعقيق.

(٥) هالني هذا الجمال، وعجبت من هذا الإنسان كيف عمي عن جمال الطبيعة، وحوادثها البديعة، وصورها المتحركة، وغاب عقله، فلم يفهم إلا الصور المتحركة الصناعية، قال الشاعر:

** ليس التكحل في العينين كالكحل **

(٦) هنالك غابت ذاكرتي، وغشي على عقلي، ودخلت في عالم الأحلام، خيل لي أن روحاً تخاطبني وتقول: خواطر بالليل وخواطر بالنهار، كل ذلك لتفسير سورة الشمس وضحاها. فقلت في نفسي: ** أين الثريا وأين الثرى **. فما كاد يتم الخاطر حتى سمعت هذه الروح تقول: إن في السورة أمرين: الشمس وما ينشأ عنها من الضحى، وما يتبعها وهو القمر، وما هو مظهرها وهو النهار، وما يغطيها وهو الليل، ومحلها وهو السماء، وما تشرق عليه وهو الأرض، ثم إن النفس فجورها ليلها وتقواها نهارها، في العالم شموس ونفوس، فإذا كان لكواكب السماء عدد معلوم فليكن للنفوس عدد معلوم، ولكن الناس في الأرض قد علموا من الشموس ملايين وملايين، وهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً. هكذا النفوس لا حصر لعددها، الشموس مضيئة والنفوس مضيئة، لكل شمس أنوار تجري في الفضاء، ولا وقوف لها ولا حد لمجراها كما ثبت في العلم حديثاً، هكذا لكل نفس أضواء خافية تشرق منها على عوالم وعوالم، يجلس الرجل في ضوء الشمس فيظن أنه لا ضوء يحيط به سواها، والحقيقة أن أضواء الشموس وكواكبها لا عدد لها تخترق الجو وتحيط بالإنسان وبغير الإنسان ليلاً ونهاراً، والناس لا يكادون يذكرون، هكذا النفوس تشرق منها أنوار تخترق الجو كأنوار الكواكب، ولكن لا تراها العيون، فهاهنا إشراق نفوس لا حصر لها وإشراق شموس لا حصر لها، والعالم كله عجب!.

(٧) وقد يظن القوم أن المثال المضروب بالأضراس ـ وهنا دهشت لهذه المصادفة وكيف وافق ما في نفسي ـ وطحنها العام لمنفعة الأجسام ورجوع تلك المنافع ثانياً لغذاء الأضراس، بعيد عما ذكرناه من أضواء الشموس وأنوار الكواكب واختراقها الجو ونماء النفوس الإنسانية في الأرض بها وبما نتج عنها من الأرزاق والمنافع، كلا. ثم كلا، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]. إن هذه الشموس إنّما تدار بنفوس ملكية كبيرة وهي المدبرات أمراً، وهذه العقول الكبيرة والنفوس العظيمة تفرح جد الفرح بهذه النفوس الأرضية الصغيرة التي تسعى هي لتكميلها ـ وهذا هو السر في تقديم الشمس على النفس ـ كما يفرح الآباء بأبنائهم والأساتذة بتلاميذهم، فرجع السرور إليهم، كما رجعت منافع الأضراس إليها بتغذيتها بعد تغذية الجسم. ولكن الفرق أن التغذية هنا روحية والتغذية في الأضراس جسمية مادية.

(٨) تحيط القوى المدبرات بهذه العوالم كما تحيط أضواء الكواكب بها، فإذا كان كل امرئ في الأرض تحيط به أنوار كواكب لا حصر لها وهو لا يراها وإنّما يرى فقط نور الشمس أو نور القمر، هكذا تحيط به أنوار تشرق عليه وهو غير عالم بها لا عدد لها، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٢].

(٩) وإذا عجزت الأرض عن أن تمد الجسم بأضواء تنير سبله وتهديه؛ فهي عن إمداده بالعلوم والآراء أعجز، للجسم أنوار تحيط به، وهي التي تعين على نماء النبات والحيوان، هكذا تحيط بالنفس نفوس ملكية لا يعلم عددها تلهمه الخير، ونفوس شريرة تلهمه الشر، فتكون الأولى كالهواء النقي يعطي الصحة، وتكون الثانية كالهواء الموبوء المملوء جراثيم قتالة تفتك بالإنسان وبالحيوان، جسم الإنسان تحيط به الأنوار الحسية، ونفس الإنسان تحيط بها أنوار العقول الملكية. وعوالم الأرض وما اشتق منها أعجز من أن تقوم بأخس الضوءين فكيف بأشرفهما؟ أليس هذا من عجائب الأسرار في ذكر الشمس ودولتها والنفس وأوصافها في سورة «الشمس».

(١٠) وإذا ثبت ذلك وتجلى وانكشفت الحجب عنه وظهر للعيان وعرفه الأذكياء في بلاد الإسلام بهذه البراهين اليقينية؛ أفلا يكون ذلك برهاناً جلياً واضحاً يفسر لكم معنى قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤]، ويكون برهان ذلك أن يقال: إذا كانت أضواء الكواكب كلها التي لا حصر لها تحيط بأجسامنا ولا تغيب عنها ونحن لا نراها؛ وعلوم النفوس الملكية لا تفارقنا؛ فكيف بعلم الله تعالى الذي يتعالى عن الأضواء وعن علوم النفوس الملكية؟.

وقد يقول قائل: أين الدليل على أن للنفوس العالية إشراقاً متصلاً بالعوالم؟ نقول جواباً على ذلك: إن أهل الأرض اليوم لا يعقلون إلا ما كشفه علماؤهم، فلينظروا ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية وهي صحيفة «الجهاد» بتاريخ يوم السبت ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥١هـ الموافق ١٥ أبريل سنة ١٩٣٣م، فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه:

اختراع عجيب: جهاز لمعرفة صور الموتى

نشرت جريدة «الديلي إكسبريس» خبراً عن اختراع عجيب، قالت: إنها علمت بأن أحد المخترعين الألمان قد أرسله إلى الأستاذ «شرنبل سميث» الإنجليزي بقصد تجربته وإصلاحه قبل طرحه للاستغلال.

وقد وصفت الجريدة هذا الاختراع بأنه أعجوبة القرن العشرين، لأنه جهاز إذا وضعت فيه صورة أي شخص أنبأك في الحال عما إذا كان صاحب هذه الصورة قد توفي أو أنه لا يزال على قيد الحياة، وقد انبنى هذا الجهاز على نظرية علمية معقولة، فقد اتفق العلماء على أن عقل الإنسان أشبه بمحطة إذاعة لا سلكية ترسل أشعة غير منظورة، ولكن هذه الأشعة تسجلها الصور الفوتوغرافية تسجيلاً خفياً فلا تراها العين، وتظل هذه الأشعة ثابتة في الصورة طالما صاحب هذه الصورة على قيد

الحياة. أما إذا مات حتى ولو أدركه الموت وهو في أقصى المعمورة، فإن هذه الأشعة الخفية تنطمس من الصورة الفوتوغرافية في الحال، لأن العقل الذي كان يشعها قد خمد. وعليه فإنك إذا وضعت في الجهاز صورة فوتوغرافية لشخص ما؛ فإن الجهاز يبين هذه الأشعة أو لا يبينها، وفي الحالة الأولى يكون الشخص على قيد الحياة وإلا يكون قد توفي. انتهى

فإذا صح هذا في عقول بني آدم وأن أشعتهم تنطمس من الصور إذا فارقوا هذه الدنيا كما ينطمس نور الشمس إذا فارقت الأرض؛ فإن نورهم باقي في عوالم أخرى كما أن نور الشمس بات بالليل في عوالم أخرى، وعلى ذلك يظهر أمران معاً:

أولاً: أن النفوس العالية تكون من باب أولى محطات إذاعة لاسلكية تشرق على النفوس الإنسانية، وهذا هو الذي قدمناه.

ثانياً: إن الأرواح الإنسانية بعد الموت لا تزال محطات إذاعة لاسلكية في عوالم أخرى، وأعمالها حاضرة معها، كما أن ضوء كل كوكب يحيط به، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾[آل عمران: ٣٠]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنّما هي أعمالكم تعرض عليكم». هذا بعض السر في اقتران النفوس بالشموس في سورة «الشمس».

هنالك استيقظت من غشيتي وكتبت خواطر الخيال، وقلت: الحمد لله رب العالمين. وبهذا تم الكلام على سورة «الشمس». انتهى.

تفسير سورة الليل
هي مكية
آياتها ٢١، نزلت بعد سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

مقاصد هذه السورة:

إن الناس فريقان في سعيهم: قسم يهيئه الله في الدنيا للخصلة اليسرى، وهم الذين أعطوا الأموال من يستحقها، واحترسوا من الذنوب، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على ما أنفقوه، ومن الجنة وغيرهما. وقسم يهيئه الله في الدنيا للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة مثل دخول النار، وهم الذين بخلوا بالأموال ولم يتقوا الله، بل استغنوا بالشهوات في الدنيا عن نعيم الآخرة، وأنكروا ما وعد الله من ثواب في الجنة. ثم ذكر ما لكل منهما من الجزاء في الآخرة، فقسم يدخل النار، وقسم يتجنبها.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ الليل يغشى النهار وكل ما على الأرض فيواريه بظلامه، والنهار يظهر بزوال ظلمة الليل، واعلم أن كلًا من الليل والنهار يغطي أشياء ويكشف أشياء، فالليل يظهر النجوم ونور القمر، والنهار يظهر ما على الأرض ويخفي ما في السماء من النجوم، نور النهار مستأثر بألوان سبعة اتّحدت وكونت ستارة واحدة هي ضوء الشمس، أسدلت على السماء

فحجبت نجومها وأظهرت ما على الأرض من المخلوقات، فلما رفعت تلك الستارة ليلاً انعكس الأمر فظهرت النجوم واختفت المخلوقات الأرضية. ولعمري أن ما يظهر بالليل إنّما هو مجمل العالم كله، وما يظهر بالنهار ذرة من العالم كله وهي الأرض، ولكن ظهورها أتم من ظهور الكواكب، لأننا نرى فيها الأشياء بالتفصيل وهناك بالإجمال، وكأن الليل والنهار تمثلان أحوالنا في الحياة وبعد الموت، ففي الحياة أنظارنا قاصرة على عالم ضئيل، وفي الموت نطلع على عوالم لا نهاية لها، فالأول رمز له بالنهار الذي لم يظهر لنا إلا الأرض، والثاني رمز له بالليل الذي يرينا سائر الأكوان، أو كالعلوم التي نقرؤها، فليطلع الإنسان على مجمل العلوم حتى تكون ممثلة في ذهنه كما تمثل صور الكواكب ليلاً العوالم التي لا تتناهى، وليجد في فن واحد يعرف تفاصيله حتى يكون ركناً ترجع له الأمة فيه.

ثم هنا يرد سؤال فيقال: لماذا خص قوله: «يغشى» بالليل، وخص التجلي بالنهار مع أن كلًّا منهما يظهر شيئاً ويخفي آخر، بل إن ما يغشيه النهار أعظم، فإن النهار يغطي العالم كله، والليل لا يغطي إلا عالم الأرض، فكان الأقرب أن يكون المغشي هو النهار لا الليل، والجواب على ذلك بوجهين: الأول: أن ما يهم الخلق في حياتهم هو الأرض، فأما بالليل فإنهم نيام. والثاني: أن الليل لازم لستر الأرض لضوء الشمس، فالليل طارئ على النهار ومغش له، لأن نور الشمس دائم والأرض بتحركها يحصل احتجاب نصفها عن الضوء، فالذي يغشى هو الليل لا النهار. وهذا من عجائب القرآن، وتقدم له نظير. بل هذا وأمثاله من المعجزات، فهذه علوم لم تعرف بكثرة إلا في زماننا. وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ أي: والقادر الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع بحيث أنك ترى نوع الإنسان على وجه الأرض إذا عددت المواليد في دفاتر الأمم وجدت الصنفين متحدين عدداً تقريباً، وهذا أمر عجيب، فإن هذا دلالة على حسن الإتقان، بحيث لو زاد الذكور على الإناث أو بالعكس؛ أو لو أن أمة من الأمم أتت بالذكور سنين؛ أو بالإناث سنين؛ أو أهل الكرة الأرضية فقدوا أحد الصنفين بأن خلق الذكور وحدهم أو الإناث وحدهم سنين معدودة؛ لانقرضت تلك الأمم، أو لانقرض النوع الإنساني كله في عشرات السنين، وما يقال في الإنسان يقال في الحيوان، وقد ندبت دولة الإنجليز حظها منذ سنين لأنها وجدت تعداد الإناث في كل ألف رجل وامرأة يزيد ١٥ امرأة، فأخذت تندب وتدعو بالويل والثبور وتقول: عندي آلاف مؤلفة من النساء فماذا أصنع؟ أوَلا ترى أن ربك سوى بين العددين إجمالاً في أنحاء الكرة الأرضية برحمته، ولو أنه لم يفعل ذلك لوقع الإنسان في أشد الضنك، أو لفني من على وجه الأرض منه، أفليس ذلك دليلاً أن كل شيء بميزان، وأنه يعد كل شيء، وأنه لم يذر أمة إلا جعل فيها كافة مقومات الحياة، فالصالحون للصنائع المختلفة والعلوم والأعمال العامة يخلقون، فإن لاحظت الأمة ذلك نجحت وإلا أهلكتها الأمم، ألا ترى أن الأذكياء في كل أمة قليل، وأن الجمال البارع قليل، أوَلا ترى من يصلحون للصناعات اليدوية في كل أمة أكثر ممن يصلحون للمعارف العالية والحكمة الراقية؟ ذلك لأن الأمم لا يخلق فيها لكل نوع من أنواع الحياة إلا على مقداره، فقل أرباب الفكر وكثر أرباب العمل، وقد ألفت لهذا كتاباً سميته «أين الإنسان»، قد بينت فيه سياسة الإنسان كله على هذه النظرية، وقد أثبت ملخصه المكتوب في تقريظ

بعض فلاسفة التليان بمناسبة قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾[الآية: ١٣] الخ في سورة «الحجرات» في المجلد الثاني والعشرين من هذا التفسير. ولعمري إن هذه أيضاً من عجائب الله وعجائب القرآن. وقوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أي: إن مساعيكم لأشتات مختلفة جمع شتيت. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ حقوق ماله ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ ربه فاجتنب محارمه ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وأيقن أن الله سيخلف عليه ما أنفقه في طاعته وصدق بالجنة وصدق بوعد الله في كل شيء؛ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ ﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي: للخلة أو للفعلة اليسرى، وذلك بأن يعمل بما يرضاه الله، ويكون يوم القيامة في يسر وراحة فيدخل الجنة ويلقى ربه. ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ بماله ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ عن ربه فلم يتقه وصارت شهوات الدنيا مغنية له عن نعيم العقبى ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: وكذب بأن الله مخلف عليه ما أنفق في سبيل الله، وبوعد الله الذي منه الجنة، ولا جرم أن ذلك يدخل فيه التكذيب بلا إله إلا الله؛ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي: للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار، وذلك بأن يفعل الشر في الدنيا ويعمل بما لا يرضاه الله، ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ أي: لا ينفعه ماله الذي بخل به إذا هلك، وفعل «تردى» من: الردى، وهو الهلاك. ويقال: تردى أيضاً سقط كالسقوط في بئر ونحوه، وهنا يكون السقوط في جهنم. ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أي: إن علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وإنزال الشرائع، ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ فلا يضرنا ضلال من ضل ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى، ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ تتلهب ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ ﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي: الكافر الذي كذب الرسل وأعرض عن الإيمان بالله، ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ وسيبعد عنها ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ الذي اتقى الشرك والمعاصي معاً. أما المؤمن الذي اتقى الشرك ولم يتق المعاصي فإنه لا يجنبها، وقد يدخل يوماً أو مئات السنين أو أكثر على حسب جهله وفسقه. وقوله: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ ﴾ أي: يصرفه في مصارف الخير ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ بدل من «يؤتي»، أي: يطلب عند الله أن يكون زاكياً لا يطلب بما ينفقه رياء وسمعة، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ فيقصد بإيتائه مجازاتها، ولا يؤتي ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لا لمكافأة نعمة ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ وهذا وعد بالثواب العظيم الذي يرضي هذا المنفق. وهذه الآيات وإن كانت عامة لا تنافي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، اشترى بلالاً مع جماعة يؤذيهم المشركون فأعتقهم، فيقال: المراد بالأشقى أبو جهل وأمية بن خلف، ويقال: إن أمية بن خلف كان يخرج بلال ابن رباح إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو اكفر بمحمد، فيقول وهو في تلك الحال: أحد أحد، فأنقذه أبو بكر رضي الله عنه بأن استبدل به عبداً عنده وأعتقه، وهكذا أعتق غيره ممن ذكرهم عمار بن ياسر في شعره الذي أوله:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه ... عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل

وعتيق: اسم أبي بكر.

انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

تذكرة

انظر في إقسام الله عز وجل بالليل والنهار، وارتقب ما سيأتي في سورة « العصر » من أن هذه الأقسام في القرآن مفاتيح العلوم، وأنها في البلاغة فوق إقسام العرب بما لا يتناهى من الكمال. اهـ.

معلومات عامة عن الكون

وبهجة العلم الناضرة في سعة ملك الله تعالى التي شوق عقولنا لها بأن ذكر الشمس وضحاها والسماء وبروجها، والفجر وجماله، والليل ووقاره، فلنذكر الآن آخر ما وصل إليه العلم في زماننا من ذلك ونحن في آخر التفسير تذكرة لمن بعدنا، والله هو الولي الحميد.

آخر ما وصل إليه العلم الآن،أي:سنة ١٩٣٣م

تقدم في هذا التفسير أن في عالمنا سدماً كثيرة ـ جمع سديم ـ تبعد عن مجرتنا، ومجرتنا فيها آلاف الملايين من الشموس، فأبعد السدم اللولبية تبلغ مسافتها ١٤٠ مليون سنة ضوئية، ومعلوم أن الضوء يجري في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل أو ٣٠٠ ألف كيلومتر، وهو يجري حول الأرض نحو ثمان مرات في الثانية الواحدة، فهذا الضوء يجري من ذلك السديم ١٤٠ مليون سنة في الجو حتى يصل لنا، ولكن « أينشتين » يقول: إن محيط الكون نحو ألفي مليون سنة ضوئية، ثم إن متوسط بعد كل مجرة عن أخرى مليون وثمانمائة ألف سنة ضوئية، وبعد سديم المرأة المسلسلة عن المجرة ٩٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وقطر المجرة ٥٠,٠٠٠ سنة، وبعد الشعرى عن الأرض نحو ٩ سنين ضوئية تقريباً، والسنة الضوئية تبلغ ٩ مليون مليون كيلومتر، وقطر المجموعة الشمسية عشرة آلاف مليون كيلومتر وقطر القمر ٣٤٨٠ كيلومتراً، وطول الباخرة « أوروبا » ٢٨٥ متراً. أطول أمواج الصوت ١٦ متراً. متوسط طول الإنسان ١٧٢ سنتيمتراً.

أقصر أمواج الصوت ١٧ مليمتراً؛ والمليمتر يعادل ألف ميكرون. أصغر الدقائق التي ترى ٥٠ ميكروناً، والميكرون يعدل ألف ملميكرون، خلية الدم الحمراء ٨٠٠ ملميكرون، موجة النور الأحمر ٧٧٠ ملميكروناً، أصغر الدقائق المكروسكوبية ٣٠٠ ملميكروناً، أقصى أمواج أشعة وراء البنفسجي ١٣ ملميكروناً، المليكرون يعدل ألف ميكروميكون، المسافة بين ذرات الكبريت ٩٠٠ ميكروميكون، وبين ذرات الفضة ٤٠٠ ميكروميكون، إذا مثلنا المجرة بتفاحة فإن الكون كله يكون كرة قدر الأرض. انتهى.

هذا هو نهاية الكلام على سورة « الليل »، وقد كتبت ذلك في أول مايو سنة ١٩٣٣ ميلادية، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الضحى
هي مكية
آياتها ١١، نزلت بعد سورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾

هذه السورة فيها مقصدان:

المقصد الأول: أن الله ما قطع رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أبغضه، بل هو مديم النعم عليه، منزل البركات والوحي له، وأنه سيمده في المستقبل في الآخرة، ويعطيه حتى يرضيه، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾.

المقصد الثاني: تذكيره صلى الله عليه وسلم بنعمه عليه فيما مضى، وأنها دليل على أن من أعطى فيما مضى لا بد أن يعطى فيما سيأتي، ثم طلب منه الشكر على هذه النعم، وذلك من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ إلى آخر السورة.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روي أن الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ هو النهار كله ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ سكن أهله وأصواتهم فيه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما قطعك قطع المودع، وفي قراءة «ما وَدَعَكَ» بالتخفيف بمعنى ما تركك ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أي: ما أبغضك، وحذف المفعول استغناء بذكره من قبل، فهو مديم عليه الإنعام والإحسان، ولا تزال بعد ذلك يا محمد في ارتقاء، وتكون نهاية أمرك خيراً من بدايته، فلا أزال أوليك النعم وأنت تتصاعد في العلياء في الدنيا والآخرة، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ فلا تزال ترى في نفسك زيادة في الكمال، وفي أمرك ظهوراً، وفي دينك علواً، وفي أمتك اتساعاً، وفي آخرتك نعماً وقربى من ربك، أي: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى. ثم عدد عليه نعمه فكأنه يقول له: ما لك تقطع رجاءك فينا؟ ألست الذي ربيتك وآويتك وأنت يتيم صغير، أتظنني تاركك ومضيعك كبيراً؟ فلا بد أن

أتم نعمتي عليك، أوَلست الذي أغنيتك وأنت فقير، وعلمتك وأنت غير عالم ولا واقف على معالم الشريعة؟ ثم أمره ألا يقهر اليتيم لأنه كان يتيماً، وألا يزجر السائل سواء أكان سائل مال أو سائل علم وأن يحدث بالنبوة التي أنعم الله عليه بها فإنها أجل النعم، فليعلم الناس ما علمه الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ وهو من: الوجد، بمعنى العلم، أي: ألم تكن يتيماً حين مات أبوك فآواك إلى عمك أبي طالب وضمك إليه حتى كفلك ورباك، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ عما أنت عليه اليوم من أحكام الشريعة ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ فهداك وعرفك الشرائع والقرآن، ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ﴾ أي: فقيراً ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ فأغناك بمال خديجة، ثم بما أفاء عليك من الغنائم، ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي: فلا تفعل ما يفعله قومك، فإنهم يغلبونه على ماله وحقه لضعفه، أو: فلا تحقر، وقرئ « فلا تكهر »، أي: فلا تعبس في وجهه، ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجره، فابذل قليلاً، أو رد جميلاً، ولا فرق بين طالب المال وطالب العلم فكلاهما مطلوب إكرامه، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي: بالنبوة، ويدخل في ذلك تعليم القرآن والشرائع. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة: اعلم أن هذا القسم وأمثاله سيذكر حكمها في سورة « العصر » كما ذكرناه سابقاً، والإقسام بالضحى وبالليل لأمرين: الأول: أن الله عز وجل ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم بعموم رحمته وظهور جماله وحكمه ليلاً ونهاراً، ولا جرم أن من يطلع على هذه العوالم يدهش للعلم والقدرة اللتين اتصف بهما خالقهما، والإحسان الواسع، والإحكام لكل شيء، فمن هذا نظامه وهو معدن الإحسان على البر والفاجر أفلا يكون البار الذي ينشر الخير أولى بأن تدوم النعم عليه منه.

الأمر الثاني: أن النهار وقت تبليغ الدعوة، والليل وقت التضرع والدعاء والتهجد، ومن هذه حاله فإن الله لا يخزيه، فإذا كان نهاره في إرشاد؛ وليله في جد واجتهاد وازدياد؛ فكيف يتركه ربه. ولا جرم أن كل من اتصف بصفات الكمال ودعا إلى الحق على قدمه صلى الله عليه وسلم تكون أيامه في إقبال، وآخرته أرقى من أولاه، فلتجرب أيها الذكي فالتجربة خير كفيل، هذه دروس ألقيت على الناس.

اعلم أن الله إنّما ذكر هذا ليذكرنا نحن أن كل ما يعرض لنا من مرض وذل، وإهانة وفقر، وتحزب أوروبا علينا، واستعبادهم للجبناء منا، وما في داخل بلادنا من تخاذل وتضارب في المصالح، إنّما ذلك لنجد في الخروج منه، ونحن في أيام ابتلائنا به نتقلب في ضروب الهوان، فلا يزال المفكرون يجاهدون حتى يخرجوا من ظلامهم الحالك وليلهم الطويل، فإذا أشرقت شمس سعادتهم، فأصبحوا واضحين مستقلين، فلتكن مصائبهم الماضية دروساً لهم فليحترسوا أن يقعوا في أمثالها، ولكن تلك الذكرى مرقية للأمم وللأفراد، وما من امرئ إلا وانتابته نوائب من دهره، وما بعثها الله إلا لتكون بعد زوالها ذكرى نافعة ودرساً مفيداً يرفع النفوس إلى علاها، ذلك هو مقصود القرآن، والله هو الولي الحميد.

هذا هو نهاية الكلام على سورة « الضحى »، وقد كتبت ذلك في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الانشراح

هي مكية

آياتها ٨، نزلت بعد سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب (٨) ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ استفهام بمعنى التقرير، فكأنه قال: لقد شرحنا لك صدرك، أي: فسحناه بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع أعباء النبوة ودعوة الناس قاطبة، فأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يعتري النفوس فيصدها عن العلم والحكمة، وينفرها من تحمل أذى الناس ومن حبهم، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي: حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها، والوزر في اللغة الثقل، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً ونفسك مطمئنة راضية، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم، وذلك كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم، فالعبء ثقيل ولكن خففه ما جاش بقلوب الآباء من العطف والشفقة على الأبناء، فهم يتحملون الأعباء راضين بما يقاسون في سبيل ما يريدون من نمو الأبناء والبنات وحياتهم، بل لذات الأنبياء بما يعملون أغزر من لذات الآباء بما يكسبون لأبنائهم، ثم إن العلماء ورثة الأنبياء، فمن وجد في نفسه انشراحاً لنشر العلم والفضيلة؛ وللسانه أو قلمه قبولاً؛ فهذا هو الذي شرح الله صدره، فليقم حالاً بنشر العلم، وليعلم أن معنى انشراح صدره؛ ومعنى قبول الناس لكلامه؛ الإذن له أن يكون داعياً، وأنه شرح صدره تبعاً لنبيه صلى الله عليه وسلم فليس شرح الصدر خاصاً بالأنبياء، بل تشرح صدور تابعيهم الذين عندهم استعداد فيفيدون الأمم التي يخلفون فيها، ويكون خلفاء الأنبياء على مقدار انشراح صدورهم ولذاتهم. وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي: أثقله وأوهنه، والنقيض: هو الصوت الخفي الذي يسمع من المحمل أو الرحل فوق البعير، ومنه أخذ لفظ: أنقض. ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بالنبوة وغيرها، فقرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخطب والتشهد، فلا خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم قال تعالى: وإنّما فعلنا ذلك لأننا سهلنا الأمور لمن هم أهل لها،

فنبدل عسرهم باليسر، وإذا ضاقت صدورهم شرحناها لما هم بسبيله، وفرجنا كربهم فيما هم بسبيله لأنا كتبنا على أنفسنا الرحمة فهيأنا كلًّا لما هو بصدده وساعدناه لا سيما الأنبياء، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كالشرح المذكور والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة، فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يغمك، فشدتك التي أنت فيها من جهاد المشركين يعقبها يسر سريعاً كأنه مصاحب للشدة السابقة عليه وذلك بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتم به، وهكذا فعلنا مع جميع مخلوقاتنا، فرحمتنا شاملة، تقرن عسرهم باليسر إنفاذاً لرحمتنا وتعميماً لإحساننا، ثم كرر ذلك لتأكيد الرجاء في قلوب الناس علمائهم وجهلائهم ليطمئن كل بأن الله سيخرجهم من المآزق التي يقعون فيها سواء أكانت دينية أو دنيوية. وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين» وإنّما جعل العسر واحداً لأن هناك قاعدة أن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول، والنكرة إذا أعيدت نكرة كان الثاني غير الأول، فعلى هذا انحصر العسر بين يسرين كما قيل:

فيوم لنا ويوم علينا   ويوماً نساء ويوماً نسر

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ ومن الغزو ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاتعب في العبادة شكراً لنا على نعمنا السابقة، وعلى ما ستناله من النعم الآتية بوعدنا، فإياك أن تضيع وقتاً من أوقاتك، فإما تبليغ أو جهاد أو عبادة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأكره أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ بالسؤال ولا تسأل غيره، فإنه القادر وحده على إسعافك، أو فاجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة: شرح الله صدر رسوله ورفع عنه عبء النبوة بأن خففه عنه بما يحس في نفسه من الهمة وبما يرى في الخارج من اتساع دائرة الإسلام وهكذا، ورفع ذكره في جميع الأمصار، وجعل عسره متبوعاً ليسر حتى كأنه مقارن له، لذلك أوجب عليه ألا يضيع وقتاً من أوقاته، فإذا فرغ من الجهاد أو من التبليغ فليعبد الله، وإذا فرغ من الصلاة فليدع الله، وليكن متوجهاً إليه في سائر الأحوال.

واعلم أن التجربة أظهرت ذلك، وذلك أن الدعاة جميعهم لا يقبل قولهم، ولا يصغي الناس إلى ما يقولون أو يكتبون إلا إذا كانوا في بعض الأوقات يتفرغون لربهم بصلاة مع حضور القلب، أو ذكر بشرط أن يكونوا كأنهم يخاطبون ربهم، وكلما أوغلوا في العبادات والذكر مع حضور قلوبهم استعدوا للرقي فيما هم بصدده من العلوم والإرشاد، إن لم يكن مقروناً بذلك فلا أثر له، لأن القول إنّما يؤثر من صاحب الوجدان، والوجدان في الأمور الدينية لن يكون إلا بالذكر والعبادة. اهـ.

ورد في بعض الأخبار أن الله خاطبه صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قال: بلى يا رب. وإنّما ذكرت هذا لأن السورتين المتجاورتين في مقام واحد، وكأنه تعالى يقول: إن من أحسن إليك أولاً سيحسن إليك آخراً. وبهذا انتهى تفسير سورة «الانشراح»، وقد كتبت ذلك في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة التين
هي مكية
آياتها ٨ ، نزلت بعد سورة البروج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝٨ ﴾

هذه السورة أقسم الله فيها بفاكهتين هما : التين ، والزيتون . وبمكانين مرتفعين من الأرض هما : طور سينين ، ومكة . على أن الإنسان خلق في أحسن صورة وقامة وكمال ، ثم إنه رد إلى النقص في خلقه ، ففي جسمه بالهرم ، وفي عقله بالخرف ، وقد يكون في عقيدته بالكفر . فالإنسان يعتريه نقص مادي ومعنوي ، فعليه إذن أن يؤمن ويعمل الصالحات حتى يفوز في الآخرة ، وما يصيبه في الدنيا من شر يكون زيادة في ثوابه ، إنّ ما يحتاج إليه الإنسان في الحياة الدنيا طعام وشراب ولباس ومسكن وجماعة يتحد معهم في بلدة أو أمة ، فالجبال مبادئ للأنهار ، ألم تر أنها تحجز السحاب بين اثنين منها ، حتى إذا خرج البخار من البحر جرى في الهواء بين الجبلين حتى يذهب إلى الجهات التي خصه الله بها ، فالجبال إذن كأنها منسيات ، حفظ الله بها السحاب إلى أماكنها ، فالجبال تمنع الهواء وتمنع السحاب أن يلتوي عن مقصده الذي سيمطر فيه ، وهي أيضاً مخازن المياه فتبقى فيها وتخرج منها عيوناً وينابيع وأيضاً فوق الجبال تكون الثلوج التي تحلل الشمس المشرقة عليها أجزاءها الشمسية فتنزل ماء على الأنهار تمدها لمنافع الإنسان والحيوان ، فالجبال خلقت في الأرض لأعظم الحكم ، وأيضاً هي متصلة بالطبقة الصوانية التي تحيط بالكرة النارية ، وهذه الطبقة لو أزيلت لم تبق أرضنا ، بل تذهب أدراج الرياح ، فالجبال حفظ للأرض من التفتت ، ومخزن الماء ، ومنبع الأنهار ومماداتها ، والماء به يعيش الحيوان والنبات ، والنبات منه ملابس ودواء وفاكهة ، والفاكهة سبعة أقسام ذكرت في سورة « عبس » ، والتين والزيتون منهما ، فالحيوان والنبات حاصلان من الماء الذي كان أعظم مخزن له الجبال ، ثم إن الإنسان لا يهنأ له الطعام ولا الشراب ولا الملابس التي مبدؤها الجبل إلا بجماعة يتعاونون وهو معهم ، وبالبلد تكون الصناعات والعلوم والمساعدات ، فهاهنا عملان : عمل إلهي : وهو إخراج النبات وتنويعه وتنويع الحيوان وإكثار الماء وحفظه ، وعمل إنساني : يتعاون الناس وصناعاتهم . فحياة الإنسان لا تقوم إلا بهذين ، ماء ومواليد من حيوان ونبات يرمز لها بالجبل والتين والزيتون ، ونظام في المدينة يرمز له

بهذا البلد الأمين، فالتين والزيتون اللذان هما نوعان من الفاكهة رمز إلى ما هو من الناميات الحيوانية والإنسانية، وما يتقدم ذلك من الماء الذي منشأه الجبال المذكور أحدها، وهو طور سينين، ولا جرم أنه راعى مصالح الإنسان فلم يهمل الجبل الذي ارتقاه نبي عظيم من الأنبياء، وهو موسى عليه السلام، ولم يخل بأمر حياته من مأكل وملبس ودواء، حتى الفاكهة التي يستغني عنها فإنه نوعها راحة له وحفظاً لكيانه، والفواكه صحة للأبدان مقوية لها، كما جاء في الطب الحديث: إن الإكثار من الفواكه لا يجعل للأمراض سبيلاً على الناس، وكم من امرئ أكثر من اللحم فانتابته الأمراض فوصف له الأطباء أنواع الفاكهة كي تصفو أجسامهم من العفونات ونفوسهم من الغم المخيم بسبب الأمراض، فإذن العلوم للنفوس كالفواكه للأبدان، فلذلك خص الجبل الذي تجلى على موسى ربه فوقه بالذكر، لأنه اقترن بما يرقي النفوس من العلوم والأخلاق، كما أن التين وما شاكله يطهر الأبدان من الأمراض. فإذا كانت عناية الله أولت الإنسان كل ما سأله من مطاعم، وما يتبعها من الماء النابع من الجبال، وأورثته ما فوق الحاجة من فاكهة نافعة، وعلم رافع لنفسه عن الجهالات، فهذا غاية ما يصنع من الجميل لأجل هذا الإنسان، لا جرم أنه يخلق في أحسن صورة، ويجمع في خلقه نظائر من سائر الكائنات، لأنه بها جميعها قوامه، فالقسم كأنه مقدمة للمقسم به، فإن من يخلق في أحسن صورة مستجمعاً من كل عالم نظيره؛ لا بد أن يكون تركيبه في غاية الدقة والنظام حتى يحفظ تلك العجائب فيه، وهكذا خصت البلدة التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لظهور النبوة فيها، والحكمة فيها كالحكمة في تخصيص الطور بالذكر. وإذا كان الأمر كذلك فلسنا في حاجة إلى أن نقول: إن منافع التين عظيمة، فهو غذاء سريع الهضم، ودواء نافع يلين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين. ويزيل رمل المثانة، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن، كذلك لسنا في حاجة إلى أن نقول: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء، وله دهن لطيف كثير المنافع، بل هو يمد السراج الذي يضيء للناس، وهكذا. أقول: لسنا في حاجة إلى ذلك، لأننا اعتبرنا جميع النبات، ولم نقصره على ما ذكر إلا كما جعلنا الرقبة عبارة عن العبد، أو كما جعلنا الرأس عبارة عن نفس الكبش، ولنشرع في التفسير اللفظي للسورة فنقول، ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ اللذين يأكلهما الناس ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه، و« سينين » و« سيناء »: اسمان للموضع الذي هو فيه، ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ أي: الآمن، يقال: أمن الرجل أمانة فهو أمين، وأمانته أن يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، أو يقال: المأمون فيه، يأمن فيه من دخله، والمراد مكة. ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي: جنسه ﴿ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ تعديل، فقامته منتصبة، وصورته حسنة، وخواص الكائنات فيه مستجمعة، وقواه الباطنة تامة، وحواسه كافية، وأعضاء بطنه وعمله بما يحتاج إليه قائمة، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إما برده إلى أرذل العمر فتنكس خلقه، وتقوس ظهره بعد اعتداله، وتبيض شعره بعد اسوداده، وتغير جلده بالانكماش، وسمعه وبصره بالضعف، ويمشي دلفاً وهو ضعيف القوة خافت

الصوت، وإما بضعف قواه العقلية بالخرف وقت الهرم، وإما أن نحول بينه وبين قلبه فيعتقد اعتقاداً يضر في دنياه وآخرته فندخله جهنم، فهذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ ﴾ بعد ذلك الكمال الجسمي والعقلي أسفل من سفلوا بتشويه صورة أو عقل، أو دخول جهنم ذليلاً، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ فإننا لا نرد بعضهم إلى أرذل العمر، كما قال ابن عباس، ومن رددناه منهم فأصبح شيخاً هرماً فإنا نعذرهم ونكتب لهم الثواب مثل ثواب ما كانوا يعملون وقت شبابهم، قال عكرمة: ما يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل، وقوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: غير مقطوع، فهؤلاء لهم أجر بغير عمل. ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي: فما الذي يلجئك أيها الإنسان إلى هذا الكذب، ألا تفكر في صورتك وشبابك ومبدأ خلقك وهرمك، فتعتبر وتقول: إن الذي فعل ذلك قادر أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يلجئك أن تكذب بالدين؟ أي: بالحساب، ويصح أن يقال: فمن الذي يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل والبراهين على قدرة الله في كل شيء من الأحوال، والمآل واحد في المعنى المقصود. ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ أي: بأقضى القاضين، يحكم بينكم وبين أهل التكذيب يوم القيامة. انتهى التفسير اللفظي.

جوهرة في بعض أسرار قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ومحاسن الصنع والجمال. رباه، ظهرت آياتك وبهرت مصنوعاتك، ننظر في جمال المادة فيدهشنا، وننظر في رموز الكتاب العزيز فيبهرنا، تخبرنا بأنك خلقتنا في أحسن تقويم، ثم حكمت علينا بأن نرد إلى أسفل سافلين، إن لنا عقولاً محكمة الوضع بهية النور مشرقة الجوانب كالكواكب السيارة والثابتة، أبدعتها يا رباه بحيث جعلت لكل واحدة منهما خاصة لا تشارك فيها سواها، وجميع الخواص تكون نظاماً واحداً مقدساً تاماً، فهي كلها أشبه بجسم واحد حيواني أو إنساني. رباه، خلقتنا في الأرض وأطلقت حريتنا وقلت: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[الملك: ١٥] فانتهزنا إطلاق الحرية وأخذنا نرجع القهقرى في أقوالنا وأفعالنا، وتغالينا في المطاعم والملابس والزخرف والزينة، وانقطعت الصلة بين العقول المنتظمة أوضاعها وأوصافها وغرائزها، فأخذ بعضنا يعادي بعضاً بهذه القطيعة وأخذت كل أمة تجادل الأخرى وهم في غيهم مهطعون. تلك هي حالنا يا ربنا، وهذه الحال أسفل سافلين، ولن يرجع الناس إلى سعادتهم الممكنة في هذه الحياة إلا إذا قيست عقول الناس بمقياس الذكاء العلمي المنتشر الآن في مدارس التعليم في الغرب والشرق، وبهذا الميزان تقسم الأعمال العامة في العوالم الأرضية على العقول الإنسانية باستعدادها، ذلك هو الميزان المنصوب وهو في السماء والأرض الذي أمرنا بأن لا نطغى فيه، ذلك هو الميزان، وهذا هو الذي أمرنا الله ألا نطغى فيه، وهذا المعنى مأخوذ من الآية على سبيل الرمز والاعتبار، أو الإشارة، لأنه وافق الحقائق العلمية المستكنة في العوالم الأرضية والسماوية. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩]، ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨]. انتهى تفسير سورة «التين»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة العلق
هي مكية
آياتها ١٩، وهي أول ما نزل من القرآن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ (٨) أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ (٩) عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ (١١) أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ (١٦) فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ (١٩) ﴾

مقاصد هذه السورة:

(١) ذكر حكمة الله عز وجل في خلق الإنسان، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة جداً لا تزيد على واحد من ثلاثة آلاف من القيراط، وهي مدورة ملوية أشبه بالعلقة، فهذه الجرثومة الصغيرة هي التي خلق الله منها الإنسان، ورقاه درجات تدهش العقول جسماً وروحاً، وكيف ينتقل من حال المهانة في الرحم ويعظم جسماً وعقلاً وحواس حتى يكون ملكاً أو نبياً أو عالماً بعد أن كان هناك ذرة منبوذة مجهولة لا تراها العيون، ولا تعبأ بها النفوس، هذا من أعجب العجب وأبدع الحكم خفاء فظهور وحقارة وكرامة ودهشة وحيرة للعقول.

(٢) وذكر أنه أوسع كرماً، وأغزر إحساناً، وأرحم وأرأف من أن يقصر الإنسان على ما جرى في جسمه من الكمال، بل إنه علمه البيان وأفهمه العوالم، وذلك بالتعلم والقراءة والكتابة، فالله أكرمه بنظام جسمه وزاد في الإكرام بترقية عقله، وهو إفاضة العلوم عليه، فالله أكثر كرماً بهذا العمل.

(٣) وتبيان أن هذه النعم ــ مع توافرها في جسم مملوء حكماً وعقل مبدع منور بالعلوم والكمالات ــ غفل عنها الإنسان إذا رأى نفسه غنياً، فظن أن الغنى هو نهاية الكمالات. وقال: ليس لي بعد هذا مأرب، فأخذ يدعو الناس إلى جهالاته، ويذب عن طريقه، فمثل هذا بالعقاب جدير، وهو في جهنم يوم القيامة. فهذه هي المقاصد الثلاثة لهذه السورة.

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: اقرأ القرآن مفتحاً باسمه سبحانه ومستعيناً بـه، ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ أي: الذي خلق كل شيء، ثم بعد التعميم أخذ يخص الإنسان بالذكر لشرفه وللدلالة على وجوب العبادة شكراً على نعمة الخلق فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾ جمع علقة، أي: دم عبيط، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ وكيف لا يكون أكرم وهو قد علم عباده ما لم يعلموه، ونقلهم من ظلمة الجهالة إلى نور العلم فقال: ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ ﴾ الكتابة ﴿ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فهذا هو وجه كونه أكرم في حق العبد، فهو إذ خلقه كريم، وإذ علمه فهو أكرم، لأنه أعطاه فضلاً على فضل ونوراً على نور، فهذه زيادة في الكرم، ولعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم، ولا أحصيت الجيوش، ولا بقيت الحكومات، ولضاعت الديانات ولأصبح الإنسان أدنى إلى الحيوان. فلا صناعة شريفة ولا علوم منيفة، أفليس هذا زيادة في الإكرام والكرم؟ ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله لطغيانه، وأنه لم يذكره لأنه معلوم من المقام. ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ أي: أن رأى نفسه استغنى. ثم هدده فقال: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ هدد الإنسان على طغيانه قائلاً على سبيل الالتفات: إن رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك، ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أي: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الإيمان، أي شيء أعجب من هذا؟ والذي ينهى عبداً هو أبو جهل، ومثله كل من يفعل مثله، فقد جاء في حديث البخاري: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لو فعله لأخذته الملائكة. وقوله: «أرأيت» الثانية تكرير للأولى، فالذي على الهدى وأمر بالتقوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كذب وتولى هو أبو جهل، فـ«أرأيت» استفهام على سبيل التوبيخ والتعجب، و«الذي ينهى» مفعول أول لقوله: «أرأيت»، والمفعول الثاني هو قوله: ﴿ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴾ ويقال في قوله: ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ كذلك، وجواب الشرط فيها مذكور وهو قوله: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ دل على المحذوف في الجملة الأولى، وهذا التركيب كما تقول: إن أكرمتك أتكرمني؟ ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للناهي، ﴿ لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ ﴾ عما هو عليه ﴿ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي: لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة، والناصية: شعر مقدم الرأس. ثم أبدل منها قوله: ﴿ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴾ أي: صاحبها كاذب خاطئ.

روي أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال: ألم أنهك؟ فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أي: أهل ناديه، أي: مجلسه، ليعينوه، ﴿ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ هم الشرط، الواحد زبنية من الزبن، وهو الدفع، والمراد ملائكة العذاب. وعنه عليه السلام: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية

عياناً». ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ ودم على سجودك ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ وتقرب إلى ربك في سجودك، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، أو إذا سجد. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة لطيفتان:

(١) في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾.

(٢) وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

لا يعرف الإنسان جمال هذا القول إلا بالوقوف على أسرار الطبيعة. إن الله عز وجل جعل كل حيوان يخلق من بيضة، والبيضة إما أن يضيق بها رحم الأنثى فتخرج وتحضن في الخارج، وذلك في سائر الطيور. وإما أن تبقى في بطن الأم، وذلك في الحيوانات الراقية كالأنعام والقرود والإنسان. فالإنسان كله، والحيوان كله، من بيضات كبيضات الحمام والدجاج، ولا جرم أن الناس يشاهدون بيض الدجاج ويرون له زلالاً ومحاً وجرثومة واضحة فيه كل الوضوح، فهذه البيضة لها نظير في بطن المرأة، ولكن بيضة المرأة صغيرة جداً، وأصغرها $\frac{١}{١٢٠}$ من القيراط، وأكبرها $\frac{١}{٢٠}$ من القيراط، والمح الذي فيها لا يزيد عن $\frac{١}{٧٠٠}$ من القيراط، والجرثومة التي خلقت لتكون أصل الإنسان ذرة من ذلك المح، كما يشاهد نظيرها في مح البيض، قطرها $\frac{١}{٣٠٠٠}$ من القيراط، فإذا وضعنا ثلاثة آلاف جرثومة إنسانية على أصبع من أصابعنا كونت خطاً واحداً في عرض الأصبع، وانظر إلى جرثومة الإنسان التي في المح فإنها ملتوية مقوسة.

وإذا أردت معرفة سر الجنين فاقرأ ما كتبناه في سورة «آل عمران» وفي غيرها من المواطن المعدة لذلك، وفي سورة «آل عمران» أيضاً عجائب التكوين والإبداع ونظام الخليقة وارتقاء الإنسان من حال إلى حال.

عجب وأي عجب؟ هاهنا عالمان: عالم ظاهر عمله، وعالم باطن فيه الحكمة والعلم، فالعلم الظاهر عمله هو العالم الذي أثار الشهوات، وأوقد الحرارة الحيوانية في كل حيوان، فسعى جميعه لطلب القوت، واختص الإنسان بأهم النظم الاجتماعية والعلوم السياسية والأحكام الشرعية، فعقد العقود، ورفع البنود، وأحضر الشهود، وأوجب النفقات، وأحضر البينات، وأفتى المفتون، وقضى القضاة، وحكم الحكام، وساعدت الشرطة، وأقيمت الأفراح، وزينت البيوت، لزفاف العروس، ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] والزوجان لا هم لهما إلا قضاء مأربهما ولا يدريان ما تحت هذه المظاهر الباطلة من كمال وحكمة وعلوم.

العالم الباطن حكمته

هاأنا ذا أريتك نظام الجمهور، وعلومهم السياسية، وفتاويهم الشرعية، وشهواتهم المقضية، فالجمهور يريد حياة منظمة، فاقتضت الحال أن يكون لهم أحكام يقوم بها قضاة ومفتون وجنود حتى

يتوطد الأمن في الأسرات، ويعلم الزوجان أن هناك حارساً وهو قانون الدين الذي يحفظ الزوجة أن تترك زوجها، ويوجب على الرجل نفقتها، والناس في ذلك كله مدفوعون بحاجاتهم الغريزية.

هذه هي الحياة الدنيا وظواهرها، فانظر ما تحت هذه الظواهر المختلطة، انظر فهاهنا حكمة وعلم، هنا مجال الحكمة، هاهنا سر الدين، فظاهره ما رأيت وباطنه ما تراه، ماذا ترى؟ ترى بيضة صغيرة، نحن نرى البيض بيض الدجاج وبيض النعام، ولكن هذه البيضة ليست في العير ولا في النفير، فلا هي كبيرة الحجم ولا تباع لنفاستها، ولا تقتنى لجمالها، وإنّما هي جرثومة مزدراة مكورة منبوذة في الدم، جرثومة الإنسان ليست إلا ذرة دقيقة تساوي جزءاً من مائة جزء من عرض شعرة بغل تقريباً، فهي جرثومة لا يمكن رؤيتها، لأن عرض الأصبع ست شعيرات، والشعيرة ست شعرات، وقد قدمنا أنها $\frac{١}{٣٠٠٠}$ من القيراط، فهذه الجرثومة حفظت بمح أكبر منها، والمح في شيء كالزلال، والزلال له غشاء، والغشاء في حوصلة حافظة، وهذه البيضة واحدة من عشرة أو عشرين تكون داخل كيس البيض بجانب رحم المرأة، وهما كيسان حوالي الرحم، وبين هذين الكيسين وبين الرحم قناة توصل منهما للرحم، فإذا تم خلق البيضة خرجت من كيس البيض وأخذت تعدو وتجري في تلك القناة حتى تصل بعد الجهد والمشقة وهي تجاهد جهاد الأبطال، وتجري جرياً حثيثاً، وتستعين بكل قوة حتى تصل بعد عشرة أيام باب الرحم، وكما أن الطيور يكثر سفرها وحركتها وسفادها أيام الربيع؛ فهكذا هذه البيضة ترتحل هذه الرحلة أيام الخصب والنماء والسعادة والهناء، وما هي تلك الأيام؟ هي أيام الحيض عسى أنها إذا ألقحت تتغذى بدم الحيض وتعيش في عيش هنيء هناك وتغدق عليها نعم الله التي أسبغها في ذلك الدم عليها، فلذلك تسافر هذا السفر الذي تقطع فيه مقدار أربعة قراريط ونصف، وهي مسافة طويلة بالنسبة لقوتها، فإذا ألقت عصاها واستقر بها النوى ونالت مناها بالإلقاح؛ مكثت هناك في الرحم، ففيه بيوت صغيرة نسميها نحن طيات، فتبقى هناك آمنة مطمئنة، ولعلك تقول: أنا لم أر هذه البيضات قط. أقول: أنت تراها في الدجاجة، فإنك ترى في بطنها كرات صفراء، فهذه الكرات في مقابلة كيس البيض في المرأة، وتلك الكرات في المرأة أصغرها كحبة دخن وأكبرها كحجم القول، ومتى أخذت تنمو فهناك العجب العجاب.

هناك ترى هذه الذرة المتحدة مع جرثومة الرجل أخذت تنقسم قسمين ثم ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨، وهكذا في القسمة السائرة في طريق الأزواج المقتبسة من الواحد، فهناك فرد وما بعده كلها أزواج، كمسألة بيوت الشطرنج المشهورة، ويسمى هذا النوع من العدد زوج الزوج، فيكون الانقسام دائماً بالزوج، وهذه من أسرار قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر: ٣]، فالوتر هو الأول، والشفع جميع ما بعده، فكل نبات وكل حيوان مبتدأ بذرة، وهذه تنقسم فتكون ٤ ـ ٨ الخ.

أفلا تعجب معي من العلم، أفلا تعجب كيف تظهر أسرار القرآن في كل ذرة وتسير مع العلم حتى في أدق المسائل، هذا هو الزوج وهذا هو الفرد، ولعلك تقول: لا فرح بالعلم فهذا من أسرار القرآن، وقد رأيت في هذا التفسير مثات من هذا. أقول لك: لا تقف عند هذا، فإنه حجاب يحجب به الجهلاء، بل سر معي وانظر وتعجب فيما ذاع، فبينما الأمم في مدنها يعملون، والرجل والمرأة في الحياة

يجدون، وبين يدي القضاة يتحاكمون، وفي منازلهم يلعبون، أو يفرحون أو يختصمون، نرى تحت ذلك كله أعمالاً وأي أعمال:

(١) صناعاً كصناع السفن يركبون خرزات الظهر والرقبة والأضلاع.

(٢) وعمالاً يصنعون الأسلاك البرقية ويمدونها في أقطار الجسم، وهي الأعصاب لتستعد لتوصيل الأخبار من الدماغ إلى أطراف البدن.

(٣) وآخرين نساجين وحائكين ينسجون الجلد والغشاوات.

(٤) وآخرين زراعين يزرعون الشعر في أماكن من جسم الطفل.

(٥) وآخرين يعملون الغليظ من الثياب، وذلك في الكروش.

(٦) وآخرين يبيضون كالقصارين، وهم الذين يبيضون الثياب.

(٧) وآخرين كالصباغين والمزوقين والدهانين فيحمرون اللحم ويصفرون الشحم ويسودون الشعر.

(٨) وآخرين هم المصورون الماهرون الذين يتفننون في مساحة الأعضاء فيجعلون الفقرات متصلات لتحفظ النخاع الشوكي الحامل للرسائل من الدماغ إلى الجسم، وليعطوا الأعضاء شكلاً لا يتفق مع ساق الرجل، ولا الأنامل، ولا عظام الرأس، بل يجعلون كل عضو مناسباً لمنفعته، وجميع هذه الأعضاء متناسبة تمام التناسب.

وهكذا من العجائب التي ذكرت في سورة «آل عمران» وفي بقية التفسير. انظر، ألست ترى تحت هذه الحياة المختلطة والفتاوى والأحكام والنفقات والشهوات تفنناً في الصناعات وحكمة وعلماً؟ فجلّ الله الذي أتقن هذا، وجعلنا في حياة ظاهرها عذاب وباطنها حكمة وعلم، فالأمم في حربها، والأسرات في سعيها، والله من وراء ذلك يبهر بمصنوعاته، ويبرز الطفل الصغير فيه من كل جمال من العوالم المحيطة بنا ما يشبهه، فترى النقش والنسج والمساحة والتصوير، ولا ترى الناقش ولا الناسج ولا المساح ولا المصور، إن ذلك جمال وأي جمال!.

بهذا فليفهم القرآن، ورد أن هذه أول سورة نزلت، يقول الله: اقرأ يا محمد باسم ربك. وهاهنا طريقان: طريق الأعمال الظاهرة، وطريق الحكم الباطنة، فأعقبه بأجمل الأمرين، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق: ١-٢] وهذه المعاني المذكورات في التفسير هي التي تحويها هذه الجملة ولكن لو علم الله أن الأعمال الظاهرة هي أفضل النعم لقال: اقرأ باسم ربك الذي أنزل الأحكام، وأمر بفصل الخصومات، وأوجب النفقات، وحرم الحرام، وحلل الحلال، ونصب القضاة، وأوجب اتباع الأحكام، نعم هذا كله لا يعيش الناس إلا به، ولكن الله سلك بنا طريقاً أكمل، فذكر الأوصاف الدالة على الحكمة والعلم.

إن هذا الدين أنزل لارتقاء العقول بالحكمة، فلذلك جعل القراءة باسم الرب الذي أبدع هذه المبدعات فأخرج ذرة منبوذة وجعلها تعقل وتحكم، لهذا أنزل القرآن، ولا جرم أن رباً هذا صنعه إذا عقل القارئ عنه ما وصفناه أحس بروح وهمة وقال في نفسه: إذا كانت هذه قدرته وأخرج لنا العجائب فكيف تكون عنايته بمن يراه قائماً بشؤون خلقه، متمماً لحكمة ربه ساعياً في النظام الذي أسسه وفي

تمامه، هنالك تبدو في النفس عاطفة، وتتولد لها همة، وكأنه خليفة له، فيقوم بالعمل ولا يكل ولا يمل وهناك تتجدد فيه العزيمة كلما اعتراها الكلال.

ثم يقول: يا عجباً! نرى الناس يدهشون من المصورين الماهرين، ومن المشعوذين الذين يظهرون ما لا يخطر بالبال، فهاهنا ذرة ضائعة جمعت كل صناعة، وبرز فيها كل عجب! أصبحت نباتاً لحيوانات مختلفة قد صورت عشرات الصور المتتالية وانتهت بالإنسان، إن الناس يشاهدون هذه العجائب ولكنهم لا يكترثون بها، يرون الحيوان والنبات والعجائب، ولكن لما كانوا هم أنفسهم مغمورين بهذه العجائب وصارت لهم عادة أصبحت في نظرهم ليست عجيبة، إن الإنسان لا يحس إلا بما منع عنه ثم أسدي إليه، ولكن هذه العجائب تحيط به من كل مكان، فلذلك غشت عليه فلم يبصرها، والعلم والدين جاءا لرفع ذلك الحجاب، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق: ١].

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾

لقد جاء في سورة الانفطار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾، فهو سبحانه جعل كرمه بخلقه لنا.

وهاهنا بعد أن أتم الكلام على الخلق قال له: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾[العلق: ٣]، ثم أتبعه بسبب ذلك فقال: ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾[العلق: ٤]، فالسور يفسر بعضها بعضاً، فزيادة الكرم تكون بالعلم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على هذا النمط، فهو يقرأ باسم ربه الذي أنعم بالخلق، ويقرأ باسم ربه الذي نشر العلم والتعليم بين الناس بالقلم. أفلا تعجب معي أن يكون نبياً أمياً أول آية تنزل عليه التعليم بالقلم، وهل تفكر معي أنه عمل بذلك صلى الله عليه وسلم وكان يحرص على تعليم الكتابة كما في الأخبار وأمر بها ونشرها بين الصحابة رضي الله عنهم.

ثم انظر ألم تكن الأمم قبل ذلك عندها كتابة وقراءة، ولكن لم يتسع تعميم القراءة والكتابة إلا في الألف الثاني بعد النبوة، لماذا؟ لاتصال أوروبا بالشرق وحروبهم الصليبية، فحركت همم القوم فعمموا التعليم، فهو رحمة للعالمين وإن لم يحس بكثير من تلك الرحمة المسلمون، إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث منذ ١٣ قرناً وهذه المدة قليلة في تاريخ الديانات، فأي مانع يمنع أن تكون الأمم الإسلامية بعدنا تعرف ما نقول وتفهم الدين فهماً ينطبق عليه، فلا تعيش الأمم الإسلامية هذه الحياة الحيوانية. إن الأمم الإسلامية اليوم أكثرها ضحكة الأمم ومضغة الأفواه.

اللهم أنجز وعدك الذي وعدت، وألهمهم أن يدركوا مقصود هذا الدين حتى تظهر لهم فائدته فيعيشوا نافعين ويكونوا رحمة للعالمين.

إلى متى يبقى العالم الإسلامي في جمود، إلى متى هذا النوم؟ لقد رأيت أيها الذكي أن التعبير بالأكرم لنهضة الكتابة والعلم وفشوهما بين الناس، فكرم الله بخلقه لنا وهو أكرم لأنه يعلمنا، فأخذ المسلمون بالكرم وعاشوا، وأضاء الإسلام بطريق الاقتباس على الأمم الأخرى، فنالت ما تفضل الله

به على العالم من زيادة الكرم، فعمموا التعليم في بلادهم، فأما المسلمون فقد سمعوا ربنا يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣-٥] فلم يعبؤوا بهذه الزيادة وإن كان عمل به النبي صلى الله عليه وسلم، وعكفوا على حال الجاهلية، فيقال لهم: أيها المسلمون، هل رأيتم النوع الإنساني علم هذا التعليم قبل هذا الزمان؟ هل قرأتم في التاريخ عن أمم عم التعليم ربوعها؟ فإذا قالوا: لا إن التاريخ لم يذكر أمة هذا شأنها؛ فيقال حينئذ: إن هذا سر هذا الدين، فإن الضجة الشرقية هزت أوروبا وزلزلتها فأخرجت من الجهالة علماً وتعميم كتابة، فهل فاتنا أن نسمع القرآن وأن نرقي المجموع؟ ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟ فأين هذه الأفضلية الآن؟ ألا إني أحذر المسلمين بهذا وأنذرهم، فليخشوا خراب دولهم وضياع أبنائهم وغضب ربهم، إذا خالفوا نبيه صلى الله عليه وسلم.

نظير هذه فيما تقدم

ونظير هذه الآيات ما ذكرنا سابقاً في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، وأتبع هذا الوصف بحكمة الخلق والتسوية والنظام، وهي مجمل العلوم العلوية كما شرحناه هناك. وقد قلنا هناك: إن قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤] الذي يكون في الركوع، ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] الذي يكون في السجود؛ قد أتبع كل منهما بما يناسبه. فالأعلى جاء بجانب نعمة الحكمة والعلم والإبداع. والعظيم في مقام النعم الظاهرة من الماء والنار والطعام وما أشبه ذلك. وتفضيل الأعلى على العظيم بجعل النبي صلى الله عليه وسلم أولهما في السجود وثانيهما في الركوع لما تبع الأول من العلم والحكمة، والحمد لله رب العالمين.

تعميم التعليم في بلاد الإسلام

لقد ورد إلى مصر أيام تأليف هذا التفسير بعض العظماء من بلاد الملايو، وطلبوا رسالة لأهل تلك البلاد للحث على رقي بلادهم، فكتبت رسالة ترجمها السيد حسن العطاس بلغة الملايو، ونشرها هو وغيره في بلاد الملايو وجاوة. وهذه صورتها:

نداء إلى الملوك والأمراء والأعيان

في بلاد الملايو وسنغافورا وجاوة وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا

أدعوكم أيها الأشراف والعظماء إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أدعوكم إلى العلم والدين والقرآن. أدعوكم إلى تربية أبنائكم، وترقية شؤونهم، وإعدادهم للحياة والسعادة في الحياة والممات، أدعوكم إلى النهضة والعزة والكمال بقراءة الدين وعلومه، فإنّما العز والشرف في اتباع الدين.

هلموا أيها العظماء إلى العمل بأول سورة نزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو التعليم بالقلم، وهذه السورة هي: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥] الخ، فهي تشير إلى تعليم القراءة والكتابة، وتعميم العلوم التي لا نعلمها، وهذا

هو الصراط المستقيم. وكيف ترون أيها السادة الأمم حولكم مستيقظين إلى علوم الحياة والعمران وأنتم عن أبنائكم معرضون. وعن تعليمهم ساهون. ألم تعلموا أن الجاهلين سينقرضون، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٢٤]، وأنفقوا المال في سبيل التعليم، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

سارعوا إلى عز الحياة. ومجد الأبد. وحفظ الولد. وكثرة العدد. فأعدوا العدة لتعليم أبنائكم وتشييد مدارسكم ونظام حياتكم: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

ما لي أرى بعض المسلمين لا يستعدون، ما لي أراهم ناموا نوماً طويلاً وهم لا يعلمون. أفلا يعتبرون بالأمم الجاهلة التي قتلها الجمود. وأبادها الجهل والخمود، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

فيا حماة الشرف. ويا أباة الضيم. ويا وارثي خير الأديان. ويا من سلفكم خير سلف. ويا ذوي المروءة والشهامة والنجدة، أنفقوا مما رزقكم الله لتعليم أبنائكم. واستعدوا لفتح المدارس والكليات في دياركم، وابدؤوا اليوم بالاكتتاب لجمع المال. فهل تخافون الفقر إذا أنفقتم والله يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الحديد: ١٠]، ويقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩]. وإني أيها السادة موقن أنكم لو كنتم تعلمون قبل اليوم أن حكومتنا الرشيدة وبعض أهل البلاد يعطفون على أبنائكم؛ وأن فضيلة شيخ الجامع الأزهر كما أخبرني هو يعطي بعض ما يتوافر لديه من الأرزاق الموقوفة إلى أبناء بلادكم بالأزهر، وإن لم تكن خاصة بهم، ويعتني بشؤونهم عناية تامة؛ لو علمتم ذلك من قبل لقمتم بالإنفاق عليهم خير قيام.

أيها السادة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣]، إن الله حكم في هذا الزمان على الأمم الجاهلة بالزوال، وحتم عليها الخراب والدمار. وأنزل بها البوار. أفلا ينظر المسلمون جيرانهم أهل اليابان الذين أحياهم العلم. وإلى أهل أمريكا الأصليين القدماء الذين قتلهم الجهل وورثهم في بلادهم الأوروبيون، أفلا يتأملون أحوال الغافلين كيف بارت صناعتهم وذهبت ثروتهم؟ فإن لم ينتهزوا الفرص. ويربوا الأبناء بالمال الذي أعطاهم الله تخطفتهم الأمم حولهم وذاقوا في الآخرة عذاب السعير. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤]، فإن لم يفعلوه ذهبت دولهم. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[ابراهيم: ١٩-٢٠]. إن موت القلب يتبعه موت الأجسام. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٥].

ولتعلموا أن إنفاق المال في العلم إنفاق له في سبيل الله. والدرهم الواحد يضاعف ثوابه إلى عشرة ومائة وسبعمائة وأكثر من ذلك: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦١]. فأبشروا فقد أذن الله بارتقاء المسلمين اليوم، وهو الولي الحميد. انتهى يوم الأحد ٩ أغسطس سنة ١٩٢٥م.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾

حضر صاحبي الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال: لقد ذكرت في سورة «الروم» بمناسبة آية: ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[الآية: ٢٢] جدولاً بينت فيه خطوط الأمم قديمها وحديثها، ففيه خطوط الأمم المصرية القديمة موازنة بخطوط اللغة العربية والإفرنجية وما بينهما. ذلك كله لكلمة واحدة وهي «ألسنتكم»، مع أن الخط ليس أصلاً أولياً لإظهار المعلومات، بل هو نائب عن اللسان. فأنت هناك ذكرت اختلاف اللغات وهذا لمناسبة ذكر اللسان. وذكرت اختلاف الخط، ولكن هذا الأخير ذكر تبعاً لا أصالة، وأن الأولى بالكلام على هذا هو هذا المقام لمناسبة التعبير بالقلم. فحري بهذا المقام أن نستوفي فيه الكلام على العلم وعلى القلم إجمالاً. لأن فيه العلم وفيه القلم. فقلت: حباً وكرامة. أنا أقص عليك جملاً من قصص العلم. وجملاً من قصص القلم. فأقول مستعيناً بالله:

شمس تدور، وكواكب تسير، ومجرات وأثير، كلهن دائبات في المسير، يتجن مخلوقات صغيرات من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وهذه كلما كانت أقرب إلى الفطرة وأبعد عن الكمال الإنساني كانت أقرب إلى النظام، ففي بعض الجماد كبعض الأحجار الثمينة وغير الأحجار الثمينة نرى أشكالاً هندسية منتظمة مبهجة، وفي عالم الحشرات غرائز وغرائز كلهن متشابهات في إحداث النظام العلمي العملي، وكلما ارتقى العقل في سلم المخلوقات رأى هذه الغرائز تأخذ في النقصان قليلاً قليلاً، وهذا النقص يعوض بتعليم الهرة لذريتها الصغيرة كيف ترتفع إلى سلالم المنازل، وكيف تهبط وكيف تصطاد صغار الفيران، وكيف تستحوذ على الطعام وما أشبه ذلك. وبتعليم الغربان وأكثر الطيور لصغارها كيف تطير، وكيف تسير في الجو. وبتعليم أمهات الطير لذريتها كيف تنطلق بالأصوات وكيف تغرد المغردات. وبتعليم الدجاجة لأفراخها كيف تلتقط الحبات وهن سامعات مطيعات. وما مثل الإنسان في ذلك كله إلا كمثل الحيوان سواء بسواء. فهو يشبه الحيوان من هذه الوجهة في ثلاثة أصول:

الأصل الأول: الغرائز المودعة في أعضائه الداخلة كالقلب والكبد والمعدة والأمعاء والحالبين والطحال والمثانة، وكل ما هو داخل في هيكل الإنسان، فهذه نراها تسير بهيئة كهيئة غرائز الحيوان، فنرى الدورة الدموية تسير كسير الشمس والكواكب بلا خلل ولا ملل ولا فتور وتحاكي نظام الحشرات في تدبير ممالكها، وإعداد الطعام لذريتها.

الأصل الثاني: الغرائز المودعات في قوته الحيوانية. فنراه يلتقم ثدي أمه بلا معلم، ويفر من المؤلم، ويقترب مما يحدث له لذة كما يفعل الحيوان سواء بسواء.

الأصل الثالث: إنه عنده ارتقائه في الحال التي لا تكفي فيها الغريزة يفعل كما تفعل الحيوانات الرشيدة من تعليم ذريتها ما ينقصهن من الغريزة، وهذا هو المقام الذي نحن فيه، وهو مقام التعليم.

مراتب الموجودات في وجودها أربع

إن للموجودات من حيث مراتب وجودها أربع درجات، فلها في ذاتها وجود، ولها في الأذهان وجود آخر، وينوب عن الثاني وجود في اللسان، وينوب عن هذا الأخير الوجود القلمي، إذن الأربع هكذا: عينان، جنان، لسان، بنان. فإذا سمعت الله يقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، فالذي في السماوات والأرض من هذه العوالم هي التي في العيان، لأنها موجودة في أنفسنا. فإذا نظرته وفكرت فيه فهذا هو ثاني الوجودين، وهو الوجود في الأذهان، وينوب عن الثاني النائب الأول الوجود اللساني، بأن يصور الإنسان بأعضاء فمه من الصوت أشكالاً ويصوغها ببيانه، فهذا هو الوجود اللساني، ولكن لما كان اللسان لا عمل له إلا بالهواء؛ والهواء سريع الزوال؛ اعتيض عنه بما يبقى على مدى الزمان، ذلك هو القلم الذي أقسم الله به في بعض سور القرآن. إن للقلم سلطاناً وأي سلطان. وهل بعد أن أقسم الله به مقال لقائل، وليست عظمة القلم لذات القلم. كلا. إن عظمة القلم لما ينتج عنه من حفظ العلم وبقاء آثار الألسنة آماداً طويلة. أقسم الله بالقلم كما أقسم بنفس المعلوم من شمس ونجم وتين وزيتون إلى آخره. فكأنه أقسم بالمعلوم وما دل على المعلوم. ولكن لم يقسم باللسان الذي ناب عنه القلم وإن كان هو الأصل، لأن آثار اللسان لا بقاء لها إلا إذا حفظتها الأقلام، فثبات المكتوب في الطوامير والكتب أشبه بثبات المعلومات كما قدمناه.

جمال الخطوط وحسن نظامها
يشابه جمال الزروع والأشجار وأزهارها

قلنا: إن القلم غير مقصود لذاته، بل هو آلة للمقصود. ولما كانت جميع مظاهر هذه الدنيا منمقة بهجة حسنة سارة للناظرين، شارحة للصدور، منعشة للنفوس، وجب أن تكون صناعة القلم كذلك بهجة جميلة تسر الناظرين. ولما كان الإنسان أثراً من آثار هذه العوالم المحيطة به؛ صار مغرماً بالسير على نواميس هذه الدنيا التي يعيش فيها، فكما نرى أن الأشجار والزروع مختلفات كماً وكيفاً وهيئة؛ هكذا نرى أنواع الخط مختلفة أشكالها اختلافاً كثيراً. فلكل أهل لغة نوع من الحروف يخالف اللغة الأخرى، والخط في أي لغة من اللغات يتنوع أنواعاً كثيرة. مثال اختلاف الخط باختلاف اللغات ما هو معلوم من الحروف اللاتينية والحروف العربية، والحروف الصينية. واللاتينية تقدمت في سورة «الروم» كما هو معلوم، والصينية في سورة «الزخرف» ومثال اختلاف تنوع الخط في لغة واحدة ما نراه في اختلاف الخط في اللغة العربية أيام ازدهار دولتها فنرى عندهم: (١) الطومار الكامل. (٢) والمحقق. (٣) والغبار. (٤) ومختصر الطومار. (٥) وخط الثلثين. (٦) وخط النصف. (٧) وخط الثلث. (٨) وخفيف الثلث. (٩) والرقاع.

فقلم الطومار الكامل تكون مساحة عرضه ٢٤ شعرة من شعر البرذون. وقلم مختصر الطومار يكون أقل من ذلك فيبلغ حوالي عشرين شعرة، وقلم الثلثين ١٦ شعرة، وقلم النصف ١٢ شعرة، وقلم الثلث ٨ شعرات، وقلم خفيف الثلث صورة كصور الثلث ولكنه أدق منه قليلاً وألطف منه بنذر يسير. وقلم المحقق على وزن اسم المفعول يقال له قلم التوقيع، كانت توقع به على ظهور القصص

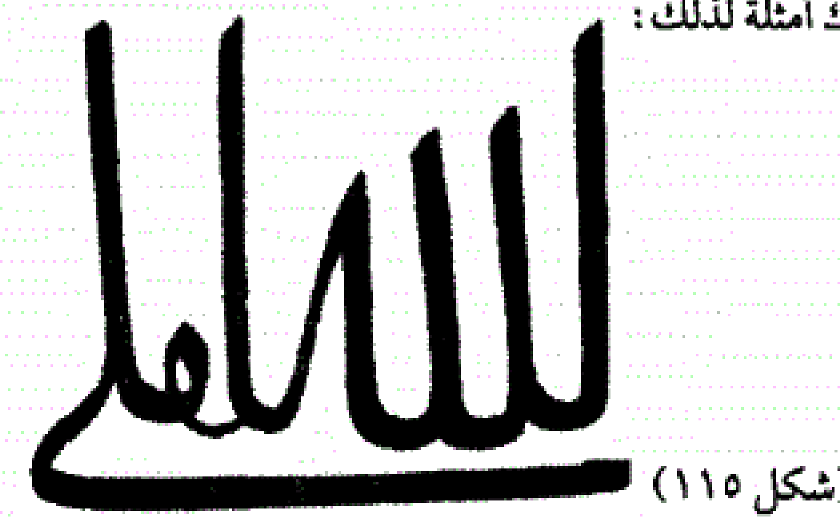
الخلفاء والوزراء. وقلم الغبار سمي بذلك لدقته كان يكتب به بطائق الحمام. وقلم الرقاع كانوا يكتبون به في الرقاع الصغيرة ـ جمع رقعة ؛ بضم أوله ـ المكاتبات اللطيفة والقصص الصغيرة. وهو يقرب من الثلث ويخالفه في أمور كثيرة كدقة حروفه وطمسها الخ.

هذه بعض الأقلام التي استعملت في لغة العرب أيام الدول الإسلامية قديماً. وذلك كله بعد ازدهار الخط الكوفي أزماناً وأزماناً، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا تلخيص عجيب. أنا قرأت الجزء الثالث من «صبح الأعشى»، وفيه هذه الأقلام، والذي ذكرته هنا لخص من الكتاب ١٣٥ صفحة، فهذه الخلاصة قد جمعت ملخص ذلك كله موضحة جميلة المحيا، ولكن لي هنا سؤال واقتراح. أما السؤال فإنك ذكرت في عرض كلامك أن صناعة القلم يجب أن تكون بهجة شارحة للصدور، فهل هذا الوجوب شرعي أو عادي، فإن كان عادياً فإنك محاسب على ما تقول، فإننا الآن في تفسير القرآن. فربما حمل كلامك على الوجوب الشرعي، وإن كان وجوباً شرعياً فهو شيء لا أعلمه. بل الذي أعلمه أنك حين تكتب هذا التفسير لا يقرأ خطك لسرعة الكتابة إلا بصعوبة كما يقول طابع الكتاب، فهل أنت في ذلك مخالف في ذلك لواجبات الدين؟ وإذن ما أكثر الذنوب في نفس هذا التأليف؟.

وأما الاقتراح فإني أود أن توضح بالرسم بعض صور هذه الأنواع الخطية. فقلت: حياك الله أيها الأخ، لقد اشتددت علي في سؤالك شدة لم أعهدها فيك من قبل، ولكني أقول: إن الوجوب وجوب شرعي وأنا لست بآثم في سرعة الخطا في تأليف هذا التفسير. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: أليس الخط من أنواع الحرف والصناعات؟ قال: بلى. قلت: أولست تعلم أن جميع الحرف والصناعات والعلوم كلها فروض كفايات؟ قال: بلى والله. قلت: فالخط تجب المحافظة عليه وتدوينه. والحرص على قديمه وحديثه باعتباره إحدى الصناعات، لا أنني أنا حين ما أكتب أحسن كل كلمة. كلا. بل على الأمة أن تخصص له جماعة تعنى به كما تخصص للكهرباء والمغناطيس والراديو وسكك الحديد وغيرها لكل حرفة منها طائفة تكفي الأمة، فلا تحتاج إلى أحد من أوروبا، ولا من أي أمة شرقاً وغرباً. وإذا تركت الأمة علماً أو حرفة واحدة فهي لا محالة معاقبة في الدنيا والآخرة، ودليلي على ذلك اليوم حال المسلمين الذين لم يفهمهم علماؤهم ما يجب عليهم من ذلك فأصبحوا عن أكثر الصناعات والعلوم غافلين. وقد عني هذا التفسير بإيضاح هذا المقام في مواضع بعد بالثغرات لشدة التقصير. أما ما اقترحته من صور الحروف فهاك أمثلة لذلك:

المثال الأول: صورة من كتابة السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون. وهي صورة كتابة العلامة على المناشير للاقطاع وهذه العلامة هي: الله أملي بياء راجعة. انظر (شكل ١١٥).



(شكل ١١٥)

المثال الثاني: قلم مختصر الطومار. انظر (شكل ١١٦) هذه صورة كتابته.

(شكل ١١٦)

المثال الثالث: صورة قلم الثلث حرف الحاء

وهي هنا مركبة مختتمة مرسلة.

أو مركبة مختتمة مسبلة. أو مجموعة مركبة مختتمة. وهذه صورها الثلاث بالترتيب: انظر شكل ١١٧ وانظر شكل ١١٨ وهكذا:





مركبة مختتمة مرسلة — مركبة مختتمة مسبلة — مركبة مختتمة مجموعة

(شكل ١١٧)

المثال الرابع: قلم الثلث الخفيف

مرسلة — مسبلة — مجموعة

رتقاء مفردة مرسلة — رتقاء مقورة مسبلة — رتقاء مفردة مجموعة

مركبة مبتدأة ملززة — رتقاء مبتدأة — مركبة متوسطة

مركبة مرسلة — مركبة مسبلة — مركبة مجسمة

(شكل ١١٨ ـ حرف الجيم)

المثال الخامس: قلم الرقاع

حرف القاف

مفردة مجموعة — مخسوفة — مبسوطة — مبتدأة

متوسطة — مطرفة مجموعة — مطرفة مخسوفة — مبسوطة

(شكل ١١٩)

المثال السادس: قلم الغبار الذي تكتب به بطائق الحمام

وهذه صورة حروفه إفراداً وتركيباً

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الامام علي رضي الله عنه الى بعض عماله

لا تؤخر عمل اليوم لغد فتدارك عليك الاعمال

وان للناس سوء عن سلطانهم او نفرة اعوذ

بالله ان تدركني واياكم ضغاين محمولة في صدور

(شكل ١٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الامام امير المؤمنين علي كرم الله وجهه

المعروف قروض والايام دول ومن توانى

عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

(شكل ١٢١)

وتتميماً للفائدة نرسم صورة واحدة من الصور الكثيرة التي كانت مستعملة في كتابة البسملة، وهي التي كانت تكتب على طريقة الخط الثلث (شكل ١٢٥)، وسترى رسمها في صفحة ٢٤٩، فانظرها هناك.

فلما رأى صاحبي ذلك قال: ما أحسن هذه الأشكال الخطية وبهجتها ونظامها! فيا حبذا لو أن هذه الصور الخطية أتبعت بصور من الخط الكوفي وبقية صور الخطوط التي تقدمت في سورة «الروم» عند الكلام على آية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾[الآية: ٢٢]، وهي التي اشتملت على قديم الخطوط وحديثها. وبيان اشتقاقها من خط قدماء المصريين. ثم أتبعت هذه بهيئة الخط الصيني.

إذا صح هذا كان عندنا سلسلة الخطوط منظمة مرتبة مشتقاً بعضها من بعض مفيدة فائدة يحسن السكوت عليها، وحينئذ نكون قد اطلعنا على نموذج أنواع القلم الذي أقسم الله به. وكان أول ما قرع سمع نبينا صلى الله عليه وسلم من الوحي الشريف العالي. فقلت: ستصل إلى بغيتك أيها الصديق الآن، فلنبتدئ بهيئة الخط الصيني أولاً لقلة الكلام عليه. ثم نتبعه بالبقية:

فهاهو ذا الخط الصيني بقلم الأستاذ الفاضل الشيخ محمد مكين الصيني بالجامع الأزهر. وهذه صورته. انظر (شكل ١٢٢).

(شكل ١٢٢)

تذكرة:

قد جعل كل حرف صيني مقابلاً للحرف العربي المماثل له.

وأما الخط الكوفي وما معه في الجدول الذي أشرت إليه وتقدم في سورة «الروم» فهاهو ذا فانظره، وهو (شكل ١٢٣).

(شكل ١٢٣)

الخطوط وكيف اشتق بعضها من بعض

وأما الجملة المفصلة التي طلبتها من كلام قدماء المصريين وبها يتم هذا المقام؛ فهاك ما ذكره أستاذنا بدار العلوم في علم التاريخ المرحوم أحمد بك نجيب مفتش الآثار المصرية في كتابه «الأثر الجليل لقدماء وادي النيل» في صفحة ٢٥٨ و٢٥٩ وهذا نصه، قال:

هاك عبارة صغيرة مركبة من جملتين بهما أحرف أبجدية، ومقاطع صوتية، وصورة نفسية، وصور إشارية نقلناها من كتاب المعلم « مسبرو »، وهي من قصيدة طويلة مقولة عن لسان معبود طيبة « أمون رع » يخاطب بها « طوطوميس الثالث » أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة، وجدت مكتوبة على حجر جرانيتي أسود جهة الكرنك. ونقل إلى المتحف المصري. وقد حذفنا صدرها وأتينا بالمنظوم منها وأوله:

الأول: مقطع صوتي. وهو عبارة عن سكين بقدمين ينطق « أي » وهي دلالة على الحركة. والثاني والثالث: حرفان أبجديان. والرابع: صورة المعبود « أمون رع » وهو عبارة عن المتكلم وحده الواقع فاعلاً ينطق « أ » فيكون نطق الجميع « أي أنا »، والأول والثاني معناهما الذهاب. والنون علامة الماضي. والأخير علامة مقطعية ونفسية معاً، والمعنى: ذهبت.

أي أن أ

الأول مثلث متساوي الساقين داخله هرمة، وهو مقطع صوتي ينطق « دو » ومعناه الإعطاء مضافاً إلى المتكلم المفرد. وهو المعبود، وتقدم نطقه والمعنى: أعطي أنا.

د و ـ أ

جميع هذه الأحرف أبجدية ما عدا الخامس فإنه علامة إشارية تشير إلى الضرب ولا ينطق بها، وتدل على القوة والقهر والغلبة، لأنها صورة ذراع إنسان قابض على قضيب أو سوط. ونطق الجميع « تاتاك »، والكاف ضمير المخاطب، ومعناها: تضرب أنت.

ت أ ت أ ك

كل واحد من هذه الطيور الصغيرة مقطع صوتي ينطق « أور »، وتكررت لأجل الجمع وعلامته الضمة فتكون « أورو »، ومعناها: أكابر أو عظماء، وهم مفعول للضرب.

أ ور و

الأول صورة مقطعية صوتية تنطق « تسا »، والثانية الفتحة ثم الهاء كما علمت ثم صورة نفسية لا تنطق، لأنها صورة الجبل، فيعلم من ذلك أن لفظة « تساه » علم على بلاد بها جبال، وهي سواحل أرض كنعان مضافة إلى الأكابر.

تسا ـ هـ

(شكل ١٢٤)

وإلى هنا صارت الجملة الأولى تامة، لأنها تركبت من فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، فتكون الترجمة: أنا أتيت أمنحك أو أعطيك تضرب أكابر تساهي. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين.

فلما اطلع صاحبي على هذه الأشكال والجداول أظهر السرور وانشرح صدره وقال: أما الآن فقد وفينا المقام حقه. وهو حقاً من توابع تفسير الآية لأننا إذا سمعنا الله يقول: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[القلم: ١]، وسمعناه أيضاً يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ١-٥] فإننا قد يخطر لنا ما هو القلم وما هي أنواعه، وفي الحال نكون قد درسنا مبادئ صناعة من صناعات الأمم، وهي واجبة كوجوب النحو والصرف والفقه سواء بسواء.



(شكل ١٢٥)

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾

بقيت في النفس حاجة إلى السؤال، يقول الله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥] فهذه الجملة تفيد كما جاء في محادثتنا السابقة آنفاً أن الإنسان محتاج إلى التعليم، فهاأنا ذا أحب أن أسألك سؤالين، فهل تأذن لي في ذلك؟ فقلت: حباً وكرامة، سل ما تشاء. فقال: أما أول السؤالين فهو: هل من قول جامع لأنواع التعليم العالي الإسلامي في مستقبل الزمان؟ الثاني: هل الإنسان اليوم وقد قررنا أنه هو الذي يعوزه التعليم وحده قارب الكمال في تعلمه؟ فقلت: أما جوابك عن السؤال الأول فأقول:

إن التعليم الإسلامي في مستقبل الزمان يجب أن يشمل ثلاثة أنواع، وهذه الثلاثة تدخل فيها جميع فروع العلم في العالم الإنساني اليوم: النوع الأول: أن يكون مهذباً في نفسه، مكملاً لها، حافظاً لها جسماً وعقلاً. النوع الثاني: أن يكون رجلاً نافعاً في أمته التي خلق فيها، مشاركاً لها في تحسين نظامها ورقيها. النوع الثالث: ألا يقتصر على ذلك، بل يكون رجلاً نافعاً لجميع النوع الإنساني لا مقتصراً نفعه على نفسه أو على أمته وحدها، فأظهر عند هذه الإجابة استغراباً واستبشاراً، وقال: إن هذا القول أقرب إلي من كلام عظماء رجال الصوفية الذين يريدون النفع للإنسانية كلها، وهو يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذا التعارف العام إذن مطلوب في ديننا ولا وسيلة لهذا التعارف العام إلا بالتعليم.

ومن العجيب أني رأيت في كلام « كانت » الألماني في كتابه في علم التربية ما يقرب من هذا، فإنه يقول: إن التعليم إما لإصلاح الذات وحفظها، وإما أن يكون موجهاً لكون الإنسان نافعاً لأمته، مشاركاً لها في رقيها وإسعادها، وإما أن يكون موجهاً لمنفعة عموم النوع الإنساني، وأتذكر أن ذلك في صفحة ٣٠ من ذلك الكتاب المشتمل على مائة صفحة ونيف.

الجواب عن السؤال الثاني
وهو: هل الإنسان اليوم قارب الكمال في تعلمه؟

أقول: إن الإنسان اليوم لا يزال في مبدأ تجاربه وتعاليمه، وأمامه عقبات ومنازل قد آن أوان تذليلها وحان حين ارتقائه، وسيصل إلى درجات من الكمال لا نتصورها نحن الآن، إن الإنسان على ما يظن الناس اليوم لم يعش في الأرض أكثر من نحو ٣٠٠ ألف سنة، والحيوان كما يقولون عاش قبله بنحو ٣٠٠ مليون سنة، والأرض مخلوقة قبل ذلك كله، نعم هذا كله حدس وتخمين، ولكن على كل حال هذا ما وصل إليه الإنسان بحدسه وظنه، والإنسان في هذه المدة كلها لم ينتقل من العصر الحجري إلا في أزمان قريبة، ثم ارتقى إلى العصر الحديدي، ولكنه في هذا الجيل وحده انتقل انتقالاً سريعاً ولن تقف خطواته عند حد إلا إذا وصل إلى الكمال بجده هو، فقال: ما برهان ذلك؟ فقلت: أنا أضرب لك مثلاً: أيهما أرقى منزلة وأشرف وأعلى: النبات أم الإنسان؟ فقال: يا سبحان الله، وأي نسبة بين النبات والإنسان! الإنسان أرقى من الحيوان، والحيوان أرقى من النبات. فقلت: أي أنواع النبات أعظم أثراً في ثروتنا المصرية اليوم؟ فقال: القطن. فقلت: ماذا أفادنا وما خواصه؟ فقال: أما فائدته لبلادنا فإنا نبيعه وننتفع بثمنه، وقد انتفعنا فوق ذلك أولاً: بصناعة حلجه، وذلك بأحدث الآلات. ففي القطر المصري ٤٦ محلجاً تحلجه، فهذه هي الصناعة الوحيدة المستقلة في بلادنا، وهناك صناعة بسيطة يعوزها الكمال. ثانياً: بصناعة القطن الطبي التي أنشأها بنك مصر، هذا هو الذي أعلمه الآن من صناعات بلادنا القطنية في هذا التاريخ ديسمبر سنة ١٩٣٢م.

ثم قال: أما خواصه فأنا لا أعلم منها إلا ما جاء عن ابن البيطار العالم النباتي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي إذ قال:

(١) القطن حار رطب اللباس، وهو شديد الإسخان ناعمه ما دام فيه طراوة.

(٢) دهن حبه: زيت القطن نافع للكلف والنمش والجراحات الحارة الحادثة في الوجه.

(٣) إن بذرة القطن مسخنة للصدر، نافعة للسعال.

(٤) إن حب القطن يلين ويسخن ويزيد في قوة الأعصاب.

(٥) أما عصارة ورق القطن فتنفع في إسهال الأطفال.

(٦) إذا أحرق القطن البالي وحشيت به الجراح قطع دمها، وإذا لصق على الدماميل قلع ما فيها وقتلها، لأن من خواصه اجتذاب المواد من عمق البدن، وإذا اشتم دخانه المزكوم نفعه.

(٧) ورق القطن الصغار الغض يوضع في قدر ويغمر في الماء ويطبخ مع أصول القطن ويجلس فيه النساء فينفع في اختناق الرحم وأوجاعها، ولورق القطن خاصة في تسكين النقرس والضربان الدائم.

ومما جاء في كتاب «الحاوي في علم التداوي» أن حب القطن حار رطب ينفع من الربو ويفيد الصدر، وأن صمغ القطن مسكن لوجع الأضراس، وأن لعوق حب القطن مع اللوز المقشر ملين للصدر، هذا ما أعرفه وكفى. فقلت: أيها الأخ، إن صناعات القطن المصرية ضئيلة بالنسبة لما عرفته الآن، وإذا رجعت إلى ما تقدم في سورة «الأنفال» أدركت كيف دخل القطن في صناعات الحرب وغيرها. فقال: نعم. أنا أذكر ذلك، ولكني أريد ما هو أوسع مدى وأعظم فائدة حتى يكون مقنعاً لي بالفرق بين تقصيرنا نحن المصريين وبين رقي غيرنا فيه، ليكون ذلك حجة قائمة في الموازنة بين ارتقاء صناعة القطن وارتقاء تعليم الإنسان. فقلت: إن الذي أعرفه من الصناعات في العالم الغربي:

(١) صناعة القطن الطبي المذكور.

(٢) صناعة التنجيد التي نشارك الأمم فيها كما نشارك في بعض الصناعات الصغيرة مما سأذكره.

(٣) صناعة غزل خيوط بكر الخياطة، وهي من أمهات الصناعات في العالم.

(٤) صناعة النسيج.

(٥) صناعة الدنتيلا «التريكو».

(٦) صناعة التطريز والوشي.

(٧) صناعة العقادين والستاير والإطارات.

(٨) صناعة الجوارب والفانلات والطواقي والدكك.

(٩) صناعة أكياس الجبس.

(١٠) صناعة شباك الصيد للسمك والطير.

(١١) مادة أساسية لصناعة الورق.

(١٢) صناعة الحرير الصناعي.

(١٣) صناعة الملابس.

(١٤) صناعة الجلد الصناعي وغلافات المحافظ والدفاتر والكتب.

(١٥) صناعة إطارات العجلات الكاوتشوك.

(١٦) صناعة أجنحة الطيارات وغشاء البالونات.

(١٧) صناعة الفيبر، وهو قطن مضغوط لدرجة الصلابة حتى تفوق الفولاذ متانة وتستعمل تروساً للآلات والسيارات والقاطرات بحيث تؤمن عدم إحداث الموت أثناء الحركة.

(١٨) صناعة المفرقعات مثل البارود الأبيض والألغام.

(١٩) صناعة خيوط الشمع وأشرطة الوابورات «وابور السبرتو» والمصابيح.

(٢٠) صناعة صنع الملابس.

(٢١) صناعة تبييض القطن.

(٢٢) صناعة خياطة الملابس.

(٢٣) صناعة حلج القطن.

هذه هي الصناعات القطنية التي وصلنا علمها المنتشرات في الشرق والغرب، ومصر تجهلها والعالم العربي وأكثر أمم الإسلام. فقال: حسن. فقلت: إذا عرفت الفرق بين ارتقاء صناعات القطن عند الأمم وانحطاطها عندنا بمصر وبلاد الإسلام؛ هكذا فلنقل إن الفرق بين الإنسان في الوقت الحاضر والإنسان في المستقبل كالفرق بين صناعات القطن في بلاد الإسلام وبين صناعاته المنتشرة في العالم الإنساني. وإنّما ضربت هذا المثل لوضوحه، وإلا فهذه النفس الإنسانية التي ازدهرت وسعدت بالنور الإلهي والأسرار البهية الربانية فيها من القوى الكامنة ما لا حصر له، وأي نسبة بين القطن وهو نبات وبين الإنسان الذي هو روح شريفة أقرب إلى الملأ الأعلى من كل ما نراه، فإذا رأينا قطننا فبمصر قد ظهرت من كوامن أسراره بالصناعات ما بهرنا، فللإنسان من القوى الكامنة التي يستخرجها بصناعة التهذيب والتعليم ما لا حد له: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]، مع أنه هو الذي قال الله فيه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤].

إننا إذا قلنا: اليوم إن الناس كانوا في عصر حجري ثم حديدي الخ؛ فليس هذا معناه أن ذلك أمر محقق، كلا. فربما كانت الأمم قديماً ارتقت ارتقاء مدهشاً لا نحلم به نحن اليوم، ثم اعتراها تدمير بزلزال أو بخسوف قارات بأسرها وغير ذلك، ثم رجع الإنسان الباقي يبني مدينة جديدة، بل هذا هو الذي يستنتج من آية: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣]، وقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة: ٢١٣] أي: بعد أن اختلفوا، وآخر هؤلاء النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[الحجرات: ١٣]. ولعل الناس قديماً قبل التاريخ المعروف الذي لا يتجاوز ألفي سنة كانوا أشبه بخلية نحل أو بجماعة الزنابير أو النمل أو مملكة الأرضة المتقدم شرحها بإسهاب في هذا التفسير في سورة «سبأ».

وبالجملة كأكثر الأمم الحيوانية التي تعيش جماعات ثم دمروا تدميراً، ولم يعلم الخلف ما كان عليه السلف في مدة ثلاثمائة ألف سنة. فأرسل الله آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم وأخبره أن الناس كانوا أمة واحدة ثم نادى فيهم قائلاً: تعارفوا أيها الناس، يريد بذلك أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الوحدة التي هي الأصل في هذا الوجود، ومستحيل أن تتم تلك الوحدة إلا إذا حدد لكل أمة عملها المناسب لها ولكل فرد في كل أمة عمله الذي يناسب مزاجه واستعداده، كما يرى في خلايا النحل، ومتى كسل فرد عن عمله بعد التعليم والإنذار وجب عقابه عقاباً صارماً، وهكذا الأمم، لأن كل إنسان عطلت مواهبه وكل أمة وكل بقعة في الأرض عطلت منافعها حرمت جميع الأمم تلك الفوائد والمنافع التي كانت مدخرة لهم، ومتى تم ذلك اتحد نوع الإنسان، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وهذا هو قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٥].
ولما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بحث عن هذه الوحدة ونشر العلم شرقاً وغرباً، والأمم إذ ذاك لم تكن لتقبل إصلاحاً أكثر مما جاء على يديه صلى الله عليه وسلم وإذا كان اليوم نشر الدين لا يعوقه عائق فلنا أن ننشره في أي مكان في أغلب الأرض، بشرط أن نكون علماء بعلوم الأمم ليقبلوه منا، يجب على المسلمين أن يستعدوا اليوم لرقي الإنسانية كلها، وذلك بالتعارف العلمي

والرقي المادي والسلاح الكامل العدة استعداداً للطوارئ ومنازلة من يعتدون علينا، وليكن النشر بالتي هي أحسن، وبالحجة البالغة، ولن يتم لنا ذلك إلا بقراءة جميع الديانات التي ديننا أرقاها وبقراءة جميع العلوم، وذلك بأن يخصص لكل طائفة من العلوم طائفة من نابغي الأمم الإسلامية، ولن يتم ذلك كله إلا بالعفة والقناعة والأخلاق الحميدة. إن الإنسانية اليوم قادمة على عهد جديد، وكل ذلك بسبب ديننا. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]. وبهذا تم الجواب على سؤالك الثاني. فقال: حسن جداً. فقلت: الحمد لله على نعمة العلم والحكمة والكمال. كتب بعد ظهر يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢م.

بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾

لقد تقدم في سورة «الزمر» ما نقلته عن الأستاذ «كانت» الألماني في التربية في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الآية: ٩] في المجلد الثامن عشر، وذكرت بعض ملخص المقدمة، وفي آخر ذلك الملخص أنه أبان صعوبة التعليم المنزلي في صفحة ٢٥، وأن التعليم العام خير منه، وأهدى سبيلاً وأقوم قيلاً، والآن نلخص ما بعده فنقول:

قال في الفصل السابع والعشرين صفحة ٢٦ وما بعدها ما يأتي: إن تعليم الطفل أولاً يجب أن يكون تقليدياً آلياً يؤمر الصبي فيطيع ويعمل، لأنه لا قدرة له على التفكير، ثم بعد ذلك يعطى الفرصة الكافية للتفكر بنفسه والاستقلال في تعلمه مع مراعاة القوانين، وفي الحال الأولى إذا خالف ما أمر به يعاقب إما عقاباً سلبياً بحيث يمنع ما يطلبه من غيره، وإما عقاباً إيجابياً إذا أمر فلم يمتثل، وليست مراعاة القوانين وإطاعة الأساتذة في الحال الثانية بمنافية لحرية التلميذ في تفكيره وتمرينه، فليس للأساتذة إلا الإرشاد العام للتلميذ وهو يعمل بحريته التامة الكاملة، إن تعليم التلميذ إذا استمر بهيئة واحدة من حيث إنه يسمع ويطيع ولا يفكر بنفسه ضار جداً، فإذا مضت مدة الدراسة يصبح غير قادر على التفكير بنفسه ولا يستفيد شيئاً، وكيف يستفيد من هذه الحرية الحادثة بعد مدة التعليم وهو لم يتعلم كيف يستفيد منها أثناء التعليم؟ ولا يعزب عن البال أن هذه الحرية المعطاة للتلميذ يجب ألا يكون معها إضرار بنفسه، كأن يعطى السكين فيقطع بها يده ولا بغيره من التلاميذ، وإلا قيدت بذلك، كأن يرتفع صوته فيكون ذلك ضاراً بالباقين. إن من مزايا التعليم العام في المدارس أن يقيس التلميذ قوته بقوة غيره فتحصل المنافسة، ويقال له: إننا نعلمك لنصل بك إلى غاية قوتك أنت، كما نفعل مع غيرك كذلك فإن القوى مختلفة.

ثم إن التربية تنقسم إلى قسمين: تربية جسمية، وتربية عقلية، فالتربية الجسمية ترجع إلى ما به إصلاح الطعام والشراب وجميع ضرورات الحياة من كل ما يشاركنا فيه الحيوان، فهذه إصلاحها أول ما يجب تعليمه. فأما التربية العقلية فهي ثلاثة أقسام: القسم الأول: التربية المدرسية، وبها تظهر مواهب التلميذ الكامنة وينتفع بها في بقية الحياة انتفاعاً خاصاً بنفسه لنفسه. القسم الثاني: التربية المدنية، وهي التي بها يشارك الإنسان مجموع الأمة في حكومتها ونظامها العام. القسم الثالث: التربية الأدبية العامة، وهي التي بها يصلح الإنسان لمشاركة الأمم جمعاء في حياتها الاجتماعية. إذن القسم

الأول أولها تعليماً، والأخير يأتي تعليمه في النهاية. وبهذا انتهى تلخيص المقدمة من كتاب «كانت الألماني»، وجاء بعد المقدمة ما يأتي:

الباب الأول: في التربية الجسمية

فابتدأ ينصح معلمي التلاميذ في منازل آبائهم قائلاً لهم: أيها الأساتذة، أنتم وإن كنتم مختصين بتعليم التلاميذ الكبار في المنازل؛ عليكم واجب أدبي لا تنسوه. وهو أنكم أعلم من في المنزل ومحط آمال الأسرة في الأمور التعليمية، وقد يولد في المنزل أطفال تستشارون في تربيتهم الجسمية، فعليكم أن تلموا بها. ثم أخذ يشرح التربية الجسمية فقال:

(١) إن لبن الأم أحسن ما يغذي طفلها. فأما لبن الحيوان فإنه لا يقوم بتلك التغذية كلبن الأم.

(٢) إن لبن الأم قد يقل فلا يفي بتغذية الطفل، ومن الناس من يغذون أطفالهم بما يظنون أنه يناسبهم. ولكن هؤلاء عليهم أن يحترسوا كل الاحتراس من الخمر والتوابل والملح. إن حرارة الطفل أقوى من حرارة الكبير، فهي في الأول ١١٠ بمقياس فارنهايت. وهي في الثاني ٩٦ بذلك المقياس. فليس ينبغي أن نزيد حرارته الطبيعية كما لا نزيد شهوة الطعام بالمهيجات الصناعية، إنه ليس من المستحسن لكبار السن فضلاً عن الأطفال أن يتدثروا بما يكثر الدفء لهم ويغطيهم غطاء تاماً. وأن يعتادوا شرب ما هو حار جداً، إن الاعتياد على البرودة أصح للأجسام على وجه العموم وأكثر تقوية لها، إن السرير ذا الخشونة والبرودة أصح للطفل وأوفق له، وهكذا الحمام البارد بشروط خاصة يسأل عنها الطبيب.

(٣) من العادات الرديئة أن يحزم الطفل كما جرت به عادة أقوام، وهذه عادة ضارة جداً، وخير من هذه العادة أن يجعل له صندوق يحيط به سير من الجلد، ويجعل الطفل فيه ولا يخرج منه ولو في حال إرضاع أمه له. وفي ذلك ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: أن الطفل إذا نام في صندوقه بجانب أمه لا يموت بالاختناق كما يموت بعض الأطفال في أحضان أمهاتهم وهن نائمات. الفائدة الثانية: أن أعضاءه أعطيت حرية كاملة في هذه الصندوق. فأما الحزام فإنه يضر بها ضرراً بليغاً. الفائدة الثالثة: أن هذا الصندوق يقيه كل ما يضره من الخارج.

(٤) مما يضر ضرراً بليغاً بالطفل أن يهتز في مهده. كأن يعلق ذلك المهد في حبل متصل بالسقف ومتى يشد ذلك الحبل يهتز الطفل، إن ذلك شديد الضرر عليه، كيف لا ونحن نرى الكبير يستضر بكثرة الاهتزاز إلى الأمام والخلف، فما بالك بالصبي؟ فيجب الإقلاع عن هذه العادة.

(٥) اعتاد أقوام أن يعلموا أطفالهم المشي تارة بخيط طويل أو سلسلة، وتارة بعجلة نقل، وكلاهما خطأ فاضح، وأشدهما ضرراً أولهما، فإنه إن أراد أن يلتقط من الأرض شيئاً فإن ذلك الخيط يؤثر في جسمه عند الانحناء وجسمه لا يزال غضاً طرياً، وما يحدث فيه من العيب لا يمكن إصلاحه بعد ذلك، فليترك الطفل وشأنه، فليحب أولاً على الأرض، ثم ليمش متى آن وقته، ذلك هو الصراط المستقيم.

(٦) يجب أن تنبذ الآلات الصناعية في ترقية الطفل بتاتاً.

(٧) من الأطفال من يأتون إلى هذه الدنيا وفي صورهم الجسمية خلل، فيحتال الآباء بآلات صناعية ليصلحوا هيئتهم كأن يوقفوهم بها مثلاً في أحوال خاصة، فهؤلاء يجب أن يعفوا عن ذلك، وأن يتركوا وشأنهم أحراراً، فإنهم بهذه الحرية يمرنون أجسامهم، ويكون الطفل بالحرية أقوى ممن استعملت لهم الآلات الصناعية.

(٨) ليحذر القائمون بأمر الطفل من أضعف المؤمرات الصناعية عليه كما يحذرون من أقواها ولقد أخطأ الروسيون في ذلك خطأ كبيراً فمات كثير من صغارهم، ليست العادة وليدة ساعتها، إنها تكون بالتدريج شيئاً فشيئاً. أما المسارعة إلى حصول الطفل عليها فذلك ضار به أشد الضرر. ثم قال: ليس من العادات ما هو أسرع وأكثر ضرراً من عادة التبغ «التدخين» وكل مشروب منبه أو مهيج كالكونياك، فإن هذه العادة يعسر الإقلاع عنها، وهي عند تناولها أولاً تحدث اضطراباً في أجسامنا، فإذا استمررنا عليها فإنها تؤثر في وظائف أعضاء الجسم المختلفة.

(٩) يجب على مربي الصبي أن يعوده خير العادات في تعاطي طعامه وشرابه، فليكن كلاهما في أوقات معينة.

(١٠) إن الفراش الخشن أفضل في التربية من الفراش اللين، وهاهنا قاعدة عامة، وهي أن كل ترف ونعيم للصبي مضعف لجسمه، وكل اخشيشان واخشيشاب مقويان لأعضائه الجسمية.

(١١) على المربي أن تكون أحكامه صارمة في تهذيب طفله وتأديبه، ولكن حذار أن يبلغ به مرتبة الإذلال فيعيش عبداً ذليلاً، يجب أن يشعر الطفل بأنه حر، ولكن لا تتعدى تلك الحرية الحد القانوني فيضر بحرية غيره مثلاً كما تقدم. هذا هو معنى التهذيب.

(١٢) إن الطفل في الثمانية الأشهر الأولى من حياته لا تكون حاسة البصر عنده قد نمت نمواً تاماً حتى أنه لا يكاد يفرق بين شيء وآخر. والدليل على ذلك أننا إذا أدنينا السراج من عينيه ثم باعدناه عنه فإنه لا يتبعه بنظره، وهكذا في ضحكه وبكائه فأسبابهما عنده غير جلية كحاسة البصر، ولذلك نراه يبكي لأي حادث مبهم غير واضح، ولو أنك لطمت يده في الشهر السادس لصرخ كأنك لطمته بخشبة تتأجج ناراً، فأمثال هذا الصراخ ليس فيه إفساد لطباعه، فلا نكبح جماحه فيه بأن نتركه وشأنه حتى يسكت. كلا. وإنّما الصراخ الذي به يجب تأديب الطفل بأن ندعه وشأنه حتى يعتاد السكوت من نفسه فهو ذلك الذي يأتي من قبيل الشهوات النفسية كأن يبكي لأجل أن يرضع في غير أوانه، أو أن يطلب شيئاً آخر لا يجوز له، فهذا هو الذي يترك الطفل فيه وشأنه حتى يتعلم السير على القانون ويترك البكاء، إذا أعطي الطفل كل شيء خوفاً من صراخه فإنه تلازمه تلك العادة في أدوار حياته وتكون أخلاقه مضطربة، ليس من حسن التأديب أن ينتظر الأبوان من الصبي تقبيل يديهما بعد عقابه بالضرب مثلاً، إن هذه العادة تعلمهم التظاهر والرياء.

(١٣) ليحذر المربي عادة الشتم فإنها تحدث في الصبي عادة الجبن والحياء، وبذاك يخفي ما في نفسه ولا يظهره.

(١٤) إياك أن تعامل الطفل معاملة الكبير فتلعب معه وتطلق له العنان، وذلك بكثرة الملاطفة وإطلاق سراح الدلال له، فإن ذلك يجعله قاسياً صعب المراس، إن الأبوان بذلك يصغران في عينيه ولا يحترمهما، ولمناسبة ذلك أذكر ما قاله الشاعر العربي:

فإياك إياك المزاح فإنه يقوي عليك الطفل والرجل النذلا

ومن ذلك ما قدمناه آنفاً، وهو يجب أن لا يعطى كل ما يريده وينذرنا ببكائه، بل ندعه حتى يترك عادة البكاء شيئاً فشيئاً، ونعطيه كل شيء بقدر، فهذا يشيب وهو كيس مخلص بلا وقاحة وتهور، ظريف مؤدب النفس من غير جبن، إن الوقاحة والتهور الناشئين مثلاً من إعطائه كل ما يشتهيه بالبكاء لا طاقة للناس على احتمالهما.

(١٥) من عادات طبقة العمال أن يفسد الأبوان أخلاق أطفالهما بهذه الطريقة فيجعلونهم كثيري العناد، صعبي القياد، يأنفون من سلوك الصراط السوي في المعاملات، إن أبناء طبقة العمال أشرار بسبب معاملتهم بشدة الملاطفة، ولقد شاع وذاع ـ وهو حق ـ أن أطفال طبقة العمال أكثر فساداً من أطفال الطبقة الراقية، لأن الآباء من الطبقة الأولى يلعبون مع أطفالهم كالقرود ويغنون معهم، ويكثرون من ملاطفتهم، ويقبلونهم ويرتعون معهم، إنهم يظنون أنهم عطفوا عليهم برأفتهم ورحمتهم وتحننهم إذا هم سارعوا إلى الطفل إذا صرخ أو لعبوا معه، ولكن الحقيقة بأنه يصرخ لعاداته هو ولهواه، ولكنه إذا عرف أن صراخه لا يهتم به أحد ترك تلك العادة.

(١٦) علينا أن نمنع الطفل من ثلاثة أشياء: الأول: الاعتياد على التلذذ، فإن ذلك مفسد ضار له. الثاني: حب البطالة والكسل، فإن ذلك أشد أمراض الحياة، فليدرب الصبي على العمل من أول حياته. الثالث: التأنق والإسراف، وبالجملة يجب أن نمنع الطفل من تربية الإحساس باللذات والآلام وهاهنا التربية سلبية لا إيجابية.

(١٧) إن بعض الناس يؤمنون بأنهم إذا عودوا الطفل أن يتربص زمناً طويلاً قبل أن يعطوه ما هو في حاجة إليه؛ فإن ذلك يعلمه خصلة الصبر. قال الأستاذ «كانت»: وهذا حق وضروري لا سيما في حالة المرض.

(١٨) لا يجوز بحال أن تكسر شوكة الطفل بمقاومة إرادته مقاومة تامة، لكن يجب أن تقوم تلك الإرادة وتعدل. أما كسرها بتاتاً فلا، نعم في ابتداء الصبي يجب أن تكون طاعته عمياء، فلا نبيح له أن يجعل البكاء سبيلاً لإعطائه ما يشتهي كما تقدم.

(١٩) من عجب عناية المؤلف الشديدة بصراخ الصبي في مهده وجعله أشبه بالحجر الأساسي في التربية فقد كرره كثيراً، وهاهنا في صفحة ٥٦ من الكتاب يذكر قاعدة لذلك. فقال: إذا كان الصراخ لسبب ألم حل به وجبت المسارعة لإنقاذه من ذلك الألم، وإن كان الصراخ لأمر يرجع إلى طباعه هو وجب الإعراض عنه. ثم قال: إن هذه القاعدة تستمر حتى يكبر فيعامل هذه المعاملة، فإذا أخذ وهو كبير يعاند وجب علينا أن نقمع عناده بما يؤلمه إيلاماً أدبياً، كأن نمنع عنه ما كنا نمتعه به من قبل من المسرات إن كسر شوكة الصبي ضارة به، ولكن إذا عاملناه بأمثال ما تقدم أصبح لنا مطيعاً سهل القياد.

(٢٠) أكثر المخاوف التي تعتري بعض الناس ترجع إلى ظنون فاسدة كمن يخاف العنكبوت والضفدع ونحو ذلك مما تلقاه عن المراضع، فعلى المربين أن يعودوه على تناول ويمس كل ما يخاف منه من هذا القبيل، كأن يلتقط العنكبوت كما يلتقط أي شيء. وبهذا تم الكلام على التربية الجسمية وهو الباب الأول بعد المقدمة.

الباب الثاني: في التربية الجسمية العقلية

قال: إن هذه التربية هي الجزء الإيجابي الطبيعي، وما تقدم هو الجزء السلبي الطبيعي، إن التربية العقلية الجسمية هي التي تفرق بين الإنسان والحيوان، إن هذه التربية ترجع في الأكثر إلى تربية القوى العقلية، فعلى الأبوين أن ينتهزا الفرص لترقية تلك القوى، فأولاً يمنعون منعاً باتاً الاستعانة بالأدوات المساعدة على المشي ونحوه كما تقدم، ويدعون الطفل يسير وحده. لأنه إذا اعتاد ذلك كان أقوى له وأقوم لسعادته، وإذا صح ذلك في التربية الجسمية فليفعل معه ذلك في التربية العقلية الجسمية من باب أولى، مثلاً نحن نستعين في مقياس مسافات معينة بحبل نقيس به مع أننا نقدر أن نعرف تلك المسافة بأعيننا، فالحاجة إلى الحبل نقص فينا، هكذا نحن نحتاج إلى ساعة بها نعرف الزمن، مع أننا يتسنى لنا أن نعلم الوقت بضوء الشمس، وإذا كنا في غابة استعنا بالبوصلة لنعرف أين نحن في الغابة، مع أننا نقدر أن نعرف ذلك باتجاه ضوء الشمس نهاراً وبالنجوم ليلاً. ونركب السفن مع أننا يجب علينا أن نعوم، فكل هذه مساعدات آلية مضعفة للقوى العقلية التي يجب أن نستعملها في استقلال البحث والمعرفة والكشف، فنحو هذه الأعمال البدنية العقلية يجب إنماؤها وتقويتها، ألم تر إلى «فرانكلين» المشهور، إذ يتعجب كيف لا يتعلم كل امرئ السباحة في النهر والبحر، وهي سارة لذيذة نافعة، وقد أوضح أسهل الطرق لذلك فقال: قف في ماء النهر حتى يصل الماء إلى عنقك، وارم بيضة في الماء واجتهد أن تصل إليها، فإذا اتجهت لتناولها فإنك لا بد رافع رجليك، وإذا كنت لا بد لك من منع الماء أن يدخل في فمك فإنك لا بد رافع رأسك إلى الخلف، وإذن أصبحت في حال هي مبدأ العوم، فما عليك إلا أن تمد ذراعيك ضارباً الماء بهما مرة بعد أخرى، وهذا هو العوم.

(١) إن أمثال هذه التمارين الجسمية العقلية لا يتم نماؤها إلا بالقوة والمهارة والسرعة والثقة بالنفس.

(٢) ومن هذا القبيل تمرين الحواس، ومن خير ما يقويها إلى أقصى حد ممكن الألعاب الرياضية كاللعبة التي يتظاهر فيها الصبي بفقد بعض الحواس كالبصر مثلاً، وتسمى في مصر بـ «التغمية»، وقد كانت معروفة عند أهل اليونان، وهاهي اليوم في كل مكان، فهي عند الألمان والفرنسيين والإنجليز، ولا جرم أن هذه الطريقة بها يقدر الصبي أن يبحث ببعض الحواس وحدها تمريناً لها، إن أمثال هذه الألعاب يستفيد منها الصبي

أولاً: أنه يتعلم الصبر والاحتمال والتروي والتأني. ثانياً: أنه يكسب المسرة واللذة الحاصلتين بالتغلب على الصعاب. ثالثاً: يتعلم خلوص النية وسلامة المقصد. وبهذا تم الكلام على الباب الثاني بعد المقدمة في التمرينات الجسمية العقلية.

الباب الثالث: في التعليم العقلي بالمدارس

إن الإنسان خلق ليعمل، ولن يتم له عمل ما لم يتعلم تعليماً نظامياً. فيجب أن يكون له أوقات لتحصيل العلم، وأخرى للعب والراحة، ولا بد من انفصال كل من الوقتين عن الآخر، فأما اختلاطهما فلا، إن الإنسان في وقت الدراسة يتربص وقت الراحة الذي به يستجم قواه.

كيف تكون التربية العقلية الحقيقية؟

لقد قدمنا تربية الجسم في المقدمة والتمرين العضلي الحسي في الباب الأول وكذلك في الباب الثاني، وفي هذا الباب قد وصلنا إلى لب التعليم، فبعد أن فرقنا ما بين أوقات التحصيل واللعب في الدراسة أخذنا الآن ندرس تمرين نفس القوى العقلية، إن الإنسان قد يرى صوراً كثيرة فإذا أدركها وميزها بسرعة عددنا ذلك ذكاء وتصوراً، وإذا أصدر حكمه عليها سمينا ذلك تصديقاً، وهذا التصديق لا يتم إلا ببرهان، وإذا تذكر الحوادث الماضية عددناه حسن الذاكرة، فهاهنا أربعة أمور:

(١) تصور وفهم قد يصحبه ذكاء.

(٢) برهان به يدخل الجزئيات في الكليات.

(٣) حكم بالمحمول على الموضوع، أي: بالخبر على المبتدأ، وهو التصديق.

(٤) تذكر للحوادث والعلوم.

فكل من التذكر والتصور يسمى قوة سفلى. والتصديق أو الحكم الذي أتى به البرهان نسميه قوة عليا، وإذا عرفنا هذا فهل نفصل في التعليم بين القوى السفلى والقوى العليا كما فصلنا بين أوقات الدرس وأوقات اللعب، كلا. ثم كلا، فمتى أردنا تمرين الذاكرة وجب علينا أن نقرن تمرينها بتمرين القوة الحاكمة، فلا نجعل حفظ التاريخ أو الشعر اللذين وعتهما الذاكرة، وهي التي اعتبرناها قوة سفلى، بمعزل عن قوة الحكم، فنقيس الحاضر بالماضي ونستنتج، وإلا فلا فائدة فيما نتذكره، وما قيمة الرجل الذي يحفظ الشعر أو النثر أو التاريخ أو اللغات إلا كقيمة الدواب تحمل صور المتاحف، وكمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم، نعم لهذا وأمثاله فائدة ما، وهو أنه يحفظ ليستنتج غيره من محفوظه، وهكذا أهل الذكاء وسرعة الخاطر لا منفعة تجنى منهم بغير الحكم الذي هو القوة العليا. فإذا ذكر الشاب قاعدة علمية عامة وجب علينا أن نحرضه على أن يقتبس بيتاً من الشعر أو حادثة من التاريخ أو الخرافات، فنحن بذلك مرنا القوة الحاكمة العليا مع القوة السفلى وهي الذاكرة.

يجب تمرين الذاكرة لأنها قوة مساعدة تحفظ الصور التي يحصل فيها الحكم لوقت الحاجة، فهي خزانة يجب المحافظة عليها، ولكن ليس معنى هذا أن تحفظ ما لا فائدة لنا فيه. بل الذي تحفظه يجب أن يكون نافعاً لنا في أعمالنا، وعلى ذلك يمنع الشبان من قراءة الروايات، فإننا لا نجني منها منفعة لنا، وغاية الأمر أنها تفيدنا تسلية وقتية، وهي مع ذلك تضعف الذاكرة، فإنه مما يوجب السخرية والضحك أننا نحفظها لنقصها على الآخرين، فلنمنع الروايات منعاً باتاً، إنهم إذا قرؤوها فإنهم ينسجون في نفوسهم معانيها ويتصورونها ولا تمرين يصحبها، فتكون نفوسهم فيها محبوسة التفكير، ناسجة على ذلك المنوال بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، ويجب أن يمنع الشاب من اللهو والضحك

لا سيما في المدرسة، فإن ذلك يصبح فيه عادة، وبهذه العادة يفقد المرء مواهبه اللطيفة العقلية، إذ جعل نفسه أضحوكة للناس.

كيف نقوي ذاكرتنا؟

نحن نقدر أن نقوي الذاكرة بأربعة أشياء: (١) بحفظ الأسماء التي تصادفنا فيما نقرؤه. (٢) وبالقراءة. (٣) وبالكتابة. (٤) وبقراءة اللغات.

ولكن يجب مع تقوية الذاكرة أن نصحبها بالقوة العليا وهي الفهم، ثم تأتي دراسة علم النبات وعلم الجماد والمعادن وجميع التاريخ الطبيعي، ولا بد في فهم هذه العلوم من الاستعانة بالرسم، وتجب دراسة الجغرافيا والعلوم الرياضية والطبيعية، إننا بنظرنا في ظواهر سطح الأرض نتوصل إلى معرفة تاريخها القديم وتاريخ من سكنها في الأزمان القديمة وهكذا.

علينا أن نمزج علم التلميذ بالعمل. ففي جميع العلوم الرياضية لا بد من التمرين عليها، وفي الخطابة والإلقاء مع الفصاحة يجب أن يكون مصحوباً بالفهم، لا بد من القواعد العامة والقوانين للفهم والحكمة، وهذه القواعد والقوانين يجب أن تكون مصحوبة بتطبيق الكليات على الجزئيات.

وهاهنا أوردنا قاعدة للتعليم تشمل ما تقدم كله فقال: التعليم العقلي على وجه العموم إما طبيعي وإما أدبي، والأول يشتمل على التهذيب، وعلى تعليم العلوم. والثاني هو التعليم الذي يميز به الإنسان بين الحق والباطل. ثم أخذ يقسم التعليم العام العقلي ثانياً إلى القوى السفلى كالمدركات الجزئية الوجدانية والحسية والذاكرة والحافظة، وإلى القوى العليا، وهي أولاً: استنتاج الكليات من الجزئيات، وثانياً: ترتيب القضية الكبرى على الصغرى. وثالثاً: إبراز النتيجة. وأنا أمثل لذلك بأن ننظر فنرى زيداً وخالداً وعمراً يتعلموا فانحطوا في أحوالهم الاجتماعية، وهكذا الأمم، فنقول: كل أمة نبذت التعليم ضعفت، وكل ضعيف يحتل أرض غيره، فتكون النتيجة أن الأمة التي تنبذ التعليم يستعبدها غيرها، فهاهنا ثلاث درجات استنتاج الكليات من الجزئيات، ثم ترتيب القضايا، ثم إظهار النتيجة.

ثم أفاد أن خير طريقة للبرهان إنّما هي التي تنحو نحو سبيل سقراط في جمهورية أفلاطون التي تقدم منها جمل كثيرة في هذا التفسير، وبهذا تم الكلام على الباب الثالث في التعليم العقلي.

الباب الرابع: في التعليم الأدبي العام

هذا التعليم يراد به أن يكون للفتى بصيرة يعرف بها ما هو حسن نافع وما هو قبيح ضار، فإذا كان التهذيب يدعو للعقاب الطبيعي والصناعي في المدرسة، فليكن بجانب ذلك أيضاً تعليمه الحقائق في أنفسها لتتربى فيه الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج، وقد ضرب لذلك مثلاً فقال:

كذب التلميذ يوماً عند معلمه أو أبيه، أو أحسن أعماله، فعاقبناه في الأول، وأنلناه الجوائز في الثاني، فهل ذلك يهذب أخلاقه؟ كلا. لأنه يكبر ولا خلق له، بل يعيش لحظ نفسه وحده، فأما إذا عومل بهيئة تدعو إلى الاستقلال وقيل له: إن هذا لا يجعل الناس يثقون بك؛ فإن ذلك يبعث في نفسه خلق الصدق بلا توقف على عقابه إن أساء أو إثابته إن أحسن، بل يكون ذلك من تلقاء نفسه. فعلى المربيين ألا يقفوا عند ثواب المدرسة والأبوين أو عقابهما. لا. بل يجب أن يقرن ذلك القانون المدرسي

الواجب التنفيذ بالقانون الأدبي الشريف العام، وهو الذي به يكون التلميذ إنساناً كاملاً كما شرحناه فهذا هو الذي به يميز التلميذ بين الحسن والقبيح، ويجب أن يقرن الثاني بالأول من ابتداء الحياة.

(١) ثم قال: الطاعة على قسمين: طاعة واجب تنفيذها بلا قيد ولا شرط، وطاعة مقيدة بظهور برهان أنها حق. فأما الأولى فهي طاعة الأستاذ، وأما الثانية فهو ما تدعو إليه نفس التلميذ بإرادته هو، وكلاهما لا بد منه لتهذيب الخلق.

(٢) القوانين يجب تنفيذها لا سيما في المدرسة بقوة وحرية بلا هوادة ولا استثناء، ولا يجوز للمعلم أن يبدي ميلاً ما لتلميذ أو تفضيلاً له، فإن ذلك لا يجعل القانون محترماً. فإذا رأى تلميذ ما أن القانون غير مطلق التنفيذ تمرد عليه وصار شكس الطباع.

(٣) يزعم قوم أن التلميذ يجب أن يعمل بمجرد رغبته هو من تلقاء نفسه بالمشوقات، وهذا قصور معيب، إن هناك واجبات مدرسية تلقى على عاتقه، ويعرف أن ذلك واجب عليه فلا بد من عمله بهيئة أنه واجب، بغض النظر عن رغبته هو، إن هذا حسن جداً للتلميذ، فإذا قام بهذا العبء صغيراً فما أسهل عليه أن يتحمل الواجبات المدنية التي يؤمر بها وهو كبير، ويجب أن نفهمه صغيراً.

(٤) كل ذنب يجب أن يتبعه عقاب، وهذا العقاب على ثلاثة أقسام: الأول: العقاب الأدبي، كأن نعامله معاملة جافة نوعاً ما، كأن ننظر إليه نظر احتقار إذا كذب. الثاني: العقاب الطبيعي السلبي، كأن تمنع عنه ما يطلبه مما يحبه، وهذا أيضاً ينحو نحو العقاب الأدبي. الثالث: العقاب بما يؤلمه. ولكن في هذا وحده يجب الاحتراس من أن نستذله فيعيش عبداً أمد الحياة.

(٥) يجب أن يكون العقاب مع الاحتراس من نتائجه النفسية. مثلاً: إذا عوقب التلميذ والمعاقب حنق عليه؛ فإن التلميذ يعتقد أن ذلك ليس إلا قضاء لبانة المعلم لمجرد إطفاء غضبه، فيجب إذن أولاً: ألا يظهر الغضب. ثانياً: يجب أن يفهمه أنه لا يريد إلا مصلحته هو.

(٦) إن هنا فارقة بين طاعة الصبي وطاعة الفتى. أما طاعة الصبي فهي عمياء. وأما طاعة الشاب فإنّما هي مبنية على شعوره هو وإحساسه بالواجب.

(٧) إن أساس الأخلاق إنّما هو الصدق، إن الرجل الكاذب لا خلق له.

(٨) على المربين أن يشجعوا الصبيان على اتخاذ الأصدقاء ليكون ذلك مسرة لهم وانشراحاً، وساعات المدرسة يجب أن يعقبها ساعات أخرى لاستنشاق النسيم وانشراح الصدر.

(٩) أزمان الشباب أصعب أيام الحياة وأكثرها اضطراباً، فنحن فيها تحت إشراق غيرنا، ولا قدرة لنا على الحرية في اختيار أصدقاء إلا نادراً.

(١٠) لا يعطى التلميذ من العلم إلا ما يواتي طبعه ويوافق مشربه، فليس من الحسن أن نجعل الحصرم زبيباً، أو أن يضع التلميذ نفسه فوق قدرها فيجب الاحتراس من ذلك.

خاتمة في التعليم العملي

هاهنا ثلاثة قوى في التعليم العملي لا بد من إبرازها: المهارة، والبصيرة، والقوة الأدبية. إننا نكون ماهرين في أعمالنا متى كانت معرفتنا للشيء معرفة تامة لا سطحية، ليس يحسن بنا أن ندعي

معرفة أمر ما لا نقدر فيما بعد على مزاولته بنجاح، هذه المهارة يجب أن تصبح خلقاً بسبب استكمالها وهذا الاستكمال يصبح بالتدريج عادة، إن هذا الكمال في المهارة هو العنصر الجوهري في تكوين أخلاق الرجل، فأما المهارة فقط فإن هي إلا موهبة، أما البصيرة فإننا بها نقدر أن نجعل غيرنا من أصدقائنا أن يساعدونا في مقاصدنا، وهذه المساعدة لا تنالها:

(١) إلا بحزم.

(٢) وبكتمان ما لا يجوز إفشاؤه من المقاصد.

(٣) وبأن نكون محترسين متحفظين، ويجب مع ذلك أن يعرف أخلاق الآخرين. وبالجملة إن مساعدة الغير لنا تلزمنا أن نضبط نفوسنا ونحكمها.

(٤) أما الأدب واللياقة وحسن التصرف فهو أهم آداب السلوك مع غيرنا، ويجب علينا أن نستمسك بهذا الخلق، ما أصعب أن ندرس أخلاق غيرنا، ولكن علينا أن نجدّ في ذلك من غير أن نفقد تحفظنا واحتراسنا، وعلى ذلك يجدر بنا أن يكون فينا بعض التظاهر. وبعبارة أخرى: يجب علينا أن نخفي عيوبنا وليس هذا غشاً حقيقياً، بل هو مباح جائز، وإن كان له سياج من عدم الإخلاص، إن التظاهر والرياء واسطة اضطرارية عنيفة، لكن حازمين، ولكن لا نضيع حسن طباعنا، ولا نصل بالحزم إلى درجة أننا لا نبالي بغيرنا، فالمرء يجب أن يكون شجاعاً ولكن بغير عنف شديد، أن ضبط الإنسان نفسه أول سلم للارتقاء إلى مقام تكوين الأخلاق الفاضلة.

(١) ثم قال: علينا أن نقوي في نفس التلميذ الملكة التي بها يساعد من أصابتهم نوائب الدهر، فتتخذ شفقته مهمازاً لذلك ولا نساعده على الانفعال ومشاركتهم في الأحزان.

(٢) لنتعلم قليلاً تعليماً تاماً، فذلك خير من أن نتعلم كثيراً تعليماً سطحياً ظاهرياً.

(٣) الأخلاق صورة لنهاية ما يقصد من التعليم، وهذه المقاصد تكون في الإنسان قوة الإرادة على العمل، ثم إبرازه للوجود على مقتضى تلك الإرادة المبنية على المقاصد العلمية القصوى.

(٤) إذا وضعنا أساساً للتعليم الأدبي للمتعلم وجب أن يوضع أمام عينيه دائماً واجباته إما بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال، وإما بالنصائح والقوانين والواجبات المذكورة إما لنفسه وإما لغيره، فواجبه نحو نفسه أن يكرم ويشرف إنسانيتها في شخصه هو، وواجبه نحو غيره أن يحترمه ويحفظ حقوقه، إن واجبات المرء نحو نفسه هي التي خير ما يعنى به تظهر ظهوراً أتم إذا ما فارق التلميذ زمن الصبا وصار شاباً.

(٥) إن من أهم ما يعين التلميذ على مراعاة حقوق غيره دراسة الدين.

(٦) على الأساتذة أن يمنعوا التلميذ من موازنة نفسه بغيره، بل يجب أن يشجعوهم على أن ينظروا فيما هم بسبيله، ويقوموا بما فرض عليهم بحسب طاقتهم هم أنفسهم.

(٧) الإنسان ليس شريراً ولا خيراً بطبعه، كلا. وإنّما عواطفه تميل به نحو أحدهما، ولكن العقل يميز بين الحق والباطل، فهو الذي يصرف النفس عن هواها إلى قانونه هو، فيصرفه عن الشر إلى الخير.

(٨) وهاهنا أخذ يشرح كيف يعلم الدين. هذا المقام قد كتبته في كتابي «التاج المرصع»، وملخصه أن الدين فيه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي يرجع إلى معرفة الله تعالى، وهذه المعرفة لا تتم إلا باستيعاب النظام العام في السماوات والأرض بحيث يدرك هذا النظام هناك، هناك يكون الحب والإعظام والخشوع. فأما العملي فذلك راجع للأخلاق والإخلاص له تعالى، وعلى القائمين بالتعليم أن يفهموا الطالب أن في قلبه سراً إلهياً ونوراً ربانياً، وهذه القوة إن لم تستثر بالتعليم ـ ليكون الإنسان واعظ من نفسه، بحيث يعرف أن المعصية في نفسها شر، والطاعة في نفسها خير فضلاً عن العقاب الأخروي ـ لم يكن للدين من أثر في النفوس، وفوق ذلك يجب أن يوجه كل ثناء أو دعاء في الصلاة إلى إعلاء همة الإنسان في أعماله، فإن لم يكن ذلك كانت الصلاة من أسباب موت البصيرة الخ. وهاهنا دهشت من هذه الآراء لأنها توافق قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤] الخ، وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون: ٤-٥]. فاقرأ هذا المقام مفصلاً في كتابنا «التاج المرصع».

ولقد زاد دهشي وحيرتي، إذ وازنت ما بين هذا القول وما بين أقوال كثير ممن تعلموا في جامعات أوروبا، فهؤلاء نشروا الإلحاد في الشرق بحجة أنهم فلاسفة، وكيف يصح لهم ذلك وهذا «كنت» تتبعه جميع أوروبا وأمريكا، فهاهو ذا يخشع لجلال الله تعالى، ويوصي بدراسة جميع العلوم لمعرفته تعالى، كما هو دأب كتابنا العزيز، وتفصيل هذا المقام في كتابنا «التاج المرصع» المذكور. اهـ.

ولما أتممت هذا المقام كله قال صاحبي: بقي سؤال واحد يرجع إلى ما تقدم في أول كلام «كنت»، إنه يقول: إن علينا ألا نكسر شوكة الصبي لا في البيت ولا في المدرسة، ونكون متوسطين معه عادلين، ولن يكون ذلك إلا بتقويم إرادته وتوجيهها إلى ما هو خير له، أي: كما نوجه الماء في مجراه إلى ما هو نافع ولا ندعه يجري من غير قانون فيضر بزرعنا. فأنا الآن أريد إيضاح هذا المقام من علم النفس الحديث، أي: الذي حدث بعد «كنت»، لأنه قد مضى عليه فوق مائة سنة. فقلت: نعم. أفيدك في ذلك بقول مختصر ليكون نموذجاً لعلم تربية الأطفال، فأقول: جاء في «أصول علم النفس وأثره في التربية والتعليم» تأليف الأستاذ العلامة أمين مرسي قنديل أستاذ علم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا بمصر من صفحة ١٥٨ وما بعدها ما ملخصه:

طائفة من الغرائز والميول الفطرية

الغرائز الشخصية، غرائز المحافظة على البقاء

إن أهم هذه الغرائز: (١) الخوف من الأعداء. (٢) الغضب والمقاتلة. (٣) النبذ والتقزز. (٤) الاقتناء والادخار. (٥) السيطرة والظهور. (٦) الانقياد والخضوع.

أما غريزة الخوف فإنها أول ظاهرة تبدو من الطفل. فقبل أن يبلغ ستة أسابيع من عمره تبدو عليه علائم الخوف والفزع متى سمع صوتاً شديداً. فيصرخ صرخات تدل على ذعره وخوفه. وتكمل تلك الغريزة في السنتين الثالثة والرابعة، وهناك يكون بعض الاستقلال بالنفس، فيتغذى بنفسه ويهرب مما يخيفه، ومظاهرها تأخذ في التضاؤل، وعلى قدر ازدياد الخبرة بما حولنا يزداد تضاؤل الخوف منه،

ولكن يبقى مع الإنسان من تلك الغريزة ما تقتضيه الحال الطبيعية للشاب والكهل والشيخ . والذي يثير الخوف كل ما يمكن أن يرى فيه الإنسان خطراً يهدده حقيقياً كان أو موهوماً ، كالأماكن المرتفعة ، والظلام ، والوحدة ، ولمس الفراء ، والغريب من الناس ، ومن كل ما يخرق العادة ، والطبيعة ، ومن نفس مظاهر الطبيعة كالرعد والبرق والريح العاصف ، والزلزال ، والمغاور والظلمة ، والحشرات والزواحف والحيوانات الكاسرة ، والأصوات الفجائية العالية . ونتائج الخوف : خفقان القلب ، وسرعة التنفس سرعة كبيرة وجفاف الريق وامتقاع اللون ، والعرق البارد إلى آخره ، ويزيد الخيال الإنسان آلافاً من الأخطار والمخاوف فتنتاب المرء يقظة ومناماً . هذا هو الخوف ، فما السبيل للاستفادة منه في التربية؟ يقول علماء هذا الفن : هناك طريقتان لتلك الاستفادة من الخوف :

الطريقة الأولى : طريقة الجهلاء ، وهي أن يستعملها الآباء والمدرسون بهيئة ضارة ، كأن يحملوهم على أداء المطلوب بالضرب أو نوع ما من أنواع الإيذاء ، فذلك يحدث في الطفل رذيلة الجبن ورذيلة التردد . ويجعل الصبيان لا يثقون بأنفسهم . بل قد يحدث فيهم أمراضاً عصبية ، فقد ثبت أن ربط حادثة ما بانفعال شديد نفساني ثم كتمها في اللاشعور مصدر كثير من الأمراض العصبية الغريبة في الإنسان . هذه هي الطريقة الأولى .

أما الطريقة الثانية : فهي طريقة التربية الحديثة ، وهي أن يستعمل الخوف استعمالاً علمياً ، فيخوفون الطفل من عمل القبيح لا من العقاب والتهديد . فيبين المربون لطفل العواقب الوخيمة للأعمال المزرية التي تصدر منه .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : ما أحسن العلم وما أجمله ، إن هذا تفصيل حسن وجميل ، فهانحن أولاء استفدنا نشوء تلك الغريزة وتدرجها وضعفها ، ثم استعمالها استعمالاً همجياً ، ثم كيفية الاستفادة منها استفادة شريفة . هذا هو الصراط المستقيم ، وبهذا عرفت مثالاً لتفصيل ما أجمله الأستاذ « كنت » الألماني . قال صاحبي : أرجو أن توضح بقية هذه الغرائز ، وهي الغضب والمقاتلة والنبذ والتقزز والاقتناء والسيطرة والانقياد ، فقلت : أيها الأخ إن فهم غريزة الغضب واستعمالها بقسميه يضيء لنا السبل لاستعمال بقية المذكورات ، وليس لي أن أطيل فيها ، لأن ذلك لا يليق بهذا الكتاب ، لأني إنّما أريد أن أدل على طرق العلوم في هذا التفسير لا أني أستوفيها فهذا محال . وعلى ذلك أختصر الكلام اختصاراً فأقول :

إن الغضب يشترك مع الخوف في أحوال ويخالفه في أحوال أخرى ، فكلاهما يغلب الروح والفكر على أمرهما ، فليس يقبل امرؤ نصيحة وهو مهتاج غضبه ، لأن غضبه استحوذ على قواه العاقلة فشغلت به ولم تتفرغ لسواه ، وهو دليل على ضعف قوة الإنسان على ضبط نفسه وحكمها ، ولذلك يكون ظهورها أتم في الصغار وفي أفراد الأمم البعيدة عن الحضارة ، فهي تبدو فيهم لأقل الأسباب .

هذه هي جهة الاشتراك بين الخوف والغضب . أما الأحوال اللاتي يختلفان فيها ، فمنها أن الخوف عام في كل حيوان ، ولكن غريزة المقاتلة التي يسببها الغضب عامة عموم غريزة الخوف ، وكيف تعم ونحن نرى بعض إناث الحيوان قلما يبدو عليها ميل إلى المقاتلة ولكنها عامة قوية في الإنسان .

ومنها أن الخوف يدفع إلى الهرب والاختفاء، والغضب يسوق المرء إلى الهجوم والدفاع عن النفس بالمخلب والناب.

كيف نستعمل غريزة الغضب في تقويم الطفل؟

لذلك طريقتان: الطريق الأولى: الهمجية، وهو أن يقابل الأبوان والمدرس الغضب بنظيره، وذلك يعرض الآباء والمدرسين لشيء من احتقارهم وعدم الشفقة عليهم.

الطريق الثاني: طريق الحكمة والعلم، وذلك بأن يقابل غضب التلاميذ بالهدوء وعدم الاكتراث، أو بترك المغضب وحده حتى تأخذ سورته حدها ثم تخبو، ويمنع ما غضب لأجله كما يفعل بالطفل إذا صرخ لأجل إرضاعه في غير وقته، فإذا عرف الطفل أن ذلك لا يفيده فكر في ضبط نفسه وكفها، وحسن من المدرس أن يذكر التلميذ السريع الغضب بعد هدوء سورته بأن ذلك يضر بمقامه بين إخوانه، ولم يسعفه ذلك بإنالته ما طلب.

كيف يستعمل تلك الغريزة في التربية؟

فعلى المدرسين والآباء أن يحولوا نيران الغضب من حالها الأولية إلى نيران شريفة عالية كالغضب للحق والقتال لنصر الضعيف وتأييد المبدأ. والمثابرة في الحصول على غاية بعيدة، وفي تأدية الواجب، وفي الدفاع عن الشرف والكرامة.

أما التقزز أو الاشمئزاز فهو انفعال نفساني فطري أولي يتجلى في نفور النفس من كل كريه مستقذر. فهو يشبه غريزة الخوف من جهة النفور، ولكنه يخالفها في أن الخائف يهرب مما خاف منه، والمشمئز يبعد عن نفسه عادة مصدر اشمئزازه، ككل طعام مر المذاق، وكل ما هو لزج زلق، أو هلامي لين، كالديدان والحيات والضفادع والفراء ونحوها، وقد بقيت هذه العادة في الإنسان من أيام أن كان يعيش في الغابات، ومن أعدائه الحيات وما يشبهها من الأشياء الهلامية المؤذية له، وهكذا كل نبات ذي طعم أو رائحة ضارة بالإنسان أو سامة له، ولقد بقي من تلك الغريزة في الإنسان الحاضر الاشمئزاز مثلاً من إنسان قذر الثياب والطعام، أو غير منتظم في أخلاقه أو كلامه.

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة؟

إن المدرس يستفيد من غريزة الاشمئزاز أن يصور عند تدريس التاريخ الأخلاق الفاسدة كالخيانة والخبث والدسائس وسوء السلوك بصور قبيحة تشمئز منها النفوس، حتى تثير هذه الغريزة وترتبط بانفعالها النفساني، حتى إذا ما عرضت للفتى نفر منها وقبحها، بل مج التفكر فيها.

أما غريزة حب الرئاسة والسيطرة، وغريزة الخضوع والانقياد يشبهان من بعض الوجوه غريزتي الغضب والخوف، بل الأوليان تثيران الأخريين، فحب السيطرة يثير الغضب، وغريزة الانقياد والخشوع تثير الخوف. إن غريزة السيطرة والنفوذ والحرية تظهر عند الطفل في مهده، فهو يقاومك إذا أردت تقييد رأيه، وعند الشاب القوي عضلاته، فإنه لا يكاد يتلقى أمراً من غير تذمر مضمر أو ظاهر. إن مقاومة الطفل لمن يريد تقييد حريته ومقاومة الشاب المذكورتين مظهران دفاعيان عن هذه الغريزة، وهناك مظاهر هجومية لهذه الغريزة، كأن يسعى الإنسان للتغلب على ما في بيته من الأشياء ويحيله إلى نفسه

ومثل أننا نرى الطفل يأمر الخدم وينهاهم، ومثل محاولة الصبي أن يكون غالباً سواه في ميدان اللعب بالمدرسة، ونرى من الصبيان من يحبون الزعامة والرئاسة أو الغلبة في الحديث وهكذا.

كيف يستفيد المرء من هذه الغريزة؟

إن كل عملية عقلية تقف في سبيل المرء أثناء قيامه بأي عمل ما تثير هذه الغريزة فتدفع المرء إلى إظهار قوته أو مهارته حتى يتغلب على هذه العقبة، فذلك الانفعال النفساني إذ ذاك نسميه تحمساً، أو عزماً، أو جهداً يدفعه إلى المثابرة على العمل.

أما غريزة الانقياد والخضوع فإنها هي الجهة السلبية لحب السيطرة والغلبة، وهاتان الغريزتان لكل منهما عمل خاص إذا لم تقم به اختل نظام الحياة على مقدار التقصير في ذلك القيام، فغريزة السيطرة إذا اشتدت وطاشت كان صاحبها صلب العود عنيداً لا ينكص أمام عقبة تقف في سبيله، وهذه سبيل بعض القادة والحكام وجميع الطغاة، فإذا ضعفت ومرضت استحالت إلى مشاغبة وتهويش وإيذاء.

وغريزة الخضوع إذا جاوزت الحد أضحى صاحبها ضعيفاً مطواعاً قليل الثقة بنفسه. إن المدرس الذي يطيع رؤساءه فيفعل ما يوجبه القانون والعرف، ومن جهة أخرى يسيطر على تلاميذه بحيث يرهبون جانبه مع عاطفة الحب له والميل؛ فإن هذا هو الذي ينطبق عليه اعتدال هاتين القوتين فيه. أما ذلك الذي يشك في مقدرته على التغلب على فصله، فإن تلاميذه يسعون للتغلب عليه وقهره وإخضاعه لأوامرهم، ومن أمثلة غريزة الخضوع العاطفة الدينية، إذ يقيس المرء ضعف نفسه بعظمة الله فيخشع لله كل الخشوع.

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة؟

واجب المدرس أن يراعي النسبة بين هاتين القوتين فيقود الأولى ويوجهها إلى جهة الخير ويحترس من إخمادها أو الوقوف في سبيلها من غير داع يقتضي كبحها، فتكرر كبحها يذل التلميذ ويحوله إلى جهات الشر والإفساد، وهكذا عليه أن يبعث في الطفل المطيع المتهيب الثقة بالنفس، ويحضه على الإقدام والثبات والمثابرة والتغلب على ما يقف في سبيله، وهذا هو معنى إيجاد التوازن بينهما.

وأما حب الادخار والاقتناء والتملك فإنها عامة في الحيوان والإنسان، فنراه في النمل والنحل والسنجاب والطيور، ونراها في الطفل في سنته الثالثة، وتقوى جداً بين السنة العاشرة والرابعة عشرة، ولا تترك شباناً ولا شيوخاً لا يعتريها ضعف مدة أمد الحياة.

وإذا رأينا الطفل يجد في جمع قطع الخرق البراقة وقطع الحديد وهكذا، ورأيناه يجمع أنواع الحشرات والزهر والفراش وبيض الطيور والحفريات المختلفة، فلنحمد له فعله فإن ذلك يبعث فيه: (١) الشوق للعلم. (٢) والتحمس له. (٣) والاهتمام به. (٤) وحب الطبيعة وتأملها. (٥) وطرق البحث والتنقيب والنظام والنظافة والدقة، ويكسب التلاميذ معلومات كثيرة في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي والفنون الجميلة، وبذلك تكون الدراسة في المدرسة حية لأنها تمس ما هم يهتمون بجمعه

فضلاً عن الترقي الخلقي والجثماني، والاعتماد على النفس، والمثابرة والصبر والتريض في الهواء الطلق، وصرف وقت الفراغ فيما يفيد بدل إضاعته سدى أو فيما يضر.

وعلى رجال التعليم أن يمكنوا التلميذ من تملك ما عمله في المدرسة من الأعمال اليدوية، ففي ذلك تشجيع لهم واستثارة لهممهم. وعلى المدرسين أن يوجهوا ما فضل من هذه القوة إلى تملك الفضائل والشرف والعلم وإحراز قصب السبق في ميدان المسابقات الإنسانية، حتى يصرف التلميذ قوته إذا اشتغل بأعماله في إسعاد أمته والإنسانية جمعاء، إذا قدر على ذلك فهذا هو الملك الحقيقي الجدير بالادخار. انتهى.

فلما سمع صاحبي هذا قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، لقد أوضحت هذا المقام إيضاحاً كافياً في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ٣-٥]. ولكني أريد أن سؤالاً عاماً في هذا المقام. فقلت: سل ما تشاء. فقال: لماذا اخترت موضوع التربية في هذا المقام؟ فقلت: لأن هذه الآية في أول سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمره الله فيها بالقراءة، وذكر فيها أنه تعالى علّم الإنسان ما لم يعلم، فلا سورة ولا آية أنسب لتربية الأطفال في المنازل والمدارس من هذه السورة وهذه الآية، فشرح الله صدري لهذا الموضوع هنا. فقال: حسن والله، ولكني الآن أجد في نفسي أسفاً وحزناً على أمتنا الإسلامية، كيف يسبقنا الفرنجة في هذه العلوم، لا سيما هذا العلم الذي هو أهمها، فهلا كتبت لأمم الإسلام وملوكهم تحضهم على ذلك؟ فقلت: حياك الله وبياك، إن الكتب التي نشرتها من قبل هذا التفسير كلها كتب منشورة في جميع بلاد الإسلام.

وفوق ذلك كانت رسائل بيني وبين العرب والعجم، فأما رسائل العرب فمنها خطابان أحدهما: لملك نجد والحجاز عبد العزيز بن سعود، لما منع العلماء نشر التفسير في تلك الأقطار. وثانيهما: لصديقنا يحيى حميد الدين إمام اليمن، لما توفي «سيف الإسلام» نجله الذي كان بيني وبينه صداقة علمية أوجبت أن يأخذ بيد الأمة في تعليمها، وهما مرتبتان ترتيباً تاريخياً، ومنها خطابان لنفس الأمم الإسلامية: أحدهما: رسالة وجهتها لبلاد الملايو وبلاد جاوة وسومطرة وجميع جزائر الهند الشرقية، وهؤلاء أقلهم عرب وأكثرهم من أهل البلاد، وقد تقدم قريباً، وثانيهما: خطاب لأهل شمال أفريقيا، وهذا سنلخصه قريباً.

وأما رسائل العجم فهي كثيرة، وأخيراً وصل إلي خطابان سنة ١٣٥١ هجرية من علمائهم: أحدهما من مدينة قم، وثانيهما من مدينة تبريز. وهاك إيضاح ما تقدم كله. فأما خطابي لملك نجد والحجاز فهاك نصه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من طنطاوي جوهري إلى عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز

السلام عليكم ورحمة الله. أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وآله وأقول:

إن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى حياة العلم وإتقان العمل، ولقد عاهدت الله منذ نعومة أظفاري لئن عرفت داء هذه الأمة ودواءها لأؤلفن كتباً تكشف الغطاء عن أعين الغافلين، وتساعد الأمراء المجدين، والملوك المخلصين، وتسعدهم في الدنيا والدين، وتحمل الأمم على اتباعهم فيما يأمرون به من العلوم الكونية والصناعات الإنسانية التي أجمع العلماء على أنها فروض كفايات، وتنير السبل لمن نشبت بهم أظفار المستعمرين، فلا عطر بعد عروس ولا مخبأ بعد بوس. وقد حم الأمر ولم يبق في القوس منزع. وجاوز الحزام الطبيين، وبلغ السيل الزبى، وهاأنا ذا اليوم في العقد السابع من حياتي التي صرفتها فيما عاهدت الله عليه من تأليف الكتب، ومنها «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» الذي فيه اتضح اتفاق العلم والدين، وقد سرى في الأمم الإسلامية العرب والعجم، واستأذن في ترجمته أهل البوسنة والهرسك في البلاد النمساوية، كما انتشر في بلاد جاوة وسومطرة والهند والعراق وفارس، وعند إخواننا العرب باليمن ومراكش وما والاها إلى طرابلس، ولقد أجمعوا أنه يساعد المسلمين على مجاراة الأمم المحيطة بهم، بل هم إذا ساروا على هذا السنن سيكونون أعلى في العلوم كعباً وأشرف منزلة من الأمم أجمعين، إذ يصبح العلم العصري من واجبات الدين. لقد أثبت التاريخ أن الأمم كلما كانت أقرب إلى البداوة كانت إلى الرقي أسرع، وللعلم أحفظ، وللملك أضبط، وعلى العكس من ذلك، كلما كانت في الترف منعمة، وفي لذائذ العيش منغمسة، تكون خائرة العزيمة، مقصية عن الطرق القويمة، كما جاء في مقدمة ابن خلدون صفحة ٨٤:

فصل: في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم. وفي صفحة ٧٤ ما نصه: فصل: في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر. وأيضاً: إن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها. وفي صفحة ٧٥ فصل: في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر. ولما أن نهض إخواننا النجديون والحجازيون تحت رايتكم وهم يدعون إلى ما أدعو إليه من سنن السلف الصالح قلت: هذا نصر من الله وفتح مبين، إن هؤلاء يكونون أسرع المسلمين إلى ما نشرته، ولكن أخبرني بعض القادمين أنه صده عن دخول الديار المقدسة بعض الذين عهد إليهم رقابة الكتب الداخلة في البلاد، وأكد لي ذلك أحد أبنائنا الشيخ محمد الغزالي الذي كان مدرساً بالحرم للتفسير، وقال: إنه سأل المانعين عن السبب، فاحتجوا بما فيه من العلوم الكونية المفسرة للآيات القرآنية.

أقول: ولا جرم أن هذه العلوم هي التي تنقص المسلمين اليوم، ووجوبها أجمع عليه جميع علماء الإسلام، أليس من المخجل أن تكون جميع العلوم والصناعات فروض كفايات مثل علم الفقه سواء بسواء وإن امتاز عليها ثم يتجاهلها المسلمون. وبها ارتقت الأمم أجمعون. ألم يجمع علماء الأصول على أن فروض الكفايات إذا تركت كان جميع المسلمين آثمين؟ وهذه الفروض العلمية والعملية هي التي صنفت لها هذا التفسير وفرح به المسلمون، وقد بذلت جهدي فيما أهملوه في القرون المتأخرة، حتى جاء بحمد الله خالصاً سائغاً للشاربين. لقد وجدت في كتاب الله ٧٥٠ آية في علوم الكائنات وشرحتها في التفسير، فأنا أحاج مراقبي الكتب أمامك أيها الملك الجليل وأمام العلماء بحضرتك وأمام الله يوم القيامة، واقرأ: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١].

وأقول: هل المقتضى يكون مانعاً؟ وهل من يساعد الملوك على نهضة أممهم، ويحث المسلمين على أن يخرجوا من إثمهم في فروض الكفايات، ويجعل في نفوسهم شوقاً إلى ربهم وحباً له وطاعة بما يرون من عجائب صنعه يقال له:

رأيك في الكن لا في الضح أطرق كرا إن النعامة في القرى

ثم أقول: أيها المراقبون. بأي كتاب أم بأية سنة، يدخل تفسيري للقرآن جميع أقطار الإسلام شرقاً وغرباً، وأكثرهم في قبضة المستعمرين من غير ديننا، وتوصد الأبواب دونه في الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز ونجد، وتصدون عن قراءته عموم المملكة السعودية وحجاج بيت الله الحرام من سائر الأقطار، مع أنهم يقرؤونه في بلادهم، أليس أهل نجد والحجاز أمس بنا رحماً وأقرب منا نسباً؟ أفليس هذا الضد إذا لم يكن بدليل يكون تقطيعاً للأرحام؟ أليست هذه العلوم هي التي أوجبها القرآن في آخر سورة «التوبة»؟ أوَليست تراث أجدادنا الفاتحين؟ أفلا يحق لنا أن نقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا ونحمد الله عليها لا أن نقصيها عن بلادنا ونبخسها حقها كما فعل بعض ملوك المرابطين والموحدين ببلاد الغرب وبعض ملوك الشرق، فكل هؤلاء حقر العلم في زمانهم واكتفوا بالقشور، ونفي ابن رشد في زمانهم، وخالفوا سلفهم الصالح، وطاحت علوم المسلمين فاستقبلتها أوروبا.

أجمع المؤرخون أن تلاميذ ابن رشد لما منع العلم بالأندلس انتشروا في أوروبا وترجموها بلغاتهم فكانت هذه النهضة، وأن «سلستر الثاني» بابا روما أدخل سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنجة العلوم الرياضية التي تعلمها من أسلافنا العرب بأسبانيا.

إلى هنا لم نجد نص بقية الخطاب عند الطبع، فسألنا المؤلف عن معنى بقيته، فقال: إني قلت: إن ملك نجد والحجاز قد منحه الله قوة بها أمن الناس من المخاوف في طريق الحج، ولكنه لم يؤمن طريق العلم من المخاوف لطالبيه، وطلبت أن أجتمع بعلماء نجد والحجاز ليكون الحكم للحجة والبرهان، وختمت الخطاب بالتسليم عليه، وقد كتب ذلك كله في جريدة الأهرام في حينه.

أما خطاب صاحب الجلالة إمام اليمن فهذا نصه:

إلى صاحب الجلالة إمام اليمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على رسول الله وآله وأقول:

اجتمع اليوم لفيف من أهل الفضل من أقطار مختلفة، فجاء ذكر الإصلاح في اليمن، فأخذ الشيخ محمد سالم باوزير اليمني من أهالي الفيل بالأزهر الشريف والشيخ محمد بن سلم من علماء الأزهر من بلاد الشحر يقصان على الحاضرين قصص أخبار اليمن، وكيف كان الإصلاح الذي قام به المرحوم محمد سيف الإسلام سريع الخطا قوياً متيناً، وما تلا ذلك من اقتفاء أخيه سيف الإسلام الحسين أثره في ذلك وسيره على نهجه بإرشاد جلالتكم في تهامة، وأن البعثة التي أزمع الأول رحمه الله على إرسالها إلى مصر قد بشرت بوادرها بما يثلج الصدور، ويبعث في النفس السرور، وذلك

بنجاح التلميذين اللذين يدرسان اليوم بالأزهر الشريف وهما: السيد يحيى زبارة، ومحمد أحمد الوشلي، فلقد قرت بهما أعين الأمير محمد سيف الإسلام، وأزمع أن يرسل بعثة مؤلفة من خمسين تلميذاً إلى مصر، وهنا أقول: أنا وإن كنت أعلم من هذا الحديث أن جلالتكم أمرتم أن ينهج الأمير حسين نهج المرحوم أخيه في الإصلاح ومنه هذه البعثة؛ فإني بما لي من العلاقة الخاصة بالمرحوم صديقي الأمير محمد سيف الإسلام، وما كان من الصلة الودية بيني وبينه على يد صديقي الجليل السيد محمد زبارة أمير القصر السعيد؛ لم أجد لي مندوحة في ذلك المجلس من أن أبدي عواطفي نحو ذلك الإصلاح المنشود، وأتمنى أن تقر عيني قريباً بإتمام ما ابتدأه صديقي المرحوم محمد سيف الإسلام.

ثم قلت: وليس ذلك فحسب، بل إني أود أن يعم هذا الإصلاح على هذا النمط جميع بلاد اليمن حالاً قاصيها ودانيها، لم لا؟ ألم يجمع علماء الإسلام قاطبة في علم الأصول على أن جميع العلوم التي نحتاج إليها بحسب الزمان والمكان واجبة وجوباً كفائياً، ألم يقل علماؤنا منذ ألف سنة: إن هذه العلوم والصناعات إذا تركت كان العقاب عاماً، فهي كلها واجبة سواء في ذلك الوجوب أدناها كالكناسة والزبالة، أو أوسطها كالبناء والزراعة والنجارة والحدادة، أو أعلاها كالسياسة وعلم الفقه، إن الزبالة والكناسة فرض كفاية كالبناء والسياسة، وإمام اليمن أمام العلماء ـ حفظه الله ـ إمام العلماء. وهو بذلك جد عليم، وهو أعلم العلماء بأن أكبر ذنب في ترك فروض الكفاية منوط بالقادة ورجال الرأي وعظماء الأمم، بل قال جماعة منهم «إمام الحرمين»: إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لأن فاعله يدفع به الحرج عن الباقين.

ومما قالوه في المجلس: إن ولي العهد الأمير أحمد سيف الإسلام لما حل به المرض لوفاة شقيقه لم يكن له طبيب إلا من عدن أرسل له بالطيارة، وأنا أقول بأعلى صوتي: أين فروض الكفاية يا علماء الإسلام؟ وأين عهد آبائنا الكرام؟ وأين علومهم ومعارفهم التي نشروها قبل مئات السنين؟ هنالك قال بعض الحاضرين وهو من اليمن أيضاً: إن الإمام حفظه الله يخشى أن تدنس المدينة الحاضرة تلك النفوس الثمينة الطاهرة، فلذلك هو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. فأجبته وقلت له: هذا عذر مقبول، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

إن كل أمة أصبح حكامها من المترفين المنغمسين في الشهوات لا بد من سقوطها في يد الأعداء. إن اضمحلال الأمم يحصل بأحد أمرين: إما بالجهل وإما بالفسق، ويشير للثاني ما جاء في قوم ثمود إذ قال الله فيهم: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ [فصلت: ١٧]. ولكن نقول: هل كل من تعلم في أمم الإسلام يصبح فاسقاً؟ كلا. ثم كلا. هاهو ذا المرحوم محمد علي باشا الكبير لما أرسل الشبان الأذكياء من الأزهر الشريف إلى فرنسا لم يتركهم سبهللاً، بل أرسل معهم قوامين عليهم يحافظون على دينهم وعوائدهم، فلذلك نجح نجاحاً باهراً في مدة وجيزة، وبلغت مصر أوج العلا إذ ذاك، وقد قرأنا في تاريخهم أن التلاميذ أمروا أن يرسلوا كل أسبوع ملخصات دروسهم لأبيهم محمد علي، وكان إذا علم بنشاطهم وجدهم يرسل لهم خطاباً

يسمونه باسم فاكهة، فيكتب الخطاب بعنوان تفاحة مثلاً فيه ثناء عليهم وظهور الفرح منه، فيفرحون ويجدون. هؤلاء كانوا أشرف رجال في الشرق إذ ذاك، بماذا؟ بالمحافظة على دينهم وعوائدهم، وقد ذهب ذلك الجيل الجليل، وذهب معه جلاله وجماله ورونقه وعزته القعساء.

ولست أقول: إن جلالة الإمام يحيى يخطو نفس خطوات المغفور له محمد علي باشا. كلا. فلكل وجهة هو موليها، وهو أعلم بالمثل الأعلى الذي يتبعه، ولكن أقول: حم الأمر، وبلغ السيل الزبى، ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[النجم: ٥٧-٥٨]، لم يبق لأهل الجزيرة وملوكها جميعاً وأمرائها حجة.

لا عذر لكم يا أبناء العم، هاهو ذا دين الإسلام، وهاهي ذه آراء علماء الإسلام التي أجمعوا عليها والإجماع حجة. أقول بأعلى صوتي: لا بد من قراءة جميع العلوم ومعرفة جميع الصناعات، فليصرف الأمراء والملوك آخر درهم في الدولة. ثم قلت: من لي بأن أخاطب جميع أمراء نجد والحجاز وحضرموت والشحر وعمان وجميع إمارات الجزيرة. أقول وأقول: يحرم الانتظار. إن إرسال البعوث يجب أن يبتدئ حالاً على شريطة أن يكون مع التلاميذ رجال من نفس بلادهم ذوو صلاح وذكاء وخبرة، ليحافظوا عليهم في بلاد دخلتها المدنية كمصر، فوالله ليس شباب مصر أيام محمد علي باشا بأوفر إيماناً وصلاحاً من شباب اليمن اليوم. ولا مصر أكثر مدنية وترفاً من باريس. ليست اليمن بالأمة التي تستضر بالعلم، إن أبناء الشرق يتبعون في سيرهم أمراءهم وملوكهم. فأنا لا أخاف على اليمن، ولا على جميع إمارات الجزيرة من السقوط في مهواة الفسق والضلال. يجب أن يكون إرسال البعوث لجميع العلوم والصناعات التي لا تبقي ولا تذر دفعة واحدة. لا فرق بين طب وزراعة وتجارة وسياسة وجميع ما يلزم للحياة من الإبرة إلى المدفع، ومن الحجر الصلد إلى المغناطيس والكهرباء. ومن القطار وسفن البحار إلى الراديو. كل ذلك أصبح واجباً لا مفر منه.

فلما أتممت مقالتي والكل مصغون إلي قال العلامة الجهبذ صاحب الفضيلة السيد عبد القادر ابن محسن العطاس العلوي مفتي «جهور» بالملايو: إن هذا المقال جامع مانع، وأنا أرى أن ترسله إلى جلالة الإمام يحيى حميد الدين. وإذا كان ذلك في الصحف السيارة يكون أبلغ، فأمن الجميع على كلامه فلم يسعني إلا أن أنشر هذا الخطاب في جريدة «الجهاد» ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين. اهـ.

أما خطابي لأهل المغرب فقد ضاق بنا المقام عن إيراده هنا، عسى أن أكتبه بنصه وفصه في الملحق، ولكن ألخصه هنا للفائدة فأقول: إن هذا الخطاب أرسلته ليتناولوه بخط اليد سنة ١٣٥٠ هـ، وقد كتبته يوم الجمعة ٦ شوال سنة ١٣٥٠ هـ، ونقله بعض فضلاء المغاربة ليلة الأربعاء ١٨ شوال سنة ١٣٥٠هـ، هذا الخطاب يتضمن:

(١) أن رحمة الله واسعة، ومنها استمدت الأمهات من السوائم والإنسان رحماتها.

(٢) وهو يجعل بعد العسر يسراً.

(٣) ويجعل لكل داء دواء.

(٤) ولكل خطأ في طعام أو شراب أو نظام مملكة عقاباً في نفس الحياة.

(٥) والدول الظالمة لا فرق بينها وبين السكير والمعربد والمسرف في ماله، فكل هؤلاء سريعو العطب والهلاك.

(٦) إن ملوك فرنسا قديماً ظلموا هذه الأمة، فهي نفسها أذاقت بعضهم سوء العذاب فأهلكتهم كما يهلك السكير والمسرف. وهكذا إنكلترا مع بعض ملوكها.

(٧) وإذا كانت القاعدة واحدة ونظام الله واحد فإن كل أمة من أوروبا تظلم أمة شرقية في أفريقيا أو في آسيا، فمما لا شك فيه أن هذه الأمم المظلومة الشرقية العظيمة القدر، الشريفة المحتد، العريقة النسب، ستهلك تلك الأمة الظالمة جزاء وفاقاً، كما فعلت ألمانيا مع بعض أمرائها في القرن التاسع عشر، وكما فعلت فرنسا مع لويس السادس عشر في القرن الثامن عشر، وكما فعلت إنكلترا في القرن السابع عشر مع بعض ملوكها، وكما نرى السكير ذليلاً في آخر أيامه حزيناً. وقال الله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢].

(٨) وهنا نداء عام لأهل شمال أفريقيا، ملخصه أنهم أبناء رجال أخرجوا الإنسانية من الظلمات إلى النور. فليجدوا وليعلموا أن الله نصير المظلومين.

(٩) وهنا تذكيرهم بأنواع العلوم التي يقرؤونها، وإنفاق الأموال في سبيل ذلك.

(١٠) وتأكيد ذلك بكلام خطابي.

(١١) وتبيان أن عثمان رضي الله عنه أنفق مالاً كثيراً. وكذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

(١٢) وهنا تذكرة لأهل شمال أفريقيا خاصة، ملخصها أن قرطاجنة في شمال أفريقيا كانت هي الشوكة التي تشوك دولة روما بإيطاليا قبل الميلاد. وكان سكانها سبعمائة ألف، فأراد الرومان القضاء عليها فحاربوها سنة ٢٦٤ ق. م. وكان قائد القرطاجيين «أنيبال»، فهاجم روما بإيطاليا وهزم جيش الرومان المعتدي وأحاط بروما. ولكن هجم الشتاء فمنعه، فماذا حصل بعد ذلك، سلط الله على عسكر «أنيبال» نار الشهوات بعد ذلك النصر، فأكبوا على اللذات والشهوات، فلما ولى الشتاء هجم الروم عليهم فمزقوهم شر ممزق، وفر أميرهم، هنالك زحفت روما على قرطاجنة فخربتها سنة ١٤٩ ق. م إذن لا يكسر شوكة الشرقي إلا شهواته، ولا عدو لأهل الشرق إلا نفوسهم، وبعد ذلك القرن بثمان قرون وقد أسلم أهل شمال أفريقيا وبالإسلام اتحدوا وكروا كرة أخرى على أوروبا فاخترقوا أسبانيا، فماذا حصل؟ أصابهم داء الشهوات فتخاذلوا أيضاً بعد وفشلوا. فأخرجهم من الأندلس الملك «فرديناند» وزوجته «إيزابلا» وطردوهم إلى شمال أفريقيا ثانياً كما فعلت روما بهم من قبل، إذن لا داء لأهل شمال أفريقيا وجميع المسلمين إلا الشهوات، فهي التي طردتهم من روما أولاً، وهي التي طردت المسلمين وهم الجزء المهم منهم بعد ثمانية قرون من احتلال بلاد أسبانيا بالأندلس، والله يقول: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ

أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾[الإسراء: ٤-٨] وهناك قواعد للاستقلال الذاتي، وكيف يحفظ الملك إلى آخره. وعسى أن أكتب نفس الخطاب في ملحق هذا التفسير إن شاء الله تعالى.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه حديقة علمية تفرح القلب وتشرح الصدر، فهل تزيد سرورنا بما يناسب ذلك مما يرد عليك؟ فقلت: هذا أمر يطول شرحه. فقال: هذا يوم له ما بعده، فقل ما وصل إليك مع الإيجاز. فقلت: مما ورد إلي خطابان في سنة ١٣٥١هـ، أولهما من العلامة عبد الحسين زين الدين القمي الأستاذ بالجامعة العلمية بقم. « قم إيران » المدرسة الناصرية، وهو مكتوب في كتابي « التاج المرصع »، وملخصه أن العلامة المذكور قد طلب منه الأئمة المجتهدون والعلماء أن يرسل لي خطاباً للشكر على نشر التفسير ـ ولا شكر على واجب ـ وأنه قام بذلك بالنيابة عنهم وعن نفسه، وطلبوا أن أكون واسطة في تسهيل وصول الكتاب إلى بلادهم، فسارعت إلى مقابلة الوزير المفوض لدولة إيران بمصر. فأجاب طلبي وقرر أنه سيعمل كل جهده في إزالة الحواجز التجارية لوصول الكتاب. وكل هذا مشروح في آخر كتابي « التاج المرصع ». وثاني الخطابين من « تبريز » بالدولة الإيرانية أيضاً، وملخصه يرجع إلى أنهم ترجموا تفسير « الفاتحة » وخطب بها أعظم خطيب في المسجد الجامع هناك في رمضان سنة ١٣٥١هـ، وهو مرسل من العلامة هاشم منصور تقي زاده.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: حمداً حمداً وشكراً لله تعالى، العجم والعرب وبلاد الملايو والحجاز واليمن كل هذه تكون بينك وبينهم المواصلات في نفس هذه الحياة، إن هذا لهو الفضل المبين، فاقرأ: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل: ٤٠]، فقرأتها وقلت: الحمد لله. انتهى تفسير سورة « العلق »، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة القدر
هي مكية
آياتها ٥ ، نزلت بعد سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤ ﴾

مقدمة

هذه السورة فيها أن القرآن ابتدأ الله إنزاله في ليلة القدر. ثم تتابع نزوله منجماً في ثلاث وعشرين سنة، فهذه الليلة التي هي مبتدأ نزول القرآن خير من ألف شهر، أي: خير من زمن كثير جداً. فهذا التعبير كذكر سبعين في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[التوبة: ٨٠] وإنّما فضلت الزمان الكثير لأن طول الحياة لا قيمة له إذا لم يتبعه الكمال، والكمال إنّما يكون بالحكمة والعلم اللذين بهما يوحى إلى الأنبياء ويليهم الصديقون الخ. والموحي والملهم هم الملائكة، والملائكة لهم عملان: عمل في نظام العالم وأحكامه بأمر ربهم، وعمل أعلى. وهو أنهم يتنزلون بأمر ربهم ليعلموا العباد. والملائكة في تلك الليلة يكون لهم عمل أعظم مجهول للناس، وليس لهم به علم إلا ما جاء في الشريعة والأحاديث الصحيحة. وتلك الليلة كلها سلامة وأمان. أو أن الملائكة يكثرون السلام على المؤمنين خصوصاً الصالحين وأهل الطاعة، والذين في المساجد من حين غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر. وأعم الأقوال في تلك الليلة أنها مجهولة ليجد الإنسان في جميع حياته، فلقد تكون ليلة غير معلومة للناس يفتح فيها على امرئ. وغيره غافل. وجهل هذه الليلة نعمة كجهل نهاية العمر وجهل يوم القيامة. كل ذلك نعمة من الله على العباد. والمقصود من هذا الاجتهاد.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أي: ابتدأنا نزوله فيها، ويقال: إنه نزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ومعنى ليلة القدر: ليلة الشرف، لشرفها على سائر الليالي، أو الضيق، لأنها هي الليلة التي تضيق الأرض بالملائكة النازلين فيها. ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ أي: لم تبلغ درايتك درجتها وفضلها، وبين ذلك فقال: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ليس فيها ليلة القدر، وذلك لتنزل الملائكة والروح فيها. وفصل كل أمر حكيم. وروي في تخصيص هذه المدة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون وتقاصرت إليهم هممهم، فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي. ﴿ تَنَزَّلُ

﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إلى الأرض ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي: والرحمة، أو: خلق من الملائكة لا نراهم. أو: جبريل، ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله في تلك السنة. وهاهنا وقف، وقوله: ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ﴾ أي: ما هي إلا سلامة، أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة، أو أن الملائكة يسلمون على المؤمنين فيها بكثرة كما تقدم، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: إلى وقت طلوع الفجر، فهؤلاء الملائكة لا يسلمون على الكفار. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفتان إحداهما عملية والأخرى علمية:

ولنبدأ بالعملية لأن الأحاديث الصحيحة كثيرة فيها:

اللطيفة الأولى: في العمل

قد جاء في أحاديث البخاري ومسلم: «أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ويحيي الليل ويوقظ أهله ويجد ويشد المئزر». ولمسلم: «أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره». وأيضاً جاء في روايتهما: «أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه بعده». وفي روايتهما أيضاً: «أنه اعتكف العشر الأواسط من رمضان أيضاً». وأنه كان يقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» وفي رواية مسلم: «أنه صلى الله عليه وسلم قال: أريت ليلة القدر فأيقظني بعض أهلي فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان». وفي بعض الأحاديث ما يشير إلى أنها في الوتر من العشر الأخير من رمضان مثل ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٢٧ وهكذا، والله أعلم.

والمهم في هذا أن تنظر إلى نتيجته، فليس للعلم قيمة إلا بالعمل، وإذا مرت هذه السورة على المسلم وهو يتخبط في الأقوال ولا يدري ما يفعل، وما المقصود والنتائج من هذا كله؛ فنقول: النتائج ظاهرة، ذلك هو الجد والاجتهاد في العبادة والإخلاص طول الحياة. فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعين الوقت، والعلماء اختلفوا والله ربهما. فماذا يراد بهذا؟ يراد أن نجعل الحياة كلها جهاداً عسى أن ننال تلك الليلة، ومتى ظفرنا بها كانت السعادة العظمى فلا شقاء بعدها. وأفضل الأوقات للعبادات شهر رمضان تجوع فيخلو البطن فيصحو العقل فيخف الثقل عن النفس فتستعد لقبول الأفكار اللطيفة عن الملائكة. ولتعلم أن جميع العلوم والآراء الشريفة من عالم الملائكة المحيطين بنا. فإذا كان الحيوانات الوبائية والجراثيم المعدية قد أحاطت بنا للإضرار والهواء والنور والماء أحاطت للإصلاح؛ فهكذا هناك عالمان: عالم كالماء والهواء لإفاضة العلوم، وعالم كالجراثيم المعدية لإفاضة الشر وهم الشياطين، فهذا العالم المسمى ملائكة لا يتسنى له أن يلقننا الإلهام الجميل إلا عند صفاء نفوسنا، وأي صفاء ألطف من صفاء شهر رمضان، فهذا هو السر في التماسها في العشر الأواخر.

ثم إن الاعتكاف في هذا الشهر يقصد منه الخلوص من هموم الدنيا وأحوالها وشهواتها. ولذلك تجد في شروط المعتكف ألا يقرب النساء. كل ذلك ليشاكل العالم الروحي. فتستعد نفسه للفيض فيفاض عليه العلم والأخلاق الجميلة كما يفاض الري من الماء. والمرض من الجراثيم المعدية، وفي هذه الأحاديث ما يفيدنا أن التورع والتنحي عن هذه الشهوات والإكباب على العبادة والذكر؛

يعطي النفوس قوة لا يعرفها الناس، وكلما كان الإنسان أصفى ذهناً وأقل عوائق كانت نفسه إلى ذلك العالم أقرب. اهـ.

اللطيفة الثانية: في العلم

اعلم أن الله أنزل القرآن في شهر رمضان كما في سورة «البقرة»، وفي هذه السورة أنه أنزل في ليلة القدر، فهذا دليل أن القرآن أنزل في ليلة القدر التي كانت في رمضان، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حراء، وهو لم ينزل عليه الوحي إلا بعد ما كملت نفسه وقويت روحه، وإلا فكيف يقابل العالم الجسماني العالم الروحاني ولا مناسبة بينهما، فلا زالت نفسه تصفو وعقله يرتقي حتى ناسب عالم الملائكة، فابتدأ نزول القرآن وعالم الملائكة ليس بعيداً عنا، فهو كعالم الهواء بل هو ألطف، فيكون ألزم، ولكننا نحن محجوبون عنه كما حجب الجهال عن علم العلماء، وحجبت الطيور والأنعام عن علم الإنسان، وذلك لعدم المناسبة، فالمدار في العلوم على المناسبة والمشاكلة، ففي الليلة التي تناهى كماله فيها تنزلت الملائكة عليه وأدرك سر هذا الوجود. وهذه هي السعادة، وأي سعادة أكثر من أن يكون الإنسان قد وصل إلى منتهى ما يصل إليه الواصلون بإفاضة الخير وهو العلم على نوع الإنسان. وبإدراك الآخرة والأولى وسرهما، وليست السعادة ما يظنه الجهال أنه يدعو الله بالمال والغنى فيعطيه، فهذا نظر قصير، فقد جاء في السور السابقة أن الغنى ليس دليلاً على رضاء الله، ولا الفقر دليلاً على غضب الله. فليكن مطلب المرء إذن هو ما قاله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لما قالت: «يا رسول الله، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو كريم حب العفو فاعف عني» أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، فهذا الحديث يرمي إلى أن المقام مقام ارتقاء الروح، فلا مناسبة بين نزول الملائكة وبين اتساع الرزق، فالرزق واتساعه ربما أضاع فرصة القرب من الملائكة فلا يلهم، فليجد الإنسان في صفاء نفسه وفي الذكر والفكر عسى أن يقترب من عالم الحكمة.

موعظة وحكمة

هاأنت ذا عرفت أن ليلة القدر فيها نزل القرآن، وذلك بعد كمال من أنزل عليه القرآن، فمن الآن خذ في الحكمة والعلم وصفاء النفس، ومتى تم كمالك صرت من العالم الروحي مناسباً للملائكة. ومتى نلت ذلك فهناك خلصت من عالم المادة وإن كنت فيه، فتلك ليلة لا نظير لها خير من جميع الدهر لا من ألف شهر، فاسأل الله كمال النفس فيها تلهم إلهاماً صحيحاً لا خيالياً، وذلك بالعلم والصلاح معاً. ومتى تم ذلك أفيضت عليك العلوم على حسب مقامك ومركزك في الاجتهاد والاستعداد، ومتى عرف الحقيقة الإنسان فهي نفس السعادة، لأنها تجعله راضياً عن ربه وعن الوجود، فالسورة للجد في العبادة عسى أن ينال المجد العلم، والعلم بحقيقة هذا الوجود سعادة قصوى، فإذا قدرت أن تجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتك فتصل إلى صفاء الذهن وصقل العقل والتحلي بالعلم لتفيض على الناس وأنت مطمئن القلب فافعل، فالملائكة إن لم تتنزل عليك عياناً فقد أنزلت على قلبك تبياناً لتنفع العالمين. انتهت اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾

في يوم الأربعاء من أيام شهر ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ، ١٥ شهر مارس سنة ١٩٣٣م حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: أولاً: لقد تضاربت أقوال العلماء في تعيين ليلة القدر، فأيهم أحق؟ ثانياً: إن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عظة لنا فما العظة بليلة القدر؟ فقلت: لأجبك على السؤالين معاً بكلام جامع إن شاء الله تعالى، فأقول: ألم يثبت في هذا التفسير بالعقل وبدراسة علوم دنيانا الجميلة أن كل مخلوق فيها من ذات وصفة وحركة وسكون لحكمة. قال: بلى. قلت: إذن هذا يقين. قال: نعم. قلت: إذا ثبت هذا لمن قرأ هذه العلوم أفلا تحدثه نفسه فيقول: لِمَ خلق الإنسان وهو جزء من هذه الدنيا؟ فقال: بلى تحدثه بذلك. فقلت: إذا كان خلق ليموت فقط فذلك مخالف لقاعدة هذا الوجود، إذن هو مخلوق ليبقى، وهذه الحياة درس يتلقاه في سفره. قال: نعم. قلت: فخبرني أي شيء يكون أعظم قدراً عند المسافر في طريق حياته؟ فقال: كل ما أعانه على سفره. فقلت: وأي شيء يعظم في عين هذا المسافر؟ فقال: رقي نفسه الذي يعينه على طريق سفره بعد فراق هذه الأرض، ولا جرم أن رقي النفس إنّما يكون بالهداية العلمية والعملية. فقلت: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه القرآن في ليلة من شهر رمضان، ولا شيء في نظر النبوة أعظم من القرآن والتعليم والهداية، فهذه أعظم الليالي عنده لأنها الليلة التي أعطي فيها كل ما يريد لرقي نفسه ولرقي أمته. قال: نعم. قلت: فهل المال والولد والصحة والجمال والملك والنعمة والحظوظ العاجلة توازي شيئاً مما نزل في هذه الليلة؟ فقال: كلا. ثم كلا. فقلت: إذن كل مؤمن كامل في الأرض له وقت فيه يهتدي قلبه ويعرف الحقائق ويفهم المقصود من هذه الحياة، وتتجه نفسه إلى المعالي فيحقر اللذات والشهوات والمال والمتاع. وينصرف بكليته إلى رقي نفسه وأمته. فهذا الوقت يكون عنده أعظم الأوقات في حياته. قال: نعم والله. فقلت: إذن هنا أمران يجب أن يعلما، وهما أولاً: كل ما يقوله الجهلة والعامة من أن ليلة القدر تجاب فيها المطالب كالمال والولد والجاه واللذات والمتاع لغو وباطل، لأن هذا كله لا يعين على السفر. فقال: نعم والله. ثانياً: قلت: وهذه الهداية ربما تكون في شهر رمضان، وربما تكون في غيره، وليس لها وقت معين، فهذه الساعة التي فيها تلك الهداية واستيقاظ النفس هي ساعة قدره، وإنّما ذكر الليل لأنه وقت التجلي والبركات، ورمضان شهر فيه بركات خاصة، وعليه تكون جميع أقوال العلماء في تعيينها صحيحة، فهي تكون كثيرة في رمضان لا سيما في العشر الأخير منه، وتكون في السنة كلها، وليلة القدر دائماً حاضرة والناس يهتدون في كل وقت.

ثم سألته قائلاً: ما قيمة هذه الليلة؟ فقال: إذا نال الإنسان هذه النعمة فهي خير من آلاف آلاف السنين، بل من هذه الدنيا من مبدأ وجودها إلى ذهابها، فقلت: إذن التعبير بألف شهر رمز لذلك، بل هي خير من ألف سنة وألف ألف سنة. فقال صاحبي: حسن والله قد قنعت وفهمت. فقلت: الحمد لله رب العالمين. وبهذا تم الكلام على سورة «القدر». انتهى.

تفسير سورة البينة
هي مكية
آياتها ٨، نزلت بعد سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

يخبرنا الله في هذه السورة أن الذين كفروا بنبينا صلى الله عليه وسلم من العرب عبدة الأصنام ومن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، لا يتركون ما هم عليه من عبادة الأصنام واتباع الديانات المحرفة إلا إذا أرسل الله لهم رسولاً، فلما أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم آمن بعضهم وكفر بعضهم، فإذا تفرق العرب فكفر قوم وآمن قوم فكيف يتفرق أهل الكتاب، ووصفه في كتابهم أنهم مأمورون، وفي دينهم أن يعبدوا مخلصين مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ثم ذكر جزاء القسمين من الجنة والنار.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اليهود والنصارى إذ ألحدوا في صفات الله، وقوله: «من» للتبيين، ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهم عبدة الأصنام ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ عما كانوا عليه من دينهم ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ الحجة الواضحة، وأبدل منها للبيان قوله: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُوا۟ ﴾ يقرأ ﴿ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ أي: كتب مبرأة من الباطل ومن الكذب والزور، ﴿ فِيهَا ﴾ في الصحف ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق. ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم وكفر بعض ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ المذكورة، لأنهم كانوا من قبل النبوة يقولون: سيأتي النبي الموعود مفتخرين به، فلما جاء كفروا به، وهذا يخالف ما في كتابهم

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في تلك الكتب ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لا يشركون به ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن العقائد الزائغة ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ ولكنهم حرفوه وعصوا، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ أي: دين الملة القيمة، وهو دين الحق المستقيم الذي لا عوج فيه. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أي: شر الخلق فلذلك استحقوا دخول النار. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ تفسيره ظاهر، ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ إقامة ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ بقبول أعمالهم ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ بثوابها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الرضا ﴿ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ أي: لمن خاف ربه في الدنيا وانتهى عن المعاصي. انتهى التفسير اللفظي للسورة.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيّ بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[البينة: ١]. قال: وسماني؟ قال: نعم، فبكى. وفي رواية أيضاً قال: «إن الله أمرني أن أقرئك القرآن. قال: الله سماني لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم. قال: فذرفت عيناه».

تذكرة في آية: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

أنواع المشركين في زماننا كثيرة، ففي الحبشة مثلاً: (١) سكان الشواطئ يعبدون الأشجار، وفي كل سنة يدهنون جذوع تلك الأشجار بالسمن ويقفون حولها، وهم يرقصون ويغنون مختلف الأغاني، وبعضهم يتناول المشروبات كالجعة واللبن وغير ذلك. (٢) ومنها عبّاد ــ بتشديد الباء ــ الجمال والنور والنار، وهؤلاء في بلاد الصين. (٣)وبعض الصينيين يعبد الماشية والدواب. (٤) وهناك مذهب «لوتزا» في الصين أيضاً وأصحابه زاهدون لا يتزوجون أبداً. يقول المؤلف: هذه الجملة مقتبسة من حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١م مذكورة في الأهرام. وعسى أن نكتبها بتمامها في الملحق إن شاء الله تعالى.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾

اعلم أن مجرد الإيمان لا يكفي في الخشية، ولذلك خص الله سبحانه وتعالى رضوانه على العبد ورضوان العبد عليه بأن يخشى ربه، وخشيته لها طرق أهمها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾[فاطر: ٢٨]، وهم الذين يفكرون بالجبال وألوانها، وفي الثمرات وأنواعها، وفي الناس وأشكالها وأعضائها، وفي الحيوان وإبداعه، فالناظر لهذه العجائب من حيث نظامها لا من حيث الانتفاع بها وحده يجد في نفسه رضا عن كل ما يصنعه الخالق، لأنه يتحقق أنه لا يفعل إلا مصلحة في الموت والحياة، والمنع والعطاء. ومثل هذا غالباً يكون راضياً عن ربه وربه راض عنه. ولذلك جاءت هذه السورة عقب سورة «القدر» التي تشير على الإنسان ألا يضيع وقته هباء منثوراً. عسى أن يفاض عليه العلم، وقبل ذلك سورة «العلق» التي فيها إبداع الصنع الإلهي في الجسم الإنساني الذي من تأمل فيه وتأمل أمثاله رضي عن ربه. هذا هو الذي يعلم من هذا الترتيب. انتهى تفسير سورة «البينة»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزلزلة
هي مكية
آياتها ٨، نزلت بعد سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

في هذه السورة ذكر اضطراب العالم يوم القيامة ودهشة الناس. ثم يرون أعمالهم فينالون جزاء الخير والشر، وهذا تفسير السورة.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: اضطرابها المقدر لها عند النفخة الأولى أو الثانية ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها وموتاها، والأثقال جمع ثقل، وهو متاع البيت. ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ أي: ما لها زلزلت هذه الزلزلة ولفظت ما في بطنها، وإنّما يقول الإنسان ذلك لشدة بهره من فداحة الخطب وعظم الأمر، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي: تحدث الخلق بلسان الحال ما لأجله زلزالها وإخراجها كنوزها وموتاها، وذلك التحديث بسبب إيحاء ربك لها بأن يحدث فيها ما دلت به على الأخبار، وهذا قوله: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي: يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف متفرقين، فمنهم أهل اليمين ومنهم أهل الشمال، ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ هي النملة الصغيرة أو الهباء ﴿خَيْرًا﴾ تمييز ﴿ يَرَهُۥ ﴾ أي: ير جزاءه خيراً. ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وهاتان الجملتان تفصيل «ليروا» الخ.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾

نذكر في هذه اللطيفة ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٩٣٠م، فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه:

نكبة الزلزال في إيطاليا

روما في ٢٦ يوليو لمراسل الأهرام الخاص: وردت اليوم أنباء مناطق الزلزال تدل على اتساع النكبة وعظم الأضرار. فهناك ثمانية عشر إقليماً حل بمنازلها الدمار في ولايات: افالينو، وباري، ونينفنتو، وكمبوباشو، وفوجيا، ونابولي، وشالرنو. ويوجد ١٤٢ بلدة أصيبت بكثير من الضرر، ويؤخذ من الأخبار الرسمية أن عدد القتلى بلغ ١٨٨٣، ومن بواعث الأسف أن هذا العدد سيزيد كلما استخرجت الجثث من تحت الأنقاض، ويجري هذا العمل ببطء لكثرة عدد المنازل المتهدمة، وبسبب سوء حالة الطرق والمواصلات في بعض الجهات، وهناك منازل أصيبت بعطل شديد، حتى إنها مستهدفة للسقوط بين حين وآخر، كما حدث لمباني سجن «ملفي» التي نقل المسجونون فيها إلى «فوجيا».

وقد وصل دوق درست ودوقة بويل إلى افالينو لزيارة الأماكن المنكوبة، وسافر الملك أمس من كونيو واجتاز بعد الظهر بقطار خاص منطقة فوجيا، وبعد ما اطلع على الأخبار الأخيرة عن حالة الجهات المنكوبة واصل سفره إلى منطقة «ملفي»، وقد كان حضور جلالته مشجعاً للسكان ومعزياً لهم، وكان استقبالهم لجلالته مؤثراً جداً، وستجتمع الوزارة للبحث في التدابير التي يجب اتخاذها إزاء هذه الحالة.

روما في ٢٧ يوليو لمراسل الأهرام الخاص: يؤخذ من الأخبار الواردة اليوم من المناطق التي اجتاحها الزلزال أن عدد الموتى بلغ ٢١٤٢ وعدد الجرحى ٤٥٥١، ولكن لا مندوحة عن مواصلة البحث والتفتيش في المناطق التي لم يتمكنوا من بحثها بسبب سوء الحالة الجوية وسوء المواصلات، لذلك ستكون الأرقام النهائية للخسائر أكبر مما ذكر، ولكن لا يمكن تحديدها، والمنازل المتهدمة إلى الآن كثيرة، ولكن هناك منازل كثيرة متداعية ولا مندوحة عن هدمها، وتقرر أن الذين نجوا من الزلزال لا ينزلون في أكواخ من الخشب بل تحت الخيام منتظرين ترميم منازلهم التي دمرت بالزلزال.

روما في ٢٦ يوليو لمراسل الأهرام الخاص: دل الإحصاء الرسمي الأخير على أن عدد القتلى بلغ ٢١٤٢ شخصاً، وعدد الجرحى ٤٥٥١ في حوادث الزلازل الأخيرة.

روما في ٢٥ يوليو لمراسل الأهرام الخاص: نزلت كارثة جديدة بإيطاليا، وهي لما تكفكف دموعها عن مصيبتها في نابولي، فقد هبت زوبعة هائجة في منطقة ميلانو والبندقية ومقاطعة تريفزيا وألحقت بها أضراراً جسيمة، وكان عدد القتلى في مقاطعة تريفيزيا وحدها ٢٢ وأكثر من ١٠٠ جريح، وانقطعت المواصلات بين الجهات المنكوبة وباقي الجهات، ولا يمكن تقدير مجموع عدد الضحايا والمنازل المتهدمة، والأضرار التي لحقت ميلانو وفينيزيا كبيرة جداً. انتهى الكلام على الزلزال، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ ﴾

روي أن جد الفرزدق أتاه ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية. فقال: حسبي حسبي، وهي أحكم آية، ويسمونها الجامعة.

بهجة العلم في سورة الزلزلة

يعجب الإنسان من هذه السورة في زماننا كيف كان الناس الآن يستخرجون الفحم من الأرض وكذلك البترول، وبهما إيقاد النار، وفي الأرض كهرباء كما في الجو. ثم كيف كان هذا الزمان قد كثر فيه استخراج الدفائن من الأرض، مثل أننا في مصر وجدنا أربع مدائن شرقي الأهرام في نحو ألف فدان، وكل مدينة لهرم، وهكذا في جميع الكرة الأرضية يبحثون عن مكنون الأرض ويستخرجون الكنوز. والناس الآن يتساءلون: ما هذه الثورة الفكرية الإنسانية؟ ما هذه النهضة؟ ما مستقبل الإنسان؟ ولا جواب.

ولكن العقول الإنسانية اليوم ظهرت فيها بوادر الابتداع والاختراع، وهذا فيه معنى الإلهام العام. ويظهر أن الناس اليوم مقبلون على أيام العدل بحيث لا يعطل فيها أحد، وكل امرئ يكون مسؤولاً عن قوته وله عمله الخاص به، ومن ترك العمل حرم كل شيء.

ألست ترى أن هذه السورة وإن كانت واردة لأحوال الآخرة تشير من طرف خفي إلى ما ذكرناه في الدنيا، فالأرض الآن كأنها في حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها كنوزها وموتاها وغيرها، والناس الآن يتساءلون، وهاهم أولاء يلهمون الاختراع، وهاهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها، وكل إنسان في عمله الخاص به وينتفع به. انتهى تفسير سورة «الزلزلة».

تفسير سورة العاديات
هي مكية
آياتها ١١، نزلت بعد سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

في هذه السورة أقسم الله بخيل الغزاة تعدو فتصبح ضبحاً، وذلك هو صوت أنفاسها عند العدو، وتوري النار، أي: تخرجها، كما يقدح الزند فيوري، وتغير بأهلها على العدو وقت الصبح، فتهيج بذلك الوقت غباراً، فتتوسط بالغبار جمعاً من جموع الأعداء: هذا هو المقسم به، والمقسم عليه: إن الإنسان كفور لنعمة ربه، وإن الإنسان يشهد على نفسه بذلك، وإنه لحب المال قوي مبالغ جداً، ثم حذره من ذلك بأن ما عمله سيجازى عليه يوم القيامة، وأن الله عليم به.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ أي: أقسم بالخيل العاديات حال كونها ضابحة. ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ توري نار الحباحب وهي ما ينقدح من حوافرها. ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ تغير على العدو ﴿ صُبْحًا ﴾ في وقت الصبح ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ ﴾ بذلك الوقت أو بالغبار ﴿ جَمْعًا ﴾ من الأعداء ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ لكفور ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه، ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك يضعف حب عبادة الله تعالى. ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ الإنسان ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ بعث ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ من الموتى ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: جمع محصلاً في الصحف وميز ما فيه من الخير والشر، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر.

ومعلوم أن الله عالم بهم في كل وقت لا يومئذ فقط، ولكن التقييد لأجل الجزاء إذ ذاك. أقسم الله بالخيل الموصوفات بما ذكر على أن الإنسان يكفر بنعمة الله، وهو معترف بذلك، وأنه مغرم بالمال. لعمري أي مناسبة بين القسم والمقسم به، يقسم الله بالشمس والقمر والكواكب والنهار والليل على وحدانيته وعلى البعث، ولكن هنا أي مناسبة بينهما، فاعلم أن هذا المقام مقام جهاد، والجهاد تعقبه الغنائم غالباً، وقد تقدم في هذا التفسير نقل حديث من صحيح البخاري نحو إنه صلى الله عليه وسلم خطب قائلاً: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا» الخ. وفي حديث آخر: «إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون».

ولقد غزا المسلمون وانتصروا، وفتحت لهم الدنيا، ونالوا العز والغنى والثروة، فالله بهذا يذكر الغزاة في ضمن نوع الإنسان قائلاً ما معناه: إياكم أيها الغزاة أن تقصدوا جمع المال، فإنه يوشك أن يكون حائلاً بينكم وبين الفضائل فتعاقبوا يوم القيامة، وهذا تحذير بلطف وإرشاد على طريق الإشارة، لأنه ليس يليق أن يكون القوم مجدين في الجهاد ويقال لهم ستحاسبون على النعم، بل يكتفى بالتلميح.

ثم إن ما خافه صلى الله عليه وسلم قد تم فعلاً، وأصبحت الأمة العربية متحاربة متقاطعة متدابرة، وأصبح بأسهم بينهم شديداً، وفرق حب المال جمعهم. وتحاربوا على الملك، لأن الملك يأخذ من المال ما يشتهي، ثم إن كل عقاب في الآخرة يتقدمه عذاب الدنيا، وقد تم هذا كله. هذا بعض مقصود هذه السورة.

وبهذا تم الكلام على سورة «العاديات»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة القارعة

آياتها ١١، نزلت بعد سورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ هي يوم القيامة تقرع القلوب بالفزع الشديد، ومن هذا المقام قوارع الدهر، أي: شدائده، وهذا مبتدأ خبره: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أي: ما هي، وإنما كررها تأكيداً وتفخيماً لشأنها، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هي؟ ومن أين علمت ذلك؟ فلا علم لك بكنهها وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك، هي تقرع ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ الفراش هي الحشرات التي يشاهدها الناس متهافتة على النار، فهذه إذا ثارت اتجهت إلى جهات متعددة، وهكذا الخلق يتفرقون في جهات شتى هناك، فالمبثوث: المتفرق، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ كالصوف ذي الألوان ﴿ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ المندوف فإن أجزاءه تتفرق وتتطاير في الجو، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ جمع موزون، وهي الأعمال المقبولة عند الله بأن ترجحت، ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ ﴾ في عيش ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي: مرضية، وهذا مجاز عقلي.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ فلم تكن له حسنات، أو كانت ولكن ترجحت السيئات عليها ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي: فمسكنه ومأواه النار، وجعل المسكن أماً على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه، وسميت النار هاوية، وهي المهواة التي لا يدرك قعرها، فيهوون فيها على رؤوسهم، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ الضمير للهاوية والهاء للسكت، ثم فسرها سبحانه فقال: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ بلغت النهاية في الحرارة. انتهى تفسير سورة «القارعة»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة التكاثر
هي مكية
آياتها ٨ ، نزلت بعد سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول الله : أشغلتكم المفاخرة والتباهي بكثرة المال والعدد والمناقب عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه حتى متم وقبرتم ، مضيعين أعماركم في طلب الدنيا ، تاركين ما هو أهم ، وهو السعي للآخرة ويصح أن يقال حتى زرتم المقابر وعددتم من فيها من موتاكم تكاثراً وتفاخراً ، كما فعل حيان من قريش وهما بنو عبد مناف وبنو سهم ، فتعادوا القادة والأشراف أيهم أكثر ، ثم عدوا موتاهم ، بل زاروا القبور فعدوها فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ، وهذا قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا ﴾ ردع للعاقل فلا ينبغي أن يكون معظم سعيه للدنيا لأنه وبال عليه ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ خطأ رأيكم في القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند النشور ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما بين أيديكم ﴿ عِلْمَ ﴾ الأمر ﴿ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي : كعلمكم ما هو يقين عندكم لفعلتم ما لا يوصف ، ولكنكم ضلال جهلة ، ثم بين الوعيد فقال : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ . ثم أكد ذلك فقال : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي : الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ، وأي علم أعلى يقيناً من علم المشاهدة ، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الذي ألهاكم ، وهذا السؤال سؤال عن الشكر ، لأن كل امرئ مكلف باستعمال مواهبه التي وهبها الله له ، وهذا المعنى واضح ظاهر في الدنيا ، ولكن الناس بمجادلاتهم وعدم التفكر انصرفوا عن هذه المعاني ، ألم تر أيها الذكي أننا نرى جميع بني آدم إلا المغفلين وناقصي العقل يندمون على ما فرطوا في شبابهم ، فيقول أحدهم : لو أنني أطعت والدي وتعلمت لكنت اليوم مديراً أو وكيلاً أو كاتباً ومثل هذا التندم لا يحصل قط لمن لم يتمكن ، فالناس جميعاً يشعرون بالحزن على ما قدروا عليه وفرطوا فيه ، هذه سنة الله في نوع الإنسان ، فكل من له موهبة يجد في نفسه حزناً متى فرط فيها ، وهذا أمر معروف ، فإذا كلف الله كل نفس ما يسعها فهو من هذا القبيل ، وهذا من باب الشكر على النعمة ، والشكر عليها معناه صرفها فيما خلقت له . فأما إذا فتحنا باب الحرام والحلال فقد ضيقنا باب الشكر ، ولكن المقام الآن واسع ، فأنت أيها الذكي تحاسب على كل ما تقدر عليه ولم تصرفه في وجوه نافعة .

في حديث الترمذي لما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنّما هما الأسودان التمر والماء، قال: إنه سيكون، فأقر صلى الله عليه وسلم أن التمر والماء يحاسب الإنسان عليهما. وفي حديث آخر أخرجه الترمذي؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له: ألن نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد». وفي حديث مسلم: «أنه صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أتوا رجلاً من الأنصار فجاء لهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب وذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا وكانوا جياعاً، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». ويقول ابن عباس: من النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار، وغيره ذكر الصحة والفراغ والمال. ولقد ذكرت لك القاعدة الكلية، فكل هذه الأقوال وغيرها داخلة فيما قلناه. واعلم أنك أيها الذكي مسؤول عن كل ما تقدر عليه من العلم والعمل، فإياك أن تضيع مواهبك كسلاً أو في عمل غير كثير النفع العام أو الخاص وفطرتك شاهدة. وما جاء في القرآن في هذا وأمثاله إلا ليوقظ فطرنا وغرائزنا. انتهى.

تبصرة في قوله تعالى: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾

كتب ضحى يوم الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٣م

خواطر خطرت قبيل النوم، وذلك:

(١) إن الله أتقن ما خلق فينا من الغرائز.

(٢) أعطى الإنسان حرية في تعاطي الطعام والشراب واللباس.

(٣) الحيوان تكفيه غريزته.

(٤) والإنسان اليوم مخطئ جداً في جميع ما يتعاطاه.

(٥) وقد ثبت فيما تقدم أن خير طعام الناس أن يقتصروا على الخضرة والفاكهة.

(٦) وذكرت تجربتي بنفسي، وأن الأمراض التي كانت عندي زمن الشباب ذهبت بتاتاً بالتزام ما يقوله أطباء عصرنا الحاضر من التعرض للشمس والهواء.

(٧) إن الناس بافتخارهم بالموائد المنصوبة، وتعاطيهم المسكرات والحلوى بدون عطش إنّما يقتلون أنفسهم، والحيوان بريء من هذه الوصمة.

(٨) أليس هذا هو النعيم المذكور في الآية، وأن سؤال الآخرة ابتدأ الآن فعلاً، وأن هذا من نور الله الذي نشره في الأرض.

(٩) إن علماءنا يقولون: لا عذر للجاهل، إذن لا عذر لمن يخطئ في الطعام والشراب، إذن نحن المسؤولون.

(١٠) تذكير قراء التفسير بالأحاديث الواردة في سورة «ص» وموازنة ما فيها بعلم الطب الحديث.

(١١) وقصة المدائن التي كانت عبارة عن سبع مدن كبيرة، وهي على نهر دجلة ووصفها طولاً وعرضاً، والكلام على إيوان كسرى وبساطه الذي هو ستون ذراعاً في مثلها، وأنه كان من الحرير

الموشى بالذهب والفضة، والمطرز بالجواهر الثمينة، وكانوا يعدون هذا البساط للشتاء حين تذهب الرياحين، وقد فتحت المدائن سنة ١٦ هجرية في زمن عمر بن الخطاب على يدي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وجعله مصلى، وكانت فيه التماثيل من صور الآلهة والسباع، واستولوا على تاج كسرى وثيابه، ولما رآه سيدنا عمر بكى، فسئل: إن المقام مقام سرور؟ فأخبر عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره أن هذا المال ما كثر عند قوم إلا تخاذلوا وتقاطعوا، إذن لا فرق بين المسرفين في الطعام والشراب وفي المال، فالأول يقتل الصحة، والثاني يفرق الجموع إذا لم تكن نفوسهم شريفة. وهذا سر من أسرار قوله تعالى: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٨].

(١٢) ويتبع هذا أن رجلاً اسمه « مكفادن » أشاع اليوم في العالم فائدة الصوم في الصحة مع أنه من رجال الرياضة البدنية.

(١٣) وجاء في مجلة « الرياضة البدنية » في مصر: أن أحد أطباء شيكاغو منع الطعام عن عدد من الحشرات التي لا تعيش أكثر من ٢٤ ساعة فعاشت ١٥ يوماً، وماسوليني الأرلندي المعروف عاش نحو ٦٠ يوماً من غير طعام، ومسألته مشهورة.

(١٤) إن « مكفادن » المتقدم أمر تلاميذه في الرياضة البدنية أن يتركوا الطعام من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أسابيع ويقتصرون على الماء.

(١٥) وهذا « غاندي » أمره مشهور، فقد صام في أيامنا هذه سنة ١٩٣٣م ٢١ يوماً.

(١٦) إن هذه التجارب سرت في جامعات أمريكا، فقد صامت فصول برمتها عن الطعام أسبوعاً كاملاً دون أن يحول ذلك بينهم وبين دروسهم، وزاد نشاطهم العقلي.

(١٧) أحد تلاميذ « مكفادن » في الرياضة البدنية قام برحلة ٥,٠٠٠ ميل في أسبوعين كاملين لم يتناول فيهما شيئاً غير الماء القراح.

(١٨) إن « مكفادن » يقول: إن الإنسان يستطيع أن يعيش بنحو ست أو خمس ستات في اليوم. وذلك نحو ١٠ مليمات، وعاش بهذا المبلغ يومياً في نيويورك شهراً كاملاً.

(١٩) تقول مجلة « الرياضة البدنية »: إن « مكفادن » أغضب الأطباء لأنه يقول: إنه يشفى بالصوم كل علة مثل: ضيق النفس، وأمراض الكلى، والنزلة الشعبية، والزكام، والإمساك، والسعال، والبرد، والبول السكري، وخفقان القلب، وأمراض البروتستانة، وأمراض النساء، وعسر الهضم، والهزال، والصداع، واضطرابات الأذن، وأمراض العين، وضعف القلب، والأرق، والضعف التناسلي، وأمراض المثانة.

(٢٠) هذا كله جاء في تلك المجلة. وأنا أقول: هذه مسائل يجب بحثها، فلست أقول إنها حقائق تامة، بل هي مما يجب البحث عنه، وهذا مقال واسع كنت أريد أن أكتبه برمته، ولكن حال دون ذلك ضيق المقام. وعسى أن أكتبه في ملحق التفسير إن شاء الله تعالى.

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٨]، وبهذا تم تفسير سورة « التكاثر »، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة العصر
هي مكية
آياتها ٣، نزلت بعد سورة الانشراح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

مقدمة

أقسم الله سبحانه بالزمن كله وما فيه من عجائب وغرائب كالدول البائدة، والقصور الخاوية، والبلاد العادية، وما جرى بين الأمم من حروب، وما انتابها من كروب ونوب، وما بين ذلك من فتن واضطراب ورفعة وخفض، وذلة وشرف، ولو أن الناس قرؤوا علوم قدامى المصريين والقرطاجيين والرومانيين وأمم الهند والصين والترك وما جرى فيها مع أنبيائهم وحكمائهم وعلمائهم وملوكهم وأمرائهم وسوقتهم، لو قرأ العلماء ذلك وأمكنهم لم يستخرجوا منه إلا نتيجة واحدة، وهي أن هذا الإنسان جميعه قد خسر مساعيه، وضل في مناهجه، وصرف عمره في غير مطالبه، ذلك لأنه جاء إلى هذه الأرض لغرض يقضيه، وعمل يقصده ونهاية يرضاها، وحكمة يلقاها، جاء ليصفي نفسه من الغوائل، ويخلصها من الرذائل حتى إذا رجع إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحاً، وأمضى سلاحاً، وأرفع مقاماً، وطار هناك في باحات الهناء، وساحات الجمال، فلما رجع إلى مقره في عالم السماوات بالموت لم يجد إلا نقصاً محيطاً به، وجهلاً أرداه فندم أمام مولاه، إلا طائفة من هذا الإنسان عاشوا في الدنيا مفكرين، فآمنوا بأنبيائهم، وصدقوا برسلهم، ودرسوا علوم حكمائهم، وأحبوا بني جنسهم، وأحسنوا إلى إخوانهم، وعرفوا الحقائق، وعملوا الخير، وساعدوا الناس بأموالهم وأنفسهم، وشاركوا المجموع فأسعدوه، وانتشلوا إخوانهم من الجهالة والمخاطر الدينية والدنيوية، وصاروا متعاضدين متعاونين بعضهم لبعض، وصبروا على ما نزل بهم من الحدثان، ورموا به من البهتان، وأصيبوا من الخذلان أيام بؤسهم، ووصى بعضهم بعضاً باتباع الحقائق، والسير على أحسن المناهج، والصبر في كل بأساء وضراء وحين البأس، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون، وفي الآخرة بالنعيم يفرحون. هذا ملخص السورة، ولنشرع في التفسير اللفظي للسورة، فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أقسم بالزمان كله على خسران مساعي الإنسان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هذه إشارة إلى القوة العلمية، وقوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إشارة إلى القوة العملية، فهاتان قوتان خلقتا فينا: قوة العلم وقوة العمل، وقوة العلم مبدؤها الإيمان بالله، ولا جرم أن هذا الإيمان ما هو إلا بذر يبذر في ساحات النفوس فيسقي ماء الفكر فيخرج منه مزارع العلم الخضرات ونخل الحكم الباسقات، ومختلف الفنون المزهرات، وآيات السعادة البهجات، فهناك تتجلى للنفوس صور جمالها وتنظر في داخلها أعاجيب فنونها، وتتغنى طيور الحكم وبلابل الأنس على نواضر أغصانها، هناك تشرق الشمس ويتجلى نورها على أخواتها، وتصبح للناس شمساً مشرقة، وآية بينة، وحكمة واضحة، فلعمري إذا لم يحط المؤمن ببعض جمال المصنوعات وعجائب المبدعات فإن إيمانه إما إيمان العجائز، وإما لا يجاوز حنجرته، وإنّما هي ألفاظ تقال وتسبيحات تتلى، وصلوات تقام، وأعمال كأنها أجسام بلا أرواح، فليكن الإيمان منغرساً في ساحات العلوم باسقاً، مثمراً في مختلف الحقول، لعمري ما هذه النفوس الإنسانية إلا كأرض واسعة الأرجاء إن لم يضئها نور الفكر؛ ويسقها ماء العلم؛ وينبت فيها آلاف مزارع الجمال النضرات؛ أضحت خلاء وحوشاً يباباً وقاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، خالية خاوية، ليس فيها حياة ولا نبات، ولا شجر ولا أقوات، نعم هي تلك النفوس التي نراها في هذا الإنسان، لا تحس إلا بشهواتها، ولا تعقل إلا ما يختص بهيكلها، فأبغضها من حولها من الناس، وكرهها عالم البرزخ يوم الوفاة، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾[الدخان: ٢٩].

فهذا الذي عاش لا يعتنى به ... وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

وذلك أصله التفريط في القوة العلمية التي تظهر ثمرتها في القوة العملية، أما القوة العملية فقد أبان الشارع الواجب فيها من صلاة وزكاة وحج وصيام وإسلام وما يتبع ذلك من منافع الإنسانية والمحبة الأخوية، إن الأمم الإسلامية اليوم خامدة سيحييها العلم. نائمة سيوقظها العقل، غائبة ستحضرها الحكمة، غفلت الأمة اليوم عن المحبة العامة، وكثرت فيها الغيبة والنميمة والجهالة والتقاطع والتدابر، كل هذا سببه الجهل العام، فلا عمل إلا بعلم، فأين العلم؟ وسيقيض الله لهذه الأمة من ينشرون وسائل الإصلاح ورسائل النجاح وقد أقبلت أيامه، وحلت تباشيره. فلتكن أيها الذكي من المصلحين، ولا يصدنك عن الإصلاح ـ بعد تمام أمرك ووفور عقلك، وصلاحية نفسك علماً وعملاً ـ ما تقابل به من المصادمات، وما تبلى به من المقاومات، فإن الشمس لا يحجبها طول الدهر السحاب، والمصلح في أول أمره قد لا يعتنى به، وفي آخر الأمر مهاب كريم يعجب به من كان يقلاه، ويفرح به من كان أولاً قد ازدراه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ فيعرف الإنسان الحقائق ويوصي بها غيره، ويعمل الأعمال الصالحة ويوصي بها غيره، ويصبر على ما نابه ويوصي بالصبر غيره.

ولما كانت هذه آخر السور التي فيها أقسم الله بمخلوقاته، وقد قلت في سور كثيرة: إني سأذكر موازنات أقسام القرآن وأقسام العرب؛ وجب أن أذكر ذلك هنا، فأقول ملخصاً ذلك من كتابي المسمى «مذكرات في أدبيات اللغة العربية»:

اعلم أن الله أقسم بأشياء مما خلق، وعمد إلى ما جمل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعدده في أقسامه، ولعمري إن النوع البشري لن يقسم إلا بما عظم لديه، أو بمسيطر عليه، يقول الولد: وحق والدي، وتقول الرعية: ورأس فلان الحاكم، والجندي يقسم بشرف الجندية، ويقسم الوزراء بالملوك، ونسمع الرجل يحلف بعينيه لما يرى من منفعتهما وزينتهما.

إلى أن قال: أقسم الله عشرين قسماً: الفجر، والفلق، والصبح، والشمس، والضحى، والنهار والعصر، والليل، والليالي العشر، وبالنجم، وبمواقع النجوم، ورب المشارق والمغارب، وبالشفق وبما وسق الليل، وبالقمر، وبالسماء ذات البروج، وبالنازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً. فالسابقات سبقاً، فالمدبرات أمراً، وهذه كلها صفات للنجوم على رأي، والتفصيل تركناه هنا، وهناك نحو عشرين قسماً بما تحت الفلك، وهي: الرياح الذاريات، والرياح الحاملات، أي: التي تحمل السحاب، وبالأرض وما طحاها، وبالتين والزيتون، وهذا البلد الأمين، وبالخيل وهي العاديات ضبحاً، وبالشاهد والمشهود، وبيوم القيامة، ويوم الجزاء، ويوم الميعاد، وبالكتب المسطرة المنشورة، وبالبحر، وبكل ما خلق، وبما تبصرون وما لا تبصرون، وبوالد وبما ولد، وبنفس وما سواها، وبالجملة فهذه عشرون أيضاً.

إن الله أمر عباده وأوجب عليهم النظر في العلويات والسفليات بالتساوي. وفي الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء، وعلم العمران، والنفس وجميع العلوم، إذ لم تخرج في البحث عما ذكر في تلك الأقسام التي أقسم بها مبدعها. وكأن الأمة التي جهلت ما أقسم به وأعرضت عنه ولم توفه حقه في النظر؛ قد أعرضت عما أقبل عليه مبدعها، وازورت عما أراده خالقها، جعلنا هذه الأقسام مفاتيح العلوم لأنه ذكر جواهر الأشياء فيها ليلفت إليها العقول، ويحرض على البحث عليها العلماء والأمم. وإنّما ذكرت ذلك هنا ليكون نموذجاً يفتح به المسلمون ما أغلق أمامهم من جمال هذا العالم الذي صرفوا عنه قروناً وقروناً بجهل صغار العلماء وجهال الفقهاء بلاغة القرآن وموازنتها ببلاغة العرب، قد جاء في كتابي المسمى «مذكرات في أدبيات اللغة العربية» ما ملخصه ما يأتي:

أقسم زهير بن أبي سلمى للحارث بن عوف وهرم بن سنان من بني غيظ بن مرة فقال:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

يقول: أقسمت بالبيت الذي يقصده الناس للطواف حوله لنعم السيدان كنتما على كل حال من سهولة الأمر وصعوبته.

ويقول الله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٩].

ويقول النابغة في القسم اعتذاراً للنعمان واصفاً الكعبة: أقسم بالبيت الذي زرته سنين. وبما أريق من الدماء على الأصنام. وبالله الذي أمن الطيور اللاجئات للحرم يمسها تبركاً بها ركبان مكة السائرون بين الماء الخارج من جبل أبي قبيس المسمى الغيل والسند وهو سفح الجبل. أقسم بما ذكر أنني ما أتيت بشيء أنت تكرهه؛ إذن فلا جعل الله يدي ترفع إلى سوطي، وهذا معنى قوله:

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً ... وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسند

ما أتيت بشيء أنت تكرهه ... إذن فلا رفعت سوطي إلى يدي

ويقول الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: ١-١٠].

فتعجب كيف أخذ كيف بقسم بالشمس إذا ظهر نورها، والقمر إذا تبعها، والنهار إذا أظهرها والليل وظلمته، والسماء وبنائها، والأرض ودحوها. والنفوس وحسنها وما ألهمت من الخيرات، وما أودعت من الشرور، أقسم بهذا كله أن من طهرها فقد أفلح، ومن دنسها فقد خاب. تعجب في هيئة القسمين وتأمل في القسم بهما تعرف الفرق بينهما.

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ «أقسم» كقوله:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الشر مظلم

وبلفظ «يمين» كقوله:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وبلفظ «العمر» كقوله:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

وبلفظ «يميناً» قال زهير:

يميناً لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

ثم جاء بعد ذلك أقسام القرآن، وهي لا تخرج عن الأربعين قسماً السابقة، وهي عشرون في العلويات وعشرون في السفليات فلا نطيل بذكرها. انتهى تفسير سورة «العصر»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الهمزة
هي مكية
آياتها ٩، نزلت بعد سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الهمزة واللمزة معناهما الطعن في الناس وإظهار عيوبهم، وأصل الهمز: الكسر، فمن كسر شيئاً يقال همزه، وأصل اللمز: الطعن، فمن طعن إنساناً بالرمح مثلاً قيل لمزه، ثم شاع كلاهما فيما ذكرناه، فما عدا ذلك من قولهم: الهمزة من يعيبك في غيبتك، والثاني من يعيبك في وجهك، وما شابه ذلك من الأقوال، فهي لا طائل تحتها، وكلها داخلة فيما ذكرناه. يقول الله: قبح وعذاب لكل معتاد الطعن في الناس، الذي يأكل لحومهم ويؤذيهم في غيبتهم أو حضورهم، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ وقرئ « هُمْزَةٍ ولُمْزَةٍ » بالسكون، وهو الذي يأتي بالأضاحيك ويشتم، ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ أي: عده مرة بعد أخرى، ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت، مع أن الذي يخلد إنّما هو العمل الصالح، لا المال المجموع. ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن حسبانه ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ أي: الذي جمع ﴿ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ أي: في النار التي شأنها أن تحطم كل ما وجد فيها، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ تهويل في أمرها وتعجيب من شأنها، هي ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى ﴾ تدخل في الأجواف والصدور والرئات، فهي إذن ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ التي هي ألطف ما في الأجسام، فتشتمل عليها لإحراقها فيكون ذلك أشد الألم. ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي: النار ﴿ عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة ﴿ فِى عَمَدٍ ﴾ كقمر وجنب، وهما لغتان في جمع عماد، ﴿ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ صفة للعمد. يقال: إما أن الأبواب تؤصد عليهم، وعلى هذه الأبواب تمدد العمد حتى لا تفتح تلك الأبواب، وإما أنها عمد يعذبون بها في النار. أقول: ولقد ثارت مناقشة في الجرائد في هذه السنة سنة ١٩٢٥، ذلك أن أحد الأطباء قال: إن أشعة رونتجن التي هي ذات عمل عظيم في النوع الإنساني ترى في إشراقها كالأعمدة.

فقال بعضهم : لعل الآية تشير إلى كشف هذه الأشعة . وقال آخرون : كلا . وأخيراً انتصر الذي قال إن القرآن أشار لها .

أما أنا فأقول : إن المقام مقام حكمة ، فلعل نار جهنم بهيئة تلك الأشعة ، وأيضاً العذاب في الآخرة عذابان : عذاب جسمي وعذاب نفسي . وهكذا النعيم نعيمان ، كما أننا في الدنيا نحس بآلام جسمية وآلام عقلية ، وبلذة حسية وأخرى عقلية نفسية ، هكذا يوم القيامة . وما أشنع وأقبح أن يطلع الإنسان بعد الموت على صورة قبيحة أحاطت به ويريد صرفها عنه فلا تنصرف ، ويطلع فيراها محيطة به ملازمة كما يلازم الظل صاحبه ، والهواء الإنسان والحيوان ، وإذا كنا في الدنيا نرى الاحتقار والذم إهانة لا تطاق ، وإذا كنا نتوارى من العار ؛ لا لا بل نقدم أنفسنا للقتل فنسوق الجيوش للأخذ بالثأر ، ونجندل الأبطال في ساحات القتال ، كل ذلك لنغسل العار اللاحق بنا ، ويقوم الرجل الذي أهين فيغسل العار عن نفسه بتقديم نفسه للسيف والنار ، كل هذا في الدنيا مشاهد ، ولكن الناس ينظرون ولا يفكرون غالباً ، فإذا كان ذلك هنا فلنقل : إن الله عز وجل حين نخرج من هذه الأرض بأرواحنا وقد تركنا أجسامنا في الأرض ؛ يطلعنا على صورنا المعنوية ، فينظر الإنسان فيرى صور أعماله لاحقة به ، ملصقة محيطة به ، فيقال : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء : ١٤] .

ولقد جاء هذا في علم الأرواح وقالوا لما سألوهم ما يفيد هذا المعنى ، كل ذلك بعد الموت ، وما يوم القيامة إلا نتيجة الدنيا وعالم البرزخ ، فأي عذاب أعظم من هذا ، وأشعة راتنجن المذكورة التي أشعتها كالعمد يرى بها الأطباء ما خفي في الجسم ، فيعرفون بواطنه ، فيكون ذلك كالرمز إلى الاطلاع على الحقائق ، ويقول الإنسان إذ ذاك : ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾[النبأ : ٤٠] .

فإذن اطلاع النار على القلب سواء أكان بالإحراق لمن هو في أول العذاب ، أو بكشف الحقائق وإظهار ما اختبأ في السرائر من العيوب المخزية ، فهو في كليهما عذاب ، وعذاب الخزي أشق من عذاب الجسم ، كما قال قدماؤنا . فالآية تفيد عذاب الجسم وهو الأقل ، وعذاب الخزي بالكشف وهو الأعظم .

واعلم أن النار فيها أمران : حرارة للإحراق ، ونور للإشراق ، فالحرارة لتفريق الأجسام وإذابتها ، والإشراق لتمييز الصور والأشباح ، فكما فرقت الحرارة بين أجزاء المادة فرق النور بين صورها ، فهذا تفريق وإبعاد ، وهذا تمييز وتفريق ، فالنور والحرارة أرسلهما الله للعذاب وللنعيم ، وللبؤس والسعادة .

هذه السورة أشبه بسورة « التكاثر » ، فسورة « التكاثر » ذم الله فيها من أضاعوا حياتهم في التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد ، وهذه ذم الله فيها من أمسك المال وجعل معوله عليه وأطلق للسانه العنان ، فهو بالهمزة واللمزة ينقص قدر غيره ، أي : يستعين على كيد الناس باللسان كما كان هناك يفاخر ليظهر العلو عليهم . وإلى هنا تم الكلام على سورة « الهمزة » ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الفيل
هي مكية
آياتها ٥، نزلت بعد سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾

مقدمة

اعلم أن هذه السورة والتي بعدها تضمنت نعمة الله عز وجل على قريش، إذ جعل لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء. أما أمنه فذلك أنه ما قصده جبار إلا أهلكه الله، وذلك أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً، ويقال: إنه قضى فيها حاجته، أو إنه أحرقها، فأغضبه ذلك فحلف ليهدمن الكعبة، فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود، وكان قوياً عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيره، فلما عبى جيشه قدم الفيل، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول، فأرسل الله طيراً مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، فوقعت تلك الحجارة عليهم فهلك قوم وفر آخرون.

ومما جرى في هذا المقام أن عبد المطلب أقبل على أبرهة طالباً منه جماله وكانت مائتين أخذها منه أبرهة من ماله، فقيل له: هذا سيد قريش، وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال فلما طلب الجمال سقط من عينه، وقال: جئت لأهدم البيت الذي هو دين آبائك وشرفك فألهتك إبلك عنه، فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه، فهذا وجه كون البيت آمناً.

وأما كونه يجبى إليه ثمرات كل شيء. فذلك أن قريشاً لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وتصبح تلك الأرض القفرة ذات خيرات ونعم، فعلى قريش أن يعبدوا رب هذا البيت، لأنه أطعمهم من جوع بالرحلتين، وآمنهم من خوف بإهلاك أصحاب الفيل. اهـ.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو وإن لم ير تلك الواقعة فقد نقلت له بالتواتر، والمراد التذكير بوجوه نعم الله وقدرته وأنها إرهاص للنبوة لأنها وقعت في السنة التي ولد فيها صلى الله عليه وسلم. ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ في تخريب الكعبة ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ في تضييع وإبطال، بأن دمرهم ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ جماعات، مفردها إبالة وهي الحزمة الكبيرة، لأن الجماعة من الطير تشبهها في اتحادها واجتماعها ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي: كتبن أكلته الدواب وراثته. انتهى التفسير اللفظي.

تذكرتان: الأولى: في وصف الفيل مختصراً من كتاب أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك

الثانية: في سر « ا ل م » في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾.

التذكرة الأولى

جاء عند وصف الفيل ما ملخصه:

(١) الفيل يعيش في الأرض ما دام الماء فيها، فإذا قل انتقل إلى غيرها.

(٢) إن أهل الجهات التي فيها الفيلة لها علامات بها يعرفون أين مستقرها، فإذا رأوا قطيعاً منها انتظروا واحداً منه ينفرد عنه فيرمونه مرة واحدة ويختفون خيفة، فإذن يحك جسمه بالشجر ثم يرى أنه لا فائدة فيهيم على وجهه ثم يسقط وهم يرون ذلك، فيسلخونه ويتخذون من جلده النعال ويأكلون اللحم، ومنه تكون « البصطرمة » المعروفة، ويقلعون أسنانه بالفأس ويبيعونها مع بقية العظام للتجار، وهذا هو العاج المعروف. وربما يعيشون في الغابة شهراً يقتاتون منه، والعاج المذكور يباع بالساحل فيشتريه الأوروبيون. قال وقد يجد الصيادون أنياب الفيلة ملقاة على الأرض، وقد يقع بين الفيلة معارك فتقع منها أنيابها، ومن عاداتهم في صيد الفيل أن يجتمع القوم بهيئة دائرة تضيق شيئاً فشيئاً ثم يرمونه مرة واحدة، ومتى هاج فر المشاة وأخذوا يضربونه إلى أن يقع فيفعلون به ما تقدم، وهل الفيلة تحمل ٣٦ شهراً أو ثمانية عشر شهراً؟ رأيان، ومدة الرضاع ثمان سنين. ويقال: إنه يعيش ١٥٠ سنة، ولكن هذه الأقوال ليس يمكن تحقيقها لأن توحشه شديد ولا يريد أن يلد وهو مستأنس، والفيل حليم سليم الطبع، أعظم الحيوان قوة، ليس من طبعه الأذى، يستعمل قوته في الدفاع عن نفسه، مؤانس مؤالف، رئيس السرب أكبره سناً، وهو المدبر والقائد، هن يفسدن الزرع، القناص إذا طارد واحداً منه وأخطأه ولم يمكنه الهرب هجم عليه في الحال فضربه بنابه ثم تناوله بخرطومه ورمى به في الجو وارتقب سقوطه فداسه وقتله.

حكاية

كان فيل سائراً وحده في مدينة فوضع خرطومه على دكان خياط، فنخسه أحد الصناع بإبرة ليعجب نفسه وأصحابه، فرجع له الفيل بعد قليل وملأ خرطومه بالقذر ورماه به. اهـ.

الفيلة تكون في أفريقيا والهند، وهي في الهند أكبر وأنفع للناس، وأفضلها الأبيض، وقد تعبدها أهل الهند، وهو يحب سائسه محبة كبيرة، ويقال: إن فيلاً قتل سائسه ولكن أظهر أسفه بعد ذلك وشدة حزنه، وقد كانت الفيلة للحرب قديماً، أما الآن فهي للفخر أو حمل الأثقال العظيمة، ويحمل على ظهره من ثلاثة آلاف رطل إلى أربعة آلاف رطل، وعلى خرطومه وحده ألف رطل، ويجر ما لا يكاد يقله ستة أفراس، ويسير في اليوم مائة ميل. انتهى ملخصاً من كتاب «علم الدين».

التذكرة الثانية: في بعض أسرار «ا ل م»

في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة، لك الحمد علمتنا وأنعمت وأنعشت الهمم ورفعت النفوس إلى العلا. هذه «ا ل م» هي السر المصون والجوهر المكنون، هي حياة مستقبل الإسلام، هي من آي سر الأسرار، ومنبع الحكم والأنوار.

الله أكبر. الله أكبر. هذه الحروف في أول «البقرة» بعد سورة «الفاتحة» مفتاح العلوم المخبوءة في القرآن لتظهر وتنتشر في زماننا هذا، نعم هذا زمانها والله حتماً أراد نشرها فعلاً، وهاهو ذا سبحانه ينشرها على كل من استعد لذلك أن ينشر ذلك، وأنا وقراء هذا التفسير من هذه الطبقة التي يحاسبها الله على هذه الأسرار وإظهارها ونشرها، وذلك لتوقظ المسلمين في عصرنا إلى كل ما تركوه، مثل:

(١) أنهم جهل كثير منهم الصفات الخاصة بمن هو الأحق بالملك فجاء في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] تلك الصفة فقال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فضرب بما عدا ذلك عرض الحائط مهما أكثر فريق من المسلمين من الأحاديث الواردة في ذلك بروايات مطعون فيها.

(٢) ومثل أن المتأخرين منهم نسوا أن العفيف هو الذي يغلب عدوه. فأما الشهواني فلا، وهذا هو ما قاله طالوت لجنوده، فمن شربوا من النهر لم يحاربوا، ومن لم يشربوا غلبوا عدوهم مع قلتهم.

(٣) ومثل أن العلوم الطبيعية عليها مدار الرقي في الحياة والبراهين، وهي المذكورة في حيز «ا ل م»: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وذكر في هذا المقام مسألة الحمار وتشريحه، ثم ختم المقال بقوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ومن فطن لحال المسلمين اليوم أيقن بما قلنا، فانظر أليست بلادنا المصرية اليوم قد منيت بانكباب الطبقة الراقية على مآكل وملابس بلاد الفرنجة، ومعنى ذلك أن مالهم يذهب هباء منثوراً، ومعنى هذا أن بعض هذه الطبقة ناقص في عفته، لأن هذا نوع من التبذير، وهو من أضداد العفة، فهذا في حيز «ا ل م» في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] الخ. ولو كان هناك عفة وتضامن لخرج الفرنجة، لأنهم لا يجدون ما يكسبونه، ولكننا الآن لا تزال الامتيازات عندنا. وأهل الهند سبقونا، وهذا هو السر في آية طالوت والجنود وقلة شرب الماء.

أليست بلاد الإسلام اليوم خاوية من العلوم والصناعات إلا قليلاً ـ وقد استيقظوا اليوم ـ أليست مسألة الحمار وتشريحه المتقدمة تحث على العلم والحكمة، وهذا كله في حيز «ا ل م».

أنا لا أطيل في هذا المقام فكفى من القلادة ما أحاط بالعنق، فانظر في جميع سور القرآن تجد: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[الحج: ٦٣] الخ. وتجد: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦]، وتجد: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأعراف: ١٠٠] وهذا راجع لدراسة الأمم التي هلكت.

وأخيراً: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[الفيل: ١]، وهاهنا العجب العجاب، فقد تقدم في سورة «البقرة» في الطبعة الثانية قصة السلطان محمود الغزنوي عند آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾[البقرة: ٢٤٣] مع الخليفة في بغداد، وكيف قال الأول للثاني: إذا لم تشركني معك في خطبة الجمعة وتضرب السكة باسمي لأحملن أنقاض بغداد على الفيلة بعد أن أهدمها حجراً حجراً وأنقلها إلى غزنة، وكيف قال الثاني للأول: «ا ل م»، وكيف حار علماء غزنة، وكيف فهم المقصود القهستاني، وهو أحدهم، وقال: ذلك إشارة إلى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[الفيل: ١] وكيف ارتاع السلطان ولم يفعل شيئاً، وكيف كانت هذه الحكاية ممهدة لما نفعله الآن. فنقول للمسلمين: «ا ل م» في أول «البقرة» تشير إلى ما تكرر منها في عشرات السور، وكل ما في حيزها أو أكثره هو الذي تركه المسلمون الآن، وأنا أقول الآن: إنني إذا عشت وأذن الله بتأليف ملحق للتفسير فلا بد من إيضاح هذا المقام عند الكلام على سر «ا ل م» في أول سورة «البقرة».

وبهذا تم الكلام على سورة «الفيل»، والحمد لله رب العالمين. كتب نصف الليل ليلة الثلاثاء ١٣ يونيو سنة ١٩٣٣م، ٢١ صفر سنة ١٣٥٢هـ.

تفسير سورة قريش
هي مكية
آياتها ٤، نزلت بعد سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ ﴾ الإيلاف: من ألفت الشيء إلفاً، وهو بمعنى الائتلاف، ثم أبدل منها «إيلافهم» ﴿ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ ﴾ إلى اليمن ﴿ وَٱلصَّيْفِ ﴾ إلى الشام، فالله أهلك أصحاب الفيل وجعلهم كالتبن المأكول ليخلو الجو لقريش فيرحلوا رحلتي الشتاء والصيف، ثم يأتون بالميرة ويبتغون من فضل الله الذي لطف بهم وهم في أرض مجدبة لا زرع فيها ولا ضرع، فجعل الشام لها في زمن الحر لأنه للصيف أنسب، وجعل اليمن في زمن الشتاء لأنها بلاد أدفأ، فأصبحت قريش لا يتعرض لها أحد بسوء، وكان الناس يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته، وكانت العرب تكرمهم وتعزهم وتعظمهم لذلك، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف. ثم إن هذا الإعراب يؤيده ما جاء في مصحف أبي بن كعب أنهما فيه سورة واحدة، فلما عدد الله نعمه عليهم من الأمن وسهولة الرزق أمرهم بالشكر فقال: إذا كان هذا كرم الله معهم؛ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ بالرحلتين ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ أي: من خوف أصحاب الفيل، ومن أن يتخطفهم الناس، انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

لقائل أن يقول: ما قصة الطير المذكور ونحن لم نشاهد طيراً على هذا المنوال، فهلا أولناه بشيء يعقله الناس حتى يتفق مع علوم العصر الحاضر؟ أقول: ننظر لمقصد السورة، إنها هي وما بعدها إنّما أنزلتا تذكيراً بالنعيم، أو بكرم الله وفضله على عباده، أرسل طيراً فأهلك قوماً فأنجى بيته وفتح رحلتين للصيف والشتاء، نعم. عددها على عباده وقال: يا عباد فاشكرون. فالمقصود في هذا المقام توجيه الهمم إلى رقي النفوس ودرس النعم المحيطة بنا من كل جانب، فليفكر كل امرئ فيما عنده من

النعم، ولتفكر كل أمة في مرافقها ومنافعها، إن هذه سنة القرآن، ألم تر كيف ذكر في الغزوات حكمها كما تراه موضحاً في سورة «آل عمران» وسورة «الأنفال»، تراه حلل أجزاء الغزوات، فما ترك نعاساً يغشاهم، أو هزيمة انتابتهم، أو غنيمة كسبوها، أو نعمة نالوها، أو غماً اعتراهم، أو مبشراً أتاهم، أو بشارة سمعوها، إلا استخرج منها حكمة واستنتج منها مسألة، كل ذلك لتعليمنا، فوالله ليس كل الناس قريشاً، ولا كل مكان بيت الله، فللناس أمكنة وأرزاق. فليوجه خطباء كل أمة عقول أبنائها إلى ما لديهم من النعم حتى ترتقي العقول وتتهذب النفوس.

بقي أن يقال: ولكن الطير المذكور غير معقول، أقول: يا عجبا! أليس هذا ديننا، أوليس في القرآن قصص كلها من الخوارق للعادات، فهناك عصا موسى وناقة صالح وإحياء الموتى على يد عيسى، كل هذه خوارق للعادات، فليس ينبغي للعلماء أن يضيعوا وقت المسلمين في التأويل، فإن تلك الخوارق والقصص جيء بها لنتائجها، وهي العبرة، فلنعتبر نحن بما لدينا من النعم، ومن لم يفهم النعم التي أنعم الله بها عليه فرت منه وذهبت، فليشكر الناس نعم الله عليهم.

جوهرة في معنى قريش

قريش هو ولد النضر بن كنانة، منقول من تصغير قرش، والقرش دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فشبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، وصغر الاسم للتعظيم.

موازنة هذه السورة بسورة التكاثر

إن سورة «التكاثر» تتضمن شكر العبد على كل نعمة، فهو محاسب على ماله، وعلى علمه، وعلى قوته، وعلى جاهه، وعلى كل ما هو منعم به عليه، فهذا تذكير ببعض النعم الظاهرة للناس، ليتوجهوا إلى ربهم ويدرسوا نظمه ويعرفوا نعمه فيعبدوه، فالتكاثر لجميع النعم، وهذه لنعم خاصة.

انتهى تفسير سورة «قريش»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الماعون
مكية الثلاث الآيات الأول،مدنية البقية
آياتها ٧، نزلت بعد سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾

ملخص هذه السورة: (١) ذم الذي يكذب بالدين. (٢) ويدفع اليتيم دفعاً عنيفاً. (٣) ولا يطعم المسكين، ولا يأمر أهله ولا غيرهم بإطعامه. (٤) وإذا صلى يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة. (٥) وهذا الفريق إذا عملوا صالحاً أرادوا به ثناء الناس عليهم. (٦) وهم يمنعون الزكاة وكل ما يتعاور بين الناس من القدر والدلو والماء والنار والملح ونحوها.

وفي مقابلة ذلك أمر صلى الله عليه وسلم أن يصلي في سورة «الكوثر» الصلاة خالصاً لوجهه تعالى لا كأولئك المرائين، بل تكون صلاته شكراً له تعالى، وأمر أن ينحر البدن. وهي خيار أموال العرب. ويتصدق على المحاويج لا كأولئك الذين يمنعون الماعون، فهاتان الخصلتان في مقابلة مجموع الخصال في السورة قبلها. انتهى.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ استفهام معناه التعجيب، ﴿ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ بالجزاء أو الإسلام، ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ يدفعه بعنف كأبي جهل، كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه. وهكذا أبو سفيان سأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه وهكذا غيره، والكلام لا يختص بأحد، ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أهله ولا غيرهم ﴿ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ لعدم اعتقاده بالجزاء. والدع وعدم الحض مرتبان على التكذيب بالدين كما هو مقتضى النظم. ثم قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ غافلون غير مبالين بها إما بتركها وإما بالغفلة عن ذكر الله مكتفين بظواهر الفرائض ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ يرون الناس أعمالهم طلباً للثناء ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ الزكاة أو ما يتعاور في العادة مما ذكر آنفاً. انتهى تفسير سورة «الماعون»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر
هي مكية
آياتها ٣، نزلت بعد سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ جاء في صحيح البخاري عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة. فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه.

أقول: وعلى ذلك تدخل النبوة والكتاب والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود والمقام المحمود وكثرة الأتباع، والإسلام وإظهاره على الأديان كلها، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح. وكل ذلك قال به علماء ومن ذلك: «الكوثر نهر في الجنة»، قال صلى الله عليه وسلم: «وعدنيه ربي عز وجل خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء».

وللبخاري: أن النهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وأن جبريل قال له: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه مسك. وورد أيضاً أنه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وفيه طير أعناقها كأعناق الجزور. وهذه وحدها للترمذي.

وللترمذي: «إن حافتيه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج». وقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أي: قدم على الصلاة خالصاً لوجه الله ولا تكن كذلك الساهي عنها المرائي فيها. وذلك لتقوم بشكر ربك. فإن الصلاة جامعة لكثير من أقسام الشكر. ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ البدن، وبعضهم يفسر الصلاة بصلاة العيد، والنحر بالتضحية، ولا دليل يخص الآية بذلك، وإنما يقول الله: يا محمد صل مخلصاً لربك مخالفاً لهم لجهالتهم، وإذا منعوا هم الماعون من قدر أو فأس من الأمور المعتادة الصغيرة فقدم أعز أموالك للناس وهي البدن، وانحرها لهم في العيد وفي غير العيد. ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي: من أبغضك لبغضه لك ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ الذي لا عقب له، فلا يبقى له نسل ولا حسن ذكر. وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة. على أن الذكر الحقيقي إنّما يكون بالعلم والآثار الصالحة.

قيل: إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة. انتهى تفسير سورة «الكوثر».

تفسير سورة الكافرون

هي مكية

آياتها ٦، نزلت بعد سورة الماعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ (٤) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (٥) لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ الخ يقال: إن هذه السورة نزلت في رهط من قريش منهم العاص ابن وائل والوليد بن المغيرة وغيرهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون، فقالوا له: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فلما أبى قالوا: استلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، قال: حتى أنظر ما يأتي من ربي، فأنزل الله هذه السورة، فغدا صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام فقام على رؤوسهم وقرأها. فيئسوا منه وآذوه، فناداهم بصيغة الكفر قائلاً: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ أي: لست الآن عابداً ما تعبدون ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ ﴾ الآن ﴿ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ وهو الله ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ ولا أعبد في مستقبل الزمان ما عبدتم من الأصنام ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ ﴾ في المستقبل ﴿ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ وذكر الله بلفظ «ما» ليتقابل اللفظان، ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه. فلكم شرككم ولي توحيدي، ويفسر الدين بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة. انتهى تفسير سورة «الكافرون».

تفسير سورة النصر
نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية
وهي آخر ما نزل من السور
آياتها ٣، نزلت بعد سورة التوبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

مقدمة

هذه السورة تسمى سورة التوديع أيضاً. ويقال: إن عمر لما سمعها بكى وقال: الكمال دليل الزوال. وروي: «أن العباس لما قرأها بكى، فقال عليه الصلاة والسلام: ما يبكيك؟ فقال: نعيت إليك نفسك، فقال: إنها لكما تقول». وإنّما ذلك لأنها فيها تمام الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة: ٣]. وجاء في رواية البخاري ومسلم: «أن عمر رضي الله عنه سأل أشياخ بدر فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ قال: قلت لا. قال: فما هو؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه. فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم». وهكذا نظير هذا في حديث عائشة رواية الشيخين. وفي رواية أنها قالت: إنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر القول من: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. وقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثر من قول: سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه. فقد رأيتها: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ أي: فتح مكة وإظهاره إياك على أعدائك، وفي ذكر المجيء ما يشير إلى ترقبه، وأنه آت لا شك فيه بدليل التعبير بـ«إذا»، لأن «إذا» للتحقيق بخلاف «إن».
﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ جماعات عظيمة كأهل مكة والطائف واليمن

وهوازن وسائر قبائل العرب، أي: وأبصرت الناس حال كونهم داخلين في دين الله أفواجاً ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فإنك حينئذ لاحق به، وقل: سبحان الله وبحمده، أو فصلّ لأن الصلاة تجمع بين الحمد والتسبيح، وقد كان صلى الله عليه وسلم بعد ظهور تلك العلامة يكثر من ذلك في الصلاة وفي غيرها كما رأيت، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ لمن استغفره. اهـ.

تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما

الكوثر والنصر

اقتربت سورة «الكوثر» من سورة «النصر» ليس بينهما إلا ما يثبت الرابطة بينهما، إن الخير الكثير، والعلم الغزير، والحكمة القويمة، والآيات الباهرة، والعلوم الظاهرة المدرجة في معنى الكوثر يتبعها النصر. ويكنفها الفوز والفلاح، ولكن يعوزها التنائي عن الشرك والجهالة والغواية، لذلك تخلل بين السورتين البراءة من رجس الجهالة والكفر والعصيان.

هذا ملخص السور الثلاث، والذي سبب لي أن أعيد الكرة بعد تمام تفسير هذه السور ما جاش بخاطري وملأ فؤادي وشرح صدري وآنس قلبي وملأه حبوراً وسروراً من الحكمة البهية والعلوم القرآنية والسعادة القدسية للأمم الإسلامية في مستقبل الأيام، ذلك أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة، فإننا نحن الوارثون، ولا بفتح مكة ونصر جيشها، فلكم سيأتي من فتوح وهل مضى بعد النبوة إلا ألف سنة وثلاث مئين؟ وهل هذا يقال له عمر دين من الأديان! دين أنزله الله ليعمر في الأرض، فهو لا يزال اليوم في أول حياته، فإن ألف سنة وعشرة آلاف لا يقال لها شيئاً مذكوراً في عمر الديانات.

ألم تر إلى دين النصارى وهو دين حديث جداً مضى له ألفان، ودين اليهود مضى له فوق ثلاثة آلاف ونصف ألف سنة، ودين البراهمة مضى له عشرات الألوف، ودين «الفيدا» بالهند يزيد عن مائة ألف سنة، ولم يعلموا من أين جاءهم ومتى جاءهم هذا الدين، ولسنا الآن في مقام الكلام على الحق والباطل منها، ولكنا نتكلم في طبيعة الديانات وأعمارها، وإذا عمر الدين الباطل فما بالك بالحق، وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب وورثة النبي الذي جاء منا صلى الله عليه وسلم ولغتنا في مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا هي لغة القرآن؛ فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها خوفاً من أهل زمانهم، ولكنا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، وقسطها من الإصلاح، وتقوم بمساعدة الإنسانية، وتكون رحمة للعالمين.

وصف الكوثر

أبين في هذا المقام وصف الكوثر من الأحاديث الصحيحة، ثم أتبعه بما فيها من المعاني العجيبة لأمة الإسلام في مستقبل الزمان، وكيف يكون الكوثر يتبعه النصر والفتح إن شاء الله تعالى، فهاك وصفه مع حسن تفصيل، وما تقدم هناك إجمال.

إن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، طينته مسك أذفر، ماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل، حافتاه من ذهب، مجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، شاطئاه در مجوف.

وصف كيزانه وطيره ونحو ذلك

« آنيته عدد نجوم السماء، فيه طير أعناقه كأعناق الجزور، وفي رواية: كيزانه كنجوم السماء، من شرب منها لا يظمأ أبداً، وزواياه سواء، فيه أباريق كنجوم السماء، من ورده فشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها إلا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة ».

وصف الشاربين

في حديث مسلم: « قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم. لكم سيماً ليست لأحد غيركم، تردون علي غرًّا محجلين من آثار الوضوء، ليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إلي، فأقول: يا رب هؤلاء من أصحابي. فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟ ».

وفي حديث البخاري ومسلم: « يرد علي يوم القيامة رهطان من أصحابي، أو قال: من أمتي، فيجلون عن الحوض، فأقول: رب أصحابي، فيقول: لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ».

هذا ملخص ما جاء في الحوض من رواية البخاري أو مسلم أو هما معاً، إن الشيخين قد قابلت الأمة روايتهما بالقبول. ولقد لخصت ذلك وحذفت المكرر، وربما كررت الكلمة مرتين لفائدة كزيادة معنى أو أفعل تفضيل أو نحو ذلك، وهاأنت ذا أيها الذكي عرفت وصف الحوض المورود، وعرفت الحافتين، وتصورت اللؤلؤ والياقوت والمسك، وماءه الأبيض وحلاوته العسلية، وعرفت عدد كيزانه والواردين عليه، وأن منهم من يطردون، ومنهم من يشربون، والشاربون يعرفون بآثار الوضوء وأنهم يكونوا غرًّا محجلين.

هذا ملخص ما ذكر هنا، وجاء في رواية أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: « ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد علي الحوض ». قال العلماء: إنه لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور، وإنّما ضربه مثلاً لأكثر العدد المعروف للسامعين. اهـ.

إذا عرفت هذا فاصغ لما أتلو عليك من نبأ هذه الأحاديث وأسرارها. اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون. كم أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا، ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة وصورة مفرحة وبهجة وجمال، ولا نزال نرى كل أمة حاضرة كفائتة جميعهم يصفون ما يريدون من الجمال والحكمة والعلم ورقي الأمة بهيئة تسر الجمهور، ومن قرأ كتاب « كليلة ودمنة » الذي لم تخل منه مدرسة من مدارس العالم الشرقي والغربي في الوقت الحاضر إلا لها حظ من قراءته.

أقول: من قرأ هذا الكتاب عرف مقدرة « بيدبا » الفيلسوف الهندي، وكيف جاء بالسياسة ونظام المدنية والعلوم الاجتماعية في قوالب المحادثات الحيوانية، فتارة يجعله في هيئة محاورة بين ثور وأسد. وتارة بين حمامة وغراب. وسلحفاة وفأرة، وآونة بين أم عرس وناسك وامرأته، وهكذا مما سر العامة بظاهره الطلي الجميل. وعلم الحكماء والعلماء بباطنه القويم.

إذا عرفت هذا فانظر إلى أحاديث الحوض واعجب من حكمة أهملها أهلها . وعلوم حجبت ، ونظم غطيت . وكواكب عميت ، وشموس غابت ، وأقمار أفلت . ولكن لا تحزن .

وللنجم بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوع

هاهو ذا الله أذن بطلوع شمس هذه العلوم ، هاهو ذا أذن اليوم بارتقاء أمة الإسلام ، هاهو ذا يريد لإصلاح الأمم الشرقية بظهور العلوم في الأمم الإسلامية .

اعلم أن هذا التعبير النبوي ليس له نظير أيها الذكي ، انظر لقد اطلعت على صور العلوم في هذا العالم الإنساني ، فلم أر مثل هذه الصور العلمية ، هذا دين جاء إلى أمم ، فماذا فعل الله به؟ ألهم نبيه وعلمه وأعطاه هذه الصور والمعاني وأمره بإبرازها للناس ، ولا جرم أن أكثر الناس جهلاء ، لأن عالمنا الأرضي عالم متأخر قصير النظر ، ليس له من العلم إلا ما وقع تحت حواسه ، وهذه أوروبا التي يقولون إنها راقية الجمهور منها عبد لحواسه ، هذه حقيقة أهل الأرض ، والنبي أرسل لهم . فماذا يصنع؟ أنزل الله على قلبه هذا النور الذي يسر العامة ويسر الخاصة معاً ، ولكن ليس ذلك كما في « كليلة ودمنة » الذي يفرح به الجهال ، ولكن الحكماء يرون الباطن هو المقصود والظاهر منبوذ ، لأن البهائم لا تتكلم بداهة . كلا . ثم كلا . بل هنا ظاهر القول حق وباطنه حق ، وهذا بيت القصيد .

الجاهل يسمع الدر والياقوت وشراباً أحلى من العسل فيفرح ويعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التي تقر بها عينه ، وهذا الجاهل أكثر أهل هذه الأرض ، والعالم ينظر فيقول : إن هذا القول وراءه حكمة وراءه علم ، لأنني أرى من خلال القول عجائب ، فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء؟ وأي دخل لنجوم السماء هنا؟ ولماذا عبر به؟ ثم يقول : لماذا ذكر أن الذين يردون الحوض يكونون عليهم آثار الوضوء ، ولماذا خص الوضوء مع أن الإيمان والصلاة وأعمال الإسلام كثيرة؟ وأين الجهاد؟ هذا أيضاً أمر آخر . ثم يقول : لماذا ذكر أن عدد الآنية يكون أكثر من نجوم السماء إلا في الليلة المظلمة المصحية وحدها ، ولماذا هذه المحافظة كلها على عدد نجوم السماء؟ إذن يقول : لا لا ، الحق أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يريد أمرين : أمراً واضحاً جلياً يفرح به جميع الناس ، وأمراً يختص بالقواد والعظماء ، إن النبوة بأمر الله ، والله جعل في أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع ، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر ، وحكماء يستخرجون علوماً ، وكل لا يعرف إلا علمه ، فالطبيب يشارك الفلاح في أنه يأكل ، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية . هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء في أنهم يفهمون الحوض كما فهموه ويردونه معهم كما يردونه ، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها فماذا يقولون؟ يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم يريد معاني أرقى إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فليس الماء الذي هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج كل شيء هناك ، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها ، وأي شيء عدد نجوم السماء ، ولماذا خصصت النجوم بالعدد والوضوء بالأثر؟ والذي نقوله : إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره فما المسك الأذفر ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت ، ولا حلاوة العسل التي في الماء ولا اتساع ذلك الحوض ؛ إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج ، العذبة المشارب ، السارة للناظرين .

إن هذه الأحاديث جاءت لترقية الأمة الإسلامية بأن يردوا حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم، فالحوض رمز للعلم، والعلم علمان: علم بأحوال الأرض، وعلم بغيرها، ولا جرم أنه لا عالم أمامنا إلا نجوم السماء، ونجوم السماء على حسب العلم المنتشر في الأرض اليوم لا عدد لها، فقد بلغت مئات الملايين، وقال علماء هذا الفن كما نقلناه سابقاً: إنها لا حصر لها، وكيف يقول صلى الله عليه وسلم: إن عدد الآنية أكثر إلا في الليلة المظلمة المصحية، أي: فإذا كان في الليلة المصحية، أي: في الوقت الذي يمكن فيه ظهور النجوم وكشفها، فإن عدد الآنية يكون عدد النجوم، وقد عرفت أن النجوم لا عدد لها، ومعلوم أن علم الله لا عدد له، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وفي حديث الخضر وموسى عليهما السلام ما يفيد أن علم الناس كله ما هو إلا كما أخذ منقار الطائر من ماء البحر، فأما ذكر الوضوء والذين يشربون من الحوض متوضئون وآثار الوضوء جعلتهم غرًّا محجلين فهو رمز إلى طهارة النفس، فالمتدين لن يصل إلى حقائق العلوم إلا بأمرين: طهارة نفسه من الأخلاق الرديئة، وجده في طلب العلم، فهؤلاء الذين وردوا الحوض ظهرت آثار الأعمال الظاهرة في أخلاقهم فصفت نفوسهم فاستعدوا للشرب من مناهل العلم الذي لا حصر له، فعلم الله لا حد له، ورقي المتعلمين لا حد له، والدليل على أن هذا هو المقصود أنه ذكر آثار الوضوء ليدلنا أن المدار في العبادات أن يكون أثرها في النفس، أي: إن الناس لا فضيلة في عباداتهم إلا إذا ظهرت آثارها في نفوسهم بطهارتها من الأخلاق الذميمة.

وهذه الأحاديث تشير إلى أن هذه الأمة سينبع منها أناس لا نظير لهم ستطهر نفوسهم ويكرعون من موارد العلوم الشريفة، وهم يمتازون عن علماء الأمم بخاصية، وهي أن حوض العلم الذي يشربون منه هو حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى هذا أنهم يدرسون العلوم التي بثها الله في هذه الدنيا ولا نهاية لها، ويعرفون هذه الكواكب ويدرسونها، ولا يذرون شيئاً مما خلق الله إلا عرفوه على مقدار طاقاتهم، ولكن يقرؤون تلك العلوم باعتبار أنها من آثار جمال الله، فيصبحون خلفاء الله في الأرض، وتكون دراسة علم الفلك والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان إلى آخره دراسة للدين الإسلامي، فالقرآن يطلب هذه العلوم كلها، وكل العلوم يطلبها القرآن، فمن قرأ الفلك باعتبار أنه آثار جمال الله فقد ورد بعض حوض رسول الله، ومن درس النبات والطب والتشريح، أو عجائب النمل أو النحل أو نحو ذلك باعتبار أنها من آثار جمال الله فقد شرب من حوض رسول الله، ومن درس تشريح النبات وعجائب تركيبه والعناصر الداخلة فيه باعتبار أن هذا من بدائع حكم الله ونظامه العجيب فقد شرب من حوض رسول الله، ومن قرأ جغرافية الشمس، أو جغرافية القمر، أو جغرافية جري الأرض حول الشمس أو نظام كسوف الشمس، أو عجائب خسوف القمر فقد ورد الحوض على رسول الله، ومعنى وروده الحوض أنه قد تأهل إلى وروده عليه.

هذا هو سر حديث الحوض، حديث الحوض يدلنا على أن هذه الأمة سيطول أمدها، وأن القرون التي مضت قليلة جداً، وستتوالى أمم وأجيال يدركون ما نقول، وستكون لهم دول وحكماء

وعظماء يردون الحوض ويشربون، ومبدأ ذلك العلم في هذه الحياة، فهل رأيت حكمة أبدع من هذه في كتب العلماء والبلغاء؟ كلا ثم كلا.

وانظر كيف يقول: إن هذا الحوض يبعد عنه أناس هم مسلمون، ولكن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم: هل تدري ما أحدثوا من بعدك؟ ويقال: فإذا كان الذين يشربون من الحوض طهرت نفوسهم من الغل والحقد واستعدوا للعلم وسعوا له، وقد عبر عن السعي إلى العلم بالسعي للشرب من الحوض، فهكذا أولئك الذين يطردون من الحوض هم الذين قلوبهم لم تستعد للعلم وهم لم يسعوا له، لأن القلوب لا تطهر إلا بأعمال صالحة وترك للشر، وهناك تنشرح للعلم وتسعى له، وهؤلاء المطرودون أحدثوا بعد رسول الله بدعاً كثيرة، تراهم متفرقين متواكلين مبتعدين فيطردون عن الحوض. هذا بعض سر الكلام في الحوض المورود.

ففز بعلم تعش حياً به أبـداً النـاس موتى وأهل العلم أحياء

وإذا أردت أن تعرف هذا من علوم البلاغة، فهو من باب الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، فلازم المعنى هنا أن العلم لا نهاية له، وأن من شرب من الحوض لم يظمأ، لأنه فتح له باب العلم. والنفوس الإنسانية أبداً تظمأ إلى معرفة الحقائق، وهذا حوض العلم والمعرفة والأسرار، به تنال النفوس ما به تستعد في الحياة وفي الممات، فظاهر اللفظ مقصود وباطن المعنى مقصود كقول الخنساء:

** طويل النجاد رفيع العماد **

تريد أن حمالة السيف طويلة، ويلزم ذلك أن يكون هو طويلاً وبيته مرتفع العماد ويلزم ذلك أن يكون هو سيداً للملازمة بينهما، وهذا أرقى من كتاب «كليلة ودمنة» الذي ظاهره باطل وإن كان محبوباً وباطنه هو المقصود للحكماء. أما هنا فالظاهر والباطن مقصودان.

ولعمري إن أحاديث الحوض وقول بعض الصحابة: إن الكوثر الخير الكثير، وما أشبه ذلك مما تقدم؛ ليشوقن الناس إلى علوم الأولين والآخرين، وليجمعن علوم السماء ونجومها، والأرض وأممها، والسياسات ونظمها، ما دام القارئ يعلم أن ذلك من حكمة الله وآثار جماله، والمسلم الذي يبث هذه الحكمة وينشرها بين المسلمين هو الذي جعل خليفة لنبيه، يرقي أبناء جنسه، ويسعى لإسعادهم وإرشادهم، وهاهنا يكون النصر، ولا يكون إلا بعد أن يتجافى الناس عن أفعال الملحدين والكافرين، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة «الكافرون».

هاهنا يكون نصر الله والفتح، ويدخل الناس في هذه العلوم الحقيقية أفواجاً، وعلى حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم على الجهل في العالم الإنساني وأصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم رحمة للعالمين، متى رأى العلماء ذلك، فليعلموا أن هذا هو النصر في زماننا وهو الفتح، وإذن فعلى القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه، ويفرحوا باستقبال الموت، ليردوا الحوض على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليعلم حكماء الإسلام أن المسلمين لن يقوموا بترقية

نوع الإنسان إلا إذا شربوا من الحوض بالمعنى الذي فهمناه. أما الآن فإن المسلمين قلت علومهم وسيكثر فيهم المفكرون العارفون القارئون للعلوم الناشرون لها بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله من كتب المفكرين في هذا الزمان.

إن ظاهر الحوض للجهال فلهم ظواهر العبادات، ولهم في الجنة ظواهر هذه اللذات من مسك أذفر ودر وجوهر وعسل مصفى، هذه كلها موجودة يتمتع بها الجهال والعلماء، وباطنه للحكماء والعلماء الذين يدرسون هذا الدين، أي: يدرسون نظام الله فيقفون على فنون الجمال، ويرون لذات متفننات لا حصر لها. أما لذات الجهال فمحصورة في الحواس في دنياهم وآخرتهم، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١]. انتهى.

فصل في الكلام على المقصود من هذه السور الثلاث وترتيبها وما المقصود من سورة النصر خاصة؟ زيادة إيضاح لما سبق

لقد علمت الكوثر وسره والمقصود منه، واستبان لك ما فيه من علم ينشر وحكمة تذكر. وأن الأمم الإسلامية سترد في مستقبل الزمان حوض العلوم والمعارف، وتغترف من كوثرها شراباً أبيض طعمه كالعسل دلالة على اللذات العلمية التي سيتحلى بها المسلمون بعد الموت ويوم القيامة، ولن تكون اللذة هناك إلا بعد أن تذاق في الدنيا، وذكرنا هناك أيضاً أن لكل في الآخرة ما يوازي طبعه، ويلائم منهجه، ويناسب مشربه، فذوو العقول النائمة والنفوس الصغيرة لا ينالون من الكوثر إلا ظواهره، ففي الدنيا والآخرة لا يعرفون إلا اللذات الحسية، ولا يدركون من الدين إلا الأمور الظاهرية فإذا صلوا فإنهم غافلون، وإذا صاموا فإنهم ساهون، وإذا حجوا فإنهم هائمون لا يدرون ما يفعلون، فهؤلاء بعد الموت لا يعطيهم الله سر خليقته، ولا يطلعهم على محاسن حكمته، بل يذرهم على اللذة الحسية عاكفين، وعن جوار ربهم محرومين إلا في فترات قليلة، فلكل امرئ في الجنة لذات على مقدار استعداده، وذلك الاستعداد مبدؤه في الحياة الدنيا، هذه المعاني بعض ما جاء في سورة «الكوثر». ولا ريب أن النعم في هذه الحياة الدنيا لا تنال إلا بعد الصبر والتعب والنصب والكدح والجد، ولم يرسل الله نبياً أو مصلحاً في الأرض إلا سلط عليه ما يؤلمه من عدو مقيم، وصديق لئيم أو مرض أليم.

ألا إنّما العلوم مزارع تنبت في النفوس الإنسانية، وكما أن الأرض لا يحسن زرعها ولا يغزر ثمره فيها إلا إذا قلبت تقليباً وحرثت وعزقت وجعل ظاهرها باطنها وباطنها ظاهرها ليتخلل الهواء وضوء الشمس تربتها ويحللان أجزاءها، إذ ذاك يحسن زرعها ويتم نضجه على أحسن منوال، هكذا لا نبوة ولا إصلاح ولا أنبياء ولا مصلحين إلا بعد أن تهذب الحوادث والآلام نفوس الأنبياء والمصلحين وكلما ازدادت الآلام ازدادوا تجارب وعلماً واستأهلوا للإكرام، فجنات العلوم والعرفان كجنات النخل والرمان، وكلاهما لا رقي له ولا حسن فيه ولا جمال إلا بتقليب مغرسه وإعداده بحوادث وأعمال، لذلك جاءت سورة «الكافرون» بعد «الكوثر» كأنه يقال: إن النعم الكوثرية للأمم المحمدية لا تكون إلا مع الأهوال ومعاداة الأقران، فإذا تبرأ صلى الله عليه وسلم من الكافرين

وعبادتهم وأصبحوا معه على شقاق مع أنه أعطي الخير الكثير ؛ هكذا كل أمة وكل عالم وكل مصلح لا وجود لهم إلا والحوادث ترقيهم ، والأيام تؤلمهم ، والأعداء بالمرصاد يكشرون عن ناب ، وكلما ازداد الأعداء قوة ازداد الإصلاح كمالاً ، وعلى مقدار الإصلاح تكون العداوات ، فإذا قهر العدو وتمت النعم هنالك يكون النصر ، ولذلك جاءت سورة « النصر » بعد ذلك ، فالنصر حتم للمصلحين بعد إيذاء الأعداء لهم وصبرهم ، ولكن النصر يعقبه في العادة فرح ، والفرح من شأنه أن يحدث في النفوس بطراً وإعجاباً وتيهاً وغروراً ، لأن الإنسان حينذاك ينسى أن كل نصر فهو من الله ، ويخيل له أنه نال كل مناه وأن ذلك بقوته واجتهاده ، وفي الفرح أيضاً مرض جسمي ، فكل حزن وكل فرح ضار بالجسم الإنساني لا سيما المعدة ، فإنها تتأثر بما يخرج عن العادة كطعام حار شديد الحرارة ، أو بارد شديد البرودة ، هكذا بالغم والهم ، وبالفرح تتأثر المعدة والجسم ، وكثيراً ما سمعناه أن من اشتد فرحه أو اشتد حزنه قد مات ، فهذا كله دليل على ما للفرح من الآثار في النفوس ، فالفرح إن كثر وطفا يكون أشبه بشرب المسكر ، فالفرح مذموم لوجوه ، لأنه يضر بالجسم إذا أفرط ، وبالمعدة وبالأخلاق ، وبهذا يفهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[القصص : ٧٦] ، وذلك في قصة قارون ، فإذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[النصر : ١-٣] ؛ فإنّما يقوله تعليماً لنا وتهذيباً لنفوسنا .

يقول الله لنا الآن : إذ ظفرتم بنوالكم وفزتم بمطلوبكم وقهرتم أعداءكم وسلطتم عليهم ؛ فاحذروا من الفرح بل دعوا هذه العوارض وارجعوا إلى ربكم بالاستغفار والحمد ، لأن الفرح مضر بالروح ، ومضر بالجسم ومضر بالخلق ، واذكروا قولي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[القصص : ٧٦] ، فإن ما فرحتم به ليس من عملكم بل هو من عملي وتقديري ، ألم أقل في كتابي : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾[الحج : ٧٠] ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[الحديد : ٢٢-٢٣] ، نهانا الله بهذا عن كل فرح كما نهانا عن كل حزن ، فإذا نال العبد فوزه ونصره فليستغفر الله وليحمده ، وليذكر أنه مقصر في شكر هذه النعمة . وبالاستغفار يتوب الله عليه من ذنبه وهو التقصير في الشكر . هذا من أسرار هذه السورة .

نصيحة

فعليك أيها الذكي أن تكون ملازماً للاستغفار والحمد على نعمة النصر ، وهذا حتماً يزيل معالم الغرور والكبرياء والفرح ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[القصص : ٧٦] . وبهذا تم الكلام على سورة « النصر » ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المسد

هي مكية

آياتها ٥، نزلت بعد سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

سبب نزولها

في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤] صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى: يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش حتى اجتمعوا ـ فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا. وروي أنه أخذ حجراً ليرميه به، فنزلت هذه السورة.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ اليدان عبارة عن الجملة، أي: هلك أبو لهب. وهي كنيته، واسمه عبد العزى. والكنية وافقت حاله من حيث دخول النار يوم القيامة، فهذه الجملة دعاء عليه، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿ وَتَبَّ ﴾ وقد حصل ذلك، كما تقول: أخزاه الله، وقد فعل، وفي قراءة مسعود: «وقد تب». ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي: لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه، ومن كسبه ولده، ويروى أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وبولدي. ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي: سيدخل نار ذات اشتعال، وهي جهنم، وقوله: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. أي: سيصلى ناراً هو وامرأته ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ أي: حطب جهنم، لأنها في الدنيا كانت تحمل الأوزار بالسعاية بين الناس والنميمة ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحمل زوجها على إيذائه، وكانت توقد نار الخصومة، أي: حال كونها

حمالة الحطب، ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي: حال كونها في عنقها حبل من الحبال المفتولة فتلاً شديداً سواء أكان ليفاً أو جلداً أو غيرهما، فهذا معنى المسد، وهو ما مسد، أي: فتل، ويقال: رجل ممسود الخلق، أي: مجدوله، فالمعنى أنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، تحقيراً لها وتصويراً بصورة الحطابات لتجزع من ذلك ويجزع زوجها، وهما في بيت العز والشرف. وفي قراءة: « حمالةُ » بالرفع، أي: هي حمالة الحطب، والجملة بعدها خبر ثان.

لطيفة في الدعاية

في هذه السورة مشروعية الإعلان في الجرائد والمجلات وفي المجالس، وذم وتحقير من يكون سبباً في إذلال المسلمين الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهؤلاء يحاربون بسلاحين: سلاح القلم، وسلاح اللسان، ولقد عمت هذه الأمم كلها فاستعملوها للظلم.

وترى ممالك أوروبا إذا أرادت استعباد أمة شرقية نشرت في الجرائد أخبار السوء عنها لتمهد لملكها، فانظر كيف أباح هذا الإسلام للذب عن الدين، وأباحته أوروبا لظلم الأمم، فعلى المسلمين أن تكون لهم جرائد تذب عنهم، وتحفظ سمعتهم، وتذكر سوء أفعال أعدائهم، ليفهموا الرأي العام مقاصدهم الشريفة، وأعمالهم النافعة، وهذه هي المسماة دعاية. انتهى تفسير سورة « المسد »، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الإخلاص
هي مكية
آياتها ٤، نزلت بعد سورة الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

مقدمة

عن أبي كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.

وقال ابن عباس: إن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد؟ قال: إلى الله. قال: صفه لنا، أم من ذهب هو أم من فضة، أم من حديد أم من خشب.

وروي نحو ذلك اليهود وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: صف لنا ربك، لعلنا نؤمن لك، فإن الله تعالى أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب. وممن ورث الربوبية ولمن يورثها. فنزلت هذه السورة.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هو يعني الذي سألتموني عنه وعن وصفه، الله هو أحد، لأن العقلاء جميعاً وأهل الملل اتفقوا على إله، ولم يبق إلا البحث عن أكثر منه، فما زاد عن الواحد مشكوك فيه يحتاج لدليل، فهذا برهان الوحدانية، والوحدانية ظاهر أثرها في العوالم، إذ العوالم كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، فهي كجسم في روح، فالعالم نظام محكم تدبره قوة واحدة، والقوي بذلك هو الله، والألوهية مجمع صفات الكمال، والوحدانية مجمع صفات الجلال. فالألوهية بها يفاض الخير على المخلوقين، والوحدة بها التفرد بالعظمة والحكمة والعلم والعزة والاستكبار.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ والصمد إما الذي لا جوف فيه، وإما السيد المصمود إليه في الحوائج، من: صمد إليه، إذا قصد له، وإذا كان الله لا جوف له فهو لا يلد ولا يولد، لأن كل ما لا جوف له ولا ولد

له ولا والد كالأحجار، والله منزه عن المادة وعن جوفها، وإذا كان هو المصمود إليه الذي هو المستغني عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه محتاج إليه؛ فهو لا يحتاج للولد. لأن الولد إنّما جعل ليعين الوالد، وهو غني عن المعين، فقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لأنه ليس من الجنس الذي يقبل ذلك، وهو جنس الحيوان إذ لا جوف له لأنه منزه عن المادة التي فيها هذه الأوصاف، أو لأنه متعال مستغن باق ليس يحتاج إلى ولد يخلفه أو يعينه. وكذلك يقال في قوله: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فكما لا يحتاج إلى ولد لا يحتاج إلى والد، إذ لا أول له ولا آخر، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي: ولم يكن أحد يكافئه، أي: يماثله كالصاحبة والولد. انتهى التفسير اللفظي.

تذكرة

جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٤ مارس سنة ١٩٣١م مقال ملخصه: إن الإسلام مرفوع الرأس في جميع الأقطار الآن في الولايات المتحدة وكولومبيا وشيكاغو. وقد صورت هناك صورة جماعة من الأمريكان وعددهم أربعة، ولما سئلوا عن سبب إسلامهم أجابوا بأنهم قرؤوا ترجمة القرآن فأدهشتهم سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾، وهي التي جعلتهم يسرعون إلى المحكمة الشرعية ليثبتوا إيمانهم بها. والمقال مطول. وعسى أن نكتبه في الملحق إن شاء الله تعالى.

انتهى تفسير سورة «الإخلاص»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الفلق
هي مكية
آياتها ٥، نزلت بعد سورة الفيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ أمتنع وأستعيذ برب الصبح أو المخلوقات، لأن الفلق ما يفلق عنه، أي: يفرق عنه، ولا جرم أن كل مخلوق فلق الله ظلمة عدمه بنور إيجاده كما فلق ظلام الليل بنور الصباح، ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: من شر الذي خلقه أو مخلوقه، فيشمل الكفر والظلم والمرض وكل ضار.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ليل شديد الظلمة دخل في كل شيء، وذلك لكثرة المضار فيه. وفي المثل: الليل أخفى للويل.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ ومن شر الجماعات السواحر التي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، أي: ينفخن مع ريق، وتخصيص ذلك لما روي أنه صلى الله عليه وسلم سحره يهودي في إحدى عشرة عقدة في وتر وضعه في بئر فظهر أثره في رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرض، فنزلت المعوذتان، وأخبره جبريل عليه السلام بموضع السحر، فأرسل صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه فقرأهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة، ثم إنه لم يكن ذلك قدحاً فيه حتى يقال: إنه مسحور، كما قال الكافرون، بل هم أرادوا أنه مجنون بواسطة السحر، وهذا نوع من المرض لا تأثير فيه على العقل.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الحاسد: هو الذي يتمنى زوال نعمة الغير، فإذا سعى بالفعل لإزالة النعمة فقد أظهر الحسد. فلذلك أمر الله بالتعوذ منه، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من شر كل مخلوق، وخص هذه الثلاثة بالذكر، لأن ضررها أشد، وختمها بالحسد لأن الحسد فاش في جميع بني آدم، لا سيما فيمن جمعتهم جامعة نسب أو علم أو صناعة، فهذه صفة لا يخلو منها غالباً،

وإنّما خص الحاسد بإظهار حسده لأنه إذا لم يظهره ولم يعمل بمقتضاه فلا ضرر يعود منه إلا على نفسه بالحزن والغم للنعم المفاضة على غيره.

ولقد ورد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المعوذتين: ما تعوذ الناس بأفضل منهما. ومثله في النسائي عن جابر.

صفة السحر

هو عبارة عن جف الطلعة، أي: وعاء طلع النخل قد وضعت فيه مشاطة من رأسه صلى الله عليه وسلم وأسنان من مشطه، وكان هناك وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وكان مغروزاً بالإبر، وهاتان السورتان إحدى عشرة آية انحلت بكل آية عقدة. «الفلق» خمس آيات. وسورة «الناس» ست آيات.

ويقال: إنه صلى الله عليه وسلم اشتد عليه السحر ثلاث ليال، ولما انحلت العقد كلها قام كأنّما نشط من عقال.

الرقيا

في صحيح مسلم: «أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد اشتكيت. قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك». اهـ.

تحقيق

لقد أنكرت طائفة هذه الأحاديث وجعلوها تحط بقدر النبوة، وأن السحر الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يصنع الشيء وهو لم يصنعه مخالف للحقيقة من وجهين.

أولاً: كيف يسحر النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهذا يوقع الريب في الشريعة.

وثانياً: أن السحر لا حقيقة له.

ورد ذلك آخرون قائلين: هذا السحر لم يتصل إلا بأمور عادية. فهي من نوع المرض، والأنبياء مثلنا أكلاً وشرباً ونوماً ويقظة وصحة ومرضاً، فإذا جوزنا نومهم فلنجوز سائر الأعراض، وهذا من المرض الجائز على الناس، ولم يتعد ضرره إلى العقل والوحي.

ويقول هؤلاء: إن تأثير النفوس بطريق النفث وبلوغ الأثر قد يكون ولكنه قليل جداً، وهذه الآيات والأحاديث تفيد أمرين: آثار النفوس على طريق الإضرار، وآثارها على طريق الإصلاح. فلبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم آثاره الإضرار. والتعوذ بالمعوذتين كان أثره الشفاء.

العلم الحديث وهذه المسألة

إن العلوم الروحية وظهورها في العالم الآن قد أفادت الناس فوائد روحية كثيرة، فقد ذكروا أن بعض الأرواح تعين الأحياء، وذلك لأن الإنسان له شيء يسمى السائل المغناطيسي، وهذا السائل تمزجه الروح بسائل عندها يشبهه أشبه بالكهرباء والمغناطيس ونحوهما، ومتى مزجت سائلها بسائل الحي عادت فوائد كثيرة من شفاء أمراض، ومن إحداث أعمال، كظهور أنوار، وتحريك موائد، ورفع

الكراسي، وزلزلة المنازل، وهذه الأعمال إن كانت من أرواح شريرة كانت للإضرار. أو للسخرية من الأحياء. وإن كانت من أرواح خيرة كانت للتعليم وإفادة الأحياء. ولقد جاء في كتب الأرواح ما لا حصر له في هذا الموضوع، وهذا العلم منتشر في جميع أصقاع أوروبا وأمريكا، فإذن تكون هاتان السورتان من عجائب القرآن.

فإن ما ظهر في علم الأرواح يشبه أن يكون معجزة للقرآن. وإلا فكيف يذاع هذا العلم. وفوق ذلك كيف يقوم الأطباء اليوم ويأمرون المرضى بأن يوجهوا نفوسهم إلى اعتقاد أنهم أصحاء. وقد عملوا تجارب كثيرة لذلك، ومنهم من يأمر المريض أن يكرر كل يوم في نفسه هذه الجملة عدة دقائق: « أنا لا مرض فِيّ، أنا صحيح الجسم »، أو نحو ذلك، فلا تمضي أيام حتى يشفى، وخص بعض الأطباء هذا بالأمراض العصبية، وبعضهم عممه، وقد عملت تجربة لتأثير النفس، وذلك أنهم جاؤوا بمن حكم عليه بالإعدام وربطوا عينيه، وأوهموه أنهم قد قطعوا رأسه، فأنزلوا ماء حاراً على رقبته وأوهموه أنه الدم فمات في الحال، وهكذا تجارب من هذا القبيل وهذا دليل على آثار النفس.

وفي التنويم المغناطيسي في هذا المقام ما لا يتناهى، وهو يمثل على المراسح، فإنك متى أنمت إنساناً في أي درجة من درجاته فإنك تجد أثراً ظاهراً، فترى المنوِّم ـ بالكسر ـ متى أمر المنوَّم بأمر؛ حدث ما أمره فيه، وذلك بمجرد اعتقاده، فاعتقاد المنوَّم ـ بالفتح ـ يحدث الأثر فيه من حزن وفرح وقوة وضعف، لأن روحه تفرغت قواها كلها لإحداث الآثار في نفس جسمها لأنها خاضعة لإشارة المنوم، وهذا العمل مستفيض عند كل من زاوله، فتوجيه النفس لآثارها معلوم مستفيض، والحب والبغض آثارهما في النفوس ظاهر، حتى إن من توجه قلبه لإنسان بالمحبة أحس ذلك الإنسان لا محالة بذلك الحب وانتبه له، وهكذا في حال البغض.

هذا ما عن لي في هذا المقام، وبهذا تم الكلام على سورة « الفلق »، والحمد لله رب العالمين.

كتب في ٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية.

تفسير سورة الناس

هي مكية

آياتها ٦، نزلت بعد سورة الفلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: مربيهم ومصلحهم ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ معبودهم ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ﴾ أي: الشيطان ذي الوسوسة، وهي الصوت الخفي ﴿ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ أي: الذي عادته أن يخنس، والخنوس: التأخر، وذلك أن الشيطان إذا ذكر الله خنس وولى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه، وقوله: ﴿ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ صفة ثانية للوسواس. وقوله: ﴿ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ بيان للذي يوسوس، فإذن الشيطان ذو الوسواس قسمان: جني، وإنسي. قال تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ ﴾[الأنعام: ١١٢].

ثم إن سورة «الفلق» مبدوءة بذكر رب الفلق، وهم الخلق كلهم كما تقدم، أو الصبح الذي به تظهر الأنوار وتزول الظلمات ويتجلى كل شيء للأبصار، فالذي أزال الظلمة بالنور قادر أن يذهب شر خلقه كلهم، لا سيما الثلاثة المذكورة، وهاهنا ابتدأ بأنه رب الناس، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغوائهم ووسوستهم للإضلال، فكل سورة بدئت بما يناسب ما يستعاذ منه فيها عموماً وخصوصاً.

عجائب سورة الفلق والناس

وأسرارهما من العلوم الحديثة الروحانية في أوروبا

اعلم أن هذا القرآن جاء لتعليم الأمم على مدى الأزمان، فكم فيه من آية يقرؤها الناس ولا يجسرون أن يبحثوا عن حقائقها، ذلك لما وقر في النفوس أن ذلك فوق طاقة البشر، مع أن القرآن لو لم يكن في طاقة البشر فهمه ما أنزل إلينا، نعم الناس يختلفون في الفهم، ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٧٦]، فللناس من القرآن ومن هذا الكون ما تسعه عقولهم، فهاك ما عثرت عليه من القديم والحديث في سر هاتين السورتين فأقول:

اعلم أن الأرواح الإنسانية المجردة من المادة بعد موتها، والتي هي ملابسة المادة في الحياة لها خواص كما للعقاقير الطبية وكما للنبات، وكما أن لكل نبات طعماً ولوناً ورائحة سواء أدركها الإنسان والحيوان أم لا؛ هكذا لكل روح خاصية لا يشاركها فيها سواها، وهذه الخاصية يعبر عنها عند علماء الأرواح بالسائل المغناطيسي، وهذا السائل شيء لا نعرفه نحن على الأرض إلا بآثاره. والآثار قسمان: قسم في داخل أجسامنا، وقسم في الخارج، فإذا تصورنا صوراً رديئة، أو آراء خبيثة، أو اتصفنا بصفات محزنة كالرياء والكبر والحسد والبخل والعجب والكراهة وعدم حب الخير للناس؛ كان من ذلك سوائل تشع من أرواحنا، وتلك السوائل تؤثر أثرين: أثراً في نفوسنا، وأثراً في الخارج. أما الذي في نفوسنا فإن تلك الصور تضايقنا وتؤذينا بالكدر والغم، ولو كشف الحجاب للناس واطلعوا على تلك الصور لرموا صاحبها بأقبح الذم. ولتركوه وحيداً فريداً، وهذه الصور هي أنفسها التي تظهر فينا بعد الموت فتجعلنا في خجل وألم وافتضاح، وهو المعبر عنه بعذاب الخزي الذي أجمع المفسرون أنه أشد من عذاب النار، وأما الأثر الذي في الخارج فأقله ما تتأثر به المجالس التي تكون فيها، فإن هذه الصور والسوائل الناجمة عنها يحس بها الجلساء الصالحون فينفرون ويكرهون تلك المجالس، ويقوم كل امرئ مقبوض الصدر من المجلس، وذلك لعدم الائتلاف واختلاف الوجهة والأغراض، فأقل الأضرار منها إيذاء الذين يجالسوننا، وفوق ذلك الإصابة بالعين فما هي إلا رمية من نفس شريرة شديدة الإيذاء فيخرج منها ذلك السائل السام فيؤذي المعيون كما يتراشق الناس بالسهام والحراب ويقتل بعضهم بعضاً، وأقواهم سلاحاً أقتلهم لغيره، وما السحر إلا قوة من تلك القوى الشريرة كمنت في النفوس، ويمكن استخراجها بالمران، والمران هو الأعمال السحرية حتى تألف النفس الشر فتصيب به إصابة كإصابة العين. هذا وصف الأنفس الشريرة.

الأنفس الفاضلة

ويعكس هذه الأنفس أنفس أخرى خلقت للخير، لأن القاعدة واحدة، الله واحد والعالم كله مخلوق زوجين ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩]، فالأنفس زوجان: زوج هو للشر، وزج هو للخير، فهذه النفس الخيرة تنبعث منها أشعة مفرحة سارة، فأما في داخلها فتكون صوراً جميلة، حتى إذا مات الإنسان كانت له زينة وجمالاً وبهجة لا نتصورها الآن. وأما في خارج الأجسام فإنها تؤثر في الهواء المحيط بها وفي عالم الأثير، وتشرق على النفوس المحيطة بها فتنتعش وتسر وتفرح، وذلك ظاهر في المجالس التي فيها نفوس صالحة طيبة تعظ الناس بألفاظ جميلة بشرط أن يكون القلب حاضراً، إذ لا تأثير إلا لتلك الأشعة الخارجة من القلوب الجميلة، وهذه السوائل كما تؤثر في أجسامها صحة وسروراً تؤثر فيمن حولها، ولا فرق في ذلك بين الأرواح التي خرجت من أجسامها وأحاطت بالناس في كل مكان، والأرواح التي هي في الأجسام الآن، لأنه ثبت أن أرواح الأحياء وإن كانت محبوسة الآن ليست قاصرة على أجسامها بل لها آثار فيمن حولها، لأن الناس جميعاً بينهم صلة وهم لا يشعرون إلا قليلاً. ثم إن هذه النفوس الصالحة تحدث آثاراً صالحة في الشفاء، وذلك أن الجراثيم الطيبة المنتشرة منها إذا صحبتها الإرادة ووجهت إلى مريض فإن المغناطيسية تخرج من هذه النفس

الشريفة وتتجه إلى النفس المريضة وتحلل ما فيها من جراثيم المرض وتضع فيها بدلها جراثيم الصحة، وذلك إما حالاً وهو نادر جداً، وإما ببطء وهو الأهم الأكثر، وذلك الفعل أشبه بالكهربائية فتخرج عناصر الشفاء من يد الصالح كما تخرج الكهرباء وتحتاج إلى زمن حتى تتم فعلها، ولكن ليس هذا في كل مرض ولا لكل إنسان، بل هو خاصة طبيعية لا خارقة للعادة، تظهر في أناس وتختفي في أغلب الناس، وهناك عوامل في ظهورها مثل نية هذه النفس الصالحة وقوة إرادتها وانفعال النفس التي تريد شفاءها، وهكذا أحوال وشروط أخرى لا يعلم الإنسان تفصيلها، ويذكر علماء الأرواح أن في الناس في عصرنا الحاضر من يستطيعون شفاء المريض بمجرد وضع اليد، وذلك لكثرة ممارستهم وقوة إرادتهم كما روت المجلات الروحانية عن رجل وقف حياته على شفاء الناس، فإنه يصنع بين شعوب الجزائر ما تعجز عنه الأطباء وقد بالغوا حتى قالوا: إنه أزال الله على يديه نيفاً وعشرة آلاف بياضة في العين، وهو لا يأخذ أجرة على ذلك، هذا كلامهم، ونحن لا نصدق ولا نكذب، وإنّما نكتب هذا لبيان رأي النوع الإنساني الذي يناسب هاتين السورتين.

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأنبياء وجميع المصلحين يبتلون بأعداء. ولما كان الإنسان مركباً من جوهرين مادي وروحاني ابتلي الأنبياء والمصلحون بأعداء ماديين بحرب وأذى وذم، وأعداء روحانيين بأن يريدوا إصابتهم بالعين، أو بقوة الإرادة، وهو المسمى سحراً، أو ما أشبه ذلك، وهذا كله لم يخرج عن كونه قوة في النفس كامنة شريرة لإيقاع الأذى إذا أمكن، فكما غلب الأعداء الماديين بالحجة والعلم والسيف وقهرهم هكذا يجوز أن يسلط عليه الحاسد والمنافق والعائن الذي يرمي بالسائل الضار، وهكذا الساحر الذي يخرج منه هذا السائل بالتمرين والإرادة، فإذن أصبح العلم واضحاً كل الإيضاح، ولا فرق بين سيال خارج من النفس لإيذاء الجليس باختلاف المشارب والعين التي تصيب بعمل الشر والسحر، فكل هذه من واد واحد، فكراهتك لعمرو وبغضك له ومخالفتك لآرائه وعدم الالتئام معه مبدأ شر من النفس يؤذي الجليس وإن لم يتخذ يداً ولا لساناً، وفوق ذلك الإصابة بالعين، وهكذا السحر الذي يرجع لقوة إرادة الشر بواسطة أعمال تعين على ذلك، وهذه القوى كلها تطيح أمام النفوس الشريفة فلا أثر لها، وكما يغلب الأنبياء المحاربين بالسيف يغلبون المحاربين حرباً نفسياً، ولا يكون ذلك إلا بتوجه النفوس الشريفة لدفع الأذى عنها إذا أصابها.

واعلم أن أذى النفوس الإنسانية التي على وجه الأرض بالتوجه للشر أصبحت اليوم ناراً على علم.

إن إصابة النفوس الشريرة هي التي ضربت الشرق، فإن أوروبا سلطت النفوس الشريرة على أهل الشرق فأصابوهم وكبلوهم وأناموهم، ولعلك تقول: لقد دخلنا في علم الخرافات، فأين السحر وأين الإصابة بالعين لأمم الشرق اليوم؟ أقول: على رسلك وانظر معي، أتظن أن أهل الشرق ناموا وجهلوا من غير شيء؟ ألم تر إلى جرائد أوروبا وإلى مصنوعاتها ودعاياتها التي ملأت الخافقين، ألم تر أن أهل أوروبا يرسلون طلائع من المبشرين بالدين المسيحي، ويجوسون خلال الديار، ويذمون في الدين الإسلامي، ألم تر أنهم يعيشون أن هذا العصر ليس عصر الأديان، ألم تر أنهم مثلوا الشرق

بالمصنوعات حتى خلبوا عقول الشرقيين، ثم سلطوا المدافع عليهم، ألم تر أنهم ينشرون لغاتهم ومقصدهم منها جذب قلوب الناس إلى حضاراتهم، حتى إذا تمكنوا منهم قتلوهم، ألم تر أنهم فتحوا مدارس في الشام وحببوا إليهم بعض النفوس حتى كانت الحرب الكبرى، وكان حب فرنسا قد تمكن في القلوب، حتى إذا ملكت سلطت عليهم النار الحامية والذلة والإهانة، كل ذلك نوع من السحر، فالسحر ليس قاصراً على توجيه الهمة، فإن توجيه الهمة نادر الفعل. فأما تسليط اللسان والقلم فإن القلوب تنفعل انفعالاً شديداً، وقد قدمنا في سورة «البقرة» أن من أنواع السحر ما يكون بالألفاظ، وهو ما تستعمله أوروبا الآن، فالآثار التي تقع في القلوب إذن على قسمين: قسم عام وهو الدعاية الأوروبية الآن، ونظيرها ما كان يفعله أبو لهب، فنزلت السورة إسقاطاً لدعوته وذمه، وهذا هو الدواء الشافي من سقام العدو الذي سلط لسانه وقلمه، فنرسل في العالم دعوة لصد تياره ولا نسكت، وقسم خاص وهو ما يكون بتوجيه النفوس الشريرة، وهذا أمره أسهل فقد كشفته الروحانية الحديثة وجاء به القرآن في سورة «الفلق» و«الناس». ودواء ذلك الالتجاء إلى الله تعالى، لأن الناس ليس في استطاعتهم ما هو فوق ذلك، لو أن الأمة الإسلامية لما سمعت أن أوروبا تنشر في الشرق مدح أممها وذم الشرق ودينه سكتت وقالت: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[الفلق: ١-٥]؛ لخسرت الدنيا والآخرة، لأن هذا غرور لم يقل به القرآن، فالقرآن قابل دعاية الشر بدعاية الخير. وذم أبا لهب كما ذم هو النبي صلى الله عليه وسلم. فإذا سمع الشرق ذم الغربي له ونشر فضائله هو ثم سكت وقال توكلت على الله فهو مغرور جهول، لأن التوكل لا معنى له إلا أخذ الحيطة في كل شيء على مقدار الطاقة البشرية. ونكل ما فوق طاقتنا إلى الله، وهذا هو السر في ذكر سورة «المسد» وسورة «الإخلاص».

يقول الله لنا: إذا رأيتم الأعداء ينشرون الدعاية لهم ويعادونكم فقابلوهم بالمثل، فلا يفل الحديد إلا الحديد. وهذا مقصود سورة «المسد»، ثم جاءت بعدها سورة «الإخلاص» لنثق بأمر الله ناصرنا متى قمنا بعملنا خير قيام، فأما ما لا قوة على دفعه بيد كما في سورة «النصر» ولا بلسان ولا قلم كما في سورة ا«لمسد»؛ فلا ندفعه إلا بالاستعانة بالله وبالرقيا المذكورة في السورتين التي جاء بصدقها العلم الحديث.

أفلا ترى بعد هذا أن ما يقوله الإمام الغزالي في الإحياء منطبقاً على ما قلناه إنه جعل أن الذين يرقون ويتكلمون عن الرقيا غير متوكلين على الله. بل هم مخرفون، وله الحق لأن الرقيا إذا أعيتنا الحيل. فأما ما كان له دواء معروف مقبول مظنون النتيجة فلنستعمل دواءه. ثم إن الرقيا ليست تنفع من كل أحد، وإنّما هم قوم يقل وجودهم، وبهذا عرفت الحقيقة فالزم.

ويؤيد ما ذكرته هنا ما ذكره الشيخ أبو بكر المعروف بابن القيم الجوزية في كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، وإنّما أذكره هنا لتعلم كيف يتفق القدماء والمحدثون على ما فصلناه في هذا المقام، إذ ترى آراء هذا العلامة هي بعينها آراء علماء الأرواح في العصر الحاضر، وإني أحمد الله عز وجل إذ أفاض من بحار العلم على الأمم الإسلامية والأمم الإنسانية حتى طابقت جميعها القرآن.

وهذا ملخص ما يقوله ذلك العلامة: جاء في أول الكتاب المذكور ما ملخصه: إنه قد جاء في صحيح البخاري: «أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء». وفي حديث مسلم نحوه، وهكذا في مسند الإمام أحمد، واستثنى منها الهرم، ثم عمم الشيخ الداء فجعله يشمل الداء الجسمي والداء الروحي، والقرآن شفاء لداء الجهل.

وذكر أيضاً ما ثبت في الصحيحين أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعل عندهم شيئاً ينفع. فلما كلموهم قال بعضهم: أنا أرقي، ولكن يكون ذلك بجعل، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم، فطفق يتفل ويقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، فكأنما نشط من عقال، فأعطوهم ما صالحوهم عليه، ثم توقف هؤلاء النفر في هذا القطيع حتى رجعوا للنبي صلى الله عليه وسلم، فذكروا له ذلك، فقال: وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً. انتهى الحديث ملخصاً.

ثم ذكر ابن القيم ما يوافق ما قاله علماء الأرواح، فشرط أن يكون الذي يرقي حاضر الهمة، وأن المرقى يكون فيه قبول لذلك. ثم تكلم عن الدعاء فقال: إنه يدفع المكروه، إذا كان الداعي حاضر القلب متوجه الهمة فتكون الدعوة كالسهم القوي القاصد مرماه، ويشترط أن لا يأكل الداعي حراماً، وألا يدعو بما هو غير جائز، وأيضاً يجب أن يوقن الداعي بالإجابة كما ورد في صحيح الحاكم.

ملخص ما ذكرناه هنا عن علماء الأرواح مع زيادة

(١) إن النفوس سواء أكانت في أجسامها أم مجردة عنها لها خواص متعددة.

(٢) تشع منها أشعة أشبه بالمغناطيس أو الكهرباء فيما يحيط بها من الأثير.

(٣) وهذه الأشعة مختلفة كاختلاف روائح النبات وألوانه، ومنابعها العطف والخوف والحب والغضب وأمثالها، ونتائجها البسط والقبض والجذب وما أشبه ذلك.

(٤) والفكرة يظهر أثرها في الخارج إما بالسيف والعصا، وإما باللسان، وإما بآثار جارية في نفس الأثير، فللأول الحرب وإقامة الحجة، وإليه الإشارة بسورة «النصر»، وللثاني إذاعة الفكرة بإعلان الحق كما في سورة «المسد»، وللثالث التوجه إلى الله بالدعوات، وإليه جاء سورة «الفلق» وسورة «الناس».

(٥) والقسم الثالث المذكور، هو الذي يكون بمجرد الأرواح بلا مساعدة من لسان أو يد، شبهوه بما نراه من الطين أو السفنج إذا أحاط به الماء، وبالأجسام الصلبة التي لا يجد الماء سبيلاً إلى ولوجها، فالأرواح الإنسانية والأرواح التي فارقت أجسادها تملأ الأثير، وكل من شاكلها تشرب بمشربها، وهو المعبر عنه وسوسة أو إلهاماً، وهذا الأمر أشبه بما نرى من وقوع الذباب على الجسم القذر، فللمناسبة تم ذلك، ومتى نظف الجسم لم يقع عليه الذباب، فعقولنا على هذا النمط يؤثر فيها من يكون من أمثالها، وهذا التأثير طبيعي بحيث لا يمكن رده متى تمت المناسبة، وهذا التأثير قسمان:

الأول: تأثير بالضرر كما تقدم في العين وإصابتها والنفوس وانقباضها وتأثير المرض.

والثاني : تأثير بالآراء الضارة والوسوسة ، وللأول سورة « الفلق » ، وللثاني سورة « الناس » .

هذا ملخص هذا المقام الذي جمع فيه العلم القديم والعلم الحديث والقرآن ، فهل لك أن أذكر لك حادثة جاءت في الجرائد المصرية في هذا المقام نقلاً عن بريد أوروبا ، وهذا نصها :

علاج النفس بواسطة الإرادة

نقلاً عن جريدة الديلي كرونيكيل

لست من دعاة التنويم المغناطيسي
اعتقد أنك مشلول تكن مشلولاً ،
واعتقد العكس تكن العكس « كو »

المسيو « كو » أستاذ فرنسي برع في تطبيق نظرية طبية كانت ولا تزال منتشرة في إنجلترا وأمريكا ولها أنصار ودعاة ، غير أن الأستاذ الفرنسي المذكور له الزعامة عليهم جميعاً ، وربما رجع ذلك إلى أنه تلوح عليه سيماء الناسك الذي يروض إرادته ، فتراه تنبعث من لهجته جاذبية سحرية ، هذه النظرية تتلخص في أن أي إنسان كائناً من كان في استطاعته أن يتخذ من إرادته دواء لكل داء ، وإن كان سواه يزعم أن الإرادة قد تستخدم في مقاومة سريان عدوى الحميات ومنع الالتهابات ، وهو يعتقد بإمكان تطبيق هذه النظرية على جزء من الأمراض بشرط أن تكون هذه الأمراض غير عضوية ، وإلا فإنها خارجة عن دائرة فاعلية الإرادة ، ولكن الجماهير التي تعود أن يلقي عليها المحاضرات ويجرب أمامها التجارب تعزو إليه ما يعزى إلى الرسل والقديسين .

ألقى الأستاذ « كو » في أواخر شهر مارس الماضي بلندن سلسلة محاضرات تتخللها تجارب ، قال من أجريت فيهم : إنها عادت عليهم بالعافية والصحة أحياناً وبالشعور بالرضى والارتياح والأمل في الشفاء أحياناً أخرى . ومما نصح به الجمهور معلماً إياه كيف يخلق الإنسان من نفسه طبيباً قوله : إن كلًا منكم يجب عليه أن يكرر العبارة الآتية في كل ليلة . وفي كل نهار عشرين مرة بهدوء وبطء . وهي في كل يوم رغم كل اعتبار ازداد تحسناً .

وقص عليهم حكاية يؤيد بها زعمه . قال : دخل مستشفى « نانسي » في يناير سنة ١٩١٢م صبي يشكو ضعف القلب « الذبحة القلبية » واختناق التنفس . فكان لا يكاد ينقل رجليه المتثاقلتين بضع خطوات حتى يقف ريثما يتنفس ، فأعيى الأطباء ، وخرج في فبراير مثل حالته الأولى ، ثم إني عدته بعد ذلك وأمرته أن يتبع النصيحة السابقة موهماً إياه أنه إن عمل بها شفي بعد يومين ، فلما كان اليوم الثالث عدته فإذا صحته قد تحسنت ، فأمرته أن يتابع علاج نفسه بنفسه ، فما مضت ثلاث أسابيع حتى استطاع أن يمشي دون أن ينقطع تنفسه وأن يصعد السلالم ، ولم يأتي شهر أكتوبر إلا والصبي يلعب كرة القدم ويركب الدراجة ولا يشكو من شيء ، إذ السر هو أنك إن اعتقدت أنك مشلول تكن مشلولاً ، واعتقدت العكس تكن العكس .

على أن المهم في أمر المسيو « كو » هو أن الجمهور قد يتوسع في تفسير تعليماته فتكون النتيجة من حيث الصحة الفردية والصحة العامة سيئة ، وعلى كل حال يجدر بالإنسان أن يحقق تجاربه أمام

ضميره أولاً ثم أمام خاصة العلماء ثانياً، فإذا أقروها أو عدلوها أو أنقصوها فليتناولها بعدهم صغار الفنيين لتكون وسيلتهم في خدمة الجمهور. اهـ.

هذه حادثة واحدة من آلاف الحوادث والعلم في أوروبا، ولست أقول: إن هذا الطبيب صادق أو هو كاذب، أنا لست في هذا المقام، إنّما أنا في مقام تحقيق العلم، وكيف جاء علماء العصر الحاضر يقولون: إن قوة الإرادة لها الأثر العظيم في شفاء بعض الأمراض. إذن المعوذتان وجعلهما رقية أمر جاء العلم الحديث يبحث في تحقيقه ويقفو أثره، فإذن يكون ذلك من معجزات القرآن، أو من عجائبه.

فإذا قرأت في حديث البخاري ومسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم ينفث فيهما ثم يقرأ: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

إذا قرأت ذلك فيهما فاعلم أنه إنّما يفعله ليستعذ بالله مما لا قدرة له على دفعه بيد أو بحجة، بل من الأشياء الخفية، وهذا هو عين التوكل كما قدمناه، فالتوكل إنّما يكون باستعمال ما يمكن من أعمال الجوارح في درء الخطر والالتجاء إلى الله، فيما لا قدرة لنا على رده. فأما الخلط بأن نقرأ المعوذتين، أو سورة «يس» مثلاً إذا أحدق العدو بالبلاد، أو كسلنا عن ترقية بلادنا واتكلنا على الله، فهذا هو الجهل الفاضح، وإني أحمد الله إذ استوفي هذا المقام.

إن الإسلام جاء لأمم كثيرة، وهذه السور متممات لأمور أظهرها العلم الحديث، فسبحان من أنزل القرآن وأتى فيه بشيء مبهم أظهره الكشف الحديث، وإلى هنا تم الكلام على سورة «الناس»، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه

كتابة تفسير القرآن المسمى بالجواهر

صباح يوم الثلاثاء ٢١ شهر المحرم سنة ١٣٤٤ هجرية

١١ أغسطس سنة ١٩٢٥ ميلادية بشارع زين العابدين قسم السيدة زينب

بمصر المحروسة

تقاريظ

١ـ تقريظ العلامة عبد الحسين زين الدين القمي

الأستاذ بالجامعة العلمية بقم إيران

سيدنا الأستاذ العلامة فيلسوف الإسلام الشيخ طنطاوي جوهري متع الله المسلمين ببقائه.

تحية وسلاماً: نشكركم جزيل الشكر على ما تقومون به من الواجبات الدينية بنشر الحقائق الإسلامية وإظهارها بمظهر ملائم للعلوم العصرية، فقد كانت الأمة الإسلامية في الأمس وقبل الأمس في أمس الحاجة إلى تفسير يناسب روح العصر، ويكشف الستار عن أسرار القرآن، ويميط اللثام عن محياه، ويفسر غوامض الكون بتفسير الذكر الحكيم، فقد كانت حقائق القرآن رغم ما كتب له من التفاسير لا تزال تختبئ تحت الستار، وكانت التفاسير التي تحوم حول حقائق القرآن إلى التصورات الباطنية أشبه منها إلى الحقائق الاجتماعية والعلمية، وقد انقضى ذلك العهد، فإن بيان كل عصر وزمان نتيجة عوامل تناسب تلك الظروف والأحوال، والمسلمون بحاجة إلى تفسير يحلل قواعده وحقائقه العلمية، إذن فلا غرو إذا كان الإقبال على تفسيركم الشريف عظيماً، فإنكم أنتم المقر والعلم في العلوم الإسلامية والكونية، وقد أخذ هذا التفسير مأخذاً عظيماً من الأهمية في إيران ولا سيما الجامعة العلمية الدينية التي أسست بـ« قم » التي نوهنا عنها في بعض الصحف العربية سابقاً، وقد كانت العلماء والخطباء لا يزالون يشيرون إلي بتقديم وافر تحياتنا وتحياتهم إلى حضرتكم تقديراً لخدمتكم، فضممنا صوتنا إلى صوتهم إقامة لتلك الوظيفة مبتهلين إلى الله عز وجل أن يديم على أرجائكم ظل عناياته وألطافه، ودمتم موفقين لخدمة العلم والدين. وفي الختام نرجو إخباركم بأسهل طريق يمكننا من طلب هذا الكتاب من مصر من حضرتكم، أو من المكتبات، أو من الناشر، وكيفية إيصال الثمن، فنحن بأسرع حاجة إليه، فالأمل الوطيد الإسراع في إرسال الجواب في أول زمان يمكنكم من دون تأخير كي نفتخر بمكتوبكم الشريف، ويسهل لنا السبيل لمطالبة الكتاب مصحوباً بقيمته، كما نرجو تعيين قيمته وتسعيرها بالنقود الإيرانية الحالية، ودمتم.

المخلص

عبد الحسين زين الدين القمي

وقد أجاب المؤلف على ذلك بذكر فضل الأمة الفارسية على أمة الإسلام قديماً، فلا بدع إذا كان الأبناء يحذون حذو الآباء.

وقد توجه إلى مقابلة صاحب السعادة « ميرزا جواد بك خان » الوزير المفوض لدولة إيران مع الأستاذ محيي الدين الكردي، فوجد أنه ـ أي الوزير ـ يشارك علماء إيران في حب التفسير، وذكر أن مقابلته تركت في نفسه أثراً حسناً، وأنه ـ أي الوزير ـ وعد بأنه يساعد أهل بلاده في تسهيل الطريق لوصول التفسير إليهم.

هذا ملخص إجابة المؤلف على هذا الخطاب، والإجابة برمتها مذكورة في كتاب المؤلف المسمى « التاج المرصع »، لخصناها هنا ليتم بها المقام.

٢ ـ تقريظ العلامة هاشم منصور تقي زاده

من علماء تبريز إيران

صاحب المعالي الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري أدام الله أيام إفاضاته السنية بعد تقديم التحية والاحترام، نفتخر أمام أمم العالم بأن تجلى في عالم الإسلام حجة الإسلام الثاني «الغزالي»، وقام من الشرق العربي بمصر المظهر الأكبر لأعظم آثار الفيلسوف الشهير خواجة نصير الدين الطوسي، أعني نابغة الشرق الأستاذ الحكيم والمفسر الجليل الشيخ طنطاوي جوهري أعز الله الإسلام بطول حياته. وبعد أن اطلعنا على التفسير المقدس لحضرتكم العلية «الجواهر»؛ صممنا العزم على ترجمته إلى اللسان الفارسي الجذاب، حتى يطلع المسلمون من أهل إيران على وجود تفسير جامع كبير.

وبهذا ابتدأنا بترجمة تفسير سورة «الفاتحة» المباركة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ونشرنا جزءاً من تلخيص تفسيرها الجلي. وهذان جزءان منها لقد أهديناهما لمقامكم الرفيع ونشكركم على الخدمة المهمة للإسلام مطلقاً في هذا العصر المضيء في الظاهر المظلم في الباطن. لا سيما في الشرق ونلتمس من الله القادر أن يوفقكم لإصلاح الجامعة الإسلامية بإيقاظ علمائها، كما قال أعظم الرجال الأستاذ الكبير السيد جمال الدين الأفغاني: لا يصلح الشرق إلا بعد تيقظ العلماء.

فجزاكم الله عن الإسلام خير الجزاء، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، ومن السعادة أن سلطان الوقت لإيران مولع بنشر المعارف، وناصر للعلماء الناصرين الحقيقيين لدين الإسلام الخالص المنزه عن الخرافات، وقد ألقى حكماً جليلة بتأسيس مدرسة العلوم الدينية العصرية، وأسس صاحب الفخامة وزير المعارف مدرسة عالية في مركز مملكة إيران «طهران» وفي سائر الإيالات، وهذه السنة دورة خامسة لطلاب العلوم الدينية في المدرسة المذكورة. ونحن واثقون من الله بتأييده للحقيقة، ونرجو أن تؤثر نصائحكم وخطبكم البليغة في عالم الإسلام.

وبعد ترجمة تفسير سورة «الفاتحة» المباركة وانتشارها أخذ أحد وعاظنا الكرام وهو الحاج الميرزا علي أكبر الواعظ العزيزي الشهير الناطق الفصيح المندرج اسمه في ختام ترجمة سورة «الفاتحة» تحت عنوان «الاعتذار والامتنان» بتقريظ تفسيركم «الجواهر»، وتحريض المسلمين الحاضرين والغائبين على قراءة الترجمة الفارسية للفاتحة، وقد حسن في نظر الجمهور العام استحسانه وتمجيده تفسيركم، وكان هذا في يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ١٣٥١ هجرية في المسجد الجامع المملوء من جم غفير من الأهالي والأشخاص المحترمة من الأفاضل ورجال المعارف، ولا زال يمجد تفاسيركم على المنبر والمواضع التي تقتضي ذلك، حفظه الله وحفظكم ورزقكم ورزقنا سعادة الدارين، إنه على كل شيء قدير وهو ذو القوة المتين.

المنصور التقي زاده

المترجم للفاتحة على اللسان الفارسي

٧ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٥١هـ.

٣ ـ خطاب العلامة محمد علي العزوي

الأوردبادي من علماء تبريز

سلاماً وثناء وتحية ودعاء :

إلى الحبر البحر الآخذ بمجامع الشرف والفخر، نابغة العصر وعلامة المصر، لا زال آخذاً بناصر الإسلام، وداعياً إلى التؤدة والوئام، حظيت بالنظر إلى مشرفكم الكريم المرسل إلى زميلنا الفاضل البارع المنصور، وما ندبتم إليه من خطة السلام والوئام، واعتناق حقيقة الإسلام، فوجدت عند ذلك ضالتي المنشودة، والغاية التي لم نزل نضرب لها آباط الإبل، ونصحر بها ونصارح بملء الفم وجهد القلم، على كرسي الخطابة، وفوق منضدة الكتابة، بلسان الشعر أو بمنطق النثر، كل ذلك لتوحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم فلعلهم يكونون ألباً على أعدائهم .

هذا وإن أكبر رجل قبلنا يبث دعايتكم، وينشر مبادئكم في حقيقة الإسلام . العالم البارع، الخطيب المدره، والمصقع المفوه، « الحاج مرزا عباسقلي »، نزيل محلة « جرنداب » من تبريز، فإنه لم يبرح يشيد بذكركم، ويهتف بما في تفسيركم على صهوات المنابر منذ لم يكن الكتاب مبثوثاً، ولا تناولته الأيدي بعد، وعلى ذلك طوى الأيام والليالي، وهو خير من يرجى منه الخير في هذه المبادئ الكريمة ومساعيه فيها مشكورة .

ومن تلك المساعي نجم ما نجم من انتشار ذكركم الكريم على الأعواد والمنابر والأندية في ألسنة الخطباء وأفواه الفضلاء، وهو العامل الكبير في طبع ترجمة تفسير سورة « الفاتحة »، وإن له في العلوم التي يجب علمها على العالم اليوم يداً غير قصيرة .

وفي الختام اقبلوا أوفر التحية والسلام .

المخلص

الأقل محمد علي العزوي الأوردبادي

تحريراً في ٢ صفر الخير سنة ١٣٥٣ هجرية

فهرس الجزء الخامس والعشرين من كتاب تفسير الجواهر